شنجول

رواية تاريخية

الطبعة الثانية

محمد محمود النجدي

محمد محمود النحدي

"ضاع حلم الخلافة يا شنجول.. وضاع معه مُلكك، تهدمت الزاهرة .. وذهبت أموالها وكنوزها، ضاع حلم المجد العظيم .. وغدوتُ طريد قرطبة بعد أن كنتُ ملكها! كيف النجاة؟؟ هل ينُجني بكائي؟؟ لن يرفقوا بي .. ولن يشفقوا عليّ! هل أستمر إلى النهاية.. إلى الموت دفاعاً عن المُلك؟؟ هل ستصمد الشرذمة الباقية معي؟!"

كتبنا
KOTOBNA

شنجول

رواية تاريخية

بقلم:
محمد محمود النجدي

مكتبة كُـتُـبـنـا

كُتُبنا
KOTOBNA

شنجول: محمد محمود النجدي

رقم الإيداع: ٢٠٢٢/٢٣٤٧٨
ردمك: ٢-٩٢٠-٩٩٠-٩٧٧-٩٧٨

إن منصة كتبنا للنشر الشخصي غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن آراء المنصة والعاملين فيها.

الحقـوق محفوظـة ولا يسـمح بإعـادة إصدار الكتـاب أو أي جـزء منـه، أو تخزينـه فـي نطـاق اسـتعادة جميـع المعلومـات، أو نقلـه بـأي شـكل مـن الأشـكال بـدون إذن سـابق مـن الناشـر.

وسائل التواصل مع الدار:
الإيميل info@kotobna.net
الموقع https://kotobna.net/en
الفيسبوك
https://www.facebook.com/kotobnabooks/

مقدمة المؤلف

قال لي أستاذي الجليل: "إنَّ أمةً لا تعرف تاريخها هي أمةٌ مصابة بمرض (الزهايمر). هي أمةٌ ستخسر مستقبلها؛ كما غفلتْ عن ماضيها!".

وأُمتنا لها تاريخ عظيم يزخر بصفحات كثيرة مشرقة.. يفخر بها كل امرئٍ منا، وتاريخنا –أيضاً- فيه بعض الصفحات المظلمة كأي أمة؛ لكننا.. لن ننكر هذه الصفحات ولن نمحوها من ذاكرتنا؛ بل.. سنظل نتذاكرها جيلاً بعد جيل؛ لنعيها جيداً، ونتعلم من أخطاء الماضي.. فنُصلح حاضرنا ونهيئ لأبنائنا مستقبل أفضل.

من بين تلك الصفحات المظلمة في تاريخ أمتنا العريقة تأتي: (فتنة الأندلس) كصفحة قاتمة دامية مليئة بأحوال سيئة وأفعال مخزية.. وكذلك فيها بطولات وتضحيات طُمس ذكرها؛ فأردتُ أن أذكر نفسي وإياكم بها.. عسى الله أن يشفينا من داء (الزهايمر)؛ فنعتبر بها في حاضرنا ومستقبلنا.

من هذا المنطلق شرعتُ في كتابة ملحمة: (على ضفاف نهر قرطبة)، وهي مجموعة روايات متصلة، تتناول موضوعاتها هذه الحقبة من تاريخ الأندلس، وهي الفترة من ٣٩٩هـ إلى معركة الزلاقة سنة٤٧٩هـ.. مروراً بفترة ما يسمى بعصر ملوك الطوائف. وهذه الرواية (**شنجول**) هي الرواية الأولى من هذه الملحمة.

أتمنى لك قارئي العزيز قراءة ممتعة ومفيدة.

محمد محمود النجدي

00201004607502

شجرة نسب الخليفة الناصر وأبنائه وأحفاده المذكورين في سياق أحداث الرواية

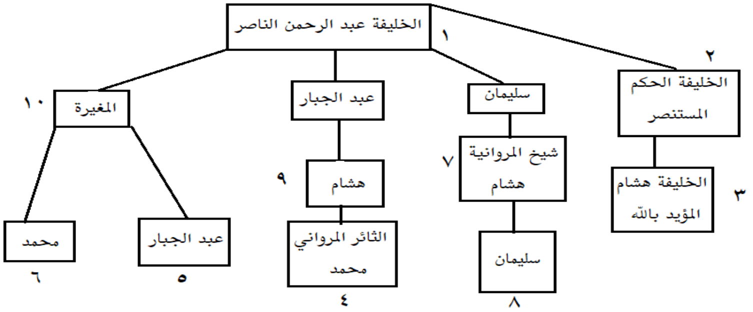

١- هو الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله.. أول خليفة أموي بالأندلس، توفي سنة ٣٥٠ هـ.

٢- الخليفة الحكم المستنصر بالله.. الخليفة الثاني بعد والده.. توفي سنة ٣٦٦هـ.

٣- الخليفة هشام المؤيد بالله.. هو الخليفة الثالث.. تولى الخلافة وهو صبي صغير دون الثانية عشر من عمره، وكان حاجبه هو جعفر المصحفي لفترة قصيرة، ثم الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر لأكثر من ربع قرن، ثم الحاجب المظفر عبد الملك بن الحاجب المنصور.. وبدأت أحداث الرواية في سنة ٣٩٩هـ أواخر عهد الحاجب المظفر.

٤- الثائر المرواني محمد بن هشام بن عبد الجبار.

٥- عبد الجبار بن المغيرة أحد أعوان الثائر المرواني.

٦- محمد بن المغيرة –أخو عبد الجبار السالف الذكر– وأحد أعوان الثائر المرواني.

٧- هشام بن سليمان.. شيخ بني مروان المذكور في أحداث الرواية.

٨- سليمان بن هشام السالف الذكر، وقد اتفق أبوه على التعاون مع الثائر المرواني شريطة أن يتولى ابنه –أي سليمان هذا– ولاية عهد الخليفة بعد نجاح الثورة.

٩- هشام بن عبد الجبار والد الثائر المرواني.. اتهمه الحاجب المظفر بالتآمر عليه مع الوزير عيسى بن سعيد (ابن القطاع)، وسجنه.. فمات في حبسه.

١٠- المغيرة بن الخليفة عبد الرحمن الناصر.. أراد فتيان الخليفة الحكم المستنصر الصقالبة مبايعته بالخلافة فور وفاة المستنصر بدلاً من ولده الصبي هشام –المؤيد بالله بعد ذلك–، لكن جعفر المصحفي ومحمد بن أبي عامر كشفا مؤامرتهم، وتخلصا من المغيرة. وهو والد عبد الجبار ومحمد السابق ذكرهما.

نبذة تاريخية:

الأندلس: هي شبه جزيرة أيبيريا –دولتا أسبانيا والبرتغال اليوم-، يفصلها عن بلاد المغرب العربي مضيق جبل طارق –كان يُطلق عليه قديماً بحر الزقاق-. وهي شبه جزيرة تقع في أقصى الجنوب الغربي لقارة أوربا، يحيط بها البحر المتوسط من الشرق والجنوب الشرقي، ويحيط بها المحيط الأطلنطي من الشمال الغربي والغرب والجنوب الغربي، حدها البري الوحيد والذي يفصلها عن فرنسا –بلاد الفرنجة- هو سلسلة جبال البرينيه (جبال البرتات) التي تقع في شمالها الشرقي.

بدأ الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس سنة ٩٢ هـ -أي في عهد الخلافة الأموية بدمشق- بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير. وانتشر الإسلام في الأندلس مع مرور الأعوام التالية، وكان والي الأندلس المسلم يُعين من قِبل الخليفة الأموي في دمشق؛ لذا فقد سُمي ذاك العصر عند المؤرخين: (عصر الولاة). ثم قام العباسيون بالثورة على الخلافة الأموية وانتقلت الخلافة سنة ١٣٢هـ إلى العباسيين الذين ما انفكوا يُطاردون الأمويين ويفتكون بهم حتى استأصلوهم. إلا أن عبد الرحمن بن معاوية بن الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان –المشهور بعبد الرحمن الداخل- استطاع أن يهرب من مطاردة العباسيين له إلى بلاد البربر بالمغرب –فقد كانت أمه جارية بربرية- ثم دخل الأندلس واستطاع بعد معركة المصارة سنة ١٣٨هـ أن يوحد الأندلس –التي كانت في ذلك الزمان تموج بالحروب الأهلية- تحت قيادته مستقلاً بها عن سطوة العباسيين ليبدأ عصر جديد هو (عصر الأمراء الأمويين بالأندلس) –كما يسميه المؤرخون-. استطاع هذا النابغة الفذ –الذي لقبه أعداؤه العباسيون بصقر قريش- خلال فترة حكمه للأندلس التي امتدتْ حتى وفاته سنة ١٧٢هـ أن يقمع الثورات التي قامت ضده وأن يوحد الأندلس ويعيد بناءها الإداري من جديد ليؤسس لمُلك عظيم توارثه أبناؤه من بعده. وقد جعل قرطبة عاصمة مملكته

وقصبة دولته؛ فاهتم بعمارتها وعمرانها حتى أصبحت في عهده ومن بعده -بحق- مدينة تليق بأن تكون عاصمة لدولة من أرقى دول عصرها. ثم توالى الأمراء من أبنائه على حكم الأندلس إلى سنة ٣٠٠هـ حيث تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المرواني[1]. نشأ عبد الرحمن بن محمد يتيم الأب فرباه جده الأمير عبد الله.. أمير الأندلس في ذلك الحين، واهتم به وبتربيته وتنشئته على الإمارة والاضطلاع بأمور الدولة أيما اهتمام، ثم ولاه عهده؛ فلما مات تقلَّد عبد الرحمن الإمارة وهو مازال ابن بضعة وعشرين عاماً؛ فلم يعترض أحد من أعمامه ولا أعمام أبيه.. بل التف بنو مروان حوله؛ وكان بحق شبيه جده عبد الرحمن الداخل في مهارته ونبوغه؛ فقضى على التمردات الداخلية والمؤامرات الخارجية بحنكة واقتدار، فاستتب له حكم الأندلس واستقرتْ أحوال البلاد.

ولما أصبحتْ الخلافة العباسية السنية في بغداد شديدة الضعف، لدرجة أن انفصل عنها أصحاب المذهب الإسماعيلي الباطني وأعلنوا قيام خلافة فاطمية في بلاد المغرب؛ اضطر عبد الرحمن بن محمد لإعلان نفسه خليفة في الأندلس حرصاً على المذهب السني في مواجهة الشيعة الباطنية، وكان ذلك سنة ٣١٦هـ ليبدأ عهد جديد في الأندلس هو (عهد الخلافة الأموية). فبويع عبد الرحمن بالخلافة وتلقب بالخليفة الناصر لدين الله، واستطاع أن يرتقي بالأندلس حتى أصبحت أقوى دولة في العالم عسكرياً وعلمياً واجتماعياً وعمرانياً، وأصبحت قرطبة في عصره جوهرة العالم ودرته المنيرة، ثم أسس مدينته الخلافية **(الزهراء)** في غرب قرطبة لتكون مدينة خلافية جديدة تليق بمقام الخلافة الأموية بالأندلس. واستمرت خلافته حتى وفاته سنة ٣٥٠هـ فتولى الخلافة بعده ابنه الأكبر الحكم الذي تلقب

---

[1].. نسبه: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط بن الحكم الربضي بن هشام الرضا بن عبد الرحمن الداخل.

بالخليفة المستنصر بالله، كان ساعد أبيه الأيمن؛ فسار على دربه؛ فبلغت الأندلس في عهده قمة الاستقرار والرخاء.

غير أن الخليفة المستنصر لم يُنجب ولده الوحيد هشام إلا سنة ٣٥٤هـ بعد أن تجاوز سنه الخمسين عاماً. فرح الخليفة بولده فرحاً شديداً واحتفلت بميلاده قرطبة والأندلس كلها. أوكل الخليفة تربية ابنه لمحمد بن أبي عامر فكان مربيه ووكيل أعماله، وفي سنة ٣٦٤هـ اعتلتْ صحة الخليفة بشدة حتى أنه ترك التصرف في شئون الدولة لحاجبه وصديقه جعفر المصحفي، وقلَّد ولاية عهده لولده هشام رغم صغر سنه متجاوزاً بذلك جميع إخوته من أبيه الخليفة الناصر. ثم توفي الخليفة المستنصر بالله سنة ٣٦٦هـ؛ فحاول الفتيان الصقالبة تنحية الصبي الصغير هشام عن الخلافة ونقلها لعمه الشاب المغيرة بن عبد الرحمن الناصر. لكن الحاجب جعفر المصحفي تمكن من إفشال مخططهم بمعاونة محمد بن أبي عامر؛ وتمت البيعة للصبي هشام بالخلافة ولمَّا تتجاوز سنه الثانية عشرة، وتلقب بالخليفة المؤيد بالله. ونظراً لحداثة سن الخليفة؛ فقد قام بتدبير أمور الدولة حاجبه جعفر المصحفي يعاونه محمد بن أبي عامر الذي سرعان ما تخلص من المصحفي وانفرد هو بحجابة الخليفة الصبي. مكَّن ابن أبي عامر لنفسه وتخلص من جميع منافسيه حتى استبد بالحكم وأصبح هو المتصرف الأوحد في شئون الأندلس باسم الخليفة المؤيد الذي حجر عليه في قصره وعزله عن الدولة والشعب. لكن كما يُقر المؤرخون.. فقد قام ابن أبي عامر بالأمر خير قيام، وسار على نهج الخليفة الناصر والخليفة المستنصر؛ بل أصبحت الأندلس في عصره أقوى قوة عسكرية في العالم، واستطاعت جيوشه أن تصل في أوربا إلى مناطق لم يصل لها قبله قائد مسلم، واستطاع أن يُحجِّم النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب ويسيطر على معظم أقاليمها. فكان عصره هو أقوى عصور الأندلس على الإطلاق. ولأنه خاض حروباً كثيرة بنفسه لم تهزم له فيها راية فقد لقبه الخليفة المؤيد بالملك

المنصور، فتسمى بسيم الملوك وبنى لنفسه مدينة ملوكية في شرق قرطبة ليُباشر فيها مهام منصبه وشئون الدولة وسماها **الزاهرة** تعريضاً بالزهراء –مدينة الخليفة الناصر-. مات الملك المنصور سنة ٣٩٢هـ؛ فخلفه في منصبه ابنه وساعده الأيمن عبد الملك؛ فسار على درب أبيه في الاستبداد بالحكم دون الخليفة المؤيد والحجر عليه، وكذلك في الجهاد وإدارة شئون الدولة؛ فأصبحت الأندلس في عصره أقوى وأغنى دولة في العالم، وغدت قرطبة هي عاصمة الجمال والعلم والعمران لا تضاهيها إلا بغداد في المشرق، واتسع عمرانها حتى صارت أرباضها أكثر من عشرين ربضاً. ولما كان عبد الملك قائداً عسكرياً شجاعاً فذاً مثل أبيه، ولمَّا توالت انتصاراته معركة بعد أخرى، وعاماً بعد عام؛ فقد لقبه الخليفة بالحاجب (الملك) المظفر بالله مثل ما فعل مع أبيه من قبل؛ فأصبح الحاجب المظفر هو ملك الأندلس والمتصرف الأوحد في شئونها ولمَّا تتجاوز سنه ثلاثة وثلاثين عاماً. واستمر الحال هكذا حتى جاء منتصف شهر صفر من سنة ٣٩٩هـ. وخرج الملك المظفر لغزو أعدائه في شمال الأندلس فبدأتْ أحداث قصتنا هذه!

-المشهد الأول-

أرخى الليل سدوله محاولاً أن يُطبق بظلامه الدامس على دُرة الأندلس المتلألئة.. "قرطبة"، حتى أنه بعث بغيوم السحب واحدة تلو الأخرى لتحجب ضوء القمر الذي كان بدراً في تلك الليلة؛ بعثها لتحول دون مداعبة خيوط نوره الفضية لأمواج نهرها الأعظم (نهر الوادي الكبير) التي استسلمت لنسمات الخريف الباردة تعبث بها كيف تشاء. لكن.. هيهات لم يبلغ الليل غايته، ولم يحقق مراده! فقد أمست مدينة النور تتلألأ بأنوار مصابيح شوارعها، وقناديل قصورها، وشموع دورها، فاستحال ليلها كنهار. ووقفت بإباء تقاوم دجى الليل وهي تحتمي في ظل العروس.. جبلها الشامخ، تطالع البدر في سمائه صائحة به: لا حاجة لي بنورك! بل أنا من أُنير الأرض من حولي. وأمست تخاطب الليل في تحدٍ: لن تستطيع إخافة أهلي، ولا منعهم من سمرهم وحبورهم.. فأنا منيرة بذاتي! مضيئة بنفسي! بل إنَّ أهلي ينتظرونك -أيها الليل البهيم- لينعموا بقناديلي وأنوار ثرياتي في حفلات بهجتهم وصبابتهم بدُورهم المزدانة وقصورهم المزهرة. لا أيها الليل! لن تسكن فيك قصور قرطبة؛ إنما ستُحيِّكَ بالطرب والغناء، وبالشعر والسمر، وستصلك بالنهار ضرباً بالدفوف وعزفاً بالعود.. وبدوران الكؤوس على الندمان. أحد هذه القصور المزهرة: قصر الأمير عبد الرحمن أخي الحاجب المظفر، وابن الحاجب المنصور أبي عامر –رحمه الله–. غير أنه لم يكن في هذه الليلة كبقية قصور قرطبة؛ لم يكن صاخباً مزداناً كعادته، ولم يستعد اليوم لإحياء ليله بالمرح والطرب وغناء القيَّان؛ بل كان خالياً من الندماء. كان ساكناً في صمت وترقب؛ فقد صرف الأمير ندمانه الليلة، وقعد يحتسي كأسه في شرفة القصر المطلة على النهر الكبير ينتظر -بترقب ولهفة- نبأ عظيم!

كان شاباً لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره؛ أفرنجي الملامح بالرغم من كونه ابن ملك عربي؛ فقد كانت أمه أميرة بشكنجية أفرنجية؛ فهي بنت شانجة ملك نافارا في زمنه، وهو يشبه جده لأمه بشدة حتى أنها كانت تناديه شنجول (أي شانجة الصغير) لعظم الشبه بينهما؛ فغلب ذلك الاسم عليه فناداه الناس به.

جلس الأمير عبد الرحمن (أو شنجول كما نادته أمه) يحتسي كأسه؛ وكلما فرغ ملأه، يطالع البدر، ويتأمله بإمعان وهو يكافح أمواج الغمام التي تحاول أن تغرقه لتحجب خيوط نوره الفضي؛ وتمنعها من التراقص على صفحة النهر. أمعن النظر، وأطال التأمل كأنما يخاطب البدر هامساً: سأستحوذ عليك أيها البدر قريباً؛ وسأنتزعك من سماء قرطبة؛ لأضعك جوهرة متلألئة في تاج ملكي! قام من مجلسه، وثبَّت كلتا يديه على جنبات الشرفة، تنشق نفساً عميقاً كأنما يريد حبس نسمات قرطبة العليلة كلها في جوفه، التفت إلى جبل قرطبة الأشم؛ فرآه يلقي بظلاله على قصور قرطبة وأرباضها؛ فألقى إليه نظرة هازئة كأنه يقول: سأخرق الأرض، وسأبلغ هذا الجبل طولاً؛ ولن يجري هذا النهر إلا بإذني. أفاق من نشوة أحلامه الطموحة على صوت خادم يقول: "السيد ابن الرسان يستأذن في الدخول يا سيدي!". فأشار بيده التي تحمل الكأس أن إإذن له. يدخل ابن الرسان: رجل كهل في الأربعين من عمره؛ يبدو قوي البنية على الرغم من بدانته، متوسط القامة، حاسر الرأس، أشمط الشعر، متأنق الثياب.. لكن أهم ما يميزه هو بريق عينيه اللامعتين كعيني ذئب في ظلمة الليل. في تأدب وتوقير يُحيي الأميرَ؛ فيسأله الأميرُ باهتمام: "ماذا وراءك يا ابن الرسان؟". "أبشر يا سيدي ... فقد تم المراد!". "كيف؟!". "كما خططتَ سموك تماماً .... وسيخبرك الرجل بتفاصيل الأمر عندما تقابله". "من قال إني سأقابله أيها الأحمق؟! ...هل يعلم أنني وراء هذا الأمر؟!". "معذرةً يا سيدي .... فقد كان سهلاً عليه أن يُدرك ذلك". يهمس الأمير مغضباً: "يُدرك ماذا أيها الأبله؟ هل جُننتَ! هل يعرفني ذلك الملعون؟". يتلعثم ابن الرسان وهو يجيب في خوف:

"رحماك يا سيدي ... أنا لم أخبره بشيء.. لكنه تحدث معي في الأمر كأنه يعرفك ويعرف أنك أنت الآمر!". يقفز الأمير من مجلسه بينما نار غيظه تكاد تحرق ابن الرسان وهو يجذبه من رأسه: "ألم أجد غيركَ أيها الأحمق الجبان لأكلفه بهذا الأمر؟ أتريد أن تفضحني يا ابن الساقطة؟!". "رحماك يا سيدي.. رحماك! فقد تم كل شيء كما أردتَ؛ لكنه أراد لقاءك؛ فأخفيتُه عندي حتى ترى رأيك فيه. أرسل رأسي يا مولاي.. أرجوك!". يحاول الأمير أن يتمالك نفسه.. يكظم غيظه، بعد تفكير عميق يهمس حانقاً، ضاغطاً بأسنانه على حروف كلماته: "أتعلم! لإنْ أفتضح هذا الأمر أو فشل يا ابن الرسان! لأقتلنك قِتلة تتحدث بها قرطبة أبد الدهر!". "مولاي ... حنانيك يا مولاي ... سيتم كل شيء كما ترغب". "أين هو الآن؟". "أخفيتُه عندي؛ ولم يعلم أحدٌ غيري بخبره؛ هل آتيك به؟". "هل خُبلتَ يا أبله؟! كيف تأتيني به هنا؟! اذهب وآتني به حيث قبو خمرك السري؛ سأُقابلكما هناك؛ واحذر أن يعلم أحد بخبره!".

-المشهد الثاني-

"يا ربي.. أنت أعلم بحالي.. ليس لي ملجأ سواك.. وليس لي ملاذ إلاّك يا ربي؛ ارحم ضعفي وقلة حيلتي.. ونجني من قبضة هذا الديوث: ابن الرسان". كانت هؤلاء الكلمات هن الدعاء التي تدعو به كل ليلة (سلوان) تلك الفتاة الرقيقة الطاهرة ذات الستة عشر ربيعاً؛ وهي تتطلع إلى السماء بوجهها الملائكي الصبوح.. بينما تنهمر عَبرات الوجل والرجاء من عينيها الزرقاوين الهدباوين -اللتين لولا غبشة الدموع لعرف فيهما الرائي المرح والحيوية- فتنساب على صفحة وجهها العاجي المليح. تتوسل بدعائها إلى الله ليُنجيها من قبضة ذاك الغادر الذي حضَّه الطمع في جمالها البراق وشبابها الغض على إخفائها عن أعين الناس -مذ ماتت أمها- في هذا الوكر الخفي بمنزله المتطرف ناحية جبل العروس؛ وقد وَكّل بها رجله الضخم (فرتون)

ورجلين آخرين من فتيانه؛ يحرسون الوكر وما فيه من خمر مكدس للتعتيق في قبوه؛ ثم هذه الفتاة المغلوبة على أمرها: سلوان –ابنة زوجته–. يتحفظ عليها في إحدى الغرف الضيقة بهذا المنزل السري. كفكفتْ دموعها وهي تردد في خاطرها: "لن يجدي البكاء نفعاً.. لابد أن أجد لنفسي مفراً، يجب أن أهرب من هذا المكان قبل أن تنتهي المهلة التي أمهلنيها ذلك الوغد؛ وإلا.. فالموت عندي أشرف مما يريده مني! لكن.. كيف السبيل؟ وكيف الخروج من هذه المحنة؟ يا ربي.. دبر لي أمري!". بينما هي كذلك.. إذ أفزعها صوت حمحمة فرس خارج المنزل؛ وثبت بجزع.. فانحسر خمار رأسها عن خصلات كستنائية اللون حريرية الملمس. توجهت ناحية كوة صغيرة في أعلى جنبات الغرفة؛ وجاهدت في الارتقاء إليها لتراقب من خلالها ما يحدث. نظرت؛ فإذا به قد أتى! "يا ويلتي.. ما أقدمه؟! ماذا يريد مني؟! لم تنتهي المهلة التي أعطاني إياها للتفكير؟ بقي لي يومان! آه.. أيها الفاسق النذل.. أتفعل هذا بي وأنا ربيبتك؟! لقد صدق فيك حدس أمي؛ حين أوصتني –وهي تنازع رمقها الأخير– بالفرار منك، والذهاب إلى عشيرة أبي بأشبيلية". بينما هي كذلك تندب حالها؛ إذ رأت ابن الرسان قد صرف الحراس الثلاثة؛ ثم انصرف خلفهم بحصانه دون أن يدخل المكان أو أن يلتفت إليها. "لقد انصرف السجانون.. لك الحمد يا ربي.. هذه فرصتي للهرب.. عليّ أن أخرج قبل أن يرجع أحدهم". راحت تدور في جنبات الحجرة في سرور وذهول؛ تكاد لا تصدق –من نشوة الفرح– أنها على وشك التحرر من أسرها. ماذا تفعل؟ هل تحمل حاجياتها معها؟ لا.. لا.. ليس ضرورياً أن تأخذ أي شيء.. الوقت ضيق، فقد يعود هذا النذل في أي لحظة أو أحد حراسه.. يكفيها صندوق أمها الذي أوصتها بالحفاظ عليه، وبعدم التفريط فيه. ارتدت برنسها في تعجل؛ وأحكمت ستر نفسها، خرجت من الغرفة بحذر، توجهت إلى الصحن ثم إلى الباب الخارجي. ليس بينها وبين حريتها غير هذا الباب؛ فلتفتحه.. وتهرب. تهرب إلى الحرية.. إلى الشرف.. إلى الحياة الطاهرة السعيدة. ما هذا؟؟! إن الباب موصد

بشدة، تم إقفاله بإحكام. يا للحسرة!! كيف ستخرج؟ كيف ستنجو؟ "يا ربي كن معي.. لا تتركني في قبضة هذا الفاجر!". بينما هي تصارع لفتح رتاج الباب؛ إذا بها تسمع وقع أقدام أمام الباب، وتسمع صوت ابن الرسان ومعه رجل آخر. "يا حسرتي! كيف هذا؟! هل تبدد حلم الحرية هكذا سريعاً!". الباب يُفتح.. هيا.. هلمي.. سارعي في الاختباء. حاولت أن تهرول تجاه غرفتها.. بيد أنها لم تتمكن؛ وحملتها قدماها إلى الدرج الهابط إلى القبو على يسار الباب. تنزل بضعة دركات، وتدفع باباً خشبياً صغيراً، وتدلف مهرولة إلى القبو المظلم. لا تكاد عينها ترى شيئاً.. الظلام مطبق، تشتم للمكان رائحة كريهة.. اشمأزت منها وأشعرتها بالغثيان. حاولت أن تتمالك نفسها.. أطبقت جفونها، حاولت التنفس بعمق كمن تثبت فؤادها وتطرد عنها الجزع. عليها أن تختفي؛ فإذا دخل الوغد مخدعها ولم يجدها؛ ظن أنها هربت؛ ولن يعي أنها تختفي في القبو؛ فيخرج للبحث عنها خارج المنزل.. فتكون ساعتئذ فرصتها للفرار. لكن يُفسد ترتيبها لخطة الهروب صوتُ صرير الباب (باب القبو) وهو يُفتح ببطء، ويُطل منه بصيص ضوء خافت ينبعث من مشعل يحمله ابن الرسان وهو يدلف إلى القبو ومعه الرجل الآخر! "ما هذا؟ تُرى هل يتبعني؟ هل يعلم أنني هنا؟ أتُراه يمكر بي؟!". أبصرت المكان على الضوء الخافت، وسارعت بالاختباء خلف بعض الصناديق الكبيرة التي تملأ المكان. رأت ابن الرسان يثبت المشعل ثم يُجلس الرجلَ على أحد الصناديق مُرحباً به، حاولت أن تدقق في ملامح الرجل الغامض الذي أحست من سماع صوته أنها تعرفه؛ لاحظتْ أمارات الارتياب على وجهه، وهو يسأله: "ما هذا المكان يا صاحبي؟!". " إنه قبو أخبئ فيه الخمر وأعتقها". "لم أكن أعلم أن لك مثل هذا المنزل! إنه بعيد عن دارك التي في قرطبة؟". "هذا أنسب لتعتيق الخمر وحفظه بعيداً عن العيون المتلصصة". "وهل سيأتي الأمير ليلقانا في هذا المكان العطن؟". "أجل.. فهو يريد ذلك زيادة في الحيطة والكتمان". "هلا سقيتنا من خمرك الخندريس هذا؟". "لا ريب.. أنت أهل لها". بادر

إلى أحد الصناديق القريبة حيث تختبأ الفتاة.. لكنه لم يلحظ وجودها؛ أخرج قارورتين.. ثم ناول إحداهما للرجل، واحتضن الأخرى.. ثم جلسا ينهلان من القارورتين بتلذذ. مازالت سلوان تدقق في ملامح الرجل –على الضوء الخافت– محاولةً أن تتذكره، إنها تعرفه.. وتذكر هذه الندبة في وجهه! مرت عليها اللحظاتُ ثقيلة؛ وهي تكتم أنفاسها كيلا يلحظها الرجلان، وقد فهمت من كلماتهما التي تصلها خافتة أنهما ينتظران رجلاً ثالثاً.. وهو أمير!! طال الانتظار -أو هكذا ظنت هي-، ولعبت الخمر برأس الرجل الغامض؛ فبدأ يهذي بكلمات بعضها مفهوم.. وكثير منها مبهم! تفاجأتْ به يخاطب ابن الرسان بجدية –رغم سكره– قائلاً: "أتظن أني لم أفعل؟ بل فعلتُها يا ابن الرسان. وضعتُ السم في شراب الملك المظفر، ولقد صنعتُه بنفسي كما صنعتُ لك –سابقاً- السم الذي سقيتَه زوجتك. لكن سم الملك أسرع مفعولاً وأبعد أثراً". "اخفض صوتك أيها العربيد ... لا يسمعك أحد!". "أ تخشى أن ينكشف سرك؟ أنا لا أخشى أحداً!". كالصاعقة.. وقع القول على مسامعها، وصرختها كادت أن تفضحها لولا أنها كتمت فاها بيدها. نشبت مخالب أبصارها في وجه الرجل مرة أخيرة؛ فتذكرته الآن.. إنه الطبيب الذي كان يأتي به ابن الرسان لأمها في مرضها التي ماتت فيه! إذاً لم يكن يأتي لعلاجها.. لم يكن يعطيها دواء؛ بل.. سماً!! لقد قتلها! (أيها الخائن المخادع ... لقد قتلتَ أمي!). استطاعت بجهد بالغ أن تكتم صرخة أخرى كادت أن تودي بها، لكن لم تملك كبح عبراتها التي انسابتْ على وجنتيها في ألم وحزن صامتين. (وا أماه! قتلوك يا أمي الحبيبة! تآمروا عليك وقتلوك قتلاً بطيءً! لابد أن أنتقم لكِ؛ سأخرج لهما لأقتلهما.. وليكن ما يكون!). بينما تهم بالوثوب عليهما؛ إذا بها تسمع وقع أقدام، ويظهر الرجل المنتظر أمامهم؛ فتتمالك نفسها، وتعود أدراجها لتتوارى عن أعينهم. قام له الوغدان تبجيلاً وتعظيماً، إنه الأمير الذي ينتظران. أسرع ابن الرسان في توقير وخشوع بإعداد مقعد للأمير قائلاً: "تفضل سيدي الأمير، عذراً.. فبيتي الحقير لا يليق بمقامكم الكريم!".

جلس الأمير في خيلاء وصلف، ثم نزع لثامه وهو يقول بوقاحة: "لا جرم.. هذا المكان لا يليق بي.. لكنكما لائقان به!". أشار بيده إلى الصناديق المكدسة أمامه في الظلام وأردف يهتف منتشياً: "ولكن.. هذا الخمر يليق بنا!". هرع ابن الرسان في خفة لينتزع قارورة أخرى. يعطيها للأمير قائلاً: "لا شك في ذلك يا سيدنا.. تفضل!". رفع الأمير القارورة إلى فمه، وراح شرهاً يتجرع منها الخمر؛ حتى اجتف ما فيها، ثم التفت إلى الرجل الغامض وسأله في اهتمام: "ماذا فعلتَ؟". "أتممتُ مهمتي كما رغبة مولاي". "وما أدراك أنها رغبتي أيها الوغد؟!". فأجاب الرجل متحاذقاً: "سيدي.. لو خمنَّا مَن المنتفع بموت الحاجب؛ فسنجده خليفته في منصبه؛ وليس أجدر بها من سيدنا وابن سيدنا الأمير شنجول!" (قالها بتعظيم مصطنع وهو يشير إلى الأمير). كان هذا الحوار يدور على مرأى ومسمع من سلوان؛ فجذبت الكلمةُ الأخيرة: (الأمير شنجول!) انتباهها! "الأمير شنجول؟! هل هذا الرجل الملثم هو شنجول أخو الحاجب المظفر؟! ماذا أسمع؟! إنه يخطط مع هذين الرجلين لقتل أخيه المظفر؟! ويريد أن يخلفه في الحجابة؟! يا لك من غادر!". دفعها الفضول لتعرف ما يحدث؛ فأرهفت السمع بصورة أشد لتتسمَّع قولهم؛ فإذا بالأمير قد ساءه مكر الرجل وتحاذقه فصاح موبخاً: "مه! يا خبيث. هل علم بك أحد؟". "لو علم أحدهم؛ لما استطعتُ المثول بين يدي سموك الآن". "كيف لي أن أعلم أنك أنجزتَ مهمتك بنجاح؟". "سيدي! أنا لم أترك معسكر الجيش إلا بعد أن تأكدتُ أن الملك المظفر قد سُقي الشراب الذي أعدتُه له؛ وسيأتيك خبره غداً: ضحىً أو عشيً". ثم أضاف وهو يتفاخر بنفسه قائلاً: "لا تخاف يا سيدي.. أنا لا أترك مهمتي حتى أُنجزها". هتف الأمير بشيء من الازدراء: "أنا لا أخاف أيها المغرور!". ثم التفت إلى ابن الرسان وسأله: "هل أعطيتَه مكافأته؟". "أعطيتُه النصف؛ والباقي مؤجل بعد التأكد من تمام المهمة". "لا.. نعطيه مستحقه الآن". لكن.. بادره الرجل الغامض مقاطعاً: "سيدي.. إنَّ مكافأتي هي رضاكم؛ وإني لأرجو أن يسمح لي مولاي أن أخدمه بقية حياتي، وأن أعمل طبيباً

في بلاطكم أيها الحاجب الجديد!". صمت الأمير هنيهة.. ورمقه بكبرياء وأنفة؛ ثم مدَّ يده إليه بتعاظم -إشارة منه بقبول رجاءه- فانحنى الرجل عليها بتعظيم ليُقبّلها. لكن الأمير باغته بحركة خاطفة، فطوَّق رقبته بيده تطويقاً عنيفاً واستل سكيناً حاداً من خاصرته فذبحه به، ثم أرسله من يده؛ فتلقاه ابن الرسان بين أحضانه ليكتم صراخه المتألم، ويقيِّد انتفاض جسده وهو ينازع روحه. ما هي إلا لحظات حتى سكن الرجل سكون الموت؛ فأمسى جثة هامدة تركها ابن الرسان تقع على الأرض؛ بينما الأمير يتمتم: "الفم الذي يقضم أصبعي؛ أقطع رأسه.. لقد توهم هذا الغبي أنه سيملك رقبتي بفعلته هذه!". أصابه تعرق غزير؛ وإعياء جهيد فارتمى على صندوق بجواره في سكون! كل هذا كان يحدث على مرأى ومسمع من التعيسة سلوان. كادت خفقات صدرها تصرخ، فتنمُّ عن مخبأها؛ وذهل عقلها بمشاهدة تلك الجريمة. وشلَّت المفاجأة أطرافها. شعرت أن الأرض تزلزلت من تحتها، ووقذتها وخزاتٌ في أحشائها كأن سكين شنجول غُرز فيها فمزقها. "ما هذا الذي حدث؟ لقد رأيتُ للتوِ إنساناً يُقتل.. لقد ذبحه كالنعاج! يا ربي.. لا أستطيع الثبوت مكاني. أريد أن انهد على الأرض مولولة.. أريد أن أصرخ وأنتحب.. لا أملك كتم فزعي.. ثبِّتني يا ربي!" تحاول جاهدة كتم نشيجها، ودفن أنفاسها في صدرها، وقد ضاقت عليها الأرض بما رحبت؛ وبلغ منها الذعر مبلغه. بينما حالها كذلك؛ لم تسمع أُذنها الأمير وهو ينصرف آمراً ابن الرسان بدفن جيفة هذا العلج تحت قدميه في أرضية القبو. بيد أنها شاهدته يخلع مِيثَرته؛ ويضرب الأرض بمعوله في همة عالية لم تعهدها عليه من قبل. لم تعِ كم مر من الوقت إلى أن رأته يطرح الجثة في حفرة حفرها ثم يهيل عليها التراب معيداً التربة كما كانت. أخذ مِيثَرته ومشعله؛ وغادر القبو تاركها في ظلام دامس كاد يعمي بصرها، ورعب كاد يمزق قلبها، وذعر كاد يزهق روحها. "واكرباه! هل سأبقى في الظلام مع هذه الجثة التي لم تفتأ تدفن بين يدي وأمام عيني! هكذا؟! لقد قُتل في صمتٍ.. كما قَتَل أمي. ودُفن بغير غُسل.. ولا كفن.. ولا

تلقين. ولم يصل عليه مسلم! عسى أن يكون هذا هو انتقام الله لأمي.. بوء بإثمك أيها القاتل؛ فلتذهب إلى جهنم وبئس المصير!". "لكن عليَّ الخروج من هذا المكان الموحش؛ لن أصبر على البقاء في الظلام مع جثة هذا المجحوم!". هرعت للخروج من ظلمة القبو؛ وهي لا ترى شيئاً، وترتطم باضطراب بكل شيء حولها.. كأنما لعنة المكان المشئوم تصيبها. في حذر وترقب فتحت باب القبو؛ صعدت الدرج في خطىٍ متلصصة خشية أن يكون ابن الرسان لا يزال موجوداً. وقد صدق حدسها؛ فما أنْ دلفت إلى الصحن حتى رأته -من بعيد- على ضوء مشعله الخافت قد ارتمى على الأرض، وأسلم جسده اللعين لسبات عميق. تكاد تفقد لبها من رعب سابق، وفرح لاحق. هرولت تجاه الباب الخارجي؛ فانفتح لها بسهولة.. كأنه رقَّ لحالها؛ فأرادها أن تفر من هذه الآلام والأحزان. ألفتْ نفسها خارج الوكر المشئوم.. ونسمات الليل اللطيفة تداعب خديها، شرع قلبها ينبض من جديد؛ فأرسلت خفقات صدرها تعلو وتهبط كما تشتهي. اختلطت مشاعرها.. هل هي خائفة مما شاهدته؟ أم هي مسرورة لانفلاتها من سجن ابن الرسان؟ أم تائهة مضطربة.. لا تعلم إلى أين ستذهب؟! "لا ضير.. ليس المهم إلى أين سأذهب! بل الأهم أني تحررتُ من قبضة ذلك الديوث الغادر. هيا.. هلمي يا قدمي احملاني بعيداً عن هذا المكان الشيطاني!". أرسلت قدميها للريح تنطلق بها حيثما يتفق؛ فذهبت تجري على غير هدى؛ تمتطي رياح الخريف الباردة، والليل الدجي يسترها إلا من أنوار البدر الرقيقة التي تتسلل بين الغمام لتشيعها وتراقبها في حنان ريثما تردها إلى ملاذ آمن. لا تدري كم من الزمن مضى، ولا كم من المسافات قطعت، ولا إلى أين ذهبت! لكنها توقفت أخيراً، وقد ظنت أنها بعدت عن وكر ابن الرسان مسافة كافية إلى حين. نظرت حولها؛ فإذا هي في مكان منقطع في سفح جبل العروس.. كيف جاءت إلى هنا؟! وكيف قطعت هذه المسافة جرياً على قدميها؟! إنه الخوف.. بل الرعب هو من ألجأها إلى ذلك. يا لطاقة الإنسان.. كيف تتولد! وكيف تتضاعف قدراته إذا دهمه أمر جلل! أطلقت العنان

لفمها ففغر عن صرخات متتابعة؛ كانت مكبوتة بين ضلوعها؛ فردد فضاء الجبل خلفها صرخاتها –كأنه يشاطرها آلامها– فرجع إليها صدى صوتها رهيباً مخيفاً؛ لكنها لم تخفْه؛ إنما أحست أنه يواسيها. "أجلس على هذه الصخرة أريح جسدي وقدمي قليلاً!". لم تكد تفعل حتى سمعت صوتاً خشناً أجش يناديها بوحشية: "من أنتَ؟ اثبت مكانك؛ وإلا قتلتُك". لم يمهلها الفزع.. فما أن سمعت ذاك الصوت المخيف يناديها؛ حتى سقطت مغشياً عليها.

-المشهد الثالث-

وصل القاضي أبو العباس[1] (أحمد بن ذكوان) إلى معسكر الحاجب المظفر الذي توقف على مقربة من قرطبة بعد خروجه بالجيش منها أمس. فقد كان الحاجب المظفر قد أمر آنفاً بسرعة التأهب وإعداد الجيش لمفاجأة العدو المتمرد سانشو بن غرسية (أمير قشتالة)؛ لكي يصيبوه على حين غرة. حتى أن الحاجب خرج بمن تأهب معه بالأمس على أن يلحق به الآخرون تباعاً إلى أن يكتمل الجيش في الطريق إلى سانشو. وها هو ذا القاضي ابن ذكوان وبعض الجنود يلحقون به الآن. لكن.. القاضي رابه حركات غير معهودة في المعسكر! هرع قائد حرس الحاجب وكبار الخاصة إلى القاضي بعد أن علموا بقدومه. يرحبون به على عجل، وعلى وجل يطلبون منه الحضور سريعاً إلى خيمة الحاجب. يسأل القاضي عن سبب هذا الهلع، وقد راعه ما رأى على وجوههم من وجوم، وما في حركاتهم من توتر. فقالوا: "سيدنا القاضي.. منذ البارحة ومولانا الحاجب عليل، وقد أصابه عند السحر وجع شديد، وما برح يشتد به حتى وضع جنبه؛ ولم يستطع الحركة؛ فأقمنا به في منزله هذا مؤملين راحته؛ رجاء برئه. وأمرنا أهل المعسكر بالمقام بمنازلهم؛ فساءهم توقف الركب بعد التعجل الذي كان، ونزولنا هنا بالقرب من قرطبة ولم نكد نخرج بالأمس؛ فأنكروا ذلك، وتأولوا فيه!". فبادرهم القاضي قائلاً:

[1].. هـو قاضـي الجماعـة بقرطبـة وخطيبها المفـوَّه، وعـالم الأنـدلس الجليـل وفقيهها المقـدم. ولاه الحاجـب المنصور أبو عامر القضاء، وكان من المقربين إليه.. يلازمه في رحلاته وغزواته ويستشيره في شئون الدولة وتدبيرها، ولا يُضاهيه وزير ولا فقيه آخر في عُلو منزلته. وكان كذلك في عهد الحاجب المظفر.

"عليَّ أنْ انظر إلى الحاجب بنفسي". دخل القاضي على الحاجب المظفر فرآه يتوجع بشدة، وعيناه تحملقان في تألم شديد، يكلمه فلا يجيبه! فساءته حالته تلك.

جمع كبراء القوم سراً وقال لهم: "لا حول ولا قوة إلا بالله.. الأمر جد خطيراً يا سادة. يبدو أن حالة الحاجب سيئة. إنْ لم نسارع في معالجة الأمر بحكمة؛ فقد يعلم الجند، ويضطرب حالهم؛ وينفرط عقد المعسكر؛ ويحدث ما لا يُحمد عقباه". أجابوه –في وجل- مذعنين مقرين بسداد رأيه: "فماذا ترى يا سيادة القاضي؟". "أرى أن نصرف الحاجب المظفر إلى قصره القريب؛ ثم ننادي بالرحيل إلى قرطبة.. كيلا ينفلت الجنود من الجيش إذا واصلنا المسير وحالة الحاجب هكذا. ولنرسل -سريعاً- إلى عبد الرحمن بن أبي عامر أخو الحاجب ليعلم بالخبر، ويُحكم أمر المدينة.. فإني أرى حِمام الموت يحوم حول الحاجب؛ وإنا لله وإنا إليه راجعون". تنادى أهل المعسكر بالرحيل إلى قرطبة.. فشرعوا فيه لا يلوي أحد على أحد، وعادوا أدراجهم إلى قصبة الأندلس محوقلين ومسترجعين، لا يعلم أكثرهم سبب الرجوع؛ فأخذت ألسنتهم تلوك الشائعات. إلى أن ساروا قُبالة دير أرملاط قريباً من قرطبة؛ فعلم الجميع بنبأ وفاة الحاجب المظفر؛ وسِير به على حاله حتى أُدخل القصر بالزاهرة ميتاً. وصل الخبر التعيس إلى شنجول (الأمير عبد الرحمن) فطار به فرحاً؛ وكاد يرقص زهواً وسروراً؛ بيد أنه تمالك نفسه؛ ورسم أمارات الحزن الزائفة على وجهه، وتوَشَّح بالكآبة والعبوس، وهرع إلى القصر بالزاهرة ليلتقي بجثمان أخيه. ارتمى أمام الجمع على الجسد المسجى يسكب عبرات الحزن الكاذبة، وترك العنان لنشيجه المصطنع، وأرسل نحيبه الماكر يصم الآذان.. كأنه لا يعلم! كأنه ليس

الفاعل! توقف عن البكاء والنحيب.. ثم رمق القوم مستجمعاً شجاعته؛ وهو يردد كلماته الأولى أمام الناس –بعد وفاة أخيه–. لقد أعدها منذ زمن؛ وزوّرها في نفسه جيداً ليخادع بها القوم. استجمع شجاعته، وانبرى يهتف في شجن وأسى مصطنعين: "إنا لله وإنا إليه راجعون.. عظّم الله أجرنا يا سادة في موت سيدنا؛ أخي الملك المظفر، ونحمد الله أنْ وافته المنية مرابطاً مجاهداً مثل أبي –رحمه الله-. لكن علينا –مع عظيم مصابنا– ألا ننسى أنه ترك لنا أمانة تنوء بحملها الجبال! ألا وهي حُكم قرطبة وسياسة الأندلس، علينا ألا ننسى أن الأندلس كلها فُوجعت بالفقيد مثلنا، ونحن روادها؛ ورؤساء أهلها. فعلينا أن نصمد برباطة جأش؛ لتقف الأندلس خلفنا قوية عزيزة في وجه عدوها الذي يترقب غفلتنا لينقضَّ علينا.. هل أبلغتم الخبر الحزين لمولانا أمير المؤمنين؟". "لم نفعل بعد!". " إذاً ذروني أُبلغه بنفسي؛ وتجهزوا أنتم لموارة الجثمان مثواه الأخير". امتطى دابتَه في وقار غير معتاد، وسار في تؤدة إلى قصر الخليفة ليخبره الخبر. ارتاع الخليفة للنبأ الفاجع. وراعه موت حاجبه الأمين هكذا فجأة.. في ريعان شبابه، وفي أوج قوته، وكامل سطوته. صبَّر نفسه بعد جزع، واسترجع، ثم عزى عبد الرحمن في أخيه. بيد أن شنجول -الذي كان يقف بين يديه– أراد ألا يُضيع فرصة لقائه بالخليفة سُدى؛ فاستأذن في الكلام.. فأذن له أن يتكلم. فانتشى.. واعتدل في وقوفه.. وتقمص سمت أبيه المنصور، وانبرى يقول: "على الرغم من عظم مصابنا يا أمير المؤمنين.. إلا أنه يجب ألا تُنسينا الفاجعة، ولا أن تُلهينا المفاجأة عن حق مولانا وخليفتنا علينا. (أشار بيده إلى الخليفة تعظيماً) وأردف يقول: "وإني يتحتم عليّ ألا أدع أمير المؤمنين بلا حاجب يقف بين يديه، ويدبر دولته، حتى وإن كان لوفاة أخي المغفور له؛ فتلك وصية صنيعتكم وحاجبكم الأمين أبي المنصور رحمه الله". أجابه الخليفة مثنياً عليه: "أحسن الله إليك يا أبا المطرف؛ كما أنك لم تنس وصية المرحوم أبيك في حجابتنا، وإنَّا لن نجد عوضاً للحاجب المظفر إلا أخاه ناصر الدولة، ابن الحاجب

المنصور، فأنت خير خلف لخير سلف –إن شاء الله-. أيها الحضور: اشهدوا أني أُقلِّد عبد الرحمن الحجابة العليا، وأُسلِّمه كل المهام التي كانت موكلة للمغفور له الحاجب المظفر". ثم التفت إلى عبد الرحمن وقال: "وإنَّا أنعمنا عليك من الآن بلقب الحاجب الأعلى ناصر الدولة عبد الرحمن بن أبي عامر". ثم استطرد: "أعلنوا الحداد على الحاجب المظفر –رحمه الله- وأعلموا الناس أنَّا قلَّدنا عبد الرحمن بن أبي عامر الحجابة، وخلعنا عليه من الخلع السلطانية."

-المشهد الرابع-

غادر شنجول القصر الخليفي بعد أن مكث مع الخليفة يتودد إليه ويتملَّقه، ويعده بالوعود الزائفة. خرج يضرب الأرض بقدميه تيهاً وخيلاء، ثم ركب دابته، وانطلق إلى الزاهرة تحمله رياح طموحه الجامح؛ وقد سبقه المرجفون بخبر تقلده الحجابة؛ فعلم به أهل الزاهرة قبل وصوله. حثَّ السير إلى الزاهرة إلى أن لاحت لناظريه؛ فتراءت له شامخة كأنها تتحدث عن نفسها: "أنا الزاهرة... اجتهد المنصور أبو عامر في إنشائي فكمُل بنائي، وعظُم بهائي. أنا من أنشأني المنصور شرقي قرطبة على الضفة الجنوبية لنهر الوادي الكبير، وبنى فيَّ قصراً ملوكياً فخماً، ومسجداً كريماً رحباً، ودواوين للإدارة والحكم، ومساكن للبطانة والحرس، وأقام حولي سوراً ضخماً شاهق الارتفاع، ونقل إلّي خزائن المال والسلاح، وإدارات الحكم، وأقطع ما حولي للوزراء والقادة وأكابر رجال الدولة، فابتنوا الدور العظيمة والقصور الفخمة، وأُنشئت الشوارع والأسواق الفسيحة؛ فأصبحتُ ببهائي وفخامتي أُنافس المدينة الخليفية (الزهراء)، وصِرتُ لها نداً ومثيلا." أجابها شنجول في تيه وكبرياء (فهو ابن ناشئها.. ووارث ملكها الآن): "نعم! أنتِ الزاهرة.. بناكِ أبي ليضاهي بك الزهراء (مدينة الخليفة الناصر)، ويباهي بك الأندلس، ليتشح فيكِ بحلل المُلك، ويتوِّج سلطانه فيكِ بمظاهر العظمة والأبهة الملوكية، فرسخ بكِ ملكه، وثبت

بك شأنه. حُملت إليكِ أموال الجبايات، وشُحنت فيكِ الأسلحة والأموال، وقصدكِ أصحاب الولايات، وانتابكِ طلاب الحوائج، وحج إليك الناس من جميع الأقطار، وخرجت من أبواب سورك السامقة جيوش الفتوح لتعود بالغنائم والأسلاب. وها أنا ذا.. أعود إليكِ وأنا الحاجب الأعلى ناصر الدولة؛ لأرث ملكك وأحكم أمرك، فأنا لكِ.. وأنتِ لي.. ولن أتركك لأحدٍ غيري". قُبيل السور اصطدم بصره بقصر (الحاجِبيَّة).. قصر أخيه المظفر الذي فيه (الذلفاء) أم أخيه المظفر، وأرملة أبيه المنصور. أفاق من نشوته، وخاطب نفسه محفزاً: "هيا يا شنجول.. بقي أمر أخير قبل أن يتم سعدك، ويهنأ عيشك؛ فلتذهب لتلك المرأة؛ فتعزيها في فقد الهالك، وتسكب بين يديها العبرات، وتواسيها بالعظات. ثم لتودعنَّ الأحزان، وتصفو لك الحياة، فلا يكون كدر بعد ذلك أبداً!". دلف إلى القصر.. واستأذن في الدخول عليها؛ فوجدها حزينة باكية، قد توشحت البياض –كعادة أهل الأندلس في الأحزان– وأجلست حفيدها الصغير (محمد بن أخيه المظفر) في أحضانها ينشج بالبكاء. اجتهد أن يُخفي عنها ضجره وتململه من أجواء الحزن والكآبة التي أحاطته منذ البارحة، فشرع ينقش على وجهه علامات الوجد والأسى، وسمات الحزن والألم؛ وناشدها: "عظَّم الله أجرك يا زوجة أبي.. ناشدتُك الله أن تتماسكي، وألا تهلكي نفسك بالبكاء، اصبري.. ولا تجزعي. فلله ما أخذ، وله ما أعطى!". طالعته بنظرات حزينة تنحدر منها عبرات صامتة، وتساءلت في أسى: "على من تُزرف الدموع؟! وعلى من تُسكب العبرات؟! إن لم نبكِ عبد الملك؛ فمن نبكِ؟! هل في الجزيرة كلها ثكلى مثلي؟! إني لأنا الثكلى يا ولدي! لقد مات عبد الملك.. نعم الولد الصالح، وخير الابن البار، كيف أنعم بالحياة بدونه، كيف يهنأ لي العيش من بعده؟؟؟". ثم أرسلت دموعها تنهمر ونشيجها يتخبط. أجابها في تودد: "مصابك مصابنا يا خالة، لكن بالله عليك لا تهلكي نفسك، اهدأي ولا ترتاعي، فبكاؤك يروع ابن أخي". تحاول تجفيف دموعها، لكن.. هيهات! ثم استجمعت نفسها بعد لحظات

وقالت: "أوصيك يا ولدي بمحمد ابن أخيك.. احفظه وارعه كما كان أبوه". "اطمئني يا خالة؛ إنَّه ابني؛ وسأضمه لعبد العزيز ولدي فيكونان سواء". ضم إليه الطفل واحتضنه في حنان توهَّمتْ الجدةُ أنه حقيقياً. بعد برهة استأذنها في الانصراف؛ فلقد أجشمه موت الفقيد أمور عسيرة ومهام جسيمة عليه القيام بها. خارج قصر الذلفاء.. تطلع إلى سماء قرطبة؛ فألفى الشمس ساطعة منيرة؛ فتفاءل بها وابتسم كمنتصر جُمعت بين يديه غنائم نصره.

-المشهد الخامس-

ها هي ذي شمس قرطبة المضيئة تسطع في سمائها بهية مشرقة، بالرغم من سحب الخريف التي تحاول حجب ضوئها الذهبي بين الحين والحين. تخللت أشعتها الدافئة رويداً داخل أحد الكهوف بجبل العروس؛ لتداعب وجنتي سلوان التي كانت مُسجاةً في إعياء، فاقدة الوعي على فراش بسيط في زاوية ضيقة من ذلك الكهف. بدت أشعة الشمس الرائقة تتراقص فوق محياها الصبوح كأنها يد أمها الحنون تُيقظها في عطف ومودة. بجهد تحاول إزاحة أستار جفونها المنسدلة على عينيها؛ بيد أن الإعياء يمنعها إلا قليلاً. تجول ببعض بصرها في المكان، فتجد نفسها ممددة على فراش في جوف صخري له فم صغير تتخلله أشعة دافئة لشمس رحيمة؛ شعرت كأنها في بطن حوت ذي النون عليه السلام. استجمعت قوتها وحضَّتْ جفونها؛ فرفعت أستارها أكثر.. فأبصرت المكان أشد وضوحاً؛ إنها في جوف كهف في جبل وتطالعها أشعة الشمس من وصيده. حاولت أن تقوم لكن جسدها مجهد، ورأسها يوشك أن ينفجر ألماً.. اتكأت على ذراعها، وأرهفتْ السمع حيث تنامي لسمعها صوت خفيض كأنه يغني! أنصتت على وجل، وحدَّقت النظر حيث يأتي الصوت، فأبصرت من بعيد طيف رجل يقعد أمام وصيد الكهف يمسك كتاباً يقرأه.. كأنه يتلو قرآناً. اجتهدت في الإنصات لتتأكد من الأمر؛ فصدق حدسها وأيقنت أن الرجل

القاعد بالوصيد يتلو قرآناً، مما أشعرها ببعض الأمن، فعساه أن يكون رجلاً تقياً! تحاول القيام مرة ثانية، وتتحامل على نفسها، لكن الإعياء يقعدها. بيد أن الرجل القابع خارج الباب أحس بها، فقام من مجلسه، وتنحنح كأنه يُعلمها بوجوده، ثم استدار ودلف إلى كهفها مطأطئ الرأس، غاض البصر، ألقى عليها السلام: "السلام عليكم ورحمة الله". لم ترد سلامه، ولم تُخفِ عنه ريبها ووجلها؛ بل قالت في وهن: "أعوذ بالرحمن منك إن كنتَ تقياً!!" تمثلت بذكاء قول السيدة مريم في القرآن؛ لما سمعته يتلوه... أرادت أن تستأمنه بالقرآن. أجابها بابتسامة هادئة: "جعلني الله وإياكِ من المتقين!". عاجلته بالسؤال: "من أنت؟ وكيف جئتَ بي إلى هذا المكان؟!". "بل من أنتِ؟ وما جاء بك إلى الجبل؟!". "أي جبل هذا؟ أين أنا؟". "هذا جبل قرطبة.. جبل العروس!". تذكرت ما حدث بالليل.. فارتاعت؛ رأى على وجهها أمارات الهلع؛ فأردف: "اهدئي يا أختاه.. فلن يصيبك أذى بإذن الله، أخبريني من أنتِ؟". جمعت أوصالها وتكومت في فراشها وغضت بصرها في الأرض دون أن تنطق ببنت شفه! انتظر برهة لعلها تجيب، فلما لم تجبه.. خرج مهرولاً، ثم عاد بعد هنيهة ضارباً الأرض برجله وهو يحمل لها الطعام.. وضعه بين يديها: "تفضلي.. تناولي الطعام!" فأومأت برأسها أنها لا تريد؛ فتساءل بشيء من الدهشة: "ألستِ جائعة.. إنك نائمة ولم تأكلي منذ يومين!". استعجمتْ قوله "منذ يومين"! لقد فرت ليلة أمس؛ فتساءلتْ: "ألستُ هنا من ليلة أمس؟!". "لا.. بل جاء بك أحد حراس المغارة ليلة قبل أمس". "مغارة؟! هل أنتم لصوص؟" (قول ساذج خرج من فمها قبل أن تعيه). ابتسم بمودة وهتف: "لسنا لصوصاً، لكننا قومٌ نعيش في مغارات الجبال، من أنتِ؟". صمتت ولم تجب؛ فأردف: "لا بأس لن أرهقكِ بالسؤال، لكن ينبغي أن تأكلي.. واطمئني لن يصيبكِ مكروه.. سأكون بالخارج إنْ أردتِ شيء". تركها والطعام، ثم خرج وقعد في نفس مجلسه بالوصيد ثم تناول مصحفه بتقديس وعاد إلى تلاوة قرآنه. رغم عدم فهمها لحقيقة ما حدث، ولا معرفتها لهذا الشاب، ورغم

عدم إدراكها لماهية مكثها معه يومين فاقدة الوعي؛ لكنها شعرت ببعض الاطمئنان. فلقد تخلصت من براثن الخبيث ابن الرسان، وأضحت في كهف –تظنه آمن– يحرسها شاب نبيل تقي.. هكذا يبدو! "لكن ما يدريكِ أنكِ تخلصتِ من ابن الرسان؟ قد يعيدكِ هذا الشاب إليه!". "لا! لو كان.. لأعادني إليه قبلُ؛ فإني بين يديه منذ يومين كما يدعي!". روعتها تلك الخاطرة حينما جالت بخَلَدها، وساءها أنها مع رجل أجنبي عنها منذ يومين في مكان كهذا؛ ارتعدتْ فرائصها؛ وطفقتْ تفتش في جسدها من تحت الغطاء، وتدقق النظر في الفراش حيث ترقد؛ فلم تجد ما يُريبها، تنامي إلى سمعها صوت الرجل الخفيض يهمس بتلاوته العذبة للقرآن، فهدَّأت روعها وحدثت نفسها: أن عساه نجدة أرسله الله لها. أبصرت الطعام بين يديها، فشعرت الآن -الآن فقط- بالجوع يهدها هداً، وأحست به يمزق أحشاءها، فالتفتت إليه ومدت يديها وتناولت بعض اللقيمات وأدلفتها إلى فمها ثم أقبلت على الطعام تأكل منه في طمأنينة مؤقتة. رأت طيف رجل آخر –لكنه أضخم جسداً– يأتي إلى حارسها النبيل ويقف بين يديه يخاطبه كأنه صديقه؛ تسمع بعض كلمات الضخم وهو يهمس: "الأمير يريدك يا حمدون!". دهمها الخوف لما سمعت لفظة: الأمير. "أي أمير؟! أيكون شنجول؟! يا ويلي!!". تركت الطعام، وتباعدت عنه كأنه عقرب سيلدغها.

-المشهد السادس-

جبل العروس: جبل أشم يمتد شمال قرطبة، هواؤه عليل، قد غُرست شعابه وهضابه بأشجار الكروم والزيتون ومختلف الأشجار، وأنواع شتى من الأزهار؛ فبدا مثل واحة وارفة الظلال تُطل من علٍ على مدينة النور (قرطبة) التي تقبع في سفحه على الضفة اليمنى لنهر الوادي الكبير. أما حمدون فشاب لم يتجاوز الثالثة والعشرين من العمر، طويل القامة ممشوق القدّ، وضَّاء الوجه ذو عينين سوداوين دعجاوين حادتي البصر، له صدر واسع وذراعان قويان طويلان.. عظيما الكفين؛

تـراه فـلا تخطـئ أن تقـول: (هـذا فـارس همـام.. ورام مـاهر). وأمـا مُرافقـه الضخم فيـدعى طرسـوس المجوسـي (أي: النورمـاني)، وهـو شـاب قـارب الثلاثـين مـن عمـره، ضخم الجثة، عريض المنكبين، مفتول العضلات، ذو بشرة شقراء تشوبها حمرة، له رأس ضخم شـديد الصلع.. ووجه كأن قسماته القاسية نُحتت فيه نحتاً؛ تراه فلا تخطـئ أن تقـول: (هـذا مصـارع مـن مصـارعي الأسـاطير الرومانيـة القديمـة). كانـا الـرجلان ينسلان بين شعاب ذاك الجبل؛ ويهرولان بخفـة في طريـق يعرفانـه جيـداً يصل بين ذاك الكهف ومغارة أخرى على مقربة منه؛ إلى أن وصلا ممراً ضيقاً في الشِعب تحيطه أشجار الزيتون، سارا فيه حتى دلفا فم مغارة أوسع وأرحب؛ فألفيا عصبة من الرجال يقفون للحراسة بين يدي رجل شاب متكئ وسطهم في مجلسه كأنـه حـاكم متسـلط بـين رجالـه الأوفيـاء. ذاك الشـاب هـو: محمد[1] بـن هشـام[2] بـن عبـد الجبار بن الخليفة عبد الرحمن الناصر؛ أي أن الخليفةَ الحالي (المؤيد هشام) ابنُ عم أبيه. كان محمد –كُنيته أبو الوليد- شاباً في الثالثة والثلاثين من عمره، أبيض البشرة، أشقر أشهل، تام القامة به انحناء خفيف. وكان الحاجب المظفر قد اتهم أباه منذ شهور بالتآمر مع الوزير ابن القطاع على الدولة، واتهمهما بالتخطيط للانقلاب عليه؛ فاتفق الحاجب وأخوه شنجول على قتل ابن القطاع، والتخلص من هشام؛ فتم لهما ما أرادا. ومذ ذلك العهد ومحمد يتحرز على نفسه ويتخفى في أحواز قرطبـة وكهوفهـا، ويجمـع حولـه سـراً بعـض الرجـال والأصحاب مـن المغـامرين، والناقمين على دولة بني عامر رغبةً منه في الانتقام لأبيه، ولإتمام ما أزمع عليه أبوه –من قبل- بالانقلاب على بني عامر. أما قومه وعشيرته -وهم أيضاً عشيرة الخليفة– فهم بنو مروان.. ويسميهم الأندلسيون: "المروانية". حيث ينتهي نسبهم إلى "مروان بن الحكم" جد الخلفاء الأمويين. كان محمد يحاول في حذر وتكتم شديدين أن يوحد صـف المروانيـة ويجمـع كلمتهم على كلمـة سـواء هي: الثـورة على بني عـامر، ونـزع الحجابة من أيديهم وإعادة الأمر ليد الخلفاء من بني مروان؛ بيد أن أغلب وجهاء

المروانية كانوا يرونه شاباً مغامراً أرعن سيهلك المروانية إذا ساروا وراءه أو وافقوا رأيه؛ وليس ما فُعل بأبيه منهم ببعيد. نعود لحمدون ومرافقه الضخم حيث حضرا بين يدي محمد بن عبد الجبار؛ سلما عليه، فأجلسهما، وأدنى حمدون منه..

1.. رقم ٤ في شجرة النسب ص٤ 2.. رقم ٩ في شجرة النسب ص٤

بادره حمدون متسائلاً: "لما خاطرتَ يا أبا الوليد بقدومك هكذا في وضح النهار؟". "لقد علمتُ نبأ سيغير جميع خططنا القادمة يا أصحاب!". "ما هو؟". "لقد رحم الموتُ عبدَ الملك بن أبي عامر، ونجاه من يدي". استعجم طرسوس الكلام، فظهرت علامات الحيرة على وجهه، وفغر فاه غير فاهم! فابتسما محمد وحمدون من رؤيته كالأبله، فأبان له حمدون الكلام: "أبو الوليد يقصد أن الحاجب المظفر قد مات يا طرسوس". ثم التفت إلى محمد مردفاً: "هذا خبر جيد يا أميرنا! متى كان هذا؟ وكيف مات؟". "يقولون إنه توعك فور خروجه بالجيش، واشتدت علته، فأمروا الجيش بالعودة إلى قرطبة، فوافته المنية قُبالة دير أرملاط، فأدخلوه أمس الزاهرة ميتاً". نقّل بصره بين رجاله ثم استقر بناظريه على وجه حمدون وسألهم: "أتدرون من صار الحاجب الجديد؟". "هل عُين الحاجب الجديد بهذه السرعة؟". "أجل!! شنجول!!". "ذلك الفاجر المستهتر؟! بئس الحاجب!". "ولبئس الخليفة يستسلم لبني عامر، كلما هلك أحدهم؛ ملّك أمره للآخر". تكلم طرسوس قائلاً: "ستتغير كل خططنا؟!" وأضاف حمدون متفائلاً: "أبشر يا أبا الوليد، فإن شنجول سيُيسر لنا الثورة عليه بتصرفاته المنحرفة". فأومأ محمد موافقاً لهما وقال: "أحسب أن زوال دولة العامريين سيكون بفِعل هذا الشنجول". ثم التفت إليه -كأنه يغير موضوع الحوار أو كأنه تذكر شيئاً أراد الاستفهام عنه- وقال: "ما خطب أسيرتك يا حمدون؟ هل أفاقتْ؟ وهل عَرفتَ من هي؟". "أجل.. أفاقت يا أميرنا منذ لحظات، لكنها لم تفصح عن شخصها بعدا!". "لابد أن نعلم من الفتاة، وما الذي جاء بها إلى هنا؟

أخشى أن تكون عيناً علينا!". "لا أظن ذلك يا سيدي، لعلها امرأة ضلت الطريق، وأعياها السير". "إنك لمخموم القلب يا حمدون الطيب، لازلتَ لا تُدرك ألاعيب بني عامر! أين هي الآن؟". "إنها طريحة الفراش في الكهف القريب". "احرص على عدم هروبها قبل أن نعلم خبرها، ولا تمسها بسوء، تعرف أني أخترتك أنت لحراستها ثقةً في عفافك وشهامتك، ونبل خلقك". "أخجلتني بثنائك يا سيدي!". "نعم!! أنت خير هذه العصبة ديناً وخلقاً". تغير وجه حمدون كأنه تذكر شيئاً خطيراً، فقام مسرعاً، واستأذن الأمير المرواني في الانصراف، فأذن له. لقد أُلقي في روعه أنها ستهم بالفرار، فأسرع إليها ليدركها.

-المشهد السابع-

سرعان ما تخلص شنجول من مراسم دفن أخيه المظفر، وأنهى مراسم العزاء والحداد. ثم أمر بالتأهب.. فتهيأت الزاهرة للاحتفال العظيم بتوليه منصب الحاجب، ونادى مناديه في أهل قرطبة أن يأتوا لقصر الحُكم بالزاهرة لتهنئته. دخل عليه الناس من كل طائفة يهنئونه، وهو يجلس بعظمة وشموخ في مجلس أخيه؛ كما يجلس خليفة العرش مكان سلفه، هنأه الناس وبايعوه؛ فوعدهم بكل جميل، وفرّق فيهم الأموال بإسراف، ومنحهم الهبات والعطايا بغير حساب، فأثنوا عليه ثناءً عظيماً. فقضى جل يومه في استقبال المهنئين، ومنح الهبات للطامعين، وخرج من عنده الناس على فريقين: فريق يمدح كرمه وسخاء عطائه؛ متفائلين ببداية عهده وإقبال أيامه. وفريق يذم إسرافه ويُسفه إنفاقه؛ متطيرين بسوء تدبيره وإنفاقه مال الدولة كأنه ماله أو مال أبيه. أما هو فما أن وَدع المهنئين والمبايعين حتى حنَّ للهوه ومجونه، وحثه شوقه لندمائه إلى أن يرسل إليهم ليأتوه –كسابق عهدهم- في قصره بمنيته الخاصة على ضفة النهر الكبير، وأرسل إلى ابن الرسان أن يعد ما يلزم لاحتفاله بمنصبه الجديد من قيَّان وراقصات؛ والأهم خمره الخندريس

الذي لا نظير له بالأندلس كلها. بلى! لقد نفد صبره عن الخلاعة والمجون، إن له ثلاثة أيام أو أربعة لم يلهُ ولم يلعب. أما ابن الرسان فقد كان في شأن آخر؛ فهو في شُغل عما يريد سيده، لقد علم باختفاء الفتاة من الوكر؛ ولم يدرِ أعرفت بأمر جريمة القتل التي تمت فيه أم لا؟! فدهمه الأمر وأهمه؛ فكان يُجالس شنجول وندماءه بذهن شارد وعقل غائب.

-المشهد الثامن-

هرول حمدون إلى كهفه الذي أُخفيت فيه الفتاة، ونهب الأرض تحت قدميه نهباً؛ إلى أن وقف على باب الكهف؛ فألقى نظرة خلاله على استحياء؛ فلاحظ وجودها داخله كما تركها؛ فغض طرفه وتنحنح، ورفع صوته بالسلام. اعتدلت في جلستها وأحكمت حجابها ثم أذنت له. رمق الطعام بين يديها فألفاها لم تأكل إلا يسيراً فسألها: "لماذا لم تطعمي؟ ألا تأكلين؟". تجاهلت سؤاله.. وسألت: "اسمك حمدون! أليس كذلك؟". (فأومأ برأسه أن: بلى!). "هل لكم أمير في هذا الجبل؟!". "أجل.. إنه رجل بسيط يرأس عملنا؛ فأطلقنا عليه لقب أمير تفكهاً". "لماذا كان يريدك؟". "يسألني في بعض أمور العمل". "وما عملكم هنا؟". "لا شيء.. نحن مغامرون؛ نحب حياة المغامرة والعيش في البرية؛ فتآلفنا واتفقنا أن نأتي إلى الجبل كل فترة لنقضي به بعض الأيام كحياة الوحوش في الجبال ثم نعود إلى أعمالنا العادية وأهلينا في قرطبة". "وما عملك أنتَ في قرطبة؟ ومن هم أهلك؟". "لقد أجبتُك عن أربعة أسئلة! فلتجيبيني عن أربعة مثلها؛ ثم تسألي غيرها.. وهكذا فيكون ذلك أكثر إنصافاً. الآن.. أسألكِ أنا.. ما اسمك؟". التزمت الصمت ولم تجبه، فألح في السؤال: "لقد عرفتي اسمي، فينبغي أن تعلميني اسمكِ؟". بعد تردد ووجوم أجابت بتحفظ: "اسمي سلوان!". همَّ أن يسألها السؤال الثاني، فأشارت له بيدها في صرامة، فأسكتته ثم أردفت قاطعة: "لن أجيب على أسئلة أخرى... إلى حين!". "سأصبر حيناً، لكن ينبغي أن تطمئني

إلينا، وتخبرينا من أنتِ كي نطمئن إليكِ ونتركك تغادرين الجبل!". "هل ستعتقلونني هنا؟!". "ليس اعتقالاً! لكن إنْ لم نطمئن إليك؛ فهل نتركك تأتي وتذهبي.. هكذا؟ ما فعلتيه ليس فعل النساء! وإخفاؤك الحقيقة يثير الريبة!". "أنا لا أُخفي شيئاً.. لقد ضللتُ الطريق، اتركوني أعود لأهلي!". "إذاً.. من أهلكِ، وأين هم لنعيدكِ إليهم؟". صمتت ولم تجبه.. فأضاف سائلاً: "وما الذي يُقدم فتاة مثلكِ في ذاك الوقت من الليل إلى هذا المكان الغير مأهول؟ أجيبي.. كي نردكِ إلى أهلك سالمة مطمئنة!". أشاحت بوجهها عنه كأنها تنهي الحوار؛ فتركها، وعاد لمجلسه بالوصيد؛ فطرحت هي نفسها في الفراش، ودفنت وجهها بين يديها، وغدت تبكي في صمت.

-المشهد التاسع-

مرت بضعة أيام والحال أن شنجول مستمر في غِيّه، منغمس في ملذاته، منشغل بشهواته خلافاً لما كان ينتظر منه أهل قرطبة والأندلس.. بيد أنهم مازالوا يرتقبون منه شيئاً! ومثلهم محمد بن هشام بن عبد الجبار ينتظر أن ينّم شنجول عن سياسته في قرطبة لكي يضع خطة الانقلاب عليه. أما الذلفاء فلا تفتأ تبكي ولدها، ولا تنتهي عن حِدادها، وشغلتها أحزانها عن كل شيء يحدث في الزاهرة وفي قرطبة. أما ابن الرسان فيكتم تحرقه قلقاً، ويكاد يفقد صوابه خوفاً، وهو يبحث في كل مكان عن سلوان، وتزلزله فكرة أنها علمت بجريمة القتل كلما جالت برأسه.. فلم يجد مهرباً من التسلل خلسة –ذات ليلة- إلى وكره ليستخرج جثة قاتل المظفر ويخبئها في زنبيل ذهب به إلى النهر، ثم أثقله بالحجارة ليغوص في أعماق النهر؛ ليمحو أي أثر لجريمته هو وشنجول. أما حمدون فينتظر بصبر وترفق ريثما تجيبه سلوان، وتفصح عن أمرها، وتبوح بسرها. أما هي فتترقب في حذر وخوف ما يحدث لها، كأنما ترجو معجزة تهبط من السماء لتنقذها. إنها لا تعرف إلى أين تذهب؛ وإنْ كانت خطتها حين همّت بالهروب من ابن الرسان أن تذهب لأهل أبيها بأشبيلية؛ غير أنها -

وبعد أن أمعنت التبصر في أمرها- خشيت إنْ هي ذهبت إلى أشبيلية وقابلت أهل أبيها أن يتنكروا لها، ويطردونها! فلا تجد لنفسها هناك مأوى ولا ملاذاً؛ فتحيرت في أمرها وضاقت نفسها؛ فاستسلمت لما هي فيه من حبس في جوف الجبل منذ أيام؛ حيث أحستْ بالأمان مع هذا الحارس النبيل (حمدون)، وكلما مر عليها يوم في أسره زادت ثقتها فيه واطمأنت له. فها هو ذا.. رغم أنها فتاة شابة على قدر من الجمال، ورغم ضعفها وقلة حيلتها، ورغم أنها وحيدة في أسره؛ إلا أنه يغض طرفه عنها، ويخدمها في حياء.. وعطف طاهر. لا يؤذيها.. بل يتلطف معها. حتى أنه جلب لها ثياباً جديدة، وأعد لها أستار في مخدعها، وأحكم لها حُجباً تسترها عن الأعين؛ فاغتسلت واستحمت، فطابت نفساً بمقامها الجديد. وأبلغ دليل على حسن رعايته لها؛ حين انتبهت لأن صندوق أمها الصغير -الذي كان معها وهي تهرب- مفقود؛ فارتاعتْ لذلك واضطربت؛ بيد أنه طمأنها، وخرج هو ورجاله يسعون في الجبل بحثاً عنه إلى أن وجدوه؛ وأعاده لها سليماً محفوظا. غير أنها كان يؤرقها بين الفينة والفينة إلحاحه عليها بالأسئلة عن نفسها وأهلها، وسبب قدومها للجبل؛ لكنه كان سريعاً ما يستسلم لرغبتها في الصمت ويحترم سكوتها عن ذلك؛ ولقد همّت في غير مرة –بسبب نُبل خلقه- أن تبوح له بأسرارها وتخبره بأمرها، لكنها كانت تتراجع خشية أن يظن بها السوء أو يتغير خلقه معها أو يطمع فيها! (فما فعله ابن الرسان مع أمها آنفاً جعلها لا تثق في الرجال). مرت عليها أيام وهي على تلك الحال؛ إلى أن استأذنها حمدون -ذات يوم- في الدخول إليها، فدخل متغير الحال متجهم الوجه كمن ساءه أمر! تساءلتْ: "ما الأمر يا حمدون؟ هل يضايقك شيء؟!". "سلوان.. إن لم تفصحي عن حقيقتك؛ فلن أستطيع بعد الآن أن أمنع إيذاء القوم عنك! الأمير منزعج من طول بقائك معنا هكذا؛ ونحن لا نعلم عنكِ شيئاً!". تغيرت ملامح وجهها من انفراج إلى عبوس؛ واندفعت تقول بتوتر: "اتركوني إذاً ما دمتم مللتم بقائي معكم!". "لن يترككِ الأمير تذهبي قبل أن يطمئن من أنتِ!". "أمير!! من يكون الأمير

هذا؟ أنا أيضاً أرتاب فيكم!". فاجأهما صوت أجش يأتي من خلف حمدون: "أنا الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة عبد الرحمن الناصر!" ثم أضاف جازماً: "أُمهلكِ –أيتها الفتاة- إلى مساء الغد؛ فإما تخبريني من أنتِ؛ أو أجعلكِ طعاماً لذئاب هذا الجبل!". التفت إليه حمدون في أسى، ورنا إليه راجياً ألا يفعل. أما سلوان.. فقد دهمها الأمر، وشلت المفاجأة أوصالها فأُسقط في يديها. همّ محمد بالخروج بعد أن ألقى عليهما قولاً كالصاعقة، ويسعى حمدون خلفه محاولاً أن يثنيه عن عزمه. أقعدتها الصدمة على أقرب صخرة بجوارها، وأظلم المكان في عينها، وأحست كأنما صخور الكهف الصماء تضحك منها في شماتة لم تعهدها عليها خلال الأيام القليلة الماضية؛ إنما كانت –قبل برهة- تحسها صخوراً مرحة.. ودودة تشاركها مشاعرها في تلطف وحنان؛ حتى أنها ألفت هذا الكهف إلف الطيور لوكناتها. فما هذا الخطب الجديد الذي أيقظها من حلمها الذي كانت تعيشه منذ أيام؟! أم ما الذي أحاله هكذا كابوساً مفزعاً؟! وما هذا الإذعان الذي أبداه حمدون أمام هذا الأمير المزعوم؟ ولماذا كان ضعيفاً أمامه هكذا؟ ألا يهمه أمرها؟! ألا يهتم بها كما كانت تتوهم؟ أم أنها أخطأت في شعورها نحوه؟ أم أنه خدعها بخُلقه الظاهر نحوها ليتمكن من قلبها فتُعلمه خبرها كما أراد أميره؟! "ثم من هذا الأمير؟! إن أمره لا يعنيني في شيء، هل لأنه من أحفاد الخليفة الناصر؟ وما الخطير في ذلك؟! فأمثاله كُثر!! لكن لماذا يختبأ هو ورجاله في الجبل؟!". بينما هي كذلك تُقلِّب الأمر في رأسها إذ سمعت جلبة وأصوات رجال خارج فم خِبائها، نظرت فإذا بالرجل الضخم (طرسوس) وبعض الرجال؛ خاطبها بجفاء: "من الآن سأحرسكِ أنا ورجالي، واحذري! فإنْ انتهت مهلتك التي أمهلكها الأمير؛ ولم تخبرينا من أنتِ؛ فلا تلومي إلا نفسك". تساءلت بتوتر: "أين حمدون؟!". ولاها ظهره ولم يجبها! فانكمشت داخل خبائها، وأنهدت واقعة فوق فراشها في تحسر؛ حتى حمدون تخلى عنها بعد أن ظهر طيفه في حياتها كحلم جميل لأيام قليلة؛ وها هي ذي الآن تفيق على كابوس وحدتها

من جديد. بعد وقت ليس قصيراً قامت تتهادى في ضعف ويأس، تأكدت من عدم وجود أعين تتلصص عليها، وتوجهت إلى ماء طهور قد أعده حمدون آنفاً لحاجتها؛ فتوضأت ثم رفعت يديها للسماء، وشرعت تصلي في خشوع، في سجودها –الذي أطالته- انهمرت دموع تذللها لربها: "رباه فرج عني كربتي، يا ربي أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، يا الله تولى أمري، وادفع عني السوء يا ربي". وهكذا قضت ليلتها تناجي ربها في تذلل وخشوع. انبلج الفجر؛ فامتلأ قلبها يقيناً بنصر الله القريب.

أما حمدون فقد نهره الأمير على كثرة مراجعته له في أمر الفتاة؛ بعد أن لامه وعاتبه على تقصيره في أمر استجوابها؛ حتى ظن أصحابه بهما الظنون؛ مما اضطر الأمير لحسم أمرها. ثم أمره بالتجهز للنزول معه ليلاً إلى قرطبة.

-المشهد العاشر-

استعد حمدون لنزول قرطبة وقلبه يضطرب خوفاً على الفتاة التي رغم أنه لم يعرفها إلا منذ أيام قليلة؛ بيد أنه أحس كأنما يعرفها منذ زمن طويل، واطمأن لها قلبه كأنها واحدة من أهل بيته. أعد جوادين، وجهز السلاح –سيفه وقوسه وكنانته- باهتمام واحتراف، لكن.. بعقل شارد يشغله شأن سلوان، وكيف يشفع لها عند الأمير. جنَّ الليل؛ فانطلق جوادان أندلسيان نازلان من جبل العروس يحملان الفارسين محمداً وحمدون؛ وقد تسترا تحت جناح الظلام، وراحا ينهبان الأرض نهباً تجاه سهل قرطبة إلى أن بلغا إحدى دُورها، ذات بهجة وفخامة؛ ترجلا وعَقَل حمدون الجوادين، وانتظر خارج الدار يتستر بخباء الليل، ويستر وجهه بلثامه؛ ليراقب الطريق حول الدار –كعادته كلما خرج مع الأمير في رحلة كهذه-. أما الأمير محمد فقد أحكم لثامه حول محياه، وسلاحه حول خصره ثم ولج إلى الدار، طرق الباب في هدوء وسكينة؛ فُتح فأسرع في الدخول. كانت الدار لأحمد بن عبد الملك –

كُنيته أبو عمر- أحد أغنياء قرطبة وكبرائها المعدودين، وكان صديقاً لهشام بن عبد الجبار والد محمد، وكان بعد موت الأب يعطف على الابن ويصله ويوده، وكان يحذره باستمرار من كيد العامريين له، وينصحه بالتخلي عن رغبته في الانتقام لأبيه، وينصحه بالانشغال بمستقبل حياته؛ وليحيا حياة تليق بأمير مرواني. غير أن محمد كان على إصراره في الانتقام لأبيه؛ إلى أن هدده أبو عمر –ذات مرة- أنه سيقطع صلته به إذا استمر في غيّه. أما الحين بعد موت الحاجب المظفر، وتَقْلُد أخيه شنجول الحجابة؛ فقد تغير الحال؛ فهو يعرف بُغض أبي عمر لشنجول، ويعرف رأيه فيه: أنه غير لائق بالحجابة ولا بمُلك قرطبة. فجاء إليه الليلة عن موعدة وعدها إياه؛ ليبحث معه أمراً هاماً! أُدخل محمد –بعد أن رفع لثامه- إلى مجلس في بهو واسع فخيم، فاره الأثاث، وثير المقاعد، تتوسطه نافورة مصنوعة من أنابيب الرصاص المكسية بالمرمر يحيط بها حوض رخامي يزينه تماثيل -مصنوعة من الفضة الخالصة- على شكل نسور مجنحة وغير مجنحة؛ يتدفق منها الماء العذب إلى أعلى لينحدر إلى الحوض محدثاً بخريره أنغاماً تطرب لها الآذان، وتهنأ بها النفوس. بعد قليل دخل صاحب الدار مرحباً: "أهلاً ومرحباً بالحبيب ابن الحبيب". "مرحباً بك يا صنو أبي". "ها هو ذا القدر ثأر لأبيك؛ فهلك المظفر في ريعان شبابه بعد أن كان يطمع أن يحيا طويلاً". "بل نجاه الموت مني يا أبا عمر؛ عليه من الله ما يستحق". "لا شماتة في الموت يا ولدي". "نعم.. لا شماتة! لكن هل تقبل أن يكون حاجب الخليفة والمتسلط على الأندلس؛ هو شنجول ذاك الفاسق؟!". "إنه لآخر الزمان يا محمد! لقد سوِّد الأمر غير أهله!". "هل نستسلم للأمر يا كبير أهل قرطبة؟". "ماذا بيدي أن أفعل يا ابن الخليفة الناصر؟". "ألا تقوم بالأمر؟ ألا تذهب للخليفة؛ وتطلب عزل هذا الشنجول، وتولية الأمر من هو أهله؟". "أنا لا أشتغل بأمور المُلك يا محمد؛ كما أخبرتُك آنفاً.. فضلاً عن أني لا أحب أن أُثير الفتن". "ألا تذكر صديقك التاجر الذي فضحه شنجول في ابنته؟ -في عرضه-! ألا تهب للذب عن أعراض

المسلمين؟". "صه! يا فتى! كُف عن ذكر الحُرمات؛ وأعرض عن هذا! أنا لا أحب ذكر هذه الحادثة". "والذي نفسي بيده! لأن سكتم عن شنجول هذا ليفتكن بنسائنا جميعاً". "اصمت! فُض فوك.. ماذا تريد مني يا محمد؟". "أُريد أن تمدني بالمال، وسأقوم أنا بالأمر؛ وسأكفيكم أمر شنجول". "لن تقدر! فالعامريون لن يقفوا مكتوفي الأيدي، وستكون فتنة عظيمة". "هذا الأمر أحق به الخليفة وعشيرته المروانية؛ فإذا حزموا أمراً فلا أمر بعد. والعامريين إنما هم رجال اصطنعهم المنصور أبو عامر وولده من بعده لتوطيد ملكهم هم، وتشديد وطأتهم على الخليفة وعلى أهل الأندلس؛ لكن إذا اجتمعت كلمة المروانية ووقفوا وراء الخليفة، وعاد الأمر والنهي في البلاد ليد الخليفة والمروانية فستخرص كل الألسنة، وستُكف كل الأيدي". "كلام معقول! أُوافقك إياه. لكن كيف سيتحقق؟ والخليفة لاهٍ بعد أن مَلَّكَ أمره لبني عامر. والمروانية متفرقون منقسمون". "سأجمع المروانية على كلمة سواء، ومن ورائهم أهل قرطبة ثم نذهب للخليفة، ونرغمه على عزل شنجول وينتهي عصر تسلط الحُجاب من بني عامر على الخليفة؛ ثم نختار وليّ عهد له منا يقوم هو بالأمر دونه". "تريد أن تكون وليّ العهد يا محمد؟!". "لم لا؟ فإن الخليفة المؤيد لا ولد له!". "ثم تصير أنت الخليفة؟!! لن يتفق عليك المروانيون؛ وسينازعك الأمر ابن عم أبيك: هشام بن سليمان!". "إنْ أراد ولاية العهد فسأتركها له! غايتي أن يعود الأمر ليد المروانية؛ وينتهي عهد الحُجاب المتغلبين". "لو فعلتَ يا محمد سأكون من أشد الداعمين لك، إذاً لماذا تريد المال؟". "لأتألف به الناس يا أبا عمر!". "إذاً.. تريد مالاً كثيراً؟". "حسب حجم العمل؛ يكون الإنفاق، وأمر كهذا سيتكلف مالاً كثيرا". "إني أُريد أن أدعمك، وأصلك بالمال والجاه يا ولدي؛ لكني أخشى إذا فُضح أمرك، وفشل تدبيرك؛ أن يضيع مالي، ويأخذني الناس بجريرتك". "ماذا تقصد يا عم؟!". "أقصد أني لا أستطيع أن أعطيك مالاً الآن؛ ولن أستطيع أن أُظهر دعمي لك أمام الناس. فأنت تعلم أنني كبير أهل قرطبة؛ ولا يليق بي -أمام الناس-

الاشتراك في أعمال الفتن وإثارة الشغب. لكن.. إنْ ظهر أمرك، وسار أهل قرطبة وراءك؛ فسترى مني ما يسرك". لم يخفِ محمد علامات الامتعاض وخيبة الأمل من على وجهه، وهمّ من فوره يستأذن في الانصراف؛ فسارع أبو عمر في الإذن له؛ كمَن يصرف ضيفاً ثقيلاً.. فرأيه في محمد أنه مغامر متهور.. لن يستطيع تحقيق طموحه، ولن ينال بُغيته؛ وغاية الأمر أن العامريين سيفتكون به كما فُعل بأبيه؛ فضلاً عن أنه لن يستطيع جمع كلمة المروانيين. سار معه إلى باب الدار، ثم ودعه وهو يوصيه بالحذر والتحرز على نفسه. عاد إلى حمدون، ثم أخذا جواديهما، وراحا يسريان معاً على حذر خلال دروب قرطبة. سأله حمدون: "ماذا فعلتَ يا أبا الوليد؟" فأجاب بامتعاض: "عُدت بخفيّ حنين!".. ثم أردف بخيبة أمل: "هذا الرجل يلعب بي! يلاطفني ويقول كلاماً يرضيني؛ لكن لا ينجز شيئاً عندما أطلبه منه! لقد خشيتُ منه على نفسي؛ أخاف أن يشي بي عند شنجول ورجاله". "أصدقك القول يا أبا الوليد؟ هذا الرجل لا يثق في قدرتك على جمع المروانية ضد العامريين فضلاً عن أهل قرطبة؛ وهو بعدُ رجل ذو مال ومصالح؛ ومؤكد أنه يخشى أن تُضر مصالحه إذا أعانك". "علام إذاً يعدني ويمنيني؟". "ربما يُحسن استقبالك كلما جئته مراعاة لصحبة أبيك في الأيام الخوالي". "أو لعله يستدرجني ليعلم خططي ثم يشي بي، الأفضل أن أحذر منه!". "إذاً! كيف سنحصل على المال الذي نحتاجه لإتمام أمرنا؟ قد تخلى عنك أغنياء بني مروان، وها هو ذا أبو عمر ينفض يده من الأمر كما تقول". "لا أدري يا حمدون! لا أدري!" قالها وهو يقفز على جواده وينكزه لينطلق صائحاً: "هيا نعود.. إلى الجبل"

-المشهد الحادي عشر-

ذات ليلة من ليالي السُكر والعربدة التي لا تنتهي، وبعد أن لعبتْ الخمر برؤوس القوم تساءل ابن الرسان: "سيدي الحاجب! لقد كان لأبيكم المرحوم لقب مُلك،

فهو الملك المنصور، وكذلك أخيك عبد الملك.. كان يُلقب الملك المظفر! ومرت الآن أيام عديدة! ألا ينبغي علينا اختيار لقب مُلك لسموك؟". "أوليس (ناصر الدولة) لقباً يا هذا؟!". "إنه لقب من ألقاب الوزراء؛ ونريد لسموك لقب ملك كأبيك وأخيك!". "أصبتَ يا رجل! كيف فاتني هذا الأمر؟ فكروا معي ما اللقب اللائق بي كحاجب الخليفة؟ وكملك الأندلس؟". راح سكارى القوم يتخيرون الألقاب للحاجب الجديد، ويُدلي كل سفيه منهم بدلوه، وتقترح كل جارية منهم لقباً، وهم يصخبون ويتضاحكون؛ إلى أن صاحت جارية: "الناصر!". "لا.. هذا لقب جد الخليفة! لا يجوز للحاجب التلقب به". "فليكن المنتصر؟". "لا هذا اسم موسيقاه سيئة!". تدبر شنجول في اللقب؛ فقد أعجبه أن يتسمى بالمنتصر كلقب قريب من لقب الناصر الخليفة العظيم جد الخليفة المؤيد بالله، وقريب من لقب أبيه المنصور! لكنه.. قال: "الحاجب المنتصر ناصر الدولة! لا.. لا.. سيء؟". "ليكن المستنصر؟". "أجل! هذا أفضل!". "لكن هذا يا سيدنا لقب الخليفة السابق، والد الخليفة المؤيد". "إذاً.. ماذا يكون؟ لقد حيرتموني! لن تنصرفوا الليلة قبل أن أختار لنفسي اللقب المناسب". "ما دمتَ أنت حاجب الخليفة الذي يأتمنك على مُلكه فأنت المؤتمن". "لا.. هذا كأنه لقب صاحب خزينة الدولة أو أمين القصر!". "ما رأيك يا سيدنا بلقب: المأمون؟". ضرب شنجول بيده في الهواء معجباً بما قالته الجارية الأخيرة، وصاح في زهو: "أجل! أحسنتِ يا جارية.. (الملك المأمون).. هذا لقب عظيم.. سآمر لكِ بعطاء يغنيك باقي عمرك وذريتك من بعدك. إن كان لك ذرية!". وتعالت ضحكاته المخمورة هو وجلسائه، شكرته الجارية بفرح ماجن، وامتنان خليع؛ فبادر نديم آخر من جلسائه وقال بإعجاب مبالغ فيه: "نِعم اللقب يا سيدنا: الملك المأمون ناصر الدولة!". "آه.. أيها الوغد! تريد عطاءً مثلها؛ نعم.. فليكن: الملك المأمون ناصر الدولة.. ها ها!".

-المشهد الثاني عشر-

أصبح شُغل شنجول الشاغل –دون مبالاة لمهام منصبه أو لأمانة رعيته- اللقب، وحصوله عليه! فإن نفسه تشتهي التلقب بالألقاب الملوكية. لم يفتأ عقله يفكر: كيف سينتزع لقبه الجديد من يد الخليفة؛ لابد أن يُنعم الخليفة عليه بهذا اللقب! فكيف يكون ذلك؟! قبلُ: لم يتلقب أبوه بلقب (المنصور) إلا بعد سنين طويلة من نجاحه في سياسة المُلك، وحفظه للبلاد، وذبّه عن دولة الخلافة وكيانها. ولقد خاض المعارك ضد أعداء الدولة، فلم تُنكس له راية، ولم يُهزم له جيش؛ فحاز لقب (الملك المنصور) عن جدارة واستحقاق؛ فلم يعترض أحد. وكذلك أخوه عبد الملك لم يتلقب بالملك المظفر إلا بعد سنوات خاض -في مدتها- حروباً وبطولات وانتصارات أثبتَ بها كفاءته، وأثبتَ أنه يستحق لقبه مثل أبيه. أما هو فلم يمر على تقلُّده الحجابة إلا أيام، ولم يغزُ، ولم يحارب! فكيف سيُقنع الخليفة بالموافقة على منحه لقب المُلك؟ وكيف سيتقبل الناس –الخاصة والعامة- هذا الأمر دون أن يكون له سابقة فضل كأبيه وأخيه؟ "لا يهمني الخاصة ولا العامة؛ إنْ يوافق الخليفة على منحي اللقب؛ فأُصبح الحاجب المأمون، ومَلك الأندلس؛ فساعتها.. لا بقي رأي لخاصة ولا عامة". بدرت في ذهنه فكرة؛ أعجبته؛ فقرر أن يجعلها خطته مع الخليفة؛ وشرع ينفذها من اليوم! كانت خطته: أن يستمر بسياسة أبيه وأخيه في الحَجر على الخليفة المؤيد، وحجبه عن الناس، والاستبداد بالرأي دونه؛ لكن سيعُدّل من أسلوبه فيها، وسيتبع مع الخليفة غير وسائل أبيه حيث: كان أبوه يؤثر تعظيم الخليفة مع البُعد عنه وتجنب لقائه إلا في المواقف الضرورية، وكان يكبح جماح حاشيته، وكان يحرص على عدم تدليله أو حاشيته، وعلى درب أبيه المنصور سار أخوه المظفر. أما هو: فغدا يكثر الاتصال بالخليفة، ويبالغ في التقرب إليه، ويفرط في التودد له، وراح يدلل حاشيته، ويحقق لهم رغباتهم، ويقضي لهم حوائجهم دون اقتصاد أو تدبير؛ وشرع يخالط الخليفة يومياً، ويغدو عليه ويروح كل نهار؛ حتى آثره الخليفة على سلفه، وأدناه منه، وبادله وداً بود، ووصلاً بوصل.

ومن ذلك أنه استأذن أن يتنزه بأهله في قصور المُلك بقرطبة، وأن يُشرفه الخليفة بالصحبة في هذه النزهة؛ فأذن له الخليفة وصَحَبَه معه؛ وسار موكب الخليفة يخترق شوارع قرطبة يحيط به الجُند والفتيان ويتقدمه الحاجب ناصر الدولة – عبد الرحمن بن أبي عامر-. غير أن الخليفة كان متخفياً بين حاشيته –كعادته من قبل- إلى أن نزل الخليفة بقصره المسمى (قصر ناصح)، ونزل الحاجب بمنية العامرية بجوار الخليفة ثم طفق يدخل عليه بحجة مراجعته في شئون المُلك واستغل ساعات الصفا معه فالتمس منه أن يتلقَّب بالحاجب المأمون؛ فوافق فوراً دون إعمال عقل أو مراجعة رأي؛ فأسرع شنجول في استدعاء الوزير جَهْور بن محمد لأنه كاتب الخليفة، وأبلغه أن الخليفة أذن له بالتلقب بالحاجب المأمون، وأظهر له رُقعة بها موافقة الخليفة؛ فكتب له كتاباً أرسله للأفاق، وأمر أن يخاطب به من الحين. فكتب له جهور على لسان الخليفة:

الحاجب المأمون ناصر الدولة أبو المطرف حفظه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

أدام الله حفظك وأحسن على الصلاح عونك، *رأينا* –أكرمك الله- لما ظهر لنا من جميل طاعتك وبِدارك إلى ما يلزمك من المُناصحة، والقيام بأعباء المملكة على أفضل الطرق المحمودة والمساعي المشكورة؛ *تسميتك* في كُتبنا إليك وتحليتك بالمأمون في مخاطبتك، زائداً على أول أسمائك، مظاهرةً لأنعُمنا عليك، وأنت عندنا أهل لذلك ومستحقٌ به. فاعتمل فيما ينفذ من الكتب عنك وإليك على عنوان كتابنا هذا إليك. نسأل الله عوناً شافياً وتأكيداً كافياً إن شاء الله تعالى.

تم إنفاذ القرار إلى سائر أقطار المملكة بالأندلس وعُدوة المغرب؛ فاشتهر الأمر بين الناس، وعملت به الأمراء والوزراء والقواد والخاصة والعامة في مخاطبة شنجول؛ فتحقق له مراده، وتابعه الخليفة والناس على هواه؛ وصار يُدعى: الحاجب المأمون

ناصر الدولة أبو المطرف عبد الرحمن بن أبي عامر؛ ولمّا يبدوُ منه كثير عمل، ولمّا يُظهر عظيم جهد، بل.. ولم تكن مدته قد تجاوزت عشرة أيام.

-المشهد الثالث عشر-

قضتْ سلوان جُل ليلها وغالب نهارها في بكاء ونشيج، وصلاة وابتهال إلى الله؛ وقد شعرت أنها وحيدة لا نصير لها، ولا معين. حتى حمدون الذي ظنتْ أن الله أرسله لها؛ تخلى عنها، ولم تره مذ هددها سيده بالقتل. أصابتها مرارة شديدة، وضاق صدرها لمّا ظنتْ أن حمدون تخلى عنها. لكن لماذا؟! لماذا تأسى على حمدون هكذا؟ ربما مسَّ في قلبها شيء! نفضتْ يدها من حمدون وغيره؛ ليس لها ملجأ إلا الله. رفعتْ يديها إلى السماء وابتهلت في خشوع: "يا ربي. لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين. يا من نجيتَ ذا النون من الغم؛ نجني من الغم يا أرحم الراحمين. إنك على كل شيء قدير". ثم راحت تلهج طيلة نهارها بهذا الدعاء: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنتُ من الظالمين!". غاب عنها قرص الشمس، وحلّ المساء؛ فدهمها عصبةٌ من الرجال يتقدمهم طرسوس الضخم، ويتوسطهم الأمير، ثم جاء آخرهم حمدون يجر أذيال الحسرة والخجل، مطأطئ الرأس في أسى، يشعر بالقهر والإحباط. وقفت منتصبة، وواجهتهم رابطة الجأش في إباء وشمم، كأنما الله ربط على قلبها، كأن معها جنوداً لم يروها، تفحَّصتْ وجوههم بنظرات متحدية، ألهبت قلب حمدون بسياطها. نظرت إلى سيدهم –محمد بن هشام- في صمت، كمن تقول له: هات ما عندك!

رغم الارتباك الذي أصابته به نظراتُها الثابتة.. حاول الأميرُ أن يتكلم بصرامة؛ فبادرها بنبرة تهديد: "انتهت مهلتكِ يا فتاة! هات ما عندك؛ ولا تُجبريني على تنفيذ ما أوعدتُكِ به فأُعير بقتل امرأة!". أشاحتْ عنه، وألهبتْ قلب حمدون بسياط نظراتها المُعاتبة؛ كمن تصيح به: (كيف تتخلى عني؟ كيف تتركني لهذا الرجل غليظ القلب

يحكم فيّ كأنه يُحيي ويُميت؟ ألا تهتم لأمري؟ ألم تحبني؟ أم كان إحساسي خاطئاً؟!). لم يكن يسمع صياحها هذا إلا قلبه، ولم يتألم لصرخات عيونها الصامتة إلا فؤاده، حاول أن يرنو إليها، ويرغم عينه لتقع في عينها؛ فلم يقدر، ولم تطاوعه عيناه خجلاً منها. طأطأ رأسه واجماً، وطرفه يراقب الأرض تحت قدميها؛ ونشج قلبه بأنين صامت يُمني نفسه بأنها ستسمعه وستفهمه.. وليتها تسامحه! راح قلبه يخاطب قلبها متنصلاً: (لم أتركك يا سلوان، ولن أتركك، فأنتِ مَن كان قلبي يبحث عنها لأهبها حبي وحياتي؛ لكن سامحيني! لقد بايعتُ الأمير على كتاب الله على السمع والطاعة إلى أن يثأر لأبيه، وينجح في الانقلاب على بني عامر؛ فلن أنقض بيعتي، ولن أُخلف عهدي الذي قطعتُه، ورغم ذلك فإني أعِدكِ ألا أتخلى عنكِ، ولن أسمح لأحد أن يمسكِ بأذى، سامحيني؛ ولا تقتليني بنظرات عتابك!). لحظات ليست طويلة.. تحاورت فيها عيناهما؛ فباحت بما لم تبح به الألسنة، حوار صامت لم يسمعه أحد، ولم يفهمه أحد، ولم يعِه أحد من المتواجدين معهما إلا قلبه وقلبها! تفهَّمَ عتابها؛ وفهمت إعتابه؛ وعسى أن تسامحه! طرفت بصرها عن حمدون، ثم قطعت الصمت المُطبق مخاطبة الجميع في ثقة: "الحاجب المظفر! لم يمت!". همّ الأمير أن يصيح بها: (دعي عنكِ هذه الألاعيب يا بلهاء؛ لن تنفعكِ، نعلم جيداً أنه مات، وأن شنجول تولى الحجابة!). وهمّ حمدون يناشدها بتوسل ألا تفعل بنفسها وبه هكذا! فستهلك ويهلك هو إذا لم تتكلم بوضوح! وهمّ طرسوس أن ينفجر ضاحكاً في سخرية واستهزاء مما قالت! لكن قبل أن يُفصح كل منهم عما أهمّ به؛ أتمتْ قولها: "لقد قُتل! وأنا أعرف كيف قُتل، ومَن قتله!". وقعتْ المفاجأة عليهم كالصاعقة، فغر طرسوس فاه كالأبله، وانفجر فيها الأمير موبخاً: "هل تدركين ما تقولي يا فتاة؟". وهمس حمدون بتلطف: "أواثقة أنتِ يا سلوان؟". أجابتهم في ثقة: "أجل!". ثم شرعت تحكي لهم ما وقع أمام عينها في القبو، والأمير يضرب كف بكف، وحمدون يتحرق شفقةً عليها ورأفة بها؛ فكيف لهذه الفتاة الرقيقة أن تتحمل هذا الذي رأته!

ظلت متماسكة وهي تحكي إلى أن انتهت؛ فجلست على فراشها، ودفنت وجهها بين كفيها وأجهشت بالبكاء، فإن مشاعرها المرهفة لم تتحمل ذكرى هذه الليلة المشؤومة. راح الأمير محمد يفرك جبهته بيده، وأخذ يدير الأمر في رأسه؛ متمنياً أن تكون الفتاة صادقة في حكايتها شماتةً منه في أعدائه، وحقداً منه على شنجول. أما حمدون فقد رقَّ قلبه لها، وحزن لأجلها، وهمّ أن يقترب منها ليجلس بجوارها ويُهدأ روعها، ويُلاطفها حتى يُنسيها آثار ما كانت تحكيه. أراد بشدة أن يمحو ذكرى هذه الليلة المرعبة من ذاكرتها، أراد أن يجلس جوارها لتبثه شجونها فيربت على كتفها، لكن حياءه منعه، ولم يسعفه لسانه ليقول لها شيء؛ فمكث صامت في وجوم. ظل المشهد هكذا حيناً: سلوان تبكي على فراشها، والأمير شارد الذهن يُعمل الفكر فيما سمع، وحمدون مشدوهاً متألماً لبكائها. إلى أن كسر الأمير محمد حاجز الصمت موجهاً حديثه لها: "كيف نصدقكِ يا فتاة؟ أين هذا القبو الذي تزعمين؟". رفعت رأسها، وهي تمسح دموعها بكفها ثم قالت: "إنه في منزل ابن الرسان". "أين منزل ابن الرسان هذا؟". "كان منزلاً حقيراً، ليس كدارنا التي في قرطبة، أحسبه عند باب اليهود". "تحسبيه؟! ألا تعلمي أين هو بالضبط؟". "لقد كنتُ معصوبة العينين حين حملني إليه، وكان الوقت ليلاً فلم أعرف أين أنا بالضبط". "هكذا؟! أظنكِ تلعبي بنا يا فتاة!". قاطعه حمدون ساعتئذ وصاح بجدية: "سيدي! ارفق بها.. وبنفسك! إنها صادقة؛ ويمكن أن نتأكد من قولها". تدخل طرسوس قائلاً: "نعم يا أميرنا! أنا أستطيع أن أتأكد من صدقها". "كيف يا طرسوس؟!". "إني أعرف ابن الرسان هذا، وأعرف أحد رجاله الموثوقين. رجل اسمه فرتون". "أحقاً تستطيع ذلك!". "أجل.. ليس في ذلك بأس". "لكن.. احذر أن ينتبه أحد لأمرنا!". "لا تقلق يا أميرنا". التفت الأمير محمد إليها وقال: "أتمنى أن تكوني صادقة حتى لا أعير بقتلكِ". ثم التفت إلى طرسوس مرة أخرى؛ وسأله بلهجة الآمر: "هل تقدر أن تستبين حقيقة هذا الأمر الليلة؟". "أَنزلُ إلى قرطبة؛ وأحاول أن ألتقي بفرتون؛ وآتيك بالخبر".

-المشهد الرابع عشر-

قضى الأمير محمد بن هشام جل ليله في مغارته على جمر الانتظار والترقب إلى أن يعود إليه طرسوس بالخبر اليقين، ويجلس إلى جواره جسدُ حمدون؛ أما عقله وقلبه فقد تركهما في خباء سلوان عساهما يخففان عنها ما أصابها من هلع، وقد أوصاهما ألا يتوانيا في مواساتها، وألا ينسيا الاعتذار لها، وأن يطلبا منها السماح والعتبى حتى ترضا. أما هي فقعدت على فراشها وأسندت رأسها بين راحتيها، وأخذتْ تُقلِّب الأمر في رأسها؛ كيف قالت ما قالت؟! ولِما باحت لهم بهذا الذي شاهدت؟! لقد ورطت نفسها في أمر عظيم. لمّا ينبلج الصباح حتى عاد طرسوس، وقد أضناه السهر، وأعيته وعثاء الطريق؛ لم يمهلاه: "ماذا وراءك أيها الضخم؟". "شربة ماء!". "أعطه ماء يا حمدون!". تجرع الماء على مهل ثم شرع يقص عليهم ما حدث: "ذهبتُ إلى الحانة التي يتردد عليها فرتون؛ وسألتُ عنه، فقالوا انتظره. ثم جاء؛ فسلمتُ عليه ورحبتُ به كأني أشتاق إليه منذ زمن، فوجدتُه عابس الوجه، متغير المزاج؛ فسألتُه ما الخبر فحدثني بحديث هو ما تريدانه". "ماذا قال؟ تكلم أيها اللكع!". انطلق يقول: "كما قالت الفتاة! لقد كان يحرس لابن الرسان وكراً سرياً يعتق فيه الخمر، وذات ليلة جاءه ابن الرسان يحمل فتاة شابة وقد كمم فمها، وأوثق يديها وعصب عينيها؛ وأعلمه أن هذه الفتاة ستكون حبيسة داخل المنزل في حراسته، وأوعده إنْ مسها بسوء أو هربت منه؛ ثم أرشده أن يجيب حاجتها لو أرادت طعاماً أو ما شابه؛ وذات ليلة جاءه فصرفه هو ورجاله على عجل، وأمره ألا يأتوا إلا في الليلة التالية، فأمتثل لأمره، ثم جاءهم بعدها بيومين؛ ودخل المنزل ثم خرج يصرخ: أين الفتاة؟ وراح يلطمه ويوبخه، وفرتون ثابت ساكن لا يتحرك ولا يقول أي كلمة سوى: لا أدري لم يخرج أحد ولم يدخل أحد، ولم يحدث ما يريب. فثار عليه بشدة وشتمه وعنفه ثم صرفه من ساعته وطرده من خدمته؛ وقال: لا أرى وجهك إلى أن تأتيني بالفتاة! ثم أردف متمماً: وأنا -إلى اللحظة- لا أدري من الفتاة!". انفرجت أسارير حمدون وهمس

مستبشراً في ارتياح: "صدقتِ والله يا سلوان". بيد أن الأمير لا زال ينتظر.. ويترقب بقية كلام طرسوس: "أكمل أيها الضخم؟". "لا شيء بعدُ؛ هذا كل ما حدث!". "ألم يخبرك بشيء آخر؟". "لا.. لم يخبرني". "ألم يخبرك عن شنجول وقتيله؟". "لا لم يزد على ما قلتُه!". "وفيما قضيتَ الليل معه إذاً؟". "كنا نشرب ونتذاكر أيام الصبا!". "أيام الصبا؟! لم تأتني بما أريد أيها الأحمق". أشاح بوجهه عنهما في ضيق؛ وقعد يقلّب الأمر في رأسه صامتاً. أما حمدون فكان قلبه يطير فرحاً حيث تأكد له صدقها ونقاء سريرتها، وراح يراقب أميره متحيناً لفرصة يكلمه فيها في أمرها. أما طرسوس فما فتئ يفكر؛ ويجهد عقله الخمول ليطيب بها نفس سيده؛ حتى قال متردداً: "لكن ثمة خبر جديد يا سيدي! لعلك تريد أن تعرفه؟". "هات ما عندك!". "سمعتُ من الناس في الحانة أن الخليفة أنعم على شنجول بلقبٍ جديد!". "ماذا تقول؟ كيف أنعم عليه بلقب؟!". "يقولون لقَّبه: الحاجب المأمون؛ وأمر الناس في سائر الأقطار بمخاطبته بهذا اللقب". "أيه! يريد شنجول أن يتلقب بألقاب الملوك ولمّا يمضِ عليه في الحجابة سوى أيام عديدة! وخالق هذا الجبل؛ إنه لفتى عجول، وماذا أيضاً؟". "لا شيء! ليس لديّ شيء آخر لأقوله". "والله إن صمتك أفضل!". ثم عمّ الصمت المكان مدة ليست قصيرة إلى أن خرق الأمير جدار الصمت قائلاً: "هيا! انصرفا.. اتركاني وحدي!"

-المشهد الخامس عشر-

استيقظ الأمير محمد بعد سويعات فأرسل في طلب حمدون؛ غاب عنه حيناً ثم جاءه يحمل قوسه وكنانته، سأله: "أين كنت يا رجل إني أنتظرك منذ مدة؟". "خرجتُ أبحث عن صيد في الشعاب". "هل حصلتَ على فريسة؟". "انظر بنفسك.. أمام المغارة". "أعلم أنك رامٍ ماهر، وصياد محنك؛ لكني أرى أنك خرجتَ تصطاد لأمرٍ أهمك.. فما الذي يشغلك؟". "لا شيء يا أبا الوليد؛ إنما أردتُ أن أُعد لك غذاءً

طيب". "أنا أعرفك جيداً يا حمدون! لا تراوغني؛ فحالك لا يخفى عليّ". "لا شيء سوى قضيتنا، ومشكلة المال الذي لا ندري كيف سنحصل عليه!". "بل يشغلك أمر الفتاة!". اعتدل حمدون في جلسته، احمرت وجنتاه كأنه صفعه على وجهه وسأل مندهشاً: "أي فتاة؟". رمقه محمد بنظرة ذات معنى؛ فأردف حمدون متمتاً في خضوع: "تقصد سلوان؟!". (أومأ محمد برأسه أن: نعم!) فأردف حمدون قائلاً كمن ينفي عن نفسه تُهمة: "إنما رأيتُ أنها فتاة بائسة؛ فأشفقتُ عليها". "أرفق بنفسك يا صديقي، ليس في ذلك بأس؛ ولكن لا تشفق عليها بعد اليوم!". تهلل وجه حمدون وصاح مستبشراً: "لن تردها لابن الرسان ذاك؛ أليس كذلك؟". "سنُرَوِّي في أمرها يا حمدون؛ لكن الآن أود...". قاطعه دخول طرسوس صائحاً بهما: "ألم تشما يا صاحبي رائحة الشواء؟ إن هذا الفتى يا أميرنا يصيد ظباء شهية". "صدقتَ يا طرسوس؛ هيا آتينا غذاءنا". جلست عصبة الرجال تأكل من صيد حمدون الشهي؛ وجلس الأمير وحمدون وطرسوس على سفرة واحدة؛ ولم ينسَ حمدون أن يرسل منها إلى سلوان. بادرهم الأمير قائلاً: "كنتُ أتساءل يا رفاق.. كيف سنحصل على المال اللازم لجهادنا؟" اندفع طرسوس صائحاً والطعام يملأ فمه: "لا أرى غير السطو على أغنياء العامريين –بربر وصقالبة-!". رمقه حمدون ساخطاً على رأيه مشمئزاً من منظره؛ وقال موبخاً: "خسئتَ أيها العُتل! أتريدنا أن نصير لصوصاً وقطاع طريق؟". قال الأمير بهدوء: "هدأ من روعك يا حمدون إنما الرجل يقترح؛ هو مجرد رأي". "بئس الرأي، وبئس صاحب الرأي". فقال الأمير: "عندي رأي آخر!". فتساءل الرجلان باهتمام: "ما هو؟". حدَّق فيهما ليتأكد أنهما ينصتان إليه جيداً ثم قال باقتضاب: "الفتاة!". فاندفع طرسوس: "ستبيعها لابن الرسان؟". امتعض حمدون، وهمّ أن يقول شيئاً؛ لكن الأمير أسرع قائلاً: "لا يا نبيه!". فتعجل طرسوس القول مرة أخرى: "ستساوم بها شنجول؟". انفجر حمدون فيه هذه المرة غاضباً: "صه يا لعين؛ والله إنَّ لك عقل شيطان". فهتف الأمير: "اهدأ يا حمدون". "كيف

أهدأ؟ ألا تسمع ما يقول يا أبا الوليد هذا الوغد؟". "دعك منه؛ واسمع مني! هذه الفتاة شاهدة على أن شنجول تآمر على المظفر عبد الملك وقتله؛ أليس كذلك؟". "بلى!". "إذاً! كيف نستغلها في الحصول على المال؟". قال حمدون متحيراً مكظوماً: "أفصح عما يدور بعقلك يا أميرا!". "لو استطعنا أن نقنع أم المظفر بقول هذه الفتاة؛ فستحقد على شنجول لتآمره على قتل ابنها؛ وستسعى للثأر منه؛ ساعتئذ سنكون نحن هنالك؛ وسنكون يدها التي تبطش بها؛ وسنستمدها المال اللازم للانتقام لولدها". "وما أدراك أن أم المظفر ستسعى للثأر لولدها؟". "إنها امرأة عربية شريفة، زوجة المنصور، وأم المظفر؛ ألن تطلب ثأر ولدها الملك الذي كان ملء السمع والبصر؟! والله لو قُتل لها تيسٌ لسعتْ في ثأره". "إنَّ هذا كلام يُعقل؛ لكن كيف سنتصل بأم المظفر هذه؟". "هذا ما نحتاج لتدبيره؛ وإلى ذلك الحين فإني أعهد إليك بحراسة الفتاة يا حمدون؛ فأحسن رعايتها". بادر حمدون فرحاً متهللاً: "أصونها بروحي بعون الله". ثم التفت الأمير إلى طرسوس وقال له: "أما أنت.. فإني أريدك في مهمة أخرى". فصاح بحماس: "أنا لها يا أميري!". "أريدك أن تكون رسولي إلى ابني عمي المغيرة[1]: محمد[2] وعبد الجبار[3]؛ فإني أرى فيهما خيراً؛ أريد أن أقابلهما سراً لأعرض عليهما أمراً؛ فاذهب إليهما؛ واحرص على تكتم الأمر".

-المشهد السادس عشر-

سارع حمدون إلى كهف سلوان، وصرف مَن حوله مِن الرجال. ضرب الأرض بقدميه، وتنحنح لكي يُعلمها بقدومه؛ فأحستْ به، وعرفتْ أنه حمدون؛ فهلل قلبها، وانشرح صدرها؛ قامت منتشية لتستقبله، وترحب به. لكنها توقفت وأحجمت عما همّت به؛ ثم قعدتْ مكانها كأنما لا تهتم لقدومه. على استحياء استأذن في الولوج؛ فلم تمانع.. دلف مطأطئ الرأس، غاض الطرف -كدأبه معها- وظل لحظات طويلة يحاول أن يستجمع شجاعته، ويحاول أن يبوح لها بما يجيش في صدره؛ بيد أن

شجاعته تخلت عنه، وخانه لسانه؛ فضاعت بين شفتيه الكلمات! أخيراً وبعد جهاد ومجاهدة استطاع –على استحياء- أن يهمس: "هل وجدتي عليّ؟". نظرت له في أسى، ولم تجب؛ فأردف قائلاً: "سلوان! ثقي أني لن أمسك بسوء؛ ولن أسمح لأحد أن يؤذيك". انفجرت صائحة في انفعال: "بلى! الآن لن تقتلوني؛ لكنكم ستعودونني إلى ابن الرسان؟". "بالطبع.. لا! لقد راجعتُ الأمير في الأمر، وأكد لي أننا لن نردكِ لهـــذا

---

[1].. رقم ١٠ في شجرة النسب ص٤

[2].. رقم ٦ في شجرة النسب ص٤

[3].. رقم ٥ في شجرة النسب ص٤

الغادر". كانت لهجته، ونبرة صوته الشفيقة تضغط عليها كي تسامحه وتصفو له؛ فشرعت تُلطف من حدتها وسألتْ: "من هذا الأمير؟ أنا لا أعرفكم؟ من أنتم؟!". "سأبوح لكِ بسرنا يا سلوان، كما بحتِ بسرك". نظرتْ إليه منتبهة وأنصتتْ لما سيقول؛ فأردف قائلاً: "لقد قَتَل الحاجبُ المظفر وأخوه شنجول الأميرَ هشام بن عبد الجبار والد أميرنا محمد الذي رأيتِ؛ وهو أمير مرواني من أحفاد الخليفة الناصر. ثم حاول رجالهما مطاردة محمد للتخلص منه، لكنه احتاط لنفسه؛ وفر منهم؛ وهو الآن يختفي عنهم كما رأيتِ.. ثم شرع يسعى للثأر لأبيه، وقرر التصدي لاستبداد عبد الملك –الذي ورثه عن أبيه المنصور- وأنصاره من العامريين، وتخليص قرطبة والأندلس من ظلمهم". "هل ترى أن المظفر أو أباه المنصور كانا ظالمين؟!". "وإنْ كان المنصور عادلاً ومجاهداً شهماً! لكنه استبد بالأمر دون الخليفة وعشيرته من المروانية حتى صار هو المتصرف الأوحد في أمر الخلافة؛ وقضى على سلطان الخليفة، ومحى رسوم الخلافة، وطوّق أعناق الناس بأغلال خانقة، واتخذ هو وابنه الأعوان من البربر والصقالبة؛ واستجلب منهم الكثير وحَكّمهم في رقاب العباد،

فتسلطوا على أهل الأندلس. فرغم ما أبدياه –هو وابنه- من جهاد، ورغم ما أصاب الأندلس في عهدهما من رخاء وقوة؛ إلا أنهما -في رأيي- ظالمان ومغتصبا للسلطة دون أصحابها الشرعيين". "ومَن أصحاب السلطة الشرعيون في رأيك؟". "المروانية! بنو مروان.. هم مَن يحكمون الأندلس منذ زمن الداخل. وأبناء الخليفة الناصر وأحفاده هم أولى بحكم البلاد الذي وحدها هو بعد فُرقة؛ ورد لها شرفها بإعلانه الخلافة بعد أن كان حكامها من قبله مجرد أمراء؛ أبناء الرجل العظيم –الخليفة الناصر- الذي جعل قرطبة درة العالم، والأندلس جنة الأرض؛ هم أولى بوراثة ملكه من هذا الذي جاء متسلقاً على أكتاف الخليفة". "هل تقول إن الملك المنصور جاء متسلق على أكتاف الخليفة؟! فإني أرى أنه هو من حفظ للخليفة ملكه وسلطانه؛ وهو من حفظ للناصر إرثه". "وإنْ كان؛ فقد كان الحاجب؛ أي أنه عامل من عمال الخليفة؛ فلا يحق له الحجر عليه". "الخليفة هشام المؤيد هو من أراد لنفسه ذلك". "أجل! أصبتِ؛ لذلك فنحن نريد أن نرد الخليفة إلى رشده؛ فيتولى هو أمر مملكته ويحكمها بسلطانه، ونقضي على تسلط الحُجاب؛ ولا سيما بعد موت المنصور وولده المظفر، وتولي الفاسق شنجول الحجابة". "هذا هو ما أوافقكَ الرأي عليه؛ لا ينبغي للخليفة أن يولي أمر الأندلس لرجل كهذا!". "هل تعرفيه؟!". "يكفي أني أعرف أنه يصحب ابن الرسان؛ ويكفي أني سمعتُ بأذني تآمره على أخيه ليقتله؛ ويكفيني أني شاهدتُه يقتل بدم بارد؛ فكيف لمثل هذا الرجل أن يحكم الأندلس؟ وكيف نأمنه على أنفسنا وعلى الخلافة؟!". "صدقتِ والله يا سلوان؛ إذاً أنتِ معنا؟". "ماذا تقصد؟!". "أقصد أن رأيكِ من رأينا في أنه يجب الثورة على شنجول؛ وإجبار الخليفة على خلعه وتولية رجل آخر مكانه من بني مروان!". "ثورة!! أنا لا أهتم لهذا الأمر! أنا حتى لا أعلم..." (قطعت كلامها)، وصمتت فجأة؛ فإنها لا تريد أن يعلم عنها شيئاً. نظر إليها نظرة ود واستفسار.. كمن يسألها من أنتِ. لكنها صدمته قائلة في لهجة آمرة: "لقد أطلت عليّ، أرجوك.. انصرف!". ثم أشاحت

بوجهها عنه، وولته ظهرها؛ فلم يجد بداً من الانصراف عنها حائراً في أمرها: لماذا أطالت معه الكلام هكذا في أمور الملك وقضايا السياسة، ثم فجأة أنهت حديثها معه دون أن تحدثه عن نفسها أو تسأله عن نفسه؟ غير أنه لا يدري أنها هي –أيضاً- كانت تود أن تسأله عن نفسه، وتخبره عن نفسها؛ لا يدري أنها كانت تود أن تقول: أنها لا تعلم لنفسها أهلاً في الأندلس مذ ماتت أمها –ومن قِبلها أبوها- وأنها تحس الآن وبعد أيام قليلة قضتها -في هذا الكهف- في ضيافته! لا غرو في ضيافته فهي تشعر بذلك؛ تشعر بأنه يعاملها كضيفة لا كأسيرة؛ إنها تحس بعد هذه المدة القصيرة كأنه هو أهلها الذين كانت تبحث عنهم. ورغم تخليه عنها ساعة هددها أميره؛ إلا أنها ما زالت تشعر بالأمان وهو جانبها.

-المشهد السابع عشر-

دأب شنجول منذ أيام وبعد أن تلقب بالحاجب المأمون ناصر الدولة، دأب على أن يقضي بعض نهاره في صحبة الخليفة في القصور والمتنزهات، ثم يقضي جل ليله ساهراً بصحبة ندمائه وأصحابه، ثم صار يدعو رجال دولته وعماله إلى هذه الليالي الصاخبة؛ ومن أراد منهم أن يراجعه في أمور المملكة وشئونها فليفعل ذلك في حفلات السُكر والمجون هذه؛ فتأفف منه كبراء الدولة؛ ونفر منه صالحوهم، وداوم على صحبته منافقوهم. ذات ليلة من تلك الليالي؛ كان يجتمع عنده -غير ندمائه من الجواري الخليعات والرجال البطَّالين أمثال ابن الرسان- بعض رجال الخاصة: منهم محمد ابن ذُرَي، وفتاه الأكبر وأمين قصره (الفتى محب الصقلبي)، وأمين قصر أخيه المظفر (الفتى بُشرى الصقلبي)، والشاعر (ابن أبي يزيد المصري)، والكاتب الشاعر (أحمد بن برد)، وغيرهم من أمثالهم. وراح القوم يلهون ويلعبون ويسكرون ككل ليلة؛ غير أن الحاجب الأعلى (شنجول) فاجأهم برغبته في ابتداع

ملهاة جديدة يتلهون بها فقال والخمر يتقاطر من فمه: "سنلعب الآن يا رفاق لعبة جديدة نتسلى بها!". انتبه الحاضرون كأن الرجل سينبأهم نبأ عظيم؛ فأردف يقول: "ألستُ سيدكم وصاحب الكلمة فيكم؟". أجاب الكل مقرين: "أي نعم!". "إذاً كل من آمره منكم الآن أمراً فلينفذه من فوره". "سمعاً وطاعةً أيها الحاجب المأمون!". ثم التفتَ إلى جارية وأمرها أن تُنشد شعراً لابن أبي يزيد –الذي كان حاضراً- فغنت الفتاة غناءً مرحاً، فصفق القوم لها ولابن يزيد بشدة؛ وانتشى ابن يزيد وظهرت أمارات السرور والحبور على وجهه. ثم توجه شنجول بالحديث إلى الكاتب أحمد بن برد وصاح آمراً: "يا ابن برد! سُب شاعرنا العظيم ابن أبي يزيد!". "لا يليق يا مولاي!". "ألستُ حاجب الخليفة والمتصرف في سلطانه؟". "بلى يا سيدنا!". "ألستُ ملكاً لرعايا أمير المؤمنين؟". "بلى.. يا مولانا!". "إذاً أنا آمرك أن تسب ابن يزيد؛ ألن تمتثل للأمر؟!". "إذا كانت هذه هي رغبة الملك المأمون؛ فأنا أسبه". وراح ابن برد يسب ابن أبي يزيد ويشتمه؛ وشنجول ينفجر ضاحكاً، وندماؤه معه؛ أما ابن أبي يزيد فقد تغيرت ملامحه، وانقبضت أساريره، وامتلأ صدره غضباً وحنقاً، لكنه كلما همّ برد السباب لابن برد سكتَ؛ فسأله شنجول: "ألا ترد عليه يا ابن أبي يزيد؟ ألا تقتص منه وتسبه كما سبك؟!". "لا يجوز لي أن أتلفظ بمثل هذا في حضرة حاجب أمير المؤمنين". "أنا الحاجب، وقد أذنتُ لك!". "معذرةً يا سيدنا، لا أستطيع!". "إذاً! أنت من فرطتَ في حقك؛ ضيعتَ فرصتك في الرد عليه؛ فلن أسمح لك بسبه بعد الآن". ثم بعد وهلة، التفت إلى ابن الرسان وقال له: "هذا دورك يا ابن الرسان.. من تسب ياتُرى؟". شرع يتفحص وجوه القوم –وهم وجوم- يبحث عمن سيسبه ابن الرسان ثم قال وهو يشير إلى محمد ابن ذُرَي: "ها هو ذا. ابن ذُرَي! هيا سبه يا ابن الرسان؛ وكيِّل له سباباً ثقيلاً!". انطلق ابن الرسان يسب ابن ذُرَي؛ والأخير يكتم غضبه في نفسه، ويلعن من أجلسه مع هذا الفتى الخبيث وندمائه، ثم انفجر هو أيضاً في سباب شاتمه؛ حتى قاما من مجلسهما وكاد يتصارعان لولا أن الحراس فصلوا

بينهما؛ كل هذا يحدث وشنجول وجواريه يتضاحكون ويسكرون. ثم عمّ صمتٌ وترقب.. إلى أن جأر شنجول قائلاً: "لم تنتهي اللعبة بعد! من التالي؟ آه! الفتى بُشرى.. عامل أخي المظفر الأمين!". "عامل المظفر –رحمه الله-، وعاملكم يا مولانا الحاجب المأمون!". "إذاً من آمرك أن تسب؟ سُب فتانا محب فهو أحب الناس إليك.. هاهاها!". "لا أستطيع يا سيدنا!". "لا تستطيع تنفيذ أمر الحاجب الأعلى؟! هل جننتَ يا رجل؟ هيا.. سبه!". "عذراً لا أستطيع". "لا تستطيع سب الفتى محب! إذاً! سُب مولاك المظفر!". "سيدنا!!". "لا تريد أن تسب ميتاً؛ إذاً سُب سيدك محمد بن المظفر!". "مولاي.. لا أستطيع أن أشتم ابن أخيك؛ هذا يعني أني أشتمك!". "إذاً.. تقول إنك لن تنفذ أمر الملك؟". "لا أستطيع يا سيدي، أرجو السماح!". "إذاً سبيه أنتِ أيتها الجارية". فراحت الجارية تسب بُشرى وتشتمه؛ وهو يتحرق قهراً وغيظاً؛ إلى أن انتهتْ من شتمه وسبه بكل ما أُوتيتْ من وقاحةٍ وخلاعة؛ قام بشرى من مجلسه مغضباً واستأذن في الانصراف، فقال شنجول وهو يترنح ضحكاً وسكراً: "ألن ترد عليها؟". "لا أستطيع أن أسب امرأة يا سيدنا! إإذن لي بالانصراف!". "إنْ كنتَ لا تستطيع تنفيذ أوامر الحاجب الأعلى؛ فلا تطلب منه شيئاً بعد الليلة". "لن أطلب! إإذن لي يا سيدي فإني متوعك". "هيا اذهب". استأذن ابن ذُرَي أيضاً لينصرف؛ فخرج يلحق ببشرى، وسارا معاً يلعنان من أجلسهما مع هذا الفتى العربيد، ويترحمان على المنصور والمظفر كيف يكون من طينتهما هذا الفتى؛ ثم يتحسران على أهل قرطبة والأندلس.. وما آل إليه حال حاجبهم.

-المشهد الثامن عشر-

استقبل بُشرى نهار يومه الجديد كعادته؛ يتابع شئون قصر المظفر الذي تقطن فيه الذلفاء (أم المظفر) وأم حفيدها الصغير (محمد بن المظفر). بيد أنه بدا مهموماً، متغير المزاج، عابس الوجه، مضطرب الحال. سألته سيدته الذلفاء عما يهمه:

تهرب منها، لكنها أصرت أن يفصح لها عن مكنون نفسه؛ فاضطر أن يقص عليها ما حدث البارحة في قصر شنجول ثم قال في أسى وعيناه تستعبران: "لكن أشد ما كان عليّ يا سيدتي أنه أمرني بسب مولاي المظفر دون مراعاة للرحم أو لقداسة الموت؛ فلما لم أفعل؛ أمرني أن أسب سيدي محمد؛ فلما رفضتُ، جعل جارية وقحة تسبني وتشتمني بأقزع الألفاظ وأبشعها؛ لكني حياءً منكِ ومن ذكرى مولاي المظفر؛ لم أرد عليه أو على جاريته؛ والله لقد كنتُ أخدم عند بني الخليفة الناصر، ثم مولاي المنصور –رحمه الله-، ثم مولاي المظفر –غفر الله له- لم يُهينني أحد منهم مثلما أهانني هذا الرجل؛ فإني والله يا سيدتي حزين مقهور؛ قلبي يغلي بين ضلوعي؛ ولا أدري ماذا أفعل!". "طب نفساً يا بُشرى؛ فإن كل بئر ينضح بما فيه؛ وإني لمثلك أترحم على الملك المنصور وولدي المظفر، وأتحسر من أفعال هذا الفتى.. والله إنه يسيء إلى ذكراهما في كل يوم ينصرف فيه عن مهام منصبه وهموم الدولة بهذا المجون؛ ولقد هممتُ الأيام الماضية أن أذهب إليه فألومه وأعاتبه، لكني أخاف العاقبة على حفيدي محمد، فليس لي أمل في مستقبله إلا أن يُدنيه عمه هذا من المناصب وشئون الملك". "ألا تعلمي يا مولاتي أنه لم يصطحب سيدي محمداً معه إلى الخليفة رغم اصطحابه لولده عبد العزيز –الذي لم يتجاوز الثالثة- أكثر من مرة في حضرة الخليفة. والله إني لأخشى على سيدي محمد أن يكون بعد ذلك من المُبعدين!". "صدقتَ يا بُشرى! وإني أصبحتُ أرتاب في هذا الشاب وفي أفعاله. فمع أنه لم يُخرجنا من قصرنا؛ إلا أني صرتُ أخشاه على نفسي وعلى حفيدي؛ فيجب أن نحتاط لأمرنا؛ فإن طموحه الجامح دفعه لمحو آثار المظفر؛ ودفعه تعجله إلى السعي للتلقب بألقاب الملك ولم يمض على مدته عشرة أيام؛ فما ندري ماذا سيفعل بعد ذلك". "فماذا ترين يا مولاتي؟". "سأُجهز داري التي في قرطبة، وأُخبئ المال الذي عندي.. وهو كثير؛ تحسباً لأي شر؛ ثم أحاول أن أنصحه، وأدعو حكماء الدولة لينهروه عما يفعل من تضيعٍ لإرث أبيه وأخيه". "لكني أظنه لن ينتهِ يا

مولاتي؛ وأخاف والله على الأندلس مما قد يُصيبها في كنفه!". "حفظ الله الأندلس وأهلها يا رجل! هيا.. كفكف دموعك، وطب خاطراً، وانصرف إلى عملك".

-المشهد التاسع عشر-

بُعيد صلاة العشاء، دخل محمد بن هشام بن عبد الجبار –ملثماً متخفياً كعادته- إلى دار عم ابيه –المغيرة بن الخليفة الناصر- المهجورة، فوقف في بهو تبدو عليه آثار ثراء قديم، ثم يمم وجهه تجاه غرفة مُغلقة تبدو من مظهرها كأنها ضريح ميت. رفع يديه للسماء، وشرع يدعو بصوت خفي؛ انتهى من دعائه ثم التفت خلفه؛ فوجد رجلين شابين واقفين يفعلان مثله –قد أحس قبل لحظات بقدومهما لكنه لم يقطع دعاءه لأجلهما- التفتَ إليهما وشرع يقول: "رحم الله عمي المغيرة؛ لقد كان نعم الرجال!". "رحمة الله عليه، فقد ارتاح مما نحن فيه!". "أتظنان حقاً أنه ارتاح؟". "ماذا تقصد؟ الموت راحة للمؤمن يا محمد!". "كيف يرتاح من مات غدراً يا ابن المغيرة؟ كيف يرتاح أبوكما؛ وطائر الثأر مازال يحوم حول قبره؟ ألا تستحيان؟!". كان هذان الرجلان هما عبد الجبار ومحمد ابني ابن عم أبيه (المغيرة). حملق فيهما بغضب وهو يردف موبخاً: "منذ أكثر من ثلاثين عام في هذا المكان قُتل أبوكما، وها أنتما أولاء تأتيان لمقابلتي في نفس المكان، كأنه مازال مجلس أبيكم؛ ليس قبره". فصاح عبد الجبار: "مثلي لا يخاطب هكذا يا محمد! أنا لم أنس ذكرى أبي، وما جئتُ إلى هذا المكان إلا لأنه قبره". "ألا تعلم يا عبد الجبار كيف مات أبوك؟ لقد كنتَ موجوداً؛ لكنك نسيتَ، أما أنا فمذ حكى لي أبي -وأنا طفل صغير- كيف قُتل عمه غدراً، ولم أنس! لم أنس كيف قتل ابنُ أبي عامر المغيرةَ بن الخليفة الناصر!". قاطعه محمد بن المغيرة: "ماذا تريد منا يا محمد؟ لما طلبتَ أن نأتيك ونقابلك هنا؟!". "لأروي لك الحكاية التي نسيتها أنت وأخيك!". "لا داعي لهذا الآن..".

"اصمت لا تقاطعني حتى أُكمل! في ليلة كهذه منذ ثلاثين عام ونيف؛ وفي هذا المكان الذي نحن فيه؛ دخل محمد بن أبي عامر على أبيكما –ليلة مات الخليفة الحكم المستنصر- وبأمر من جعفر المصحفي (حاجب المستنصر)؛ وأمر رجاله أن يخنقوا أباكم في مجلسه هذا! ثم حملوه إلى هذا المخدع –الذي تسمونه الآن قبره- وعلقوا جسده كهيئة المختنق من تلقاء نفسه؛ كل ذلك أمام عين أمك، وأخيك عبد الجبار هذا! ثم أشاعوا أنه خنق نفسه لما أرادوه أن يأتي لبيعة ابن أخيه الطفل هشام بن الحكم بالخلافة؛ الذي أصبح الخليفة المؤيد، فعل ابنُ أبي عامر ذلك خوفاً من أبيكما لأنه كان أحق بالخلافة؛ ثم أمر ابنُ أبي عامر بدفن جثمان أبيكما –الشهيد- في هذا المخدع أمام عينك يا عبد الجبار! ألا تذكر؟!!". "أذكر يا ابن العم! أذكر؛ ولن أنسى توسل أمي –وهي تحتضنني- لابن أبي عامر بألا يقتلها، ولا يقتلني؛ فرّقَ لبكائها؛ وأمرها أن تسكتْ، وألا تُحدّث أحداً بما حدث إنْ أرادتْ أن يعيش ابنها!". "فبقيتْ ساكتة؛ وظللتَ ساكت يا عبد الجبار ثلاثين سنة أو يزيد! يدّعون على أبيك أنه مات منتحراً؛ وأنت تسكت! ألا تستحي منه؟ ألا تثور حمية لأبيك، وثأراً له ممن قتلوه، وسلبوه مُلكه، ومُلك أبيه؟!".

لم يكن محمد بن هشام أديباً بليغاً، ولم يكن خطيباً مفوَّهاً، ولم يكن حكّاءً محترفاً؛ لكن كلماته اخترقت قلبي ابني عمه فأدمتهما كمداً وحسرةً وخجلاً؛ فانهمرت العبرات الصامتة من عيون عبد الجبار، وراح محمد يبكي كالطفل الصغير، وينتحب كأن صدره المرجل؛ بيد أن ابن هشام لم يصمت وراح يسترسل في حديثه كأنه يقرعهم: "أتدري يا محمد ماذا فعل ابنُ أبي عامر بعد ذلك! صار يرعاك، ويرعى أخاك هذا، وأمه رعاية الذئب للحملان بعد أن فتك براعيها! فسكنتم، وسكت أبناء الناصر عن دم أخيهم؛ ونسيتم ثأر أبيكم، أو تناسيتموه؛ خوفاً من ابن أبي عامر، وولده من بعده!!". "كفى يا محمد! بالله عليك كفى!" (قالها محمد بن المغيرة وهو مازال يبكي). بينما صاح أخوه بإصرار: "لم أنس يا ابن العم؛ ولم أخش أحداً في حياتي إلا

الله؛ لكني خشيتُ –مثل باقي المروانية- على الأندلس إنْ هببنا للقصاص من المنصور أن تصير فتنة تحرق البلاد؛ فصبرنا على ما ابتلينا، وتجرعنا مرارة الأسى وحدنا، ودفنا جمر الغضب والثأر بين ضلوعنا؛ فراحت تحرقنا نحن دون غيرنا؛ فعلنا ذلك حرصاً منا على الأندلس؛ التي هي إرث جدنا الناصر.. وإرث بني مروان!". فأجابه ابن هشام بقسوة: "وماذا فعلتْ لك الأندلس يا فارس بني مروان؟ وأين هو إرث جدك الناصر يا بطل أحفاد الناصر؟! أتدري أين هو؟ انظر هناك حيث الزاهرة التي بناها ابن أبي عامر لتضاهي الزهراء؛ فستعلم أين ذهب إرث الناصر! ذهب إلى ابن أبي عامر، وولده.. ذهب إلى شنجول ينفق منه كيف يشاء على جواريه وندمائه!". فصاح به محمد بن المغيرة، وهو يكفكف دموعه: "كفى يا محمد! والله إنك لصادق، وإننا لمقصرون مذنبون؛ ولا أرى كفراناً لذنوبنا إلا السعي الحثيث لثأر أبي من ولد ابن أبي عامر؛ أو الموت دونه!". "ليس الثأر فقط! ليس الثأر فقط من العامريين؛ بل نسعى معاً لاستعادة مُلك جدنا الناصر ممن سلبوه منا!". رد عليه عبد الجبار مُراجعاً: "مازال مُلك جدك الناصر في يد حفيده أمير المؤمنين المؤيد بالله!". صاح ابن هشام موبخاً: "صه يا هذا! أين هذا المؤيد الذي تدعو؟ والله إنه لسر نكبتنا مذ آثره أبوه بالخلافة –وهو مازال صبياً صغيرا- على أخوته بني الناصر؛ فتحكم ابن أبي عامر في الخلافة؛ وتملَّك البلاد ورقاب العباد باسم هذا المؤيد. وإنه -والله-ليس بمؤيَد بالله؛ وإنما مؤيِد للشيطان ابن أبي عامر وأولاده من بعده؛ ألم تر؟! ولاه أمره فحجر عليه؛ فكافأه وسماه الملك المنصور؛ فلما هلك، لم يتعظ هذا المؤيد؛ ولم يسع لاسترداد ملكه وسطوته؛ بل أحب الخنوع والخضوع الذي كان يحيا فيهما لابن أبي عامر؛ فولى ابنه؛ وسماه المظفر، ثم هذا العربيد شنجول؛ والله إن ظل هذا المؤيد في الخلافة؛ فليضيعنها من بني الناصر إلى الأبد! وساعتئذ ستقولان: يا ليتنا اتخذنا مع ابن عبد الجبار سبيلا؛ لكن ساعتئذ لن ينفعكم عضُّ الأصابع ندماً!". "أتبغي أن تنقلب على الخليفة المؤيد؟". "أبغي أن تعود

الأمور لنصابها الصحيح يا ابن العم!". "كيف؟ ماذا تريد أن تفعل يا ابن عبد الجبار؟". "لم آتِ إلى هنا لأخبركما بما أنوي فعله؛ بل جئتُ لأُشهد عليكما أبوكما المرحوم؛ وأقيم عليكما الحجة أمام قبره! وأسألكما: هل تريدان الثأر لأبيكما واسترداد عز جدكما أم لا؟". انطلق محمد بن المغيرة هاتفاً وقد انحلت عقدة لسانه: "أنا معك يا ابن العم! وأقسم بالذي أعز جدنا الناصر بملك الأندلس؛ لن أخالفك حتى أنال ثأر أبي أو أهلك دونه! ابسط يدك إليّ أبايعك على ذلك!". أشاح عنه والتفت إلى عبد الجبار، وسأله في تحفيز: "وأنت! ألن تثأر لأبيك؟". "قبلُ.. أريد أن أعرف ماذا تنوي أن تفعل؟". رد عليه صارماً بلهجة الآمر: "لا!! بل البيعة أولاً وقبل أي شيء". "إذاً دعني أروي في الأمر؛ أمهلني ثلاثة أيام". "أمهلتُك. لكن بعدها: أنت إما معي أو عليَّ". فقال الأخ محمد ملطفاً الأجواء ومؤكداً أن رأي أخيه سيكون من رأيه كأنه سيقنعه: "بل معك إن شاء الله! ". "إذاً.. ألقاكما هنا بعد ثلاثة أيام".

-المشهد العشرون-

غادر محمد بن هشام قبر عمه، وقد إدلهم الليل؛ فانطلق بجواده تحمله رياحاً باردة، لكن أنفاسه الملتهبة مقتاً وحقداً تحيلها ريحاً سموما، يحدوه نحو هدفه أمل براق؛ إلى أن وصل إلى مكانٍ معلوم ينتظره فيه رجلان يتخفيان تحت جنح الظلام. كان هذان الرجلان هما: طرسوس.. ورجل من عامة أهل قرطبة هو: (صاعد بن عبد الوهاب الحرّار). ترجل محمد عن جواده، وفتح ذراعيه مرحباً بصاعد؛ أخذه في أحضانه، وحياه بحرارة؛ لكن صاعد كان متحفظاً قليلاً في تبادل التحية توقيراً للأمير المرواني. سأله الأمير: "ماذا وراءك يا ابن عبد الوهاب؟". "سيدي! أبذل قصارى جهدي؛ ولكن الناس منصرفة؛ منشغلون بدنياهم؛ والعامة والدهماء يقولون: ما لنا وبني مروان، وما لنا وبني عامر..". وأمسك عن الكلام حياءً؛ فهتف

الأمير: "أكمل يا صاعد: ماذا يقولون؟". "عفواً يا سيدنا! قد يضايقك قولهم!". "كيف يضايقني قولهم.. وأنا أعتبر نفسي واحداً منهم؟!". "يقولون: إنهم يتصارعون على المُلك؛ أما نحن –عوام الناس- فلا ناقة لنا ولا جمل؛ فلما نشغل أنفسنا بصراع لا طائل من ورائه؟". "سيكون وراءه ما يحبون! أعدك يا صاعد؛ إذا حدث ما أُخطط له؛ فسينال كل رجل وقف معي من العامة نصيبه من الغنيمة؛ وأنت أيضاً ستغنم كثيراً". "أنا معك يا سيدي على ما تهوى؛ ففضلكم وفضل أبيكم المرحوم عليّ لا يُنسى". "اسمع يا صاعد! كل ما أريده الآن هو: أن يشيع بين الناس أنه أوشك على الظهور قائمٌ ثائر من بني مروان؛ سيقضي على سطوة العامريين، ولا تسمي هذا الثائر!". "هذا كل الأمر يا أبا الوليد؟". "أجل يا صاعد! إلى حين!". "أمرك يا سيدي؛ ولكن..". "لكن ماذا؟". "إذا تألفنا الناس ببعض المال، ونشتري به المرجفين؛ فسينتشر هذا النبأ في قرطبة كالنار في الهشيم". "ابدأ الآن –لكن في تكتم وحذر- وأمهلني وقتاً يسيراً؛ وسأمدكم بمال.. مال كثير يا ابن عبد الوهاب! الآن هيا انطلق؛ فلنفترق لكيلا ينتبه إلينا العسس". افترق ثلاثتهم على ما اتفق عليه الأمير مع صاعد؛ وانطلق الأمير عائداً إلى الجبل؛ أما طرسوس فراح يتسكع في حانات المدينة ليتسمع الأخبار ويعود بها إليه.

-المشهد الحادي والعشرون-

في مجلس الحاجب الأعلى بالزاهرة، كان يجلس شنجول في زهو وخيلاء؛ ومن حوله الرجال والأعيان من رجال الدولة، وأهل الخدمة؛ حتى إذا فرغ مما انشغل به –وقليلاً ما كان ينشغل بأمور الدولة- أذن لهم بالانصراف، واستبقى وزيره وكاتب الإنشاء: أحمد بن برد (وكنيته أبو حفص). أدناه من مجلسه كي يتهامسا فلا يسمعهما أحد؛ وأمر كبير فتيانه (مُحب) ألا يدخل عليهما أحد. توجه إلى ابن برد –وكان شيخاً تجاوز الستين من عمره- بالحديث؛ وقد ارتسمت على وجهه علامات

التجهم والاهتمام وقال: "آه.. للخلافة! كيف نحميها، ونحافظ عليها يا أبا حفص؟". "حفظ الله مولانا أمير المؤمنين المؤيد، وحاجبه المأمون أبا المطرف؛ أطال الله بقاءكم يا سيدنا". "آمين! لكن ماذا إنْ –لا قدر الله- حدث لأمير المؤمنين ما نكره، أو اختاره الله لجواره؟!". "بعد عمر طويل مديد يا سيدنا!". اقترب شنجول منه أكثر، وبيده سكينه الصغير الحاد يلوح به ويلاعبه بين يديه، ويغمز به في الهواء بحركات لها معنى، ثم همس في أذنه بصوت خفيض: "وبعد عمر طويل! –أطال الله بقاء أمير المؤمنين- من سيكون خليفة الأندلس؟". "ماذا تقصد يا سيدنا؟!". اعتدل شنجول في جلسته. تنهد ثم قال –كمن تذكر شيئاً نساه-: "قبل أن أنسى! أبشركَ -يا أبا حفص- بأني قد زدتُ عطاءك، ولك هبة وهبتكَ إياه اليوم؛ فلتأخذها من خازن بيت المال بعد انتهاء اجتماعنا!". "أسعدكم الله يا سيدنا! لكَم أكرمتني بجودك". "أنت تستحق يا رجل، فأنت كاتبنا الأمين؛ وإخلاصك لنا ولمولانا الخليفة لا يُنكر.. ماذا كنتُ أقول آنفاً؟". "كنتَ تسأل يا سيدنا: كيف سيكون حال الخلافة بعد مولانا المؤيد.. أطال الله بقاءه!". "نعم! ما رأيك أنت يا أحمد؟ كيف سيكون حال الخلافة والأندلس لو حدث لمولانا ما نكره؟". "سيتولى الخلافة ولي عهده من بعده!". "ومن يكون ولي عهده هذا؟ إنه ليس له ولد؟!". "لا جرم سيختار ولياً لعهده من عترته الذين يصلحون للخلافة!". "ومن هم عترته هؤلاء؟". "المروانية يا سيدنا! وأنتم بقيادتكم الرشيدة وتقلُّدكم الكريم لخطة الحجابة تُصلحون البلاد". "أصبتَ! لكن أنت تعلم ما آل إليه حال المروانية وانشغالهم بالدنيا عن أمور السياسة، ثم إن ليس منهم من هو مثل الخليفة الناصر، أو الحكم المستنصر، أو هشام المؤيد!". "فليختار منهم مولانا الخليفة –بعد مشاورتكم- أصلحهم للخلافة؛ وأنتم أعلم بالأصلح!". "يا أحمد الخلافة ليست متاعاً يورث! نحن نريد الأصلح للخلافة؛ لا الأصلح من المروانية!". "تقصد يا سيدنا أنك تبغي أن يكون ولي العهد من غير المروانية؟!". "أجل!". "ومن هذا الذي يزن المروانية حسباً ونسباً ليقبل به الناس في

الأنـدلس؟!". "أنـا!". صـاح متعجبـاً: "أنـتَ يـا سـيدنا!!". "ألسـتُ أزن أحـد مـن المروانية؟!".

"لا ريب أنت خير منهم؛ أنت ابن المنصور (ملك الأندلس) وأخو بطلها المظفر! لكن أهل الأندلس منذ ثلاثين عام؛ قد رضوا أن تكون الخلافة في بني الناصر والمروانية، والحجابة في بني عـامر!". "أريـد أن أجمعهـا في بني عـامر يـا أحمـد؛ وهـذا ضـماناً لاستقرار الأنـدلس.. ودرءً للفتن". "كيـف يـا سيدنا؟ هـذا لا يجـوز؟!". لـوَّح شـنجول بسكينه بحركة خاطفة –لها معنى- أمام وجه الشيخ وقال: "لماذا لا يجوز يا رجل؟ ألا أصلح لولاية العهد؟!". "تصلح يا سيدنا.. تصلح لعظائم الأمور! لكن الخليفة لابد أن يكون قرشـياً!". "أصبتَ! ولهـذا أنـا أحـدثك الآن؛ فأنـت كاتبنـا وأديبنـا، وشـاعرنا العظيم؛ فتستطيع أن تجـد حلاً لهـذه المعضلة! وسـأزيد عطـاءك أكثر إذا وجـدتَ الحل؛ وستكون مـن المقـربين". "جـزا الله الملـك المأمون عني خيراً؛ لكـن هـذا الأمـر يختص بـه الفقهاء والعلماء ليس أنـا وأمثالي". "أنت عنـدي يا أبـا حفص أعلم أهل الأنـدلس وأفقههم". "يـا سـيدنا! إن خير من يفتي في هـذا الأمر هـو قـاضي الجماعـة بقرطبـة: أبـو العبـاس بـن ذكـوان؛ هـو كبيرنـا وعالمنـا! ولـن يخالفـه أحـد في قـرطبـة ولا الأنـدلس!". "إذاً! قـد كلفتـك -يـا أبـا حفـص- بعـرض الأمـر على القـاضي ابـن ذكـوان؛ وأرجـو أن تجـدا الحـل!". "سـيدنا! لـن يقتنـع ابـن ذكـوان بسـهولة؛ ثـم إن هـذا الأمـر يحتـاج بحثـاً وتدقيقـاً في فقـه الأحكـام السـلطانية! هـذا كلـه سيسـتغرق وقتـاً طـويلاً!". "خذ وقتك؛ ولكن لا تُطيل، وأقنـع القـاضي بأني أردتُ ذلك لصالح الأنـدلس وأهلهـا؛ لكيلا يحـدث مـا لا يُحمـد عقبـاه". ثم لـوَّح لـه بسكينه مشيراً إليـه بالانصراف قـائلاً: "هيا اذهب لخزان بيت المال؛ خذ هبتك". "أصلح الله سيدنا، وأطال بقاءه!". همّ أبو حفص بالانصراف.. ونظرات شنجول تشيعه في تحد.. وتتوعده إنْ لم يتم مهمته!

-المشهد الثاني والعشرون-

لم يكن حمدون –آنفاً- شابا ديّناً رغم اجتهاد جدته (فاطمة المروانية[1]) في تربيته، وتعليمه دينه. فلم يكن يلتفت باحتفاء لتعاليمها؛ إنما.. كان يهرب من دروسه –مثل أبيه هشام [2]من قبله- ويخرج يلهو ويلعب، ويصاحب المغامرين والصيادين؛ حتى أنه بالكاد حفظ القرآن صبياً! كانت تريده أن يصبح عالماً أو فقيهاً مثل جده، وكان هو يريد أن يكون فارساً مغواراً. لم تيأس جدته من هدايته؛ إنما عكفت على الدعاء له بالهداية والتقى، وما فتأت تثابر على ذلك؛ فاستجاب الله لدعائها ذات ليلة مباركة في مطلع شهر رمضان منذ بضع سنوات، فأقبل حمدون على القرآن يراجع حفظه –الذي نساه- وأقبل على أداء الصلاة في المسجد، بل وأمسى له ورد في قيام الليل، وراح يكثر من ذكر الله في ليله ونهاره؛ فأقبل على الحياة من جديد بصدر

[1].. هي فاطمة بنت أحمد الأصغر بن الأمير عبد الله بن محمد، أي أنها ابنة العم الأصغر للخليفة عبد الرحمن الناصر، ولدتْ سنة ٣٣٧هـ في زمن خلافة الناصر. واشتهرت بين الناس باسم: فاطمة المروانية نسبةً إلى قومها بني مروان. تربى حمدون في كنفها بعد موت والديه صغيراً.

[2].. هو هشام ابنها. انجبته من زوجها الفقيه عبد البر المصري سنة ٣٥٤هـ، أي في نفس العام الذي ولد فيه هشام بن الخليفة المستنصر، ولدته بعده بأسابيع قليلة؛ لذا سمته هشام على اسم ابن الخليفة.

منشرح، وقلب مطمئن بالإيمان. لم تكن فاطمة تصدق أن الله سيستجيب لدعائها هكذا؛ ويهدي حفيدها إلى الخير بغير أسباب؛ فكانت مذ رأت حمدون هكذا قد انصلح حاله؛ تقوم الليل وتصلي شكراً لله أن استجاب دعاءها وهدى حفيدها. غير أن ما كان يقلقها هي صلته المستمرة بهذا المخاطر الجسور: محمد بن هشام بن عبد الجبار. ومع أنها كانت تنهاه عن صحبته إلا أنَّ حمدون لم يستجب لها، ولم يسمع لنصحها؛ بل استمر على صلته القوية بمحمد رغم فارق السن بينهما. بل إنه بايعه سراً –ودون علمها- على السمع والطاعة قياماً بأمر بني مروان لاسترداد حقهم في السلطة؛ ولتحرير الخليفة الأموي من سطوة الحُجاب المتسلطين من بني عامر.

استمرتْ فاطمة على حالها؛ تشجع حفيدها على تدينه وتلاوته للقرآن، وتحذره مغبة صحبته لابن هشام واختلاطه به! أما حمدون فقد استمر على حاله؛ يتمسك بالقرآن، وبتعاليم دينه؛ لكنه –مع ذلك- يتشبث بصحبته لمحمد ومبايعته له. حتى أنه صعد معه الجبل بعد موت أبيه، فكان يفارق جدته لذلك الليالي العديدة يقضيها في الجبل مع محمد وعصبته. وكانت هي تلومه على ذلك وتنهره وتوبخه؛ بيد أنه لم ينتهِ، ولم يرتدع؛ حتى ملتْ نصحه وتوبيخه؛ فتركته لمصيره السيء الذي سيلقاه على يد محمد هذا.. كما كانت تزعم. غير أنه –هذه المرة- طالت غيبته عنها، ولم يأتِها منذ أسبوعين تقريباً؛ فقلقت عليه؛ وتحيرتْ في أمر غيابه؛ ولم تدرِ أين تبحث عنه، ولا أين تجده. هداها رشدها إلى الذهاب لبيت محمد بن هشام؛ فسألت عنه هناك.. لكن لم تجد جواباً شافياً. أما حمدون فقد كان –مدة الأسبوعين- في شُغل عن جدته؛ شغلته تلك الدُرة المكنونة التي يسهر على ضيافتها في كهف الجبل: (سلوان)! لا جرم.. شغلته وملكتْ عليه جنانه؛ لقد شعر بشيء خفي يجذبه إليها، وأحس بوجوب حمايتها عليه؛ لذا فمذ جاءت إلى الجبل، وتولى مسئولية حمايتها ورعايتها؛ لم يغادر الجبل سوى الليلة التي ذهب فيها مع محمد إلى أبي عمر بن عبد الملك؛ ونسي أن يذهب إلى جدته ليطمئنها عليه، وليطمئن عليها؛ ويقضي لها بعض حوائجها كما كان يفعل سابقاً! كان يقضي الأيام والليالي الماضية في سعادة وحبور، وهو يحوم ويطوف حول كهف سلوان ليحميها من أي عارض قد يعرض لها من مخاطر الجبل؛ ومع أنه لا يعرف عنها إلا القليل، ولا شيء يعلمه عن أهلها؛ إلا أنه يشعر بمسئوليته نحوها كأنها أسرته؛ وكأنه عائلها الوحيد؛ كان قلبه يرق لها؛ ويشتد سروره عندما تخاطبه أو تطلب منه شيئاً؛ كان يحب القُرب منها؛ حتى دون أن يحدثها أو تحدثه؛ يكفيه أنه بالقرب منها. لكن.. ذات صباح؛ وبعد مرور قرابة الأسبوعين، جاءه الخبر: إنَّ جدته سألتْ عنه في بيت محمد بن هشام؛ ساعتئذ شعر بتأنيب الضمير، وأحس بتقصيره الشديد في حق جدته؛ فأشفق عليها! كيف لا؟! وليس لها إلا هو، كيف

ينساها هكذا، ويتركها هذه المدة دون أن يسأل عنها أو يطمئن عليها؟! فقرر أن يذهب إلى جدته اليوم؛ ولكن بأي حجة سيبرر لها غيابه عنها؟! ليس بأس! فليطمئن عليها، ويطمئنها على نفسه، ثم يصبر على توبيخها وسبابها له، ويعتذر لها وفقط! لكن هل سيستطيع أن يترك سلوان وحدها؟! هل يستطيع أن يبتعد عنها: ولو يوم واحد؟! سيكون يوماً طويلاً كأنه دهر! وهل سيقول لها أنه سيتركها ليذهب إلى جدته؟ فليكن الله في عونه؛ وليستر شوقه ولواعج نفسه؛ وليحفظ الله سلوان في غيابه. شعرتْ سلوان بتوتره وتردده منذ الصباح؛ فأطلت عليه من خبائها، وسألته: "ما بك يا حمدون؟ أراك اليوم متوتراً؟!". "سلوان.. أنا مضطر إلى النزول إلى قرطبة؛ وقد أغيب عنك يوماً أو يومين!". أصابها الوجوم؛ فقد كانت تطمئن وتسعد بقربه منها، وألِفت وجوده إلى جوارها كأنه رجل من أهلها –رغم أنها لم تعرفه إلا يسيراً- فسألتْ باقتضاب وتوجس: "لِمَ؟!". أجاب باقتضاب: "ثمة شخص هام في حياتي يجب أن أطمئن عليه!". دهم قلبها خوف وانقباض؛ لقد كانت تحس -طيلة الأيام الماضية- أنها هي الشخص الوحيد الهام في حياته؛ فمن يا تُرى هذا الشخص الهام الآخر: أهي زوجته؟! سألته بشغف وتخوّف حاولتْ عبثاً أن تخفيهما: "من يا تُرى هذا الشخص الذي يهمك في قرطبة؟!". تهلل قلبه فرحاً لِما رآه على وجهها من اللهفة؛ وراح يحدثها بابتهاج عن جدته: "إنها جدتي! ليس لها غيري، وليس لي سواها في هذه الدنيا، فأنا ساعدها، وهي الحضن الدافئ الذي يحتويني؛ هي التي ربتني بعد أن مات أبي وأمي و...!". أدرك أنه أطال الحديث واسترسل فيه؛ فأمسك عن الكلام. أما هي فكانت تنصت إليه بشغف، كانت تسمعه باغتباط؛ كأن صوته تغريد يطربها، وسرها أنه يحدثها –ولأول مرة- عن حياته الخاصة؛ وها هي ذي تعرف أنه مثلها! ليس له أحد.. إلا جدته. أحست براحة وبهجة تسري في قلبها.. بل شملت جسدها كله. أرادته يسترسل في الكلام؛ ويبقى هكذا يحدثها بقية الدهر؛ فلن تمّل، ولن تقطع حديثه. لكنه هو مَن قطعه! سألته كأنه قطع عليها بهجتها: "أكمل! لما سكتَ؟

إني أسمعك!". "هذا كل شيء، لقد تغيبتُ عن جدتي؛ فأردتُ أن أذهب إليها لأطمئن عليها.. وأردتُ أن أُعلمكِ!". "أنا لا أملك أن أمنعك عن جدتك. لكن.. لما أردتَ أن تعلمني؟". "ظننتُ أنه يجب عليّ ذلك!". عجز لسانها أن يجيبه؛ لكن ابتسامتها الحيية وانكسار لحظها أجاباه بإجابات شافية؛ شفتْ قلبه، وملكتْ عليه جنانه. مكثا صامتين؛ ولا يدري كم مر من الوقت وهما على هذا الصمت اللذيذ الذي بعث البهجة في شغاف قلبيهما.. إلى أن أيقظته هي قائلة على استحياء: "إذاً! هيا فلتذهب إليها –الآن- لكيلا تتأخر عليها!". لقد سمعها جيداً؛ ولكن غمرته السعادة وهو يرى عينيها تقولان: عُد سريعاً ولا تتأخر عليَّ! ودَّ لو مكث هكذا يحدثها وتحدثه دون أن يملَّها.. ويا ليتها لا تملّه. غير أن حياءه أعجز لسانه، وذهبت الكلمات بين شفتيه سدى؛ فآثر السلامة، واستأذن منها مودعاً، وانصرف لاهثاً من شوقه إليها؛ بينما عيناها تُشيعه في مودة. ثم دلف إلى الأمير محمد في مجلسه بمغارة الجبل ليسلم عليه قبل ذهابه إلى قرطبة: "إإذن لي يا أبا الوليد؟". "أ ذاهب الآن يا حمدون؟". "أجل! هل تبغي شيئاً قبل أن أنصرف؟". "أبلغ سلامي للجدة!". "تعلم أني لا أستطيع أن أُبلغها سلامك!". "والله يا أخي إني أُوقرها؛ وأحسبها أماً لكل المروانيين بقرطبة؛ ولا أدري لماذا تبغضني هكذا؟". "تعلم.. أنها تستاء من كل من انصرف عن طلب العلم؛ ولولا أني حفيدها لأبغضتني أنا أيضاً لنفس السبب". فأجابه مازحاً: "إذاً! هيا.. اذهب إليها.. لكن عُد سريعاً؛ فأمامنا أعمال جثام لا ترضى عنها الجدة".

-المشهد الثالث والعشرون-

في أحد شوارع قرطبة الضيقة، وعلى مسافة ليست بعيدة من ضفة نهر قرطبة العظيم، وفي أحد البيوت البسيطة بربض من أرباضها الشرقية، كانت فاطمة المروانية تجلس بجوار إحدى النوافذ بقوامها الطويل وجسدها النحيل؛ تراقب المارة في الشارع –على غير طبعها- بعينين نجلاوين (لم يسلبها تطاول الزمان جمال

بريقهما).. وبقلب واجف! فهذا هو دأبها منذ غياب حفيدها (حمدون) عنها. "آه! الحمد لله! هذا هو هناك؛ جاء يختال ممتطياً جواده، لك الحمد يا ربي أن رددته لي سالماً مُعَافَياً". هرولتْ إليه لتستقبله دون أن تراعي ضعف جسدها فهي امرأة عجوز تجاوزت الستين من عمرها؛ غير أن لهفتها عليه واشتياقها لرؤيته أنسياها متاعب الشيخوخة. أسرعتْ إلى مربض الدواب بحظيرة الدار حيث سيدخل بحصانه كعادته. كانت أسرع منه وصولاً إلى مربض الحصان. انتصبتْ ثابتة في مكانها تتربص دخوله إليها، تعالتْ خفقاتُ قلبها لهفةً عليه، وتشابكت مشاعر الفرح والسخط في صدرها؛ فرح بعودته سالماً، وسخط عليه لغيابه عنها هكذا دون أن تعلم عنه شيئاً. أقبل مترجلاً يسوق حصانه، قد لمحها –من بعيد- تقف في انتظاره متحفزة؛ فطأطأ رأسه، وغض بصره أرضاً كطفل يخشى عقاب أمه. وقف أمامها وهي تتفحصه بعينيها –كأنها تستوثق أنه لم يصبه ما تكره- ثم أطالت النظر إلى وجهه، حيث يقف أمامها صامتاً؛ يترقب ما ستفعله به. لم تقدر –إلا للحظات معدودة- أن تمنع نفسها من التقاطه في أحضانها؛ فراحت تحتضنه وتقبل رأسه؛ فأسلم نفسه لحضنها الدافئ، وراح يقبل يديها ورأسها، وانكب على قدميها يقبلهما.. بقيا هكذا يتعانقان ثم يبكيان؛ كأنها تعاتبه، وكأنه يعتذر لها؛ لكن في صمت شجي. بعد حين.. دفعته عنها –كأنها أفاقت من سكرتها- ثم صفعته على وجهه. بهتته المفاجأة! لِما صفعته بعد أن كانت تحتضنه وتبكي منذ برهة قصيرة! صاحت فيه موبخة: "أين كنتَ كل هذه المدة يا لكع؟! في الجبل مع ذاك الشقي ابن عبد الجبار؟!" "عفواً يا جدتي! إني أعتذر منك". "تعتذر؟! تعتذر إلى مَن؟ إلى قلبي الذي انخلع قلقاً عليك، أم إلى عينيَّ اللتين أضناهما السهر خوفاً عليك؟ أم إلى دموعي التي سكبتها أنهاراً إشفاقاً ولهفة؟!". "أعلمُ أنك واجدة عليَّ وغاضبة مني. لكن.. سامحيني، لم أقصد إلى ذلك، ولم أتأخر عليكِ إلا رغماً عني". شرع يجهش بالبكاء؛ وانهمرت عبراته النادمة بين يديها اللتين راح يقبلهما في توسل واستعطاف؛ رقَّ له

قلبها؛ فدفعته عنها –وهي تحاول عبثاً أن تُمسك عن البكاء- ثم قالت بإشفاق: "هيا! اذهب إلى حمام أبي الفضل؛ اغتسل، وأزل عنك هذه الأدران؛ ريثما أُعد لك الطعام!". رفع رأسه إليها متهللاً –فإن هذا إيذاناً منها بالعفو عنه-: "أمركِ يا أماه!". وهمَّ خارجاً وهو يلوِّح لها هاتفاً: "سأعود سريعاً! فقد اشتقتُ لطعام جدتي!".

-المشهد الرابع والعشرون-

في مجلس الحاجب الأعلى بالقاعة الرئيسية بقصر الزاهرة، جلس شنجول متعاظماً على أريكته يزهو بنفسه كملك يجلس على عرشه، ومن حوله رجال الدولة وعُمالها وخدم القصر وفتيانه.. كلهم يطوفون حوله يترقبون إشارة منه؛ ليسارعوا في تلبية طلبه. ويراقبون نظراته ولفتاته؛ ليهرعوا إلى تنفيذ أمره! أما هو فقد كان يتمثل صورة أبيه (الملك المنصور) ويحاول تقمص شخصية هذا الأب العظيم.. لكن ظاهرياً فقط. مَثَلَ بين يديه الفتى محب (كبير فتيان قصر الزاهرة) وقال في تعظيم وتوقير: "سيدنا الحاجب! إنَّ القاضي أبا العباس بن ذكوان والوزير أبا حفص بن برد يستأذنانِ في المثول بين يديكم؟". أشار إليه بصلف: "إإذن لهما.. وأخرج كل من في القاعة؛ لا أريد أحداً معنا". لم تكن إلا لحظات معدودة.. انفض خلالها المجلس، وخلت القاعة لاستقبال ابن ذكوان وابن برد. اعتدل شنجول في مجلسه، وضبط هيأته هيبةً لابن ذكوان: فهو قاضي الجماعة بقرطبة والأندلس منذ عهد الحاجب المنصور، وكذلك إمام الجامع الأعظم وخطيبه، علاوة على أنه شيخ كبير قد شارف على الستين من العمر له هيبة العلماء وجلالهم؛ فهو بحق عظيم أهل الأندلس ورئيسهم. لذا فقد كان كل من يراه يهابه، وكل من يعرفه يوقره ويعظمه.. ومن هؤلاء: شنجول نفسه! ولذا فقد كان شنجول -مذ تولى الحجابة- يتحاشاه ويتجنب الاجتماع به؛ لأنه لا يحب أن يُعظم أحداً، أو أن يعلو عليه أحدٌ من رعيته؛ ظناً منه أنه أصبح –بمنصبه الجديد- أسمى أهل الأندلس وأعلاهم منزلة كبراً منه وتيهاً. لكن

الحين.. حاجته إلى القاضي ابن ذكوان هي التي تدفعه دفعاً لحسن استقباله، وتوقيره وإعطائه حقه كعالم جليل وفقيه عظيم. كانتا عيناه تتابعان القاضي- وخلفه الوزير- وهو يدلف إلى القاعة في وقار، ثم يمشي نحوه الهوينى يتوشح بهيبة العلماء وجلالهم. وقفا بين يديه، فسمح لهما بالجلوس وعيناه تطالعانِ ابن برد كأنما تسألان: ما أتى بالقاضي الحين؟! فهم ابنُ برد نظراتِ شنجول فأسرع يطمئنه قائلاً: "اسمع من قاضي الجماعة أيها الحاجب المأمون؛ فقد أتاك بحل المعضلة!". نظر إليهما في حيرة وترقب صامتين، تحدثه نفسه: (أي معضلة؟ ربما يقصد ولاية العهد!). شرع القاضي ابن ذكوان يتكلم بتؤدة ووقار –كما هو دأبه-: "أعلمني الوزير ابن برد بأنك ترغب في ولاية عهد الخليفة المؤيد؛ ويمنعك من ذلك أنك لستَ قرشياً". "ليس رغبة مني في الملك والجاه يا سيادة القاضي؛ لكني أتحرى مصلحة الأندلس". "كيف ستسير في أهل الأندلس إذا نلتَ مرادك؟". "أريد أن أسير فيهم سيرة أبي المنصور –يرحمه الله-". "كانت سيرة أبيكم –غفر الله له- العدل في الرعية، والانصاف بين الناس، وتوقير العلماء، والحكم بالشريعة، وجهاد أعداء الإسلام.. حتى تكون كلمة الله هي العليا! هل ستفعل ذلك؟". "لا جرم.. يا سيدنا سأفعل.. سأفعل!". "قل إن شاء الله يا ولدي!". "إن شاء الله يا مولانا.. لكن.. كما قلتَ: أنا لستُ قرشياً؛ فكيف يقبلني الناس؟!". "هذا رأي أهل العلم! ولا نستطيع مخالفته؛ الخلافة منذ وفاة النبي محمد –ﷺ- لم تخرج من قريش! كيف نشذ عن ذلك بعد كل هذا الزمن؟ إنه أمر جلل". "ما هو رأيك أنت يا سيدنا؟!". "رأيي أن الأجدر بالإمامة هو من يؤدي حقها، على كتاب الله وشريعة رسوله عليه السلام". "إذاً فلنعلن هذا الرأي على الناس!". "لن يأخذ الناس برأيي، ولن يستجيبوا لأمرك في هذا الشأن!". "ما الحل إذاً؟! هل أصرف النظر عن ولاية العهد؟ أخشى على الأندلس يا مولانا أن ينفرط عقدها، وتتقطع أوصالها بين العامريين والمروانيين؛ وبين العرب والبربر!". "عندي الحل –إن شاء الله- لكن قبل ذلك.. لا مناص من

شرطين!". "أوافق عليهما يا سيدنا القاضي.." "اسمع مني أولاً!". "قل يا سيدنا!". "الشرط الأول: أن تبايعني على كتاب الله أنك تقوم بأمر ولاية العهد والخلافة على كتاب الله وسنة رسوله". "أبايع يا سيدنا!". "الشرط الثاني: أن يوافق الخليفة المؤيد بالله أن يُقلِّدك عهده!". "دع هذه لي يا سيدنا؛ أنا أجعله يوافق". "إذا فعلتَ؛ فسأكفيك علماء الأندلس وفقهاءها، وأهل الأندلس لهم تبع". "سيوافق يا سيدنا بأسرع مما تظن". "قدم المشيئة أيها الحاجب!". "إن شاء الله يا سيادة القاضي!". "إذاً أُبسط يدك أبايعكَ -يا ولدي- على العهد وأن تحكم بشرع الله وكتابه". "أُبايع يا سيدنا! وكي تكون مطمئناً؛ وليطمئن مولانا أمير المؤمنين؛ فإنك مع ولايتي للعهد ستكون مستشاري الأول، ووزيري المقدم على جميع الوزراء؛ ولن أقطع أمراً من أمور الدولة إلا بعد رأيك ومشورتك". "بوركتَ يا ولدي! ها هي ذي يدي". بسط القاضي يده يبايع شنجول على العهد الذي قطعه على نفسه؛ بأنه إذا تقلَّد ولاية العهد؛ يحكم بكتاب الله وسنة رسوله؛ وبسط له شنجول يده، وتصافحا وتعانقا، وأحمد بن برد يشهد ما يفعلان.. ثم انكب شنجول على يد القاضي يقبلها تعظيما وإجلالاً.. بيد أن شيطانه يوسوس له: (إنها أول مرة أقبل فيها يد أحدكم.. وستكون الأخيرة). قاطعهما ابن برد سائلاً القاضي: "لكن.. كيف يا سيادة القاضي نزعم أن أبا المطرف قرشياً؛ والأندلس كلها تعلم أنه قحطاني يمني؟!". "ماذا تقول يا أبا حفص؟ أتراني مُدلساً؛ أدلس وأنا أتولى القضاء.. وأفتي الناس فيما شجر بينهم؟!". "معاذ الله يا أبا العباس! بل أقصد أن عامة أهل الأندلس يعلمون نسب الحاجب المأمون؛ فهو ابن الحاجب المنصور محمد بن أبي عامر –رحمه الله- والذي ينتهي نسبه إلى عبد الملك المعافري، أحد أوائل الداخلين إلى الأندلس مع طارق بن زياد؛ والناس يعلمون أن بني معافر قحطانيين يمنيين؟!". "هل تحسبني كاذباً أحمقاً يا رجل؟! كيف سأدعي – بعد هذا الذي قلتَه- أن الرجل قرشياً؟!". "إذاً! كيف سنحلها؟". "أنصتا إليَّ جيداً! ورد في الأثر عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص –ﷺ- عن النبي –

ﷺ- قال: (لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه)، وورد –أيضاً- متن شبيه بطريق آخر عن أبي هريرة –ﷺ-! وإني أسأل الله أن يكون أبو المطرف هو هذا الرجل من قحطان!". وثب شنجول واقفاً؛ وهلل في غير وقار: "نعم! نعم! إنه ذاك؛ أحسنتَ أيها الفقيه!". لكنه سرعان ما تمالك نفسه؛ وعاد لسكينته ووقاره المتصنع فقال: "أحسنتَ يا سيدنا القاضي؛ أبقاك الله وحفظ علمك، وحفظ بك دولة الأندلس؛ أُطلب ما شئت يا أبا العباس؛ فطلبك –بإذن الله- مجاب!". "ليس ليّ بغية خاصة يا ولدي؛ إنما أرجو من الله صلاح الأندلس واستقرار حال أهلها؛ وإن أردتَ أن تسدي إليَّ معروفاً؛ فهو أن تفي بالعهد الذي عاهدتني عليه قبل قليل!". "أعدك أن أفي بالعهد يا سيدنا!". " "الآن.. بقي عليك أن يقتنع الخليفة المؤيد بتقليدك ولاية العهد!". "إن شاء الله سيقتنع عاجلاً يا سيادة القاضي". ثم التفت إلى أحمد بن برد وقال: "أما أنت يا كاتب الإنشاء؛ فعليك -من الآن- بإعداد مرسوم ولاية العهد وكتابته، ريثما يأمر الخليفة بإعلانه على الناس". انصرف الرجلان تاركين شنجول غارقاً في أحلام يقظته الطموحة؛ ها هو ذا قاب قوسين أو أدنى من أن يكون ولي عهد الأندلس، ثم خليفتها المتوج في عليائه. حلم عجز أبوه المنصور عن تحقيقه. الآن سيحقق هو هذا الحلم، وسيكون عظيم الأندلس. سيكون أعظم من المنصور، سيكون أعظم من الخليفة الناصر؛ وسيصبح أقوى رجل في المعمورة، وسيحوز كل كنوز الأندلس؛ ليصير أغنى ملك في الدنيا. سيركع العظماء تحت قدميه، سيُذل الملوك والأمراء لسطوته، وسيخافون عقابه، وسيطمع الناس في سخاء عطائه.

(لقد أقبلت الدنيا عليك يا شنجول.. فتملكها، وانهل من نعيمها. ولا تتوانى في التمتع بملذاتها، فمَن تباطأ عن اللذة؛ حُرم منها). (ها قد زالت دولة عبد الرحمن الناصر؛ أما دولتي أنا.. فلن تزول!)

-المشهد الخامس والعشرون-

أقبل الليل.. فتستر تحت جناح ظلامه محمد بن هشام؛ وغادر الجبل متوجهاً إلى لقاء ابنيّ عمه المغيرة (محمد وعبد الجبار) كما تواعدوا قبل ثلاثة أيام. دخل عند قبر عمه؛ فألفاهما ينتظرانه، فقد كانا يترقبان وصوله بشغف. نهضا إليه، وأقبلا عليه يصافحانه، ويبايعانه على السمع والطاعة إلى أن يثأرا لأبيهما. تركهما متعجلاً على أن يجتمع بهما مرة ثانية في الجبل مساء بعد غدٍ. ثم ذهب ليلتقي –في مكان خفيٍّ متفق عليه آنفاً- بحمدون الذي غافل جدته ليخرج للقاء صاحبه؛ فأعلمه محمد بخبر ابني عمه، وعرّفه بأنهما أصبحا من الآن من عصابته. ثم طلب منه أن يحضر إلى الجبل ليلة بعد غد، ويُخبر –أيضاً- صاعد بوجوب الحضور في نفس الموعد. ثم افترقا.. وحمدون يشحذ زناد عقله ليختلق الأعذار التي سيتملص بها من جدته، لكي يعود إلى الجبل؛ لا ليجتمع بعصبة ابن هشام فقط.. بل الأهم: لكي يعود إلى سلوان التي أرقه بُعدها عنه.

-المشهد السادس والعشرون-

متعتان عظيمتان -من مُتع الدنيا- لم يكن شنجول يستطيع الاستغناء عنهما ولو لبعض يوم ألا وهما: (الخمر، والنساء)! فقد أدمن على شُرب الخمر والتلذذ بها ليلاً ونهاراً؛ ولم يكن له جميل صبر عنها. أما النساء.. فقد أدمن على مجالسة الجواري الخليعات والقيّان الماجنات! وأكبر من ذلك.. فقد كانت نفسه تصبو للنساء الحرائر ممن يحرم عليه. استسلم لشهواته وما برح يبالغ في الاستمتاع بملذاته؛ حتى كاد لا يفيق من سُكر، وقلما تخلو مجالسه من عربدة النساء. وكان خليله ونديمه الأثير: ابن الرسان الذي كان عربيد مثله. وكان -أيضاً- الجلاب الذي يجلب

لـه الخمـر، ويهيئ لـه اجتماعـه مع مـن يرغـب فـيهنَّ مـن النسـاء؛ لـذا فقـد كان ابـن الرسـان بمثابة خادمه الأمين وصاحبه المقرب. في وقت متأخر من الليل، وبعد أن انفـض الجمـع الصـاخب.. اسـتبقى شـنجولُ ابـنَ الرسـان وقـال: "اجلـس معي أريـد مشاورتك في أمر هام يا صاحبي". فصرف الخدم والغلمان ثم سأل سيده: "ما الأمر الذي يشغل مولاي؟!". "سأكون خليفة الأندلس يا ابن الرسان!". فغر فاهه تعجباً مما سمع؛ وحاول أن يستبين ما أُستعجم عليه من الكلام فتساءل: "سيدي! هل أصابتك الخمر بسوء؟!". "تحسبني سكران يا ابن اللكاع! والله.. لو أنك استبدلت خمرك بماء البحر؛ ثم سقيتنيه؛ ما أسكرني!". "إذاً! كيف ستكون الخليفة يا أبا المطرف؟!". "سيقلِّدني المؤيدُ هشام ولايةَ عهده! ثم أكون الخليفة بعده!". "وهل يجوز هذا يا مولاي؟!". "أ تُراك فقيهاً أنت أيضاً؟ وتعلم ما لا يجوز يا أبله؟". "لستُ فقيهـاً يـا مـولاي؛ ولا أحـب الفقهـاء؛ لكـن أظـن أن الخليفـة ينبغي أن يكـون مـن المروانيين". "لقد استفتيتُ القاضي ابن ذكوان؛ وأجاز لي أن أكون ولي العهد!". "القاضي ابن ذكوان! مرحى مرحى!". ثم أمسك يد شنجول يريد تقبيلها في تعظيم متصنع: "هات يا مولاي الخليفة يدك أقبلها!". ضحك شنجول والخمر يتقاطر من فمه ثم هتف: "ليس الأمر سهلاً كما تظن يا رجل". "إذا كان قاضي الجماعة وكبير الفقهاء قد أفتى؛ فالأمر سهل جداً يا مولاي". "لم يتخذ هشام القرار بعد.. بل لم يعلم به! والمروانيون لو علموا؛ للجُّوا ومجُّوا!". "أما هشام فإنك تقدر أن تجبره على ما تحب، وأما المروانيون.. فإن معك جيشاً من البربر؛ لو أمرتَه لأفناهم عن بكرة أبيهم في عشية أو ضحاها؛ وساعتئذ لن يعترض أحدا!". "هل تظنها سهلة هكذا؟ لا أريد أن يبدأ عهدي بإراقة الدماء يا رجل!". "سيدي! هل تمزح معي؟!". "مه يا أبله! هل استبقيتك في مثل هذا الوقت المتأخر لأمزح معك؟!". "إذاً أنت تريد حقاً أن تكون الخليفة؟!". "لن يمنعني من ذلك كائن من كان!". "لا جرم إنَّ الأمر يحتاج لتدبير دقيق". "لهذا أستشيرك! فأنت خبيث لئيم؛ تجيد حياكة المؤامرات!". "أنا

خادمكم المطيع يا سيدنا". "دبرها لي إذاً؛ وأخبرني.. ماذا أفعل ليتم المراد؟". "أمهلني برهة قصيرة أتدبر الأمر يا مولاي!". غشيتْ المكان لحظاتٌ صامتة شرع فيها ابنُ الرسان يقلّب الأمر في رأسه؛ بينما شنجول يحتسي كأسه منتظراً ما سيتفتق عنه ذهن نديمه الذي خرق غشاء الصمت قائلاً: "أما هشام فلا حول له ولا قوة؛ فلتقل له: ولني عهدك؛ فيقول وليتُك!". "يا أذكى أهل زمانك! أريد أن أبرر له سبب طلبي هذا؟". "هو ليس له ولد يؤمل ولايته العهد؛ ولن يجد خيراً منك؛ فأنت ابن الحاجب المنصور". "لما يدع أقرباءه ويوليني أنا؟!". "ألستَ أنت أيضاً قريبه؟!". "كيف يا أحمق؟!". "أ..أ! قريبه من جهة الخؤولة! كلتا أمهاتكما بشكنجيتان!". "الله.. الله يا ابن الرسان! إنك لشيطان! حقاً.. هذا صحيح: أمه صبح بشكنجية، وأمي عبدة – كذلك- أميرة بشكنجية؛ إذاً هو ابن خالتي!". "لذلك فأنت قريبه مثل المروانية؛ وتزيد عليهم بأنك أنت الحاجب المأمون، وأنت مدبر الدولة، والجيش والسلاح ملك يمينك؛ فإنْ رفض الأمر.. هددناه بضياع أمر الدولة من يده ويد المروانية رغماً عنهم". "أحسنت التفكير والتدبير أيها الشيطان! لكن يجب التثبت من موقف الجنود البربر؛ والتأكد من مؤازرتهم لي! إذاً سأستدعي كبيرهم: محمد بن يَعْلَى الزَّناتيّ.. وأتشاور معه".

-المشهد السابع والعشرون-

كانت فاطمة منهمكة في شئون البيت كدأبها؛ بينما حمدون يدخل إليها ويخرج؛ ويذرع المكان ذهاباً وإياباً كأنما يريد التحدث معها؛ لكنه يبدل رأيه فيمتنع. لم يُلهيها عملُها -الذي بين يديها- عن ملاحظة توتر حفيدها؛ فسألته بحنان الأم وعطفها: "ما بك؟ أراك تحوم حولي؛ هل تريد شيئاً؟". "لا شيء يا جدتي.. لا شيء!" (أجابها ثم ظل صامتاً متحيراً يفكر: هل هذه هي اللحظة المناسبة التي يبوح لها فيها بما يُخفيه عنها)؛ ثم راح يُتهته في تردد: "جدتي! أريد.. أود أن أُخبرك بأمر.. هام!". ثم صمت

طـويلاً وكـأن الكلمـات هربـتْ مـن بـين شـفتيه؛ فنفضـتْ يـدها مـن أعمـال بيتهـا واسـتحثته قائلـة: "تكلم يـا حمـدون!". "لـقـد بايعـتُ محمـد بـن هشـام على كتـاب الله أن أسـمع لـه وأُطيـع إلى أن يثـأر لأبيـه، ويسـتعيد مُلـك المروانيـة!". فجعتهـا المفاجـأة؛ فشـهقت شـهقة شـديدة؛ وضربتْ صدرها بيدها؛ وصاحت فيه بحنق: "لـم تكتـفِ بمصاحبته؛ إنَّما تبايعه على أن تُهلك نفسك في طريقه المشئوم؟!". "يا جدتي! إنما نريـد أن نعيـد للمـروانيين كـرامتهم وعـزهم الـذي سُـلب". "كيـف يـا لـئيم؟ هـل تريـد الخروج على الخليفة؟ أليس له في رقبتكما بيعة؟! هل تريد مفارقة جماعة المسلمين بالأندلس يا حمدون! وأسفاه عليك!". "افهميني يا جدتي.. إنما أريد الخير للخليفة. أريد أن أخلصه من نير العامريين المتسلطين عليه؛ لقد حبسه المنصور في قصره؛ ومنعـه الاخـتلاط بالرعيـة، ثـم اسـتبد بـالأمر دونـه، وملَّـك رقـاب الأندلسـيين للبربـر الـذين اسـتجلبهم مـن العـدوة. وابنـه مـن بعـده سـار على دربـه". "هـل تـذم المنصـور يـا جاهل؟! تذم الرجل العظيم الذي جعل جيش الأندلس أقوى الجيوش؛ وساق الله لأهلها الخير على يديه فصاروا أغنى أهل الأرض!" "لقد فعل كل هذا باسم هشام المؤيد حفيد الخليفة الناصر الذي أعاد للأندلس وحدتها بعد الشتات. إنْ كان لأحد فضـل على الأنـدلس –كمـا تقـولين يـا جـدتي- فالفضـل للناصـر: جـد محمـد بـن هشـام؛ والمنـة لله وحـده!". "ومـا شـأنك أنـت بهـذا؟!". "ألسـتُ أندلسـياً؛ ويشـغلني أمـر هـذه البلاد، وألستِ أنت مروانية ويهمك أمر قومك؟ ألا تهتمين لإرث آبائكِ الذي استولى عليه محمد بن أبي عامر وأبناؤه من بعده؟!". "الأندلس يا ولدي ليستْ متاعاً يورث؛ والمنصور لم يكن لصاً مُغتصِباً كما تصوره؛ بل كان عالماً مجاهداً، وسياسي أريب؛ استطاع بحذقه، وجهاده أن يحفظ الأندلس، ويحفظ للمؤيد ملك أبيه وأجداده. ولولا حزم المنصور وعزمه؛ لتمزقت الأندلس، ولضاع إرث آبائي الذي تزعم!". "ثم جاء بعد المنصور: المظفر؛ فورث عنه الحجابة كأنها متاع يورث!". "وما الذي تعيبه على المظفر؛ لقد سار في الناس سيرة أبيه.. بل وأبطل سُدس الجباية، وجاهد أعداء

الله –كما كان أبوه من قبل- فأظفره الله على أعدائه وأعداء الأندلس؛ فكان بحق: خير خلف لخير سلف!". "وها هي ذي الحجابة -يا جدتي- تقع في يد شنجول كفريسة واهنة بين براثن ذئب متوحش!". "من شنجول؟!". "ابن المنصور، وأخو المظفر يا جدتي!". "تقصد عبد الرحمن؟!". "يا أمي الناس يُسمونه: شنجول؛ كما كانت تناديه أمه –تلك المرأة البشكنجية الخبيثة". "صه! لا تسب النساء، أمه لا دخل لها فيما تقول". "لا عليكِ! إذاً ما بال شنجول؟ وما ظنك به يا جدة؟!". "يا ولدي اصبر؛ لم نر من الرجل شيئاً؛ ولم تتجاوز مدته الشهر بعدُ!". "أجل.. لم تتجاوز مدته الشهر! لكنه تعجل الألقاب الملوكية فتلقب: بالحاجب المأمون.. وصار ملك الأندلس". "إنما لقَّبه الخليفةُ المؤيد.. وعساه فأل حسن؛ نستبشر به لغدنا!". "إنَّ غد الرجل ابن أمسه! وهذا الفتى عربيد متهتك؛ لا يراعي حرمة، ولا ذمة؛ فكيف نأمل منه خيراً؟!". "انتبه لما تقول يا حمدون! أنت تقذف الرجل بغير بينة!". "بل ثمة آيات بينات على قولي يا جدتي؛ بل أقول لكِ أكثر من ذلك.. إنه...!" (كان سيهم بإخبارها عما نبأت به سلوان: بأنه قاتل أخيه.. بيد أنه أمسك عن الكلام خشية أن يفتضح الخبر؛ فقد أوصاه الأمير ابن هشام بكتمانه إلى حين)، فتدارك أمره.. واستدرك يقول: "إنه هاتك أعراض يا جدتي! ألم تسمعي بحكايته مع ابنة تاجر الحرير، وغيرها من النساء؟!". "مه يا فتى! ألا تكف عن ذكر الأعراض بغير بينة؛ والله.. إنك لمجادل!".

"أُجادل عن الحق يا جدتي! وهذا هو ما ربيتني عليه". "لقد أردتُ لك أن تكون مثل جدك –رحمه الله- فقيهاً عالماً.. تُعلم الناس دينهم؛ لكنك تأبى إلا أن تخاطر بنفسك، وتسير إلى هلكتك وراء هذا الجسور المخاطر.. كما فعل أبوك مع أبيه من قبل!". "ما تنقمين على محمد يا جدتي؟!". "أنقم عليه الكثير.. إنه مغامر متهور، ولا يبالي في أي وادٍ يهلك؛ فضلاً عن أنه جاهل مختال؛ ترك طلب العلم؛ ولم يتعلم من دينه إلا القليل! فكيف يكون مثله إماماً للناس؟!" "احذري يا جدتي! فأنتِ أيضاً

تقذفين الرجل بغير بينة!". "أستغفرك ربي! بينتي يا بُني أنني أنا مَن أدبتُه.. فلقد ترعرع أمام عيني؛ ومثلي تعلم الغث من السمين". "أما أنا يا جدتي؛ فرأيي فيه: أنه رجل باع نفسه لأجل قضيته، وضحى في سبيلها برغد العيش ولذة الحياة، وترك نعيم القصور؛ ليحيا حياة الخشونة والشظف مع رفقائه، ونسى أنه ابن هشام بن عبد الجبار إلا أن يثأر له، وتناسى أنه سليل المروانية إلا ليستعيد لهم مجدهم وعزهم، فأنا معه يا جدتي؛ **أنا على عهدي، ولن أنقض بيعتي!"** (قال كلماته الأخيرة بلهجة حازمة قاطعة كأنما يرغب أن يغلق الكلام في هذا الباب). نظرتْ إليه باستسلام غاضب وكتمتْ غيظها.. ثم قالتْ: "لن أستطيع أن أُثنيك عن عزمك فإنك مكابر.. لكن تذكر كلمتي هذه: ستندم على صحبتك محمدك هذا يوم لا ينفع الندم!". "لا أستطيع أن أُحزنك يا جدتي، ولن أطيق غضبك عليَّ؛ فأرجوكِ يا أمي: باركي فعلي، أتوسل إليكِ: ادعي لي أن يسدد الله رأيي، ويصلح عملي، ويجعله خالصاً لوجهه! لا تغضبي عليَّ يا جدتي!". طفق يقبل يديها ويغسلهما بدموعه التي ما فتأتْ تنهمر بين يديها؛ لم تملك إلا أن ترق له –رغم أنها لا توافقه على رأيه- فجذبته إليها واحتضنته وراحتْ تمسح دموعه عن وجنتيه، وتقبل رأسه.. ثم جهشتْ هي الأخرى بالبكاء وقالتْ: "كيف أغضب عليك يا حبيبي؟! ليس لي في هذه الدنيا سواك! غاية الأمر أني أخشى أن يمسك السوء". "قل لن يُصيبنا إلا ما كُتب لنا! ادعي لي بالخير!".

"حفظك الله يا ولدي ونجاك من شر نفسك، ومن شر كل دابة هو آخذ بناصيتها؛ إنه على كل شيء قدير!".

-المشهد الثامن والعشرون-

استدعى شنجولُ زعيمَ الجنود البربر (محمد بن يعلى الزناتي). فولج عليه في مجلس الحاجب؛ وحيَّاه ثم قال: "لقد طلبتني يا سيدي الحاجب! تحت أمرك!". "تعلم يا زناتي أننا –أعني أنا وأمير المؤمنين- نثق بكم معشر البربر، ونستأمنكم على حماية

دولتنا من أعدائها؛ سواء بالداخل أو بالخارج!". "نحن رجالكم وصنيعتكم أيها الحاجب المأمون! مُر فستجد سيوفنا تعاورتْ عدوك!". "بارك الله فيكم.. لذلك قد استقدمكم أبي الملك المنصور إلى عدوة الأندلس، ووصلكم وأجزل لكم العطاء لتكونوا عصبته التي يجالد بها عدوه وعدو الدولة.. وأنا سائر على دربه، وأنا على العهد، إذا ما دمتم عليه!". "نحن على العهد يا سيدنا؛ وفضل أبيكم علينا لا ينكره إلا جاحد.. ونعوذ بالله من ذلك". "حديثك يشجعني يا زناتي أن أبوح لك بسر.. لا يعلمه أحدٌ غيري –أنا والخليفة- لكن.. عدني ألا يعلم أحد بهذا السر قبل أن يأذن الخليفة في إذاعته!". "أعدك يا سيدي؛ واعلم أن سرك -الذي تستودعنيه- لا يخرج من جوفي حتى تخرج روحي من جسدي!". "أحسن الله إليك أيها الفارس الشهم! إذاً.. أقول لك: إنَّ أمير المؤمنين قرر أن يقلّدني ولاية عهده!". ألجمتْ المفاجأة لسان الفارس البربري.. فحثه شنجول أن يتكلم هاتفاً: "ما بك أيها البربري؟ ألا يروق لك ما أنبأتُك به؟!". "عفواً يا سيدي! كيف لا يروق لي قرارٌ اِتخذه أميرُ المؤمنين؟! لكنها المفاجأة!". "لا عليك! فقد كانت مفاجأة لي أيضاً! لكن يجب علينا السمع والطاعة للخليفة.. هذا ما بايعنا عليه، وأبرمنا به المواثيق المغلظة أمام الله". "صدقتَ يا سيدي! أنا رهن إشارتك! مرني بما تريده مني!". "إنَّ أمير المؤمنين يخشى أن يُغضب قراره هذا بعض الرجال من عشيرته المروانيين!". "من ذا الذي يُمكنه الغضب أو الاعتراض على قرارات الخلافة؟!". "قد يحدث! لذا فإننا نطالبك باتخاذ الاحتياطات اللازمة لمواجهة أي عارض قد يعرض لنا بسبب هذا القرار وقت إعلانه للناس! وسأُتابع أنا معك هذه الترتيبات؛ وسأنبئك بموعد الإعلان". "سمعاً وطاعة يا سيدي! إن شاء الله نتخذ التدابير اللازمة لذلك من الآن!". "على بركة الله؛ يرعاك الله، ويحفظ بكم دولة الخلافة!"

-المشهد التاسع والعشرون-

بالكاد استطاع حمدون أن يفارق جدته إلى جبل العروس؛ حيث سيلتقي بالأمير ابن هشام، والأحبُ إليه: أنه سيعود إلى سلوان! التي ترك -حين غادر جوارها- قلبه عندها، وما فتئ لبه شغوفاً بها. ها هو ذا يصعد الجبل. سيتجه من فوره إلى كهفها؛ وقد عزم أن يبثها لواعج نفسه، ويصارحها بمكنون فؤاده. فإنه لم يعد يطيق صبراً على كتمان حبه. فليصارحها إذاً.. ويطلب الزواج منها: فإن رضيتْ فهو هواه ومبتغاه، وإنْ أبتْ؛ فساعتئذ يمزق قلبه، ويئد حبها في فؤاده، ويصرف نفسه عنها قبل أن يزداد تعلقه بها. "هلمَّ يا حمدون، أنت الحين أمام كهفها، استأذن عليها؛ ثم قُل ما يجيش في صدرك دفعة واحدة، لا تُمهلها أن تقاطعك، أو تهرب منك.. كما دأبها. بل.. اطلب منها جواباً صريحاً: إما نعم! وإما لا!". بينما يتقدم إلى كهفها إذ عرض له طرسوس.. يُناديه متحفزاً: "لماذا تأخرتَ يا حمدون؟ إنَّا ننتظرك من زمن؟". "من ينتظرني يا رجل؟!" (قالها متعجباً ضجراً). "الأمير أبو الوليد.. والرجال مجتمعون عنده ينتظرون قدومك لنتدبر خططنا، وقد حضر إلى المغارة: ابنا عمه وصاعد الحرار، هيا.. هيا! القوم ينتظرونك!". كان يصيح بجملته الأخيرة وهو يجذب ذراعه ليستحثه أن يسرع إلى مجلس القوم. غير أن حمدون كان في شغل عن ذلك. يا لك من منغص يا طرسوس! لقد أوهنتَ عزمه عما نوى فعله! لن يستطيع أن يدخل إليها الآن. ولن يمهله هذا المتطفل الضخم، ولو تركه؛ فسيرسله الأمير وراءه مرة ثانية، ولن يتركه إلا أن يذهب معه إليهم. لا بأس.. فليتأجل حواره –الذي عزم عليه معها- مؤقتاً. وليذهب مع هذا الضخم إلى الأمير. لكن هذا لن يُثنيه عن عزمه.. فقال متأففاً في تبرم: "هيا إلى الأمير أيها العُتُل". دلف حمدون إلى مغارة الأمير؛ فوجد عنده: محمد وعبد الجبار ابني المغيرة، وصاعد بن عبد الوهاب الحرار، وبضعة رجال من رفقاء الجبل. رحب به الأمير، وأفسح له الرجال في المجلس، ثم سأله: "كيف حال الجدة يا حمدون؟!". أجاب باقتضاب: "الحمد لله.. بخير يا أبا الوليد!". فأردف الأمير بتباهي: "إني لأحسب أنها أقدر إنسان –في قرطبة- على جمع

كلمة المروانيين.. إنْ أرادتْ!". فتساءل عبد الجبار: "عذراً! من هي يا أخي؟!". "ألا تعلم مؤدبتك يا عبد الجبار؟! التي علمتك القرآن والصلاة، وأصول اللغة والحساب؟!". "إنها الجدة فاطمة المروانية إذاً؟". "أجل هي..". "هل هي جدتك يا حمدون؟". أومأ أن نعم؛ فسأله صاعد بن عبد الوهاب: "أنتَ ابن هشام بن الفقيه عبد البر المصري؟!". فأجاب: " هو أبي!". "أهلاً ومرحباً! كم كان أبوك جواداً كريماً!". قاطعهم الأمير ابن هشام قائلاً: "سنتعرف إلى بعضنا أكثر يا سادة فيما بعد؛ لكن.. هلمّوا نتحدث فيما اجتمعنا من أجله!" التفتوا إليه صائحين: "تفضل! إنَّا نسمعك يا أبا الوليد!". "لقد جمعتكم؛ لا للثأر لأبي! إنما للثأر لبني مروان! بل.. للثأر للأندلس كلها! لقد استبد الهالك المنصور بن أبي عامر -وابنه من بعده- بالمُلك دون الخليفة وعشيرته المروانية، وحبس الخليفة في قصره، وعزله عن رعيته، واستجلب البربر إلى الجزيرة واستبدلهم برجال الخلافة وجنودها.. حتى فتيان الخاصة من الصقالبة استبدل بهم غيرهم من الموالين له، وتآمر –من قبلُ- على عمي المغيرة، وابنه من بعده تآمر على أبي وغدر به. فغدونا غرباء في مُلكنا، وصرنا أذلة بعد أن كنا أعز أهل الأندلس.. والحين.. غدت الحجابة مُلك يورث؛ فورثها العربيد الجهول: شنجول.. حفيد أعدائنا الأسبان! هل نسكتْ يا سادة إلى أن تصير قرطبة تابعة للنصارى الأسبان، وندفع لهم الجزية؟!". اندفع صاعد يهتف صائحاً: "لا واللهِ.. لن نسكت؛ وإنَّ بطن الأرض خير لنا من ظهرها إنْ رضينا بالضيم بعد اليوم!". وصاح عبد الجبار: "أصبتَ! وإني أُعاهدكَ يا ابن العم على النضال حتى ننتقم من بني عامر؛ أو أهلك دون ذلك!". ووافقهم محمد بن المغيرة الرأي بحماس قائلاً: "أنا معك يا محمد! دربك هو دربي؛ فإما أن نحيا أعزاء أو نموت شرفاء!". أما حمدون فقد كان يراقب حماستهم صامتاً، ويتفق معهم في الرأي: أنه يجب أن يرجع الأمر ليد المروانيين، ووافق على قول محمد بن هشام على الرغم مما فيه من مبالغات ومغالطات. بيد أنه قال: "يا قوم! إنَّ هدفنا واحد، وعزمنا ماضي –إن شاء الله- لكن

ينبغي ألا يدفعنا الحماس إلى التهلُكة؛ علينا أن نتدبر الأمر جيداً، ونعطيه حقه من التفكير والتخطيط! فكم من قائمٍ قام على بني عامر فهلك، وكم من ثائر ثار عليهم فقتلوه!". هتف محمد بن هشام قائلاً: "صدقتَ وربي يا حمدون! لا فُض فوك يا فتى! لذا سأقترح عليكم خطتي يا سادة كي تُشيروا عليَّ بالرأي!". "هات ما عندك يا أبا الوليد". "علينا أولاً أن نثير القضية في أذهان الناس: بني مروان والعرب والمولدين، وعامة أهل الأندلس.. يجب أن يعرف هؤلاء أن بقاء العامريين ومواليهم من البربر في السلطة سيكون وبال عليهم؛ وينبغي أن نثير أهل قرطبة ضد شنجول، فنُعرِّفهم مساوءه وفضائحه؛ ثم نستدر عطفهم على الخليفة المؤيد المغلوب على أمره.. الذي استغل المنصور -وأبناؤه من بعده- ثقته فيهم؛ فحجروا عليه، واستبدوا بالأمر دونه! ثم ثانياً: نشيع بين الناس أن ثائراً من بني مروان قد حل زمانه وأنه سيَهُبُّ ليُعيد الأمور لنصابها، ويرد الأمر لأهله.. فعلى الأوفياء والمخلصين أن يتأهبوا، ويستعدوا للثورة، ليخرجوا مع ذلكم الثائر! فإذا اجتمع لنا جمع كثيف من الناس، ورأينا فيهم العزة والمنعة الكافية؛ أظهرنا أمرنا، وخرجنا على شنجول دفعة واحدة! ها! ما قولكم فيما سمعتم؟!". اندفع طرسوس يهتف معجباً بتخطيط أميره: "لقد خططتَ؛ فأعجزتَ المخططين يا سيدي! وإنك دبرتَ فأحسنتَ التدبير!". "أشكركَ يا طرسوس! لكن هل يعترض أحدكم على ما قلتُ؟!". تكلم عبد الجبار فقال: "لكي يتحقق ما تقول يا ابن العم.. لابد من أمرين هامين! أولهما: أن نجمع المروانيين على كلمة سواء؛ هي الثورة على العامريين. وثانيهما: أن نتألف عدداً كثيراً من العامة ليكونوا ظهيراً لنا إنْ أحاط بنا العامريون!". "أما المروانيون فهم مهمتُك أنتَ ومحمد أخوك يا عبد الجبار! وأما جمع الأنصار من العامة؛ فهي مهمة صاحبنا صاعد، أما أصحابي هؤلاء من رفقاء الدرب –حمدون وطرسوس والآخرين- فهم رواد الناس في سبيلنا! وحين ينضج الأمر، ويحين قطاف ثماره؛ فسيكونون هم المنفذين للثورة! أليس كذلك يا طرسوس؟". "سيدي! أنا يدك التي تبطش بها، وسيفك الذي تقطع

به!". تكلم محمد بن المغيرة فقال: "إذا أردتَ حقاً أن يسير المروانية خلفك يا أبا الوليد؛ فينبغي أن يكون معك ابن عمنا: هشام[1] بن سليمان، وولداه سليمان وأبو بكر!". وأردف عبد الجبار موافقاً لقول أخيه: "صدقتَ يا أخي؛ أجل.. يا أبا الوليد، لإنْ اتفق معنا، فسيتبعه جُل المروانية لما له عندهم من قدر!". كان أبو الوليد لا يحب هشام هذا! بيد أنه رضخ لقول ابني عمه، وأظهر أنه يوافقهما الرأي فقال: "أصبتم يا أخوتي! حدِّثوه إذاً بأمرنا؛ واسألوه أن يتبعنا!". تساءل حمدون: "إذا نضج الأمر، وحان قطف الثمار –كما تقول- يا أبا الوليد! ماذا سنفعل؟!". "ننتظر، ونترقب حين غفلة من شنجول وأتباعه ثم نخرج –نحن ومن يناصرنا- عليهم؛ فنهُبُّ هبَّة رجل واحد؛ فلا يقدروا علينا! ثم نتجه إلى الخليفة في قصره، ونطلب منه.. بل ساعتئذ سنأمره: أن يعزل شنجول وزبانيته، ويولي الأمر من يصلح!". "ومن هذا الذي تراه يصلح؟!". "ليس هذا وقته! إنما يجب علينا الحين أن نجمع الأنصار، ونَصُفُ الصفوف!". يقاطعه صاعد متسائلاً: "سيدي أبا الوليد! إنَّ جمع الأنصار، وصفَّ الصفوف الذي تريد؛ يحتاج إلى مال.. مال كثير لنتألف به الناس.. فأهل قرطبة.. لن يغامروا بأنفسهم بغير ثمن!". اندفع عبد الجبار صائحاً:

---

[1].. رقم ٧ في شجرة النسب ص٤.

"إنَّ مالي كله ومال أخي لك؛ فأنفق منه كما تشاء يا أبا الوليد!". هتف أبو الوليد بامتنان: "بارك الله لكما في مالكما؛ إنَّ عندي فكرة لو تحققتْ لحصّلنا بها مالاً كثيراً". تساءل القوم باهتمام: "ما هي؟!". فالتفت إلى حمدون قائلاً: "احضر الفتاة إلى هنا!". ارتبك حمدون، ووجل قلبه: "أي فتاة يا أبا الوليد؟!". فأجاب: "الفتاة التي في ضيافتنا مذ تولى شنجول الحجابة". هو يعلم أنه يقصد سلوان؛ بيد أنه يخشى عليها أن تحضر إلى مجلس هؤلاء الرجال، كذلك يخاف عليها أن تشترك في هذا الأمر الخطير؛ فقال بتردد مكبوت: "ماذا تريد منها يا أبا الوليد؟!". "أُريدها أن تقص

علينا ما شاهدته في تلك الليلة!". "لعلها.. نائمة!". "أيقظها! هيا.. انهض وأتنا بها سريعاً". (قالها بحزم مشيراً إليه بالذهاب)، ثم أشاح عنه ليُحدث القوم بأمر الفتاة. فلم يجد حمدون مفراً من الذهاب إليها.. وإحضارها.

-المشهد الثلاثـون-

سمعتْ تنحنحه؛ فتهيأت لاستقباله، وبادرته قائلة باستحياء: "أهلاً يا حمدون! لقد علمتُ أنك عدتَ للجبل منذ حين!". "لولا أن طلبني أبو الوليد في أمر عاجل؛ لكنتُ جئتُك مسرعاً؛ فقد اشت...!". ابتلع كلماته، وامتنع أن يقول أنه اشتاق إليها؛ خشية أن يجرح حياءها. غير أنها لم تُخفِ عنه -هذه المرة- لهفتها عليه، ولم يمنعها من التبسط معه في الحديث إلا حياؤها ودينها، فآثرتْ أن تحاوره حواراً عاماً فسألتْ: "فيما كان يريدك هذا الأمير؟!". انتبه لما جاء من أجله؛ فتردد برهه ثم قال: "تعلمين يا سلوان أننا نسعى لوضع حد لتسلط شنجول والعامريين على الخليفة، بل تعلمين أنه يستحق السجن أو القتل قصاصاً بدلاً من الحجابة.. وأنتِ شاهدة على ذلك!". "أعلمُ! ولقد استأتُ كثيراً أنه حقق مراده وصار الحاجب، وخشيتُ على الأندلس مما قد يحل بها –لا قدر الله- إنْ استمر غادر مثله يحكمها!". "لذا نحن نرجو منك أن تتعاوني معنا، وأن تنضمي إلينا!". "من أنتم؟! وما عملي مع عصبة من الرجال يختبئون في الجبل؟!" (صمتت برهة) ثم استطردت تقول: "صحيح أنكم آويتموني، وأكرمتم ضيافتي، ولم يمسني أحدكم بسوء؛ لكني لا أدري ما عملكم هنا!". "نحن يا سلوان جماعة من أهل قرطبة بعنا أنفسنا لأجل الأندلس، وإنقاذها مما قد يُصيبها على يد شنجول، واجتمعنا حول رجل منا خبرنا صدقه وجهاده، فأمَّرناه علينا واتبعناه، هو: محمد بن هشام الذي تعرفين؛ وهو من بني عمومة الخليفة –كما تعلمين- وهو أولى بالخليفة من شنجول". "إذاً.. أميركم يرغب أن يكون الحاجب؟". "الرجل لا يسعى لمنصب؛ إنما يريد الإصلاح". "وما عملي أنا معكم؟!". تردد هنيهة

قبل أن يقول: "نحن الآن نجتمع ببعض أصحابنا في كهف آخر قريب.. إنْ شئتِ.. انضممتِ إلى اجتماعنا؟!". فأجابته مستنكرة: "كيف يا حمدون؟! لا يليق بي أن أجلس مع رجال غرباء في هذه الساعة من الليل؟!". "ألا تثقي بنا؟! ألا تثقين بي.. بعد المدة التي قضيتها؟!". "أنا أثق بك يا حمدون! لكني لا أعرف هؤلاء القوم!". "هم قوم خير إن شاء الله؛ واعلمي أني أفديكِ بروحي قبل أن يمس طرف ثوبكِ أذى". فتساءلت مندهشة من إلحاحه: "هل أنا مضطرة للذهاب إليهم؟ أم أنك تُخيرني؟!". "لن أضطركِ إلى شيء لا ترغبيه!". "هل ترضى لي أن أجلس معهم؟!". "صدقيني يا سلوان! إني أخاف عليكِ حتى من نسيم هذا الجبل؛ ولن يصيبكِ ما تكرهين؛ لكن الاجتماع بهم الآن فيه الخير –إن شاء الله- لأهل الأندلس جميعهم". اصراره على ذهابها لاجتماعهم لم يُقلقها فقط؛ بل أحزنها.. وأذهلها عما كانت تنوي أن تخبره به: كانت تنوي أن تحكي له حكايتها، وحكاية أبيها وأمها.. وكانت تنوي أن تطلب منه أن تغادر هذا الجبل وتذهب معه إلى بيت جدته -خير لها من المكث في الجبل مع رجال أجانب عنها- ريثما تستطيع اللحاق بأهل أبيها في اشبيلية. غير أنها لما أحستْ إصراره على اجتماعها بأصحابه.. انقبضتْ منه، ووجل قلبها؛ فأمسكتْ عما أرادتْ أن تُحدثه به. لكنها.. لم تجد مفراً من الذهاب معه؛ فهي منذ أوت إلى هذا المكان –الذي ليس لها غيره حتى الآن- ومكثتْ وسط هؤلاء الرجال بلا نصير، وبلا سند.. إلا الله! تشعر أنها عديمة الحيلة، لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً.. سوى أن تنتظر الفرج الذي يأتيها به قابل الأيام! بيد أن قلبها يحدثها بأن حمدون صادق المشاعر ونبيل الخُلق فلن يمسها بسوء؛ فقالت بعد تردد وصمت: "انتظر بالخارج ريثما أُهيئ نفسي وأخرج إليك!". بعد قليل.. خرجت معه، وقد أحكمتْ ستر نفسها بحجابها، ثم ذهبا إلى مغارة الأمير ابن هشام. تقدمها حمدون بالدخول إلى المجلس –حيث ينتظرهما الرجال- ثم صاح: "الأنسة سلوان تطلب الدخول يا أميرنا!". قالها بصوت عال، ليُنبِّه القوم أن التي ستدخل إليهم أنسة أندلسية حرة يجب احترامها

وتوقيرها؛ وأيضاً ليُطمئن سلوان بأن لا خوف عليها من الجلوس معهم! أشار إليه محمد بن هشام بيده: أن عجِّل بولوجها! دلفتْ سلوان إليهم متسترة بحجابها الذي أحكمته جيداً؛ فلا يكاد أحدهم يرى إلا عينيها؛ غير أن القوم التفتوا –جميعهم- إليها، وأمعنوا النظر فيها ودققوا، وجعل صاعد الحرار يتفرسها بعينيه كأنه يُكذِّب ما سمع! –فقد قصَّ عليهم الأمير قصتها على عُجالة- قبل أن تدخل إليهم. أخجلتها نظراتهم إليها وأصابتها بارتباك؛ فوجلت منهم، وغضت طرفها إلى الأرض صامتة؛ فبادرها الأمير قائلاً: "اجلسي يا فتاة، واحكي لنا ما شاهدتِه في تلك الليلة!". بادر حمدون بالإفساح لها في جانب المجلس، واقعدها فيه.. لكنها ظلتْ صامتة. مرَّ صمتٌ طويل ملّه صاعدُ الحرار فصاح فيها قائلاً: "هل تعرفين الرجل الذي قتل الحاجب المظفر؟!". أومأتْ برأسها أن: نعم! فبادرها القوم، وأمطروها بالأسئلة.. وهي خائفة متوترة لا تدري ماذا تفعل؟ وتخشى أن تحدثهم بما شاهدتْ، فهي تخاف من مجرد تذكر تلك الحادثة! حاول حمدون أن يخفف من وطاءة القوم عليها؛ فشرع يقول: "رفقاً بها يا سادة! إنها أنسة رقيقة؛ لا يتحمل قلبها تذكر ما رأتْ؛ وهي لا تحب الحديث عن تلك الحادثة! فأذن لي يا أبا الوليد أن أتكلم بالنيابة عنها! لقد كانت الأنسة سلوان حبيسة لدى رجل شرير يدعى ابن الرسان في بيته، ثم سمعته هو ورجلين آخرين –هما شنجول وقاتل المظفر- يتحدثون أنه قد تم لهم مرادهم بتعاطي المظفر للسُم –الذي أعده له ثالثهما- فلما تيقن شنجول من ذلك؛ ذبح ذلك الرجل أمام عينيها ثم دفنه في البيت الذي كانت فيه؛ فخافت على نفسها مما حدث.. ففرتْ منهم إلى هنا!". "كيف لم يرها القوم؛ وقد شاهدتْ وسمعتْ كل شيء؟!". "كانت مختبئة، ومن فضل الله أنهم لم ينتبهوا لوجودها.. وأنها تمكنت من الهرب ليفضح الله شنجول!". "لكن... لماذا حبسك ذاك الرجل: ابن الرسان؟ وما علاقتكِ به؟!". لكن الأمير قاطع المتكلم قائلاً: "لا يهمنا هذا الأمر! المهم.. أنها شاهدة عيان على قتل شنجول لأخيه! والأهم أن نستغل شاهدتها الاستغلال الأمثل!".

تساءلوا: "هل يعرف أحدكم ابن الرسان هذا؟! وما هي علاقته بشنجول؟". انطلق طرسوس يقول: "أنا أعرف رجل كان يعمل عنده.. وكان يحرس مخبأ هذه الفتاة! (يقصد فرتون)". "لو حصلنا على جثة القتيل؛ لاستطعنا أن نفضح شنجول أمام قرطبة كلها". "لا ريب.. هذه فرصتنا للتشهير به، وساعتئذ سنحاكمه بتهمة قتل أخيه الحاجب المظفر، ولن يملك أنصاره مؤازرته أو الدفاع عنه... أين نجد الجثة يا فتاة؟!". قاطعهم الأمير محمد بن هشام قائلاً بحسم: "مهلاً يا سادة! لا يُمكننا تنفيذ ما تقولون!". "كيف يا أبا الوليد؟!". "حتى لو حصلنا على الجثة؛ بمقدوره أن ينكر علاقته بها، ويتنصل من الأمر برمته؛ وأكثر من ذلك.. ساعتئذ سيتهمنا بالتشهير به، ومحاولة الخروج على الدولة.. وهكذا!". "إذاً! ما فائدة هذه الفتاة؟!". "أريد منها أن تدلي بشهادتها أمام الذلفاء.. أم المظفر". "بما سينفعنا ذلك؟". "أقول لكم أني أستطيع الحصول على الأموال -المطلوبة لتنفيذ مخططنا- من الذلفاء بشهادة هذه الفتاة!". "كيف؟!". "من منكم يُمكنه الوصول إلى الذلفاء ويرتب لي لقاء معها؟". صمت القوم طويلاً... حتى همس عبد الجبار بن المغيرة قائلاً: "قد يكون لدى السبيل لما تريد!". "كيف؟ قل!". "سأحاول الاتصال بفتاها بُشرى؛ فقد كانت علاقته بنا -سابقاً- وطيدة، وأحسبه باقٍ على الود القديم!". "عظيم! متى تستطيع الالتقاء به؟". "أمهلني بعض الوقت". "أسرع ولا تتأخر؛ فينتظرنا عمل كثير!". قاطعهما صاعد الحرار –الذي كان يرتاب في قصة سلوان من أصلها- قائلاً: "لكن يا سيدي علينا التأكد من صدق الفتاة كي يتحقق لنا المراد؛ لذا علينا أن نستخرج جثة القتيل –الذي تزعم- ليكون معنا دليل". "يا صاعد! لقد تأكد طرسوس من صدق الفتاة، ثم لو تحرينا في الأمر قد ينمو علمه إلى شنجول.. وحينها سيأخذ حذره، فتضيع علينا فرصة مباغتته. فضلاً عن أني لا يشغلني صدق الفتاة أو كذبها! علينا أن نقنع الذلفاء بأن ابنها قُتل وأن قاتله هو: شنجول! إنْ استطعنا ذلك؛ فستشتعل بينهما حرب ضروس.. سنكون نحن المستفيدين منها! وهذه هي

مهمتي مع الذلفاء إذا تمكن عبد الجبار أن يوصلنا إليها". كان الحديث يدور بين الرجال.. بينما سلوان جالسة شاردة الذهن، حزينة القلب.. تشفق على نفسها، وتتحسر على حالها. لقد أصبحت الفتاة الشريفة بنت الأكابر فتاة بائسة –بنت سبيل- محاصرة في جوف جبل بعُصبة من الرجال الغلاظ، لا تدري ما سيُفعل بها! ليس لها مأوى تأوي إليه، ولا ملاذ تلوذ به، ولا نصير من أهل تحتمي به!

-المشهد الحادي والثلاثون-

أمضى الخليفة المؤيد بالله الأيام الفائتة في قصر ناصح، ثم أراد أن يعود إلى قصره بالزهراء يوم السبت الموافق ١١ من شهر ربيع الأول سنة ٣٩٩هـ. فلما علم الحاجب المأمون (شنجول) بذلك؛ بادر ليصحب الخليفة إلى الزهراء، وأحاط موكبه بجنود كثيفة، وراح يتحين الفرصة التي يخلو فيها بالخليفة ليقنعه بتقليده ولاية العهد. فزين له أن يذهبا معاً للتنزه بمنية جعفر على نهر قرطبة؛ فوافق الخليفة؛ وارتحل بخواصه إلى منية جعفر في اليوم الثالث من عودته للزهراء، يصحبه حاجبه وجند كثيف من البربر. في منية جعفر، وعلى ضفاف نهر قرطبة العظيم.. حيث الطبيعة الساحرة، والمناظر الخلابة، والهواء العليل.. وقد رحل عن قرطبة حر الصيف، وأقبلت نسمات الخريف الباردة؛ تنذر بقدوم شتاءٍ زمهرير.. راح شنجول يتودد إلى الخليفة، ويلازمه أينما حلَّ، ويتقرب إليه زلفى.. حتى إذا صادف ساعة صفا في خلوتهما؛ راح يُذّكر الخليفة بأمه –صُبح- وأرومتها البشكنجية؛ ثم يذكر أن أمه –عبدة- هي الأخرى بشكنجية: تزوجها المنصور من أبيها باتفاق الصلح الذي كان بينهما؛ فأسلمت وحسن إسلامها، وأحبها المنصور، وحظيتْ عنده.. ثم شرع يسول للخليفة أن أصل أمهما البشكنجي الواحد إنما هو خؤولة بينهما.. أي أنهما قريبان من جهة الأم.. والخليفة منشغل عنه بما يشاهده حوله من إبداع الخالق سبحانه وتعالى؛ لكنه وافقه الرأي -أنهما قريبان من جهة الخؤولة- من باب التواضع وخفض

الجناح لحاجبه! بيد أن شنجول كان شاباً عجولاً إذا هوى شيطانه شيئاً فلا يصبر عنه حتى يناله؛ فعزم على ألا يترك الخليفة يغادر هذا المكان إلا وقد ولاه عهده. فأدخل علي الخليفة الكاتب أحمد بن برد، وأمره أن يحدثه في ولاية العهد، ويخوّفه من نوائب الدهر، فإذا حان أجله وليس له ولي عهد؛ فستضيع الأندلس وسينفرط عقد مُلكها؛ ثم يُحبب إليه أن يُقلِّد ولاية عهده لحاجبه المأمون؛ ولا ينسى أن يذكر له حديث القحطاني الذي أعلمهما به القاضي ابن ذكوان. نجح كاتب الإنشاء ابن برد في مهمته واستطاع بذكائه وبلاغته ولباقته أن يُقنع الخليفة بوجوب اختيار ولي العهد.. لكن أن يكون من غير بني مروان؛ فهذا ما أزعج الخليفة! أخبر ابنُ برد شنجولَ بما دار بينهما، وبامتعاض الخليفة من أن يكون ولي عهده من غير بني مروان.. وأزعجه أكثر أن يكون من غير قريش. اغتاظ شنجول وعزم أن يحمل الخليفة على اختياره ولي لعهده حملاً؛ فدس عليه ليلاً من يتظاهر بالهلع ويخبره بأنه سمع الحاجب يقول: إذا لم يولني هشام عهده؛ فلا بقي هشام، ولا بقيت قرطبة! وراح هذا الدسيسة يخوّف الخليفة على نفسه وعلى الأندلس إذا لم يُذعن للحاجب، ويوافقه على ما يطلب. ثم أمر شنجول –من الصباح- جنوده من البربر بإحاطة الخليفة وقصره بشكل كثيف؛ فلما رأى هشام في اليوم التالي صدق ما نُبأ به ليلاً؛ جزع، وخاف على نفسه وأهله. ولما كان ضعيف الشخصية، واهن العزم، قد زهد في السلطان منذ زمن بعيد؛ فقد استدعى حاجبه (شنجول) وجعل يتحدث معه في أمر ولاية العهد، ويحاوره فيما قاله له الكاتب ابن برد، ويخبره بقناعته بوجوب وجود ولي للعهد يدبر أمر الخلافة من الآن، ثم يصير الخليفة بعد موته؛ فأجابه شنجول بخبث: "نِعم الرأي ما رآه أمير المؤمنين!". فلم يُخفِ هشام تحيره وقلقه، فقال له صراحةً: "لكن.. يتحتم أن يكون الخليفة قرشياً!". "مولاي أمير المؤمنين! من أبطأ به عمله؛ لم يسرع به نسبه؛ فلنستدعي قاضي قرطبة (القاضي ابن ذكوان) فهو خير من يفتي في هذه المسألة!". "هل ترى أن رأيه سيكون من رأي

ابن برد؟!". "أجل! فهو من أشار بهذا الرأي بما له من علم بحديث الرسول –عليه الصلاة والسلام-". "أخشى سخط بني مروان يا أبا المطرف!". "إذا كان رضا الله في سخط الناس؛ فخليفة المسلمين أجدر به! إنما أنت تتقرب إلى الله بهذا العمل، ويتحتم عليك -يا أمير المؤمنين- أن تتحرى الحق، وتتبرأ من هواك، وأن تفعل ما يستوجبه عليك دينك وأمانتك! فخلافة الأندلس أمانة عظيمة في عنقك يجب أن تؤديها لمن يستحقها.. مَن يملك القدرة على صونها! ولن تجد من يصونها خيراً من حاجبك المأمون؛ وخادمك المطيع: أنا!". "فلنستدعي القاضي والفقهاء إذاً لنستشير في الأمر!". "كما ترغب!". خرج شنجول من عند الخليفة –في تلك الليلة- وقد عزم أن يضعه أمام الأمر الواقع؛ فحدّثَ أصحابه وخدمه بأنه قد ولاه عهده صُراحاً واختاره للخلافة دون بني عمه وأقاربه، وأنه يستدعي –غداً- القاضي والفقهاء ليُشهدهم على ذلك! انبلج صباح الأربعاء التالي.. وقد أُحيط قصر الخليفة بصفوف كثيفة من الجند، ثم أُخرج الخليفة المؤيد هشام إلى الساحة الكبرى حيث رأى ما يُرهبه به شنجول من القوة العسكرية والسطوة؛ فأيقن أنَّ شنجول ماضٍ على عزمه، ولن يمهله حتى يستفتي العلماء في أمرهما؛ فجلس في مجلسه زائغ البصر، مشتت العقل، لا يملك لنفسه شيء –رغم ما يحيطه من رسوم الأبهة والملك الزائفة- فاستسلم للأمر الواقع، وأذعن لرغبة شنجول. ثم سرعان ما جاءه كاتب الإنشاء أحمد بن برد بمرسوم ولاية العهد (الذي كان قد كتبه آنفاً) ليُقر بما فيه، ويختمه بختمه. ثم أُدخل عليه قاضي الجماعة ابن ذكوان، والوزراء التسعة والعشرون، فأقر أمامهم –مستسلماً- بأنه قد قلَّد الحاجب المأمون (شنجول) ولاية عهده، وقُرأ عليهم المرسوم؛ فشهدوا بما رأوا وبما سمعوا، وأقروا لشنجول بولاية العهد، ثم أُدخل مائة وثمانون رجلاً من أكابر الدولة والفقهاء؛ ففعلوا مثل ما فعل ابن ذكوان والوزراء وشهدوا على مرسوم ولاية العهد؛ فصار شنجول –وكأنه حقاً القحطاني المذكور في الحديث- مذ ذلك الحين ولي عهد الخليفة؛ وأمر بإنفاذ

الرسائل إلى سائر أنحاء المملكة بوجوب إذاعة المرسوم، والدعاء لولي العهد على المنابر بعد الخليفة!

-المشهد الثاني والثلاثون-

بينما شنجول وأعوانه مشغولون بتدابير ولايته للعهد؛ تمكن عبد الجبار بن المغيرة من لقاء بُشرى (خادم الذلفاء)؛ فوجده باق على وده القديم له وللمروانية.. بل وألفاه ساخطاً على شنجول، وأعلمه أن سيدته -هي الأخرى- حانقة عليه؛ لإهماله وصيتها له بحفيدها وابن أخيه (محمد بن المظفر). وأخبره أيضاً بأنها تجد منه جفوة وجفاء، ورغم أنه لم يخرجها من قصرها الكبير بالزاهرة إلا أن سعيه الحثيث لمحو أثار ابنها المظفر أحزنها، وجعلها تظن به الظنون. فتشجَّع عبد الجبار –لمَّا علم تلك الأنباء- فسأل بُشرى أن يهيئ له لقاءً سرياً مع الذلفاء لأمر خطير يهمها؛ فاستمهله بُشرى وقال: "سأخبر السيدة فإن وافقتْ؛ فسأجعلك تقابلها!". استأذن بُشرى في الدخول إلى سيدته؛ فأُذن له: "مرحباً يا بُشرى! أخبروني أنك تريدني في أمر عاجل؟!". "مرحباً بك يا سيدتي! الحقيقة.. أن أحد بني مروان.. يريد مقابلتكم لشأن خطير". "أما زلتَ على صلتك بالمروانيين يا بُشرى؟!". "إنما هو الود القديم يا سيدتي! ولا ينكره إلا جاحد.. ثم إن مولاتي لم تنهاني عنهم!". "صدقتَ! من ذاك الذي يريدني؟ وما هذا الأمر الخطير الذي تزعم؟". "هو: عبد الجبار بن المغيرة، ورجل آخر معه.. لم يفصح عن شخصه". "ابن المغيرة بن الخليفة الناصر؟! فيما يريدني هذا الرجل؟ هذا أمر مريب!!". "أعلمُ -يا سيدتي- فيم ترتابين! لكن.. حكاية المغيرة نُسيتْ منذ زمن! وأبناؤه يعيشون معنا في هدوء وسلام". "إنَّ ما بيننا وبينهم لا يُنسى، ولا تمحوه الأيام من القلوب.. بل ستتوارثه الأجيال!". "لو شاءت سيدتي صرفتُه.. وأخبرتُه برفضكم مقابلته.." "لا!! ماذا يريد؟!". "لم يذكر غير أنه أمر شديد الخطورة.. يهم مولاتي بشأن مولاي المظفر –رحمه الله-". "ولدي المظفر؟! إنا

لله وإنا إليه راجعون! ماذا يريدون من ولدي بعد أن لقي ربه؟!". "إنه يريد أن يلقاكم سراً يا سيدتي؛ دون أن يعلم الحاجب المأمون!". "إذاً! فهو أمر يخص المظفر؛ ويسوء شنجول؟!".

بينما هما يتحدثان؛ إذ أحسا بحركات دؤوبة حول الزاهرة، وأصوات عالية تنم عن الفرح والابتهاج؛ فقطعتْ الذلفاء الحوار، وأمرت بُشرى بالذهاب للاستعلام عن الخبر. بعد مدة ليستْ بالطويلة.. جاءها ينبئها بالخبر: لقد أصبح شنجول ولي عهد الخليفة. والزاهرة تستعد للاحتفال بذلك الخبر، ولاستقبال المهنئين الذين سيأتون له في قصره غداً لتهنئته ومبايعته. باغتها النبأ، وأرهبتها المفاجأة.. فشرعتْ تضرب كفاً بكف، وتُتمتم قائلة: "يا لحسرتي على مُلك المنصور! سيضيعه هذا الفتى العجول؛ تالله.. لقد استهواه كيد شيطانه، وغرته قوة سلطانه.. فذهب يبعد في غيه؛ يظنها نعمة! بل.. ستكون نقمة عليه وعلينا!". "لِمَ التشاؤم يا مولاتي؟! صحيح أني متغيظ منه! لكن.. عساه بهذا ينقل الخلافة من المروانيين إلى العامريين.. ثم تؤول من بعده لسيدي محمد بن المظفر". "إني أرى نُذر الشر يا بُشرى! هذا الفتى أهوج مغرور.. إنّ بني مروان.. والعرب القيسية.. بل وأهل الأندلس جميعاً لن يقبلوا نزع الخلافة من بني مروان! وحينها لن يملك البربر -الذين استجلبناهم من المغرب- حمايته ولا حمايتنا، والله! إنَّ المنصور –رحمه الله- كان أشد منه قوةً وسلطاناً.. ولم يتسمى بسيم الملك إلا بعد فترة طويلة من الحكم والجهاد، ونأى بنفسه عن منازعة المروانيين الخلافة لما يعلمه من خطورة هذا الأمر، وعدم تقبُل أهل الأندلس له.. فمات -لما حان أجله- شريفاً معظماً بين كل الأندلسيين.. أما هذا الفتى فقد تعجل ألقاب الملك؛ فتسمى بالمأمون –ولم يغزُ ولو مرة واحدة- ثم ها هو ذا ينازع الأمر أهله! إنها لمصيبة بحق وستقع فوق رؤوس بني عامر جميعهم!". "صدقتِ يا سيدتي! لكن ماذا بأيدينا أن نفعل؟!". "لا نملك غير أن ننجو بأنفسنا". "كيف يا سيدتي؟". "لن يسكت بنو مروان عن حقهم في الخلافة يا بُشرى! واسمعها مني.. لن يبقى هذا

الفتى طويلاً بعد الذي فعله! عليَّ أن أستأمن بني مروان على نفسي وعلى آل ولدي المظفر من الآن. أخبر ابن المغيرة إني أوافق على مقابلته غداً، وتحرّ أنت سرية هذا اللقاء".

-المشهد الثالث والثلاثون-

من فوره ذهب بُشرى إلى عبد الجبار ليخبره بموافقة الذلفاء على لقائه، وأعلمه أن اللقاء سيكون غداً في قصرها بالزاهرة –أثناء الاحتفال بولاية العهد- حين يكون شنجول وعيونه مشغولين بالاحتفال وباستقبال المهنئين، وتكون الزاهرة مزدحمة بجماهير الزائرين من أهل قرطبة ومن حولها الذين جاءوا يحتفلون ويهنئون ولي العهد الجديد، وبينما يكون الحرس والعيون منشغلين بالاحتفال، يتمكن هو ومن معه من التسلل خلسة إلى جناح الذلفاء بقصرها؛ والتحدث معها كيف يشاء؛ وسيكون حينها في مأمن. سارع عبد الجبار ليُنبأ محمد بن هشام بما حدَّثه به بُشرى. تهلل وجه الأمير ابن هشام لِما سمع.. وزاد من سعادته علمه بأن شنجول صار ولي العهد وسيحتفل بذلك غداً. هذا الخبر سيزلزل الأندلس كلها، وسيجعل الأرض تميد بالمروانيين! راح يصيح في عبد الجبار –بعد أن أعلمه النبأ- كأنه يخاطب في شخصه كل بني مروان: "ألم أخبركم؟! ألم أقل لكم: إنْ رضيتم بالضيم مرة؛ فستحيون بقية حياتكم في ذل وهوان؟! ها هي ذي الخلافة تُنزع منكم! إلى متى تنتظرون؟! أي شيء ترتقبون؟ والله! ما بقي لابن أبي عامر إلا أن يُذبِّح رجالكم ويسبي نساءكم وأطفالكم.. ثم تكون مسبة في جبين بني مروان أبد الدهر!". كان يستمع إليه حمدون وطرسوس مع عبد الجبار.. بيد أن عبد الجبار كان يستمع لتلك الكلمات العاصفة في أسى وتحسر، فأشعلتْ هذه الكلمات نار الحقد والثأر.. وأججتها في قلبه؛ فصرخ في ابن عمه –وهو ينتفض- قائلاً: "كفى يا محمد! لقد طفح الكيل؛ والله.. لقد هممتُ أن أخرج إلى الزاهرة فاقتل شنجول هذا بين أعوانه!

وليكن ما يكون!". امسك حمدون بكتفيه يهدئه وهو يقول: "هدأ من روعك أيها الأمير عبد الجبار! لا تدع نار غضبك تحرق ما نخطط له؛ علينا أن نستمر فيما رسمه لنا أبو الوليد؛ ثم نضرب ضربتنا في وقتها المناسب!". هتف أبو الوليد موافقاً لرأي حمدون: "أحسنتَ! هذا وقت التعقل يا عبد الجبار.. لا الجنون! علينا أن نستعد للقاء الذلفاء، فإنْ حدث ما نرجو وانضمتْ إلى صفنا.. فسنضرب بها شنجول.. اذهب يا حمدون، وأمر الفتاة بالتجهز للذهاب معنا غداً إلى الزاهرة!". ذهب حمدون بخطى متثاقلة إلى كهف سلوان ليناشدها أن تُتم معروفها، وأن تذهب معهم إلى الذلفاء لتخبرها بنبأ تلك الليلة المشؤمة. غير أنه تفاجأ بها تقول في إباء صارم: "لن أذهب إلى حيث تبغون إلا بشرطي! أحضر سيدك إليَّ هنا ليسمعه مني بنفسه". أراد أن يتناقش معها أو يفهم منها؛ لكنها أمرته بحسم أن يذهب ويحضر سيده لتُعلمه بنفسها شرطها الذي تشترطه. لم يملك أمام إصرارها وترفعها إلا أن يذعن لرغبتها.. فذهب عنها إلى الأمير، وهو متحير، ضائق الصدر، وجل القلب.

-المشهد الرابع والثلاثون-

لم يجد الأمير ابن هشام بُداً من ذهابه بنفسه إليها ليستمع إلى شرطها؛ فذهب –مع حمدون- إليها وهو ينوي في قرارة نفسه ألا يستجب لشرطها وألا يحقق لها رغبتها.. فإنَّ المرأة التي تشترط على محمد بن هشام لم تُخلق بعدُ.. ولن تكون هذه الفتاة الضائعة الحقيرة هي تلك المرأة! دلف إليها بعد أن استأذنها حمدون؛ مما زاد في تبرمه وسخطه. ثم سألها في تعالي: "ما هو طلبكِ أيتها الفتاة؟!". "أريدُ أن أذهب إلى أهلي بإشبيلية!". "وإذا رفضتُ طلبك؟!". "إنْ رفضتَ؛ فلن أذهب حيث تريد". "ألا تخافين أن أقتلكِ؟" أجابته بإباء وثقة: "أنت من تحتاج إليَّ الآن؛ وستكون أحرص على حياتي!". ضحك ساخراً من قولها وصاح: "لم أحتج لامرأة من قبلُ.. لكني حقاً

أحتاج إليكِ الآن!". "إذاً! ماذا تقول؟". "أقول.. أقتلوها يا حمدون..." وارتفعت ضحكاته الساخرة؛ فراح جوف الجبل يرددها بشكل مخيف اضطرب له قلب حمدون الذي ظل صامتاً مبهوتاً. أما سلوان.. فقد كانت ثابتة رابطة الجأش؛ فبادلته النظر بنظرات ساخرة كأنها تتحداه أن يفعل. فأمسك عن الضحك، وجعل يستعيد وقاره ثم قال: "لكِ ما تريدين! لكن لن أأذن لكِ في الرحيل إلا بعد أن أُحقق مرادي من لقاء الذلفاء!". "إذاً أذهب معك غداً إليها.. لكن لا أعود إلى هنا!". "أين تريدي أن تذهبي؟". "لا أريد البقاء معكم بهذا الجبل!". "ليس الأمر لكِ.. كي تريدي البقاء أم الرحيل!". "هل أنا أسيرة عندك؟!". حاول حمدون التدخل في هذه اللحظة ليقول بتلطف: "بل أنتِ ضيفة كريمة يا سلوان!". لكن ابن هشام أشار إليه أن يصمت وقال لها في تبجح: "أجل! أنتِ أسيرة عندي! وإنْ خالفتِ مرادي؛ فسأُسلمكِ للشرطة بتهمة قتل ذلك الغادر الذي قتل المظفر، والدليل: هو الجثة حيث دُفنت؛ وسيسعد ذلك الرجل (ابن الرسان) بشهادته الزور عليكِ". ثم انفجرت ضحكاته الهازئة كأنها تزلزل المكان، فزلزل صداها قلبَ حمدون، وهزت كلماتُه سلوانَ وأرهبتها؛ فتسلل الخوفُ إلى قلبها أن يُنفذ تهديده؛ فنظرت إليه وهو يتمايل ضاحكاً في صلف، ثم التفتت إلى حمدون؛ فلم ترمق منه غير نظرات خائرة.. ضعيفة عن حمايتها! فلم تجد مناص من الإذعان لرغبة ابن هشام؛ فأطرقت بانكسار. لكن.. سرعان ما استعادت ثباتها، ونفضت عن قلبها غبار الخوف والخضوع لتواجهه في تحد وعزم قائلة: "لو هذا في صالحك؛ افعله!". الآن.. وبعد طول صمت شرع حمدون يتحدث؛ فخاطب أميره قائلاً: "اسمح لي يا أبا الوليد! إن الآنسة معها حق؛ فبعد أن تتحدث مع الذلفاء، وتخبرها النبأ الذي نريد؛ ينبغي ألا تعود إلى الجبل.. فمؤكد أن عيون الذلفاء سترصدها، وسيراقبونها.. فإذا رأوها تعود معنا إلى الجبل؛ فقد لا تصدق الذلفاء حديثها؛ وتظن أنها خدعة منا للوقيعة بينها وبين شنجول؛ وساعتئذ يفسد كل الذي خططتَ إليه يا سيدي؛ والأدهى أن ذلك قد يهدد بقاءنا

آمنين هنا بالجبل!". "كلامك يبدو منطقي! لطالما أقنعتني! إذا أين تذهب؟ لن أتركها ترحل حتى أتأكد من عدم حاجتي لها". "أصدقُك القول يا أبا الوليد؟". "لا تقل إلا الصدق يا رجل! أفصح عما يدور برأسك؟!". "لقد فكرتُ في الأمر من قبلُ؛ ووجدتُ أن خير مكان نطمئن عليها فيه هو بيت جدتي فاطمة". ضحك ابن هشام بخبث وقال: "هكذا إذاً! تريدها عندك في بيتك؟؟!". "لن تكون عندي يا أبا الوليد؛ بل عند جدتي.. التي هي بمثابة جدتك، وأنا سأكون معك هنا في الجبل؛ فلا تظن بي السوء! إنما أردتُ المصلحة". "وهل ستوافق جدتك على استضافتها؟ وإذا سألتك من هي، وما خبرها! بماذا ستنبئها؟!". "دع جدتي لي! فلتوافق أنت أولاً!". "أوافق على أن تضمن لي عدم مغادرتها قرطبة إلا بإذني!". "أضمن لك ذلك إن شاء الله!" قالها، ثم التفت إليها ليسألها برفق: "ما قولكِ يا سلوان؟ هل توافقين؟". لكن ابن هشام اندفع صائحاً في كبر: "لن أسمح لها أن ترفض! فإما الجدة فاطمة؛ وإما البقاء في الجبل!". لم تجبه سلوان إلا بالصمت؛ فقد وافق هذا الرأي هواها.. لكنها لم تُرد أن يفهما أن تلك هي رغبتها. فلما طال صمتها ولم تجب؛ خاطبها آمراً: "إذاً استعدي للذهاب غداً!".

-المشهد الخامس والثلاثون-

أضحت الزاهرة تزدان في زينتها -كأنها عروس حسناء ترفل في ثياب عرسها لتزف لأميرها المحبوب- ابتهاجاً واحتفالاً بولي العهد الجديد، والملك السعيد: المأمون بن أبي عامر.. (شنجول). كان الوقت ضحى يوم الخميس الموافق ١٦ من ربيع الأول. وكان نهاراً خريفياً مشرقاً.. إلا من بعض غيوم قد تحجب الشمس يسيراً؛ وكانت نسمات الخريف الباردة المنعشة التي تملأ أجواء قرطبة تبعث على التفاؤل والابتهاج. لكن.. لم يكن عبد الجبار ومحمد ابنا المغيرة بن الخليفة الناصر مبتهجين، ولا متفائلين وهما يساقان كالأسيرين سوقاً حثيثاً إلى الزاهرة يحيط بهما الجنود

البربر؛ ليبايعا –مرغمين- ولي العهد الجديد. ومعهما كبراء المروانيين وغيرهم من وجهاء بطون قريش.. المبعدين عن الخلافة؛ وجميعهم يعزي نفسه، ويكفكف عبرته، ويكظم غيظه؛ متحسراً على ملك بني مروان الذي ضاع، وإرث عبد الرحمن الناصر الذي آل إلى ذاك الأرعن الجهول (شنجول). حاولوا كتم حسرتهم، وكظم تغيظهم، وهم يُقبلون عليه –مكرهين- ليبايعوه ويهنئوه بولاية العهد. دخلوا عليه في أبهة ملكه وعظمة جاهه بقصره في الزاهرة؛ فألفوه جالساً مختالاً على سرير ملكه يرحب بالمهنئين، ويبادلهم التحية في زهو وكبرياء؛ يتيه مختالاً كالطاووس.. كأنه قد ملك الدنيا، وكأنه قد صفت له الحياة. بيد أن عبد الجبار لم يملك أن يخفي حقده على هذا المغتصب الذي جاء ليسلب مُلك جده وميراث آبائه، ولم يستطع أن يرسم على وجهه أمارات النفاق، وعجز أن ينقش على وجهه علامات التزلف التي أرادوا؛ إنما حدثته نفسه أن ينقض على هذا الشنجول الغاصب وسط حاشيته وجنوده؛ فيقتله ويريح الأندلس من شره. همَّ أن يتخلص من عصبة الحراس المحيطين به لينطلق كسهم قاتل نحوه! فيستعيد لقومه المروانيين عزهم وكرامتهم. لكن أخاه محمداً قرأ في عينيه ما تحدثه به نفسه؛ فأمسك به وربت على كتفه كمن يقول: اهدأ! ولا تتصرف بحماقة، اصبر! فإنَّ غداً لناظريه قريب. في تلك الأثناء.. وبينما تزدحم الزاهرة بالمهنئين والمدعوين، ويحتفل أهلها بوليّ العهد الجديد؛ شرع بُشرى (خادم الذلفاء الأمين) يتخلل خلسة صفوفَ الناس يتبعه طيفان لشخصين متخفيين في ثياب النساء.. حتى بلغ ثلاثتهم جناح أم المظفر بقصرها خارج أسوار الزاهرة حيث كانت تنتظرهم! الطيفان أحدهما لامرأة هي: سلوان، أما الطيف الآخر فقد كان محمد بن هشام متخفياً في ثياب النساء لكيلا يطَّلع عليه أحد. دلف الثلاثة إلى الذلفاء التي نهضت واقفة من مجلسها اهتماماً لقدومهم، وصرفت مَن حولها توكيداً لكتمان اللقاء. قبل أن تنزع نقابها.. راحت سلوانُ تتفرس السيدة فألفتها امرأة فارقها شبابها تاركاً مسحة من آثار جمال قديم.. هذَّبه الزمن فزاده وقاراً، ووجدتها

امرأة ذات مظهر كريم متواضع رغم ما في ثيابها الفاخرة من رونق وفخامة؛ فحدثت نفسها بأن هذه امرأة رشيدة ذات عقل وحكمة لائقة بأن تكون زوجة المنصور وأم المظفر. لكن رغم هذا المظهر الرائق البراق، لم تستطع الذلفاء أن تخفى حزنها وألمها لفقدان ولدها العزيز: (الملك المظفر)، ورغم الأبهة التي تحيط بها.. لم تملك أن تداري انكسارها وحسرتها الذيَن يصاحبانها منذ فقدتْ فلذةَ كبدها. أما محمد بن هشام فقد كان يبالغ في التستر -كيلا يعرفه أحد- غير أن عينيه ما فتأتا تجولان في المكان كعيني ذئب جائع يبحث عن فرائس. بهره ما يرى من مظاهر العظمة والملك والأبهة التي تحيط ببني عامر؛ فثارت حفيظته، وتلظت نفسه حقداً ومقتاً، وتحرق شوقاً للانتقام لأبيه. لكنه آثر أن يملك نفسه، ويكظم غيظه إلى حين. زفر زفرة عميقة، ثم ألقى نظرة ثاقبة على الزاهرة كأنما يقول لها: قريباً.. سيأتي اليوم الذي أهدمكِ فيه على رأس بني عامر، ولن يجيرهم مني أحدٌ، ولن يسلم من انتقامي منهم أحدٌ! أفاق من هواجس انتقامه على صوت الذلفاء تسأل في هيبة: "من أنتما؟ وماذا تريدان؟!". فأجابها عنهما بُشرى وهو يشير إلى محمد: "سيدتي! هذا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة الناصر!". خلع محمد لثامه النسائي، وحسر عن رأسه، واعتدل منتصباً في وقوفه تباهياً بنسبه. أما سلوان فقد حسرت خمارها عن وجهها لتُعلمها أنها امرأة. لم تتفاجأ الذلفاء بوقوف ابن هشام بين يديها، ولم ترتع لقدومه إليها، غير أنها التفتت إلى بشرى وسألته بشيء من الريبة: "ألم تزعم أن الذي يريد مقابلتنا هو ابن المغيرة بن الناصر؟!". أجاب بُشرى بتحرج المعتذر: "عفواً! فإنه لم يستطع القدوم يا سيدتي!". رددتْ باستهجان وأنفة: "لم يستطع القدوم؟؟!". ارتبك بشرى، وعجز أن يجيب سيدته، وذهبت الكلمات بين شفتيه سدى خوفاً من حنقها. فانبرى ابن هشام ليجيبها؛ وهتف متهكماً بجرأة وثبات -جذبا انتباهها- إليه: "لم يأتيكِ ابن عمي لأنه الآن –هنا في الزاهرة- يبايع ولي العهد الجديد، فقد أحاط الجنود البربر بداره من البارحة، ثم اقتادوه في الصباح كالأسير؛ ليبايع مكرهاً..

ومثله سائر المروانية". "ولماذا لم يقتادوك أنت أيضاً؟!". "لو وجدوني.. لفعلوا معي أكثر من ذلك! لكنهم لم يستطيعوا الوصول إليَّ!". "إذاً! ما أقدمك علينا يا ابن هشام؟ ألا تخشى بطشنا؟!". "سيدتي! امرأة حكيمة عادلة مثلك.. لا يخشى مثلي المثول أمامها؛ إنما يخشى ذلك الظالم، وهو غيري!". "ومن ذاك الظالم؟ هل هو ابن المغيرة (تقصد عبد الجبار)؟!". "بل الظالم يا سيدتي من اتهم أبي –رحمه الله- بالتآمر.. وسجنه.. ثم قتله غيلة في سجنه!". فأجابته بصرامة ساخطة: "إياك أن تذكر ولدي المظفر بسوء يا هذا!". "عفواً أيتها السيدة! لكن دعيني أُكمل حديثي.. فأنا..". قاطعته غاضبة: "لا أريد أن أسمعك! أيطلب ابن عمك لقاء أم المظفر سراً، ثم تأتي أنت بدلاً منه.. لتتهم ولدي –رحمه الله- بالظلم! تباً لكما!". سارع محمد إلى إصلاح الموقف صائحاً كالمستعطف لها: "ليس المظفر هو قاتل أبي.. يا سيدتي!". رمقته باندهاش، ثم اتكأت في مجلسها وهي تنظر إليه بريبة –فإنه لا يروق لها-؛ غير أنها أذنتْ له أن يكمل حديثه فاندفع يقول ما كان قد أعده سالفاً: "لا أنكر إني كنتُ أظن أن المظفر قتل أبي؛ فحنقتُ عليه.. لكني علمتُ الحقيقة، وتأكدتُ أن الملك المظفر وأبي كانا ضحية لمؤامرة حاكها غيرهما ليبطش بهما معاً، صحيح أن ابن القطاع كان يتآمر على المظفر؛ لكن.. أبي لم يكن كذلك. بل الذي تآمر مع ابن القطاع (**رجلٌ آخر**)؛ غير أنه خشي ابن القطاع؛ فانقلب عليه، ووشى به عند المظفر، وأراد أن يحكم خطته فأقحم أبي في الأمر". اعتدلتْ في جلستها –وقد ملتْ ثرثرته- وسألته متهكمة: "ومن ذاك **الرجل الآخر**؟!". أسرع صائحاً –فقد كان يرتقب هذا السؤال-: "هو نفسه الرجل الذي تآمر على المظفر.. وقتله!". انقضَّ قوله على قلبها كصاعقة سقطت من السماء؛ فأحرقت أحشائها، وأضرمت النيران بين ضلوعها. ضربت صدرها في جزع، ووثبتْ صارخة: "ماذا تقول أيها الرجل؟ من ذا الذي قتل ولدي؟!". تنهد ابن هشام ليلتقط أنفاسه.. ثم أجابها -بعد تلكؤ-: "أخوه.. شنجول.. ابن أبي عامر!". أذهلتها المفاجأة عن الالتزام بوقارها المعهود؛ فانهدت

مرتمية في مجلسها، ولم تُخفِ هلعها عنهم.. ثم دفنت وجهها بين كفيها في صمت. ووقف ثلاثتهم مشدوهين.. ولم ينبس أحدهم ببنت شفة. ساد الصمت المكان مدة –لم تكن طويلة- لكنها مرت على الذلفاء كأنها دهر كامل، استطاعت بعدها أن تتمالك نفسها وترفع رأسها إلى ابن هشام الذي كان واقفاً أمامها منتصباً في إباء –مُخفياً الشماتة التي تملأ قلبه-. حاولت أن تستعيد وقارها وهي تسأله كالمُتشككة: "كيف أتأكد أنك صادق؟!". "سيدتي! لو لم أكن صادقاً.. لما جرُأتُ أن آتي إليك متخفياً لأخبرك!". "هل ثمة دليل على هذا الافتراء؟!". "لا جرم! دليلٌ حي". وأشار إلى سلوان التي مازالت واقفة في صمت.. وأردف هاتفاً: "هذه الفتاة البائسة.. التي هي إحدى ضحايا شنجول وزبانيته.. هي شاهد على جريمته!". حدجتها ببصرها –وقد استعادت كثيراً من وقارها وهيبتها- وسألتها في اهتمام: "ما ورائك أيتها الفتاة؟". لم تجب سلوان، ولم تنبس بكلمة.. إنما أحست كأن الأرض تميد تحت قدميها، وشعرت كأنها فقدت ذاكرتها، ونسيت تفاصيل تلك الحادثة المشؤمة. كل ما تعيه الآن.. أنها شريدة.. طريدة.. بلا مأوى.. بلا نصير –إلا الله-، وتشعر أن ابن هشام أقحمها في لعبة دنيئة قد تودي بحياتها أو تزج بها في غياهب السجون. كانت شاردة الذهن.. مرتاعة القلب حين كانت الذلفاء تترقب سماعها باهتمام، وابن هشام يحضها ويدفعها لتقص خبر تلك الليلة المشؤمة في وكر ابن الرسان. غير أنها لم تملك أن تجيبهما إلا بالعبرات التي انسابت على وجنتيها كقطرات الندى على خدود الأزهار.. حاولت أن تتمالك شجاعتها لتتحدث.. غير أنها عجزت. فطالعت الذلفاء بنظرات.. كنظرات رضيع تائه يبحث عن حضن أمه الدافئ فتلاقت عيناها بعينيها؛ وتساقطت دموعها المنسابة -في صمت- على وجهها؛ فكأنما تنحدر برقة على قلب الذلفاء.. فمست فيه شيئاً. كانت الذلفاء امرأة ذات فراسة، تُجيد تميز الصادق من الكاذب؛ فأيقنت بصدق مشاعر الفتاة، وأيقنت أنها تتألم من داخلها.. تتألم بشدة! لذا.. فحري بها أن تفهم ما خطبها، وواجب عليها كأم لكل أهل قرطبة –كما كانت في عهد

المنصور والمظفر- أن تساعد هذه الفتاة البائسة. فأشارت بيدها إلى بشرى، وقالت بحزم: "اصرف يا بشرى هذا الرجل؛ واترك لي الفتاة!". حاول ابن هشام أن يعترض أو يكمل حديثه ليفصح لها عما جاءها من أجله؛ لكن بشرى –الذي لاحظ ضيق سيدته به- جذبه بشدة من يده وخرج به سريعاً.

-المشهد السادس والثلاثون-

طفق بشرى يدفع الأمير المرواني دفعاً حثيثاً –وهما يسيران عبر ردهات القصر- إلى الخارج؛ بينما هو يحاول أن يُحكم ثياب تنكره النسائية حول جسده كيلا يعرفه أحد. ثم أخذ يحاول أن يُهدأ من حدة هذا الفتى الصقلبي الفظ، وجاهد أن يُفهمه أنه لايزال يريد التحدث مع سيدته، وأن حديثه معها لم ينتهِ. لكن بشرى كان صلباً كأنه قُدَّ من صخر أصم.. فلم يستمع إليه.. ولم يهتم لمحاولاته المستميتة للبقاء في القصر.. بل كان يزجه زجاً إلى الخارج.. حتى إذا بلغا مشارف الباب الخارجي.. زجره، وتوعده إنْ لم يغادر المكان مسرعاً فسيستدعي له الحراس ليسوقوه مكبلاً بالأغلال إلى شنجول. أُسقط في يديه، ولم يدرِ شيئاً يفعله؛ فغدا يهرول خارج القصر.. مبتعداً عن عيني بشرى الذي كان يراقبه في تحدٍ. حتى إذا غاب عن عينيه.. لجأ لأقرب شجرة في بساتين الزاهرة.. فتستر بها ليخلع عنه ثيابه النسائية. ثم ارتد إلى ساحاتها متخفياً وسط زحام الزائرين والمدعوين –الذين جاءوا للاحتفال بمبايعة ولي العهد الجديد-. طفق يتسلل بين الجموع –محاذراً أن يتعرف عليه أحد- يبحث عن رجلين كانا قد قدما معه –هو وسلوان- من الجبل؛ هما: طرسوس.. وحمدون. بيد أنهما انفصلا حين التقوا ببشرى على مشارف قصر المظفر؛ وراحا يسعيان بين جموع الناس إلى داخل الزاهرة؛ وانضما إلى المحتفلين.. لكن في ترقب.. وعلى أهبة الاستعداد.. لمواجهة أي خطر قد يحدق بأميرهما أو.. بالفتاة. أما طرسوس: فقد انخرط بين المحتفلين –في نشوة وسعادة- يرقص ويغني، ويأكل الحلوى، ويستمع

لأحاديث هذا وذاك، ويُقلِّب ناظريه بين هذه وتلك! حتى انشغل بالاحتفال عن سيده وقضيته.. كأنه جاء حقاً للاحتفال بتولي شنجول ولاية العهد. أما حمدون: فكان بحق أهلاً للمهمة التي أُسندتْ إليه؛ فقد شرع يراقب الأجواء أمام القصر، ويطوف حوله على حذر؛ كي يتمكن من نجدة سلوان وابن هشام.. إنْ ألَّم بهما خطر. لذا فقد فطن سريعاً لأميره وهو يدور بين الناس يبحث عنه؛ فلحق به وأشار إليه: أني هنا. انزويا بعيداً عن الزحام؛ واجتمعا يتهامسان على حذر أن يرتاب فيهما أحد.. بادره الأمير قائلاً: "مرحباً.. يا حمدون! حسبتُ أني لن أجدك!". "كيف -يا أبا الوليد- أنا هنا في انتظارك.. فداءً لك!". "أحسنتَ يا رجل.. إنك لنعم الصاحب، أين ذلك الضخم.. طرسوس؟". "كان هنا ثم ذهب يلهو مع اللاهين! أين سلوان؟!" (قالها بلهفة).. لكن ابن هشام تجاهل سؤاله، واسترسل يقول –وهو ينفث أنفاس الحسرة وخيبة الأمل-: "لقد عُدتُ بخفي حنين ولم تمهلني تلك المرأة العجوز حتى تسمع مني.. بل طردتني، وذهب فتاها الوقح يدفعني خارج القصر كأني شحاذ.. أو عابر سبيل! سينالان عقابهما مني حين يثور بركان انتقامي". حديثه أقلقَ حمدون، وأصابه الوجل على سلوان.. فصاح فيه –كأنه يوقظه-: "أين سلوان؟؟". أجابه باقتضاب بينما يتطلع للسماء ببصر شارد: "احتجزتها المرأة عندها.. بعد أن طردتني!". "ماذا! كيف احتجزتها؟ ولماذا؟!". "لا أدري! هيا.. هلم بنا.. قبل أن يرانا أحد فيعرفني، ويشي بي عند العامريين!" (قالها وهو يمسك بذراعه ويدفعه ليسيرا معاً إلى جبل العروس)؛ لكن حمدون انتزع نفسه من بين يديه، وصاح به في صرامة: "كيف نترك الفتاة التي آوت إلينا، وصارت في حمانا؟!". "لو بقيتُ أطول من ذلك.. قد ينتبه إليَّ حراس الذلفاء ويمسكوا بي ليقدموني هدية لشنجول –كما هددني فتاها الخبيث- لن أستطيع البقاء هنا.. يا حمدون! هيا بنا.. هيا!". "اذهب أنت! أما أنا فلن أُغادر الزاهرة قبل أن أطمئن على سلوان!". "كما تشاء! سأنصرف أنا وحدي". انطلق الأمير المرواني يركض مسرعاً -كالعبد الآبق- مبتعداً عن الزاهرة..

وأعين حراسها، تاركاً طرسوس يحتفل بولي العهد الجديد، وحمدون يترقب ظهور سلوان أو خبر عنها. طفق حمدون يقترب من قصر الذلفاء؛ عسى أن يعلم خبر أو يجد هدى، وراح يذرع المكان ذهاباً وإياباً، ويغدو ويروح حول القصر.. وقد انخلع قلبه، وتشتت فكره: "ما هذا الذي فعلتُه؟ كيف أتخلى عن سلوان وأتركها هكذا؟! كيف أتركها لابن هشام لتأتي معه إلى هذا المكان.. وأنا أعلم ما في ذلك من خطر عظيم؟؟! آه.. يا سلوان.. لقد ضيعتُك يا حبيبتي!". مازال هكذا يغدو ويروح حول القصر –لا يلوي على شيء- يحدث نفسه كالمجنون؛ حتى لاحظه بعض حراس القصر؛ فارتابوا فيه.. وأمروه بالابتعاد عن القصر فوراً وإلا.. سيتم اعتقاله! بيد أنه.. -رغم تعنيفهم له- شرع يسألهم عن سلوان، ويصفها لهم، ويستفسر عن كونها مازالت داخل القصر، ويستمهلهم أن يبحث عنها. لكن لم يجبه أحدٌ منهم؛ بل نهروه وزجروه في غلظة وعنف؛ فتوارى عن أعينهم خشية أن يعتقلوه، وقعد يراقب القصر من بعيد. حتى ملَّ النظر إلى باب القصر؛ فطأطأ رأسه ووضعها بين راحتيه.. وشرع يبكي مذعوراً كطفل صغير.. وهو يردد بين الحين والحين: "آه يا سلوان.. لقد ضيعتُك يا حبيبتي!". جعل الشيطان يتلاعب به.. وأخذته الأفكار السوداء كل مأخذ: (فتارة يتصور أن الذلفاء لم تصدق حديثها.. فطردت ابن هشام، وحبستها عندها لتسلمها لشرطة شنجول.) (وتارة يفكر أنها صدقت حكايتها، واحتفظت بها لتواجه بها شنجول لكي تثأر منه.) (وتارة يظن أنهم احتجزوها في القصر لمَّا علموا أنها لا أهل لها ولا نصير ليتخذوها خادمة للذلفاء أو لأحد أهل القصر). وهكذا ما فتأت تلك الأفكار تلعب برأسه حتى كاد أن يُجن.. فطفق يجهش بالبكاء، ويضرب رأسه بكفه ندماً على تفريطه في حبيبته.. وتحسراً على تخاذله عن نصرتها. انصرم أغلب النهار، وأوشكت الشمس على المغيب، ولا يزال الناس في ساحات الزاهرة وقصورها على حالهم يحتفلون ويمرحون ويبتهجون.. ومنهم طرسوس. ولا يزال حمدون –كذلك- على حاله.. قابعاً أمام القصر، يبكي آسفاً على ضياع سلوان منه،

يتفطَّر قلبه كمداً وجزعاً لشعوره بالعجز وخيبة الرجاء. لكن.. بينما هو كذلك إذا باب كبير من أبواب القصر يُفتح ويخرج منه بُشرى يمتطي جواده شاكي السلاح يتقدم عصبةً من الجنود يحيطون بموكب صغير –قد يكون لإحدى نساء القصر-. مرَّ الموكب أمام عيني حمدون؛ فأبصر بُشرى –الذي قد رآه ضُحاً يصطحب سلوان مع ابن هشام إلى داخل القصر- فتذكره وقفز مهرولاً إليه ليسأله عن سلوان؛ بيد أن عصبة الجنود الذين معه قذفوه بعيداً عن طريق الموكب. فقعد مكانه يشيع بُشرى –وهو يرحل بالموكب- بعينين يائستين، وأنفاسه تصارع جوانحه لعلها تهرب من الضيق الذي يملأ صدره. ذهله الحزن والشعور بالعجز عن أن ينتبه لطرسوس الذي كان يقف بين يديه –من مدة- مشدوهاً متعجباً من حالته تلك. أخذ ينادي عليه؛ فلم يسمعه.. فجلس إلى جواره، وراح يهزه –كأنه يوقظه- وهو يصيح فيه: "حمدون! حمدون! أفق يا رجل!". أخيراً أفاق من شروده! كفكف دموعه.. وهو يجاهد أن يبدو متماسكاً –بعد أن استعاد وعيه- ثم انفرجت شفتاه ببطء ليقول بصوت خافت –بالكاد سمعه صاحبه-: "ما خطبك يا طرسوس!". "ما خطبك أنت؟ ما هذه الحال التي أنت عليها؟". "أي حال؟! ليس بي بأس!". "ما البأس إذاً إنْ لم يكن ما أنت عليه؟! هل رأيتَ أبا الوليد؟". "أجل..". "أين هو؟". "فرَّ إلى جبل العروس!". "فر! ممن؟! هل قابل أم المظفر؟". لم يملك حمدون أن يُخفي ضيقه وحنقه! فأشاح بوجهه عن صاحبه، وصاح فيه وهو يلوِّح بيده –وقد خضلت دموعه وجنتيه-: "اذهب إليه في الجبل.. واسأله عما تريد!". رقَّ طرسوسُ لحال صاحبه، وانتبه لحزنه الشديد.. فربتَ على كتفه؛ وسأله في مودة وعطف: "ما بك يا صديقي؟ أخبرني.. ربما أساعدك!". لم يُطق حمدون التماسك أمام صديقه أكثر من ذلك؛ فانفجر باكياً: "لقد اعتقلوا سلوان.. داخل القصر!". كان طرسوس يشك أن حمدون يحب سلوان؛ غير أنه لم يتوقع أن يصل حبه لها –وحدبه عليها- إلى هذا الحد؛ فرقَّ قلبه الغليظ لصاحبه، والتقطه بين أحضانه وراح يهدئه، ويواسيه

مواساة الأخ لأخيه.. ثم قال له في عطف وأبوة: "أخبرني بما حدث.. فلربما نجد مخرجاً!". شرع حمدون يقص عليه الخبر، وينبئه بما حدث من الأمير ابن هشام، ولا يُخفيه ما يشعر به من حنق عليه لتخليه عن سلوان.. وتركه له –هكذا دون اكتراث- وحده وهو يرتقب خروجها. غير أن طرسوس حاول أن يهدئه، ويلتمس الأعذار لأبي الوليد، ثم قال في جدية وعزم: "الأهم الآن! أن نطمئن عليها ماذا فُعِل بها! لا مفر من أن نقتحم هذا القصر!". حدجه حمدون بنظرة احباط، وصاح فيه: "ظننتُك ستأتي برأي سديد أيها الأبله! ألا ترى مناعة القصر، وعدد الحراس والجنود حوله؟!". "لا أقصد اقتحامه عنوة أيها الفطن! أقصد أنه لابد لنا من دخول القصر بالحيلة.. وينبغي لك أن تقابل سيدة القصر، وتسألها عن الفتاة!". رمقه حمدون -هذه المرة- باهتمام.. وعيناه تقولان: هذا قول سديد. طفق الاثنان يفكران، ويعملان الفكر: (كيف يدخل حمدون القصر ويقابل الذلفاء؟). إلى أن برقتْ في رأس حمدون فكرةٌ ظنَّ أنها هي المفتاح السحري الذي لن يفتح له أبواب القصر فقط؛ إنما سيفتح له قلب الذلفاء أيضاً؛ فهبَّ منتصباً وهو يقول لطرسوس بجدية: "لن ينفعنا المكث هنا.. هيا.. لنلحق بركائب العائدين إلى قرطبة قبل أن يجن الليل!". "ألن نحتال لدخول القصر.. لإنقاذ محبوبتك؟!"."لا.. الحق أنت بسيدك في الجبل.. ودع أمرها لي!". "فيما تفكر يا حمدون؟ إياك أن تفعل شيء تندم عليه!". "لا تخشى عليَّ! سأتدبر أمري". "ماذا ستفعل؟! ألا تريدني معك؟". "لا عليك أيها المقدام! أليس غداً الجمعة؟". "بلى.. الجمعة؟". "إذاً.. فلن احتاجك معي؛ هيا بنا نلحق العائدين إلى قرطبة". وانطلقا مع العائدين إلى قرطبة بعد أن قضوا جُل يومهم يشاركون في الاحتفال ببيعة ولي العهد الجديد.

-المشهد السابع والثلاثون-

في طريق العودة من الزاهرة التي تقع على مسافة أميال قليلة شرقي قرطبة.. كان طرسوس يمتطي حصانه الذي يرفل متباطئاً –مثل ركائب العائدين- وإلى جواره حمدون على جواده؛ غير أنهما لم يكونا يتسامران كما الآخرون؛ بل كان طرسوس يحدج حمدون ببصره بين الفينة والفينة.. والريب يملأ فؤاده؛ يهم أن يسأله ماذا دهاه؟ وما هذه السكينة التي تعتريه بعد أن كان –منذ برهة- يبكي وجلاً كطفل؟! أسئلة كثيرة تعج بها رأس طرسوس: (لماذا تخلى الأمير عن الفتاة بهذه البساطة؟ ولماذا ترك حمدون وحده؟ ثم لماذا انطلق حمدون فجأة ساكن النفس إلى قرطبة بعد أن كاد قلبه ينفطر إشفاقاً على الفتاة؟! وما الذي يدبره؟ وإلى أين سيذهب؟ ثم ماذا ينوي أن يفعل غداً الجمعة؟ ولماذا لا يريده معه؟! ثم كيف سينقذ الفتاة وحده؟ ولماذا ينتظر إلى الغد؟! ثم.. ثم!!). كاد رأسه ينفجر بما تتدافع داخله من تساؤلات؛ فانفجر يصرخ في حمدون صائحاً: "ما خطبك يا حمدون؟! إلى أين سنذهب؟!". "اخفض صوتك يا أرعن.. هل جننتَ؟". فبادره بنبرة حادة؛ لكن بصوت خفيض: "أكاد أُجن من أفعالك! كيف إنك هادئاً هكذا بعد الذي كان؟!". "يا أحمق! نحن نسير وسط أناس مبتهجين بالاحتفال؛ فلا ينبغي أن نلفت الأنظار". "معك حق! وهل تستطيع أن تتماسك، وتبدو هادئاً هكذا بسهولة؟". "أنا كما ترى!". "أرى أنك تخدعني يا صديقي؛ وأنك تخفي شيئاً تدبره.. بل عزمتَ عليه!". "وإنْ كان كما تقول؛ فما شأنك أنت؟". "أخشى أن تُهلك نفسك وتهلكني معك!". "لا تخشَ شيئاً! عُد أنت إلى الجبل ودعني أتدبر أمري" (قالها حمدون وهو يضرب عَجُزَ حصان صاحبه ليعدو به بعيداً)؛ ثم ييمم هو وجه جواده إلى اتجاه آخر؛ لينطلق مفارقاً إياه. لم يملك طرسوس إلا أن ينظر إليه شزراً وهو يثب بجواده متباعداً عنه. ثم استوى في طريقه إلى جبل العروس ليلحق بأميره.

-المشهد الثامن والثلاثون-

في مخبئه الصغير بإحدى مغارات الجبل، طفق الأمير ابن هشام يجول -في قلق واضطراب- شارد الذهن، وقد بلغ منه الهمُّ مبلغه. لا يستقر على حال: لا يكاد يجلس؛ حتى يثب قائماً.. ثم يسعى نحو فم المغارة فيضرب صخرها الصلد بيده، ثم يعود أدراجه إلى مجلسه؛ فيركله برجله، ثم يطوف بالمكان كأنه يبحث عن شيء! ولا يجد شيئاً! ظل هكذا بقية نهاره مذ عاد من الزاهرة. وها هو ذا الهزيع الأول من الليل يوشك أن ينقضي وهو على ذات حاله المضطربة.. لم يطعم لقمة، ولم يتجرع شربة؛ مما جعل رجاله القليلين -الملتفين حوله- يحاولون أن يسألوه عما به؛ لكنه أشار إليهم بصرامة غاضبة: أن كُلاً يلزم مكانه في سكون؛ فتركوه على حاله خشية أن يبطش بهم. حتى سمع صوت طرسوس مقبلاً؛ فهرول نحوه، وانتزعه من أمام فم المغارة، واجلسه ثم سأله في شغف: "لماذا تأخرتَ يا طرسوس؟ ما هي الأحوال في الزاهرة؟". "لا جديد –يا سيدي- مازال الناس يحتفلون بشنجول!". " إذاً.. لماذا تأخرتَ؟ وأين حمدون؟!". "كان الفتى قابعاً عند قصر المظفر يرتقب خروج الفتاة؛ فانتظرتُ معه!". "ثم؟! ماذا فعلتما؟ وأين هو؟!". "يبدو أنه سأم الانتظار أمام القصر، فانطلق عائداً إلى قرطبة!". أمسك الأمير بكتفيه، ثم هزَّه بقوة وهو يحدِّق فيه بعينين غاضبتين وصاح: "لا تتماكر أيها الوغد! وأخبرني الحقيقة!". لم يجد طرسوس مهرباً من أن يقص على سيده ما حدث بينه وبين صديقه، وصارحه بتخوَّفه من أن يُقدم حمدون على فعل متهور قد يعرضه للهلاك بسبب شغفه بالفتاة! اندفع الأمير يعضُّ على يده تغيظاً من حمدون، وقال كأنه يحدث نفسه: "آه.. منك يا حمدون.. آه!". "ماذا سنفعل يا سيدي؟ هل سنتركه؟!". "وماذا نفعل لفتى أهوج فتنته فتاة -لا يعرف عنها شيئاً- فذهب يورد نفسه المهالك لأجلها! دعك منه!". "ماذا عن لقاءك بأم المظفر يا سيدي؟". "لقاء فاشل يا طرسوس! ظننتُ أني أستطيع أن أشحذ مشاعر الحقد والانتقام في نفس المرأة؛ فتهب للثأر لولدها، وتتعاون معنا؛ لكنها لم تمهلني لتسمع مني.. بل لم تسمع من الفتاة قصة مقتل ابنها!

لقد كنتُ مخطئاً يا طرسوس!!" (قالها وهو يتنهد في أسف وحسرة). "إذاً! لن نستطيع الحصول على المال اللازم لجمع الثوار؟!". "عُدنا كما بدأنا!". "قد يتخلى عنا صاعد بن عبد الوهاب ورجاله إنْ لم نعطه المال الذي يطلب!". "لن أتخلى عن الثأر لأبي –يا طرسوس- ولو بقيتُ وحدي!". "أنا معك يا سيدي.. ولن أتركك وحدك، ويمكن أن نحصل على المال من الأمراء المروانيين". "تعلم أن جميعهم يخاف بطش العامريين.. وليس معي منهم على الحقيقة إلا عبد الجبار بن المغيرة وأخوه محمد.. وهما –مثلي- لا يملكان المال الكافي لتمويل الثورة!". "إذاً! ماذا سنفعل يا أبا الوليد؟!". "لا أدري يا طرسوس.. لا أدري!".

-المشهد التاسع والثلاثون-

بعد أن افترق عن طرسوس.. نكز حمدونُ جواده ليحثه على السير إلى قرطبة.. إلى دار جدته (فاطمة المروانية).. ملاذه الآمن في المُلمات، وحضنه الدافئ في الشدائد. لا غرو.. جدته فاطمة هي حل اللغز، والمفتاح السحري لأبواب قصر المظفر، ولقلب السيدة أم المظفر؛ فإنها على صلة وثيقة بالسيدة ومعرفة قديمة بها مذ كانت تسكن في بيت أبيها بجوار دار فاطمة وزوجها الشيخ المصري، وكانت الذلفاء تحب فاطمة وتُجلها كأخت كُبرى لها.. بل تتخذها قدوة حسنة ومثل أعلى تحتذي به.. وكانت تشاورها وتأخذ برأيها في جُل أمورها الخاصة.. بل إنها لم توافق على الزواج من محمد بن أبي عامر إلا بعد أن استشارت فاطمة التي نصحتها بالموافقة، وشجعتها على الزواج من هذا الشاب النابه الذي صار الحاجب المنصور بعد حين. هذه المعلومات قد نبأته بها جدته عندما كانت تأخذه معها صغيراً -في بعض الأحيان- إلى الزاهرة أثناء زياراتها المتكررة للسيدة، وكم من مرات جاءتهم الذلفاءُ بنفسها في دارهم لتزور صديقتها وجارتها القديمة، وتأنس بالحديث معها بعيداً عن حياة القصور وتكلُّفها. فليرجع إلى جدته إذاً! وليخبرها بخبر سلوان وحكايتها، وليصارحها

بحبه لها، وليبكي بين يديها، ويتوسل إليها أن تذهب إلى الذلفاء غداً بعد صلاة الجمعة –كما كان دأبُها في زياراتها لها- فتشفع لسلوان عندها، ولن تخيب الذلفاءُ لفاطمة المروانية صديقتها القديمة رجاءً كهذا.. ولاسيما أن الفتاة لم تُؤذِ أحداً، ولم تُسِئ إلى أحدٍ. تلك هي الفكرة البرّاقة التي ومضتْ في خَلَدِ حمدون، ولم يجد وسيلةً خيراً منها لدخول القصر وإنقاذ سلوان؛ فقرر من فوره العودة إلى جدته.. عسى الله يرد إليه حبيبته سالمة. بين طرقات الربض -شبه الخالية من المارة- شرع يجدُّ في السير، وقد ترجل عن جواده وأمسك بلجامه وهو يمشي بجواره شارد الذهن.. يدقق الفكر فيما سيُحدِّثُ به جدته، وما سيفعله ليُقنعها بأن توافق على الشفاعة لسلوان عند السيدة.. وإنَّه لشيءٌ عسير.. إلا أن يُيسره الله له. ها هو ذا أمسى قريباً من الدار. في مثل هذا الوقت من أول الليل.. تكون جدته نائمة مبكرة كدأبها لكي تستيقظ عند السحر تناجي ربها وتصلي إلى طلوع الفجر. فلينتظرها حين تقوم لمناجاتها ثم يُحدِّثها في الأمر. كلما اقترب من البيت غشيته الرهبة وتسارعت خفقاتُ قلبه، وترددت أنفاسُه في صدره الذي راح يعلو ويهبط كأنه موج البحر تعصف به الريح.. إنه يُشفق أن يواجه جدته، ويخشى أسئلتها اللحوحة التي حتماً ستسألها له عن سلوان.. ولن يملك أن يجيب عليها. (لا.. لا! لن يقبل من جدته إلا أن تساعده في إنقاذ حبيبته؛ فلتشفع لها عند السيدة، وتتركها تخرج آمنة بسلام.. ثم إنْ أرادتْ أن يتخلى عنها بعد ذلك؛ فليكن! فقط إنما يريد مساعدتها لكي تذهب إلى أهلها في أشبيلية.. وليعد جدته أنه سينساها بعد ذلك.. لكن يجب عليه أن ينقذها أولاً.. فهو السبب فيما تعرضت له!). كان حذراً أن يُحدث ضوضاء.. وهو يدلف إلى مربض الدواب ليعقل حصانه، وكذلك وهو يتسلل داخل البيت حرصاً ألا يُوقظ جدته. بيد أنه تفاجأ بها تقف أمامه كأنها كانت تنتظر قدومه. فصاح متفاجئاً: "جدتي! أما زلتِ مستيقظة؟!". أشارتْ إليه أن اخفض صوتك. ثم اقتربتْ منه، وأمسكت بيده وهي تهمس: "أجل.. ظننتُ أنك قد تأتي الليلة؛ فأردتُ أن أنتظرك وأقول لك: لا

تدخل حجرتك.. فلن تنم فيها الليلة!". باغته قولها، وظنَّ أنها غاضبة منه؛ فصاح مستعطفاً: "لِمَ يا جدتي؟ أما زلتِ غضبى؟!". همست وهي تضغط على يده في حنان: "اخفض صوتك يا ولدي! لستُ غضبى منك –والحمد لله- لكن ثمة ضيفة نائمة الآن في حجرتكَ.. فخشيتُ أن تدخل عليها وأنت لا تعلم بوجودها فتفزعها". تساءل مستغرباً: "أي ضيفة؟!". لم تكن تلك الضيفة نائمة –كما أشارت الجدة-؛ بل كانت مستيقظة، كانت ترقب -هي الأخرى- قدوم حمدون! ولم تكن هذه الضيفة غير.. سلوان. أحستْ بقدومه ففتحتْ باب الحجرة، وخرجت لتجدهما يتهامسان في خفوت خشية أن يُزعجاها. دفعه الفضول أن يلتفت حيث سمع صرير باب الحجرة ليدهشه ما يراه. إنه يرى سلوان تقف –على استحياء- أمام باب حجرته في بيت جدته. (آه! ما هذا! أهي حقيقة؟! أم أنَّ وَجَده وقلقه عليها دفعاه لتوهم ذلك؟!). حدَّقَ فيها بصره مشدوهاً من المفاجأة؛ فاحمرت وجنتيها خجلاً، ولم تقدر أن تمنع شفتيها أن تنفرجا عن ابتسامة رقيقة. أفاق من سكرة المفاجأة على صوت جدته تقول –بشيء من الاستهجان-: "ها أنت ذا أيقظتَ ضيفتنا!". ثم تقدمتْ نحو الضيفة، وأخذتْ بيدها -في حنان الأم- لتُجلسها إلى جوارها، وقالت بنبرة معتذرة: "معذرة يا بُنية! أقلقنا منامكِ.. هذا حفيدي حمدون.. جاء ولم يكن يعلم أنكِ هنا!". حاولتْ سلوان أن تجيبها؛ لكن ألجمها الخجل.. فمازال حمدون يُحدِّق فيها مبهوتاً؛ فطأطأتْ رأسها حياءً في صمت. استطردتْ الجدة قائلة بنبرة ودودة: "أم ثمة شيء يضايقكِ في مضجعكِ يا بُنية؟!". أجابتْ عل استحياء: "لا! على العكس!". فأردفت الجدة في إلحاح المضيف الكريم: "هل ترغبين في شيء؟". بخفوت.. وبكلمات تقاوم حشرجة الخجل بجهد أجابتها: "إنْ سمحتِ لي أريد وعاء به ماء طهور!". "على الرحب يا عزيزتي.. سآتيكِ به حالاً". انطلقتْ الجدة -في همة من يبالغ في إكرام ضيفه- لتأتيها بالماء الذي تريد، وتركتهما في صحن الدار حيث ظلت سلوان صامتة مطأطئة الرأس؛ فقد كان الخجل والحياء يلجمانها إلجاماً، كما كانت المفاجأة تبهت حمدون

الذي لا يزال واقفاً متصلباً مندهشاً شاخص البصر.. شارد اللُب. ما لبثتْ الجدة أن جاءتْ تحمل وعاء به الماء الذي طلبته ضيفتها، فانتبهتْ لارتباك الشابين؛ فأسرعت تطمئن الضيفة قائلة: "لا عليكِ -يا بُنية- فإنَّ هذا الفتى سيبيت الليلة في القاعة الخارجية، ومن الغد سيخرج مع رفاقه في رحلة صيد بالجبل.. ولن يزعجكِ وجوده -إن شاء الله-". همّتْ أن تجيبها! لكن.. سكتتْ! أحسبها أرادتْ أن تقول لجدة حمدون: (أنها لا يُزعجها وجوده جوارها؛ بل.. نقيض ذلك فهي تطمئن حينما يكون بالقرب منها).. بيد أنها لم تقل. مكثتْ صامتة حيناً، ثم أحستْ أنهما ينتظرانها تتكلم، أو ظنتْ أنها ينبغي أن تتكلم؛ فانفرجتْ شفتاها قائلتين في أدب وعذوبة: "عفواً! أخشى أن بقائي عندكم يزعجكم!". "كيف تقولين ذلك يا بُنية؟! بل أنتِ ضيفة عزيزة ويتوجب علينا إكرام وفادتك". "جزاكم الله خيراً.. اسمحي لي يا سيدتي أن أعود لغرفتي!". "تفضلي يا بُنية". ثم قامتْ على استحياء حاملة وعاء الماء تمشي لمخدعها. أوصدتْ بابها خلفها برفق؛ فكأنما أيقظت حمدون -الذي مازال شاخص البصر مبهوتاً- من سبات عميق؛ فثاب إلى رشده بعد أن كان يظن أنه يحلم! "لا.. إن ما يحدث الآن حقيقة! وأنعم بها من حقيقة! إنَّ سلوان هنا في بيتنا، ضيفة تُكرم جدتي نُزلها! إنها حقاً أسعد بُشرى! لكن.. كيف؟ كيف حدث هذا؟! كيف جاءتْ إلى هنا؟! وكيف صارتْ ضيفة على جدتي؟!". حاول ألا يجذب انتباه جدته لاهتمامه بسلوان وهو يسألها عن الضيفة، وعن علاقتها بها؟! غير أنها لم تجبه، ولم ترح قلبه.. بل ربتت على كتفه وهي تقول في حنان الأم: "عذراً يا حبيبي! نم الليلة في قاعة الدرس، وسأُهيئ لك -صباحاً- أنا وأم سعدون الغرفة الخارجية!". صاح بلهفة عجز أن يُخفيها: "هل سيطول بقاؤها عندنا يا جدتي؟" (سأل وهو يود أن تجيب بنعم). فأجابته بعدم اكتراث: "لستُ أدري.. لكن ينبغي أن يكون لها غرفة خاصة ريثما تغادر!". قال في نفسه: ليتها لا تغادر؛ ثم سألها باهتمام مرة أخرى: "من الضيفة يا جدتي؟!". "لا أعلم سوى أنها ضيفة مكرمة لأم المظفر.. جاء بها إليَّ كبير

الفتيـان، وأخبرنـي أن الـذلفاء تريـدها أن تقـيم عنـدي بضـعة أيـام؛ فقلـتُ: على الرحب، ضيفة أم المظفر هي ضيفتنا!". "هل هي من قرطبة؟" (تساءل بمخادعة). "لستُ أدري يـا بُني، بالتأكيـد سـتخبرني الـذلفاء؛ فإنـه أخبرني أنهـا سـتأتي لزيارتنـا قريباً". "لكن هذه فتاة صغيرة؛ كيف يكون لها علاقة بأم المظفر! ما حكايتها؟". لكنها اسـتنكرتْ فضـوله؛ فأجابتـه وهي تتثـاءب: "لا تُشـغل عقلـك بشـأنها يـا ولـدي.. هيـا.. سأذهب لمخدعي.. إني أريد أن أنام! واذهب أنت أيضاً لتنم!".

-المشهد الأربعـــون-

انتقل حمدون من صحن الدار –بعد أن تركته جدته وهجعت إلى مضجعها- ودلف إلى قاعة الدرس حيث هيأ لنفسه فراشاً ينام عليه، وليستْ هذه هي أول مرة يفعل ذلـك؛ بـل اعتـاد ذلـك في ليـالي صيفية سـابقة. بيـد أنـه لـم تغمـض لـه عـين، ومكـث يتقلَّب في فراشـه، واعترتْ جسده قشعريرة لذيذة غمرته بسعادة بالغة. ثم اختلجتْ نفسـه مشـاعر مضـطربة بـين الخـوف والرجـاء، والأمـل واليـأس، والسـرور والقلـق. ووثبتْ في رأسه أسئلة كثيرة.. لا يدري إجاباتها: "كيف؟! كيف جاءتْ سلوان إلى هنا؟ كيف بعد أنْ كانت حبيسة أم المظفر تصبح ضيفتها؟! وماذا حدث؟ ولماذا تـأتي إلى دار جـدتي؟ مـاذا قالـت لهـا سـلوان؟ هـل أخبرتهـا بمعرفتي لهـا؟ ومـا حقيقـة علاقـة جـدتي بـالأمر؟ وهـل.. وكيـف؟ ولمـاذا؟!". كادتْ هـذه الأسـئلة التي لا يجـد لهـا جوابـاً تفترسـه.. وتُشـتت عقلـه.. لـولا أن غلبـه النـوم –بعـد طـول مراوغـة- فخضـعت لـه جفونه بعد أن عجز عن استيعاب ما يحدث. ولم يكن وحده هو من يجافيه النوم.. بـل كانـتْ جدتـه -أيضـاً- مضـطربة في فراشـها؛ وقـد أثـارتْ فضـولها هـذه الفتـاة الغامضة: (كيف ترسلها لها أم المظفر -فجأة- على أنها ضيفة عزيزة ينبغي المبالغة في إكرامها؟! لولا أكرمتها فاستضافتها في قصر المظفر؟! ثم إنَّ مظهر الفتاة لا يوحي بأنها من بنات الأمراء أو الوجهاء.. ولاسيما أنها ليس معها جوارٍ يخدِّمنَّها، ولا ثياب

فاخرة ترتديها؟! أين أهلها؟ كيف يتركونها –هكذا- بغير محرم؟!). في خضم هذا التشتت الذي غشي عقلها، والأسئلة التي لا تعلم لها جواباً؛ توهمتْ أنَّ في الأمر سراً.. ولغزاً ينبغي حله! بيد أنها لن تتجشم مشقة حله؛ بل ستصبر عسى أن تخبرها الذلفاء عندما تأتيها للزيارة كما نوَّه كبير فتيانها ساعة إحضاره الفتاة. أما سلوان! فقد أسلمت جفونها للكرى الذي كان يداعبها، وقد غمرها شعور باطمئنان مريح – لم ينتابها مذ ماتت أمها- فنامت هادئة النفس لأول ليلة منذ زمن بعيد.

ما لم يكن يعلمه حمدون ولا جدته.. أن الذلفاء بعد أن صرفت ابن هشام من عندها توجهت بقلبها قبل وجهها إلى سلوان، واجلستها بجوارها ومسحتْ دمعتها بيدها، ثم احتوتها في أحضانها، وشرعتا تبكيان –ولا تدري إحداهما لماذا تبكي الأخرى- كم انقضى من الوقت وهما على تلك الحال! ثم تحسست السيدة بيد حنونة وجه الفتاة الباكي، وسألتها بنبرة الأم الحانية: "أخبريني -يا بنية- من أنتِ؟ وما حكايتكِ؟!". كانت سلوان -حقاً- بحاجة إلى هذا الحضن الدافئ لتركن إليه، كانت بحاجة شديدة لامرأة كأمها تبوح لها بسرها؛ فرنتْ بطرفها إلى السيدة الحنون، وبصوت متهدج يقطعه النشيج –بين الحين والحين- بدأت تقص عليها حكايتها بداية من زواج أبيها بأمها.. إلى وفاة أمها.. ووقوعها في براثن الذئب الرئبال (ابن الرسان). حكتْ لها كل شيء؛ لم تغفل شيء، ولم تدع شيئاً، حتى أنها نوَّهتْ عن حمدون -حفيد فاطمة المروانية- وحُسن خُلقه معها؛ إلا أنها لم تذكر موقع أو سبب اختباء ابن هشام ورفاقه بجبل العروس، ولم تهتم الذلفاء بالسؤال عنه. شرح الله لها صدر السيدة؛ فآمنت لها وصدَّقتْ حالها الذي ترى، وتعاطفتْ معها، وأشفقتْ عليها؛ فقررتْ أن تساعدها حتى تصل إلى مأمنها؛ فعرضت عليها أن تبقى في القصر ريثما تتمكن من الذهاب لأهلها في أشبيلية؛ لكن سلوان خافت أن تقيم في الزاهرة، وصارحتْ السيدة بتخوُّفها لو تعرَّف عليها أحد ونبَّأ بها ابن الرسان فسوف تكون نهايتها! حاولتْ السيدة طمأنتها، وأخبرتها أنها ستحميها.. لكن سلوان أصرتْ أن

تختفي بعيداً إلى أن تتمكن من اللحاق بأهلها. فكرت الذلفاء في أفضل الأماكن أمناً للفتاة –غير القصر- فأُلقي في روعها: أن خير مكان لهذه الفتاة تمكث فيه هو: دار فاطمة المروانية وحفيدها. عرضتْ عليها الفكرة فتهلل وجه الفتاة وانفرجتْ أساريرها؛ فاطمأنتْ الذلفاء لأن هذا اختيار موفق، وقررتْ أن ترسل الفتاة إلى دار فاطمة المروانية.

-المشهد الحادي والأربعون-

بعد أن أمرت السيدة أم المظفر خادمها (بشرى) بالذهاب بسلوان إلى دار أم هشام (فاطمة المروانية). (وقد أمرته أيضاً أن يخبرها أن هذه الفتاة ضيفة عزيزة، وأكدتْ عليها في إكرامها. وإنْ كانت قد لاحظت انشراح الفتاة لمقامها عند فاطمة –رغم أنها لم تقابلها من قبلُ- بيد أنها لم ترتِّب في الأمر، ولم تُلقي بالاً لهذا الانشراح). بعد أن صرفتْ الخدم والجواري من حولها؛ خلتْ بنفسها، فأمستْ ذكريات حياتها تجول بخلدها؛ فتذكرتْ عبد الملك (المظفر) ابنها البار، وولدها المحبوب؛ تذكرته وهو طفل صغير يسعى -أمامها- إلى أبيه ويتكفأ في قميصه فيرتطم بالأرض؛ لكنه –وبهمة عالية- يسارع في القيام، ويثب إلى أبيه يعانقه ويقبله. ابتسمتْ ابتسامة حزينة حين تذكرتْ ذلك المشهد، وجوى الحزن قلبها حين تذكرته شاباً فتياً.. وفارساً شجاعاً يحمل السيف صلتاً، يحارب بين يدي أبيه، ويقود الجيوش باسم أبيه فيعود مظفراً منتصراً محملاً بالغنائم! ثم بلغ أشده واستوى.. وأتاه الله رشداً وقوة؛ فصار رجل المهام الصعبة يوكله أبوه إياها؛ فيقوم بها خير قيام. إلى أن مات المنصور –رحمه الله- فخلفه في منصبه؛ فصار خير خلف لخير سلف. ومع كل ما تقدم فإنه لم يغفل عن برها قط؛ بل كان دائماً ابنها البار الذي لا يرد لها طلباً، ولا يشغله عن وصلها وبرها أيُ شاغل من مشاغل الدنيا أو المُلك. ثم انتزعه الموت منها انتزاعاً وهو لا يزال في ريعان شبابه، في أوج قوته، في ذروة مجده وعزه. (تباً.. لك أيها الموت، يا

هادم اللذات.. ومفرق الأحبة، كم من جبار قصمتَه! وكم من ملك.. سلبتَه ملكه!). دهمها الحزن، وغشيتها الكآبة؛ كأنما أحستْ -الآن فقط- فقدها لوليدها؛ فراحتْ تندب بصوت متهدج يتقطعه النشيج: "آه.. آه! وأسفاه يا عبد الملك! وأسفاه عليكَ يا ولدي! يا فلذة كبد أمك! سلبني الموت إياك! ليتني مِتُّ قبلك بعشرين عاماً!". لبثتْ هكذا تبكي ولدها، وتنتحب عليه وهي تعدد محاسنه. وليس معها بمخدعها أحد يواسيها أو يخفف عنها جزعها. بقيتْ على هذه الحال مدة طويلة من الليل لم تقم من مجلسها، ولم تحرك ساكناً، بل أسلمتْ قلبها للحزن والكمد، وراحت عيونها تفيض بالدموع حارة؛ وكأن نفسها تحدثها: (إنَّ ما بقي من العمر لا يكفي لبكاء عبد الملك، ولو زادني الله على عمري أعماراً لأبكيه فيها، وأسكب عليه الدموع والعبرات؛ فلن يكفيني! لا يكافئ حزني عليك –يا ولدي-، ولا يضارع ألمي لفراقكِ -يا حبيبي- سوى حقدي على الموت الذي سبق إليكَ دوني، وانتزعك مني!). فجأة! سكنتْ هواجس نفسها، وانتبهتْ من تشتت عقلها، لتجد أن الموت ليس هو الذي انتزع ولدها من أحضانها.. فالموت قدر الله، وحق على كل نفس! إنما انتزعه منها ذلك الحاقد القاتل الذي تربص بولدها، واغتاله في ريعان شبابه. انقطع دمعها كأنَّما جفت ينابيعه في عيونها، وجعل شيطان الحنق يعيد على مسامعها حديث سلوان عن شنجول وابن الرسان، ومؤامرتهما لاغتيال ولدها. فاستحال حزنها حقداً، وألمها مقتاً ورغبة جامحة في الثأر. عاودها شريط ذكرياتها ليدور بخلدها.. فتذكرت شنجولَ وأمه! تذكرته وهو يكبر أمام عينها يوماً بعد يوم، وعامً بعد عام؛ لكنها تراه -الآن- بعين أخرى غير التي كانت تراه بها من قبلُ. تراه الآن بعين السخط.. فرأته في طفولته صبياً مدللاً، لا ترد له أمه رغبة، ولا تمنعه من شيء يشتهيه، تحدب عليه بجنون، وتصارحه بأن سيماه وملامحه الإفرنجية تذكرها دائماً بأهلها –فهو يشبه أباها بشدة- لذا فهو يذكرها بوطنها وأهلها والبيت الذي درجتْ فيه؛ ما برحت تنفث في مسامعه ذلك القول حتى توهم أنه ابن شانجة.. لا ابن المنصور؛ وكاد يكون

إفرنجياً لا عربياً! وشبَّ على حب الامتلاك والطمع الذي لا حد له، ودرج على اتباع الشهوات وتتبع الملذات. ولم تعلمه أمه ديناً يردعه، ولم تنمّ فيه ضميراً يؤنبه؛ فصار -حين صار فتياً- شاباً عربيداً متكبراً مختالاً، لا يتورع عن إثم. حاول أبوه أن يصلحه ويهذبه؛ لكن.. شغلته عنه شئون المُلك وأمور الدولة. وحاول أخوه التودد إليه وملازمته في المهمات؛ لكنه قليلاً ما كان يستجيب له. ثم مات المنصور؛ فأراد المظفر أن يقربه ويستعمله فيصيِّره رجلاً ذا شأن في الدولة؛ فكأنما علمه الرميَ فأول ما رمى رماه! وغدر به، واغتاله طمعاً في الملك والوجاهة. "قتلتَ ولدي يا شنجول لتنعم بملكه، وتحل مكانه؛ فتصير حاجب الخليفة! والآن تطمع في أكثر من ذلك، وتصبو نفسك لتكون ولي العهد.. ثم الخليفة من دون بني الناصر! والله.. ما فعلها المنصور، ولا حبيبي عبد الملك.. وهما خيرٌ منك وأفضل. أقسم بالذي رفع السماء بلا عمد.. لأنزعنَّ عنك ملكك هذا، ولأجردنك من سلطانك.. ثم أتركك للضباع تنهشك فتموت شر ميتة. أقسم لأنتقمن -لك يا ولدي- انتقاماً تتحدث به الأندلس ما بقيتْ السماء فوق الأرض!".

-المشهد الثاني والأربعون-

كعادتها.. قامتْ فاطمةُ المروانية من نومها وقت السحر –رغم ما كان ينتابها من أرق هذه الليلة- لتتوضأ وتناجي ربها. ثم سمعت الآذان الأول للفجر؛ فخرجتْ من مخدعها –حاملة قنديلها الصغير- لتذهب إلى القاعة حيث ينام حفيدها لتوقظه لصلاة الفجر. بينما تمر من أمام غرفة الضيفة سمعتْ همهمة داخل الغرفة، دفعها الفضول لأن ترهف السمع لتستبين هذا الصوت، فاقتربت من الباب المغلق وألصقت أُذنها به، وانصتتْ جيداً لذاك الصوت؛ فبدا الصوت أوضح يسيراً.. فكان همس سلوان وهي تناجي ربها قارئة للقرآن. ابتعدتْ المرأة العجوز مسرعة عن الباب وهي تردد هامسة لنفسها: "أستغفر الله.. أستغفر الله العظيم! ما هذا الذي أفعله؟!

أتجسس على ضيفتي في مخدعها! حاش لله.. أستغفرك ربي وأتوب إليك". ثم استعادت طريقها ذاهبة إلى حمدون. ثبَّتتْ القنديل في موضع له، ثم جلستْ –على الفراش- إلى جوار حفيدها المدلل حيث كان يغط في نومه، ثم مسحتْ رأسه بيدٍ حانية، وبصوت هامس راحت تناديه برفق: "حمدون! استيقظ يا حبيبي.. أوشكتْ صلاة الصبح!". انتبه الفتى من نومه على ذاك الصوت الحنون الذي اعتاد عليه في مثل هذا الوقت يوقظه لصلاة الفجر كلما تواجد في البيت. انتبه من نومٍ لم يكن هادئاً إلا يسيراً، فتح عينيه ليرى وجهاً كريماً يشع منه نور الإيمان، ويداً حنونة تداعب رأسه وتمسد شعره كي توقظه برفق؛ فهتف بمودة: "صباحاً سعيداً يا جدتي!". "أسعد الله صباحك يا حبيبي، وأضاء قلبك بنوره". "هل أذن الفجر؟!". "أذن الآذان الأول منذ حين؛ هيا انهض؛ لا تفوتك الصلاة في المسجد!". نزع عنه غطاءه، وقام بتأدةٍ متمتماً: "الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور، أصبحنا وأصبح الملك لله". تركته يتهيأ للذهاب إلى الصلاة، وعادت إلى مخدعها لتستكمل صلاتها. وقفتْ وهلة أمام باب سلوان المغلق لتسمع ذات الهمهمة، وضعتْ يدها على صدرها كأنها تكتم وخز ضميرها أنها تجسستْ على ضيفتها، وهمهمتْ: "استغفر الله". بيد أنها بعد لحظات دلفتْ إلى مخدعها منشرحة الصدر؛ فإنَّ ضيفتها فتاةٌ شابة تقوم الليل.. في زمن قل فيه أمثالها. همست تناجي نفسها: "الحمد لله أن رزقني ضيفة تقوم الليل في بيتي".

-المشهد الثالث والأربعون-

أشرقت شمس قرطبة لتنذرها بتبدل الحال، أشرقتْ على يوم جمعة جديد.. جديد كأنما ينذر بعهد مغاير.. لن يكون كسابقه. خرجتْ الذلفاء من مخدعها إلى مجلسها بحديقة القصر حيث أحاطتْ بها الجواري والخادمات، قدمنَّ لها طعام الإفطار؛

فأحجمت عنه. وغشيتها آثار كآبة البارحة التي داهمتها فيها ذكرياتها مع ابنها المظفر؛ فأغمتها آلام الفراق وألهبتْ قلبها بسياط الحقد والرغبة في الانتقام. أقبل إليها حفيدها المحبوب؛ فأرادتْ أن تقوم له -كعادتها-؛ لكن أقعدها الإعياء والكدر، حاولتْ أن تبش في وجهه -كدأبها- لكن لم تطاوعها أساريرها في الانفراج. التقطته بين ذراعيها، وخبَّأتْ رأسه في أحضانها؛ لتُخفي عنه ملامح وجهها العابس الحزين. حبذتْ أن تنتشل نفسها من براثن تلك الكآبة؛ فشرعتْ تتودد إلى صغيرها.. فقالتْ بصوت متهدج: "كيف أصبحتَ يا قرة عيني؟". "الحمد لله يا جدتي!". "هل تناولتَ إفطارك؟". "جئتُ لأفطر معكِ يا عزيزتي". "تناول أنت إفطارك يا محمد؛ فإني متوعكة قليلاً.. ولن أستطيع الإفطار!". "لا بأس عليك يا جدتي! بماذا تشعرين يا حبيبتي؟". "لا تقلق عليَّ يا صغيري.. إنما أرقتُ البارحة؛ فأصابني السهاد ببعض الضجر!". رفع الصغير رأسه، وجعل يتفحص وجه جدته بعينين ثاقبتين ثم صاح في جدية: "إذاً لن أتناول إفطاري إلا أن تفطري معي!". احتضنتْ وجهه بكفين حانيتين، ثم قالتْ مداعبة وهي تقبل رأسه: "أمرك يا حبيبي! إنه لشرف عظيم أن أتناول طعامي مع الأمير: محمد بن المظفر!". أشارتْ بيدها؛ فسارعتْ فتياتها بالمثول بين يديها؛ يلبين رغبتها، ويضعن الطعام أمامهما، فشرعتْ تطعم وليدها بحنان ومودة، ولم تتقوت سوى شيء يسير. بُعيد أن تناولا الإفطار؛ دلفتْ إليها إحدى الخادمات لتخبرها بأن كبير فتيان القصر (بشرى) يستأذن في الدخول؛ فأشارتْ: أن أدخلوه. دلف بشرى يمشي متثاقلاً كالذي يجر أذيال الخزي والندم، وبصوت يتهدجه الكدر ألقى عليها التحية وهو مطأطئ الرأس كئيب! فراعها ما ترى من كآبة منظره. توجهتْ إلى حفيدها تقبل وجنتيه، وأمرته بالانصراف لأنها ستكون في شغل مع بشرى. أقبلتْ على فتاها تحدجه ببصرها، وقد رابها ما تراه على وجهه من ملامح الأسى؛ فجأرتْ متسائلة: "ما لي أراكَ عابساً يا بشرى؟!". "عفواً! لا شيء يا سيدتي!". "كيف؟! إني أراك وقد تسربل وجهك بالتجهم والكآبة! أفصح عما بك!". "لا أريد أن أُحزنكِ يا

سيدتي!". صاحتْ به في ضجر: "والله.. لقد أحزنني عبوسك في وجهي! تكلم يا رجل!". سكتَ لحظات -كأنما يستجمع شجاعته- ثم شرع يتحدث بعد تردد قائلاً: "بلغني.. أن ولي العهد الجديد قد أصدر أمره الأول.. في أمور الدولة!". استهجنتْ تردده وتباطؤه في الكلام؛ فنهرته محفزة: "أخبرني الخبر بغير مقدمات يا بشرى!". استجاب لأمرها فاندفع يقول: "لقد ولى شنجول ابنه عبد العزيز خُطَّة الحجابة.. ولقَّبه بسيف الدولة!". (أراد ذاك الشقي أن يفعل ما فعله المنصور أبو عامر منذ ثمانية عشر عام؛ حينما تسمى بسيم الملك، وولى ولده خُطة الحجابة! لكن سن عبد الملك بن المنصور آنذاك كانت قد تجاوزت السابعة عشرة، وبلغ مبلغ الرجال!) حضرتها هذه الخاطرة قبل أن تندفع في فتاها صائحة: "كيف يولي طفلاً صغيراً لم يتجاوز الثالثة من عمره منصباً كهذا؟! وربي.. إنَّ هذا الفتى قد عتا وعته!". "ما يحزنني -يا سيدتي- أنه آثر بها ولده على سيدي محمد بن المظفر؛ وهو أكبر منه سناً". "هل حجابة الأندلس تليق بالصبيان يا بشرى؟!". "إنْ كانت تليق بطفل كعبد العزيز بن شنجول؛ فهي بسيدي محمد أليق!". "يا هذا! إنَّ منصباً كان يشغله المنصور أبو عامر -رحمه الله- ومن بعده ولدي وحبيبي عبد الملك المظفر.. لن يليق به -بعدهما- أشد الرجال وألمعهم! فما بالك بالأطفال!". "صدقتي يا سيدتي.. لكن ألم يعد هذا الرجل بأن يعوض سيدي محمد بن المظفر عن أبيه؟". "وهل رأيتَ منه مثل الذي تقول؟!". "عُذراً يا سيدتي! ما رأيتُ منه بعد أن تولى الحجابة إلا إعراضاً وجفاء!". "بل أكثر من ذلك لقد دأب مذ تولى -وبسرعة البرق- على محو آثار أخيه المظفر. والآن يولي ابنه الحجابة، ويلقبه بلقب سيف الدولة -كما كان لقب المظفر تماماً! ما معنى هذا؟ ما معنى هذا يا بشرى.. أخبرني!!". "أنتِ أعلم مني يا سيدتي!". "ليس ثمة معنى لأفعاله هذه إلا أنه يطمع في كل شيء.. كعادته! لكن الجديد على حاله.. أنه يخاف من ذكرى المظفر؛ لذلك يريد أن يمحوها من عقله قبل أن يمحوها من ذاكرة الناس!". "لما يفعل ذلك؟ ألا يكفيه أنه تلقّب بالمأمون في غضون عشرة أيام فقط،

ودون أن يكون لـه سـابقة جهـاد.. ثم الآن.. ولـم يمضِ على توليه الحجابة غير شـهر.. يصبح ولي عهد الخليفة! لقد أصاب المروانيين في مقتل!". "سيأتينا بما هو أدهى! ارتقب قابل الأيام وسترى أنه لن يتورع عن اغتيال الخليفة المؤيد ليحل مكانه!". "ماذا؟! هل يجرؤ؟! لو فعل يا سيدتي.. فستكون مصيبة كبرى.. ستزلزل الأندلس كلها.. ولا يستطيع أحد أن يتنبأ بما سيحدث من فواجع!". "ارتقب.. وأنا معك رقيب!". "هل نتركه يدمر الأندلس هكذا -يا سيدتي- ونقف مكتوفي الأيدي.. نراقبه؟!". "لا! لن نقف مكتوفي الأيدي! بل سنمنعه". ثم طأطأت رأسها وهمهمتْ في نفسها: "ولن أدع ثأر ولدي!". رفعت رأسها لتحدج فتاها ببصرها وهي تسأله في جدية: "لو كلفتُك بمهام خطيرة يا بشرى.. هل تقوم بها؟". "أنا رهن إشارتك يا سيدتي!". "إذاً! في البداية.. أريد أن أتأكد من صدق الفتاة". "أي فتاة.. يا مولاتي؟". "لا عليك! هل تعرف أحد ندماء شنجول؟ اسمه.. ابن الرسان!". "أجل! أعرفه يا سيدتي! إنه رجل مقيت من أغمار الناس.. لا يتنادم شنجول بمجلس سُكر أو عربدة إلا وكان ذلك الرجل نديمه.. بل علمتُ أنه هو من يأتيه بالنساء... لكي..". أشارتْ إليه أن: "اصمت!". فإنها ترغب بمسامعها عن سماع تلك الموبقات، ثم خاطبته في جدية: "أريد أن أعرف كل شيء عن هذا الرجل! وبالأخص.. أهل بيته.. هل له زوجة؟ هل له أبناء؟ وأين هم؟ وما هي مهنته الأصيلة؟". "أمرك يا سيدتي!". "أريد معلومات دقيقة وصحيحة يا بشرى! وبأقصى سرعة!". "أيام قليلة –يا مولاتي- ويكون عندك الخبر اليقين". "الأهم: السرية والكتمان.. يا بشرى! لا أريده أن يعلم أنَّا نستخبر عنه!".

-المشهد الرابع والأربعون-

مع إشراقات صباح الجمعة كانت فاطمة المروانية منشغلة –في غرفة الطبخ- تُعد إفطاراً لها ولضيفتها.. حينما واربتْ الضيفةُ بابَ غرفتها ثم فتحته ببطء لتنظر –على استحياء- أثمة أحدٌ مستيقظٌ في الدار. أطلتْ برأسها فرأتْ صحن دار ليس بالكبير.. لا سقف له، تنيره –من أعلاه- أشعة شمس قرطبة الدافئة، وتملأه دفء وحيوية. بهرتها -لأول وهلة- نظافة المكان وحسن ترتيب أثاثه، وجذبتها شُجيرات الأزهار والرياحين التي تحيط بالصحن، وتفوح بشذاها الأخاذ؛ فتفغمه بطيب ريحها التي انسابتْ مع نسمات الصباح لتداعب خياشيمها؛ فاستنشقتْ، وأرسلتْ نفساً عميقاً إلى صدرها لتملأه بهذا العبير الفواح. أعجبها مشهد الصحن –الذي لم تلاحظه ساعة جاءتْ البارحة- فأفلتتْ جسدها من الغرفة لتقف تجول ببصرها فيه ابتهاجاً به على بساطة أثاثه وتواضعه. رمقتها ربة البيت؛ فأقبلت عليها تبش بها.. وهي تقول باسمة: "أسعد الله صباحكِ يا بنية!". "أسعد الله صباحكِ يا سيدتي!". "عسى أن تكوني قضيتِ ليلة طيبة!". "الحمد لله! وأشكركِ على حسن استضافتكِ". "على الرحب يا بنية! ما زلتُ لم أحسن ضيافتكِ بعد! لقد أعددتُ الإفطار.. هلمي نأكل معاً!" قالت فاطمة جملتها الأخيرة وهي تُهيء سفرة الطعام وسط صحن الدار لتجلسا أمامها، ثم جلستْ لكن الضيفة ظلتْ واقفة؛ فحثتها على الجلوس قائلة: "ألستِ جَوْعى؟! هيا.. لا يفوتكِ طعام فاطمة الشهي!". جلستْ بتحفظ وارتباك لاحظتهما؛ وفهمتْ سببهما فابتسمتْ تطمئنها: "لا تخشي! ليس أحدٌ في الدار غيرنا.. أنا وأنتِ". نظرتْ سلوانُ إليها وعيونها تسأل عن حمدون؛ فأردفتْ الجدة قائلة: "لقد ذهب حفيدي إلى الحمام ثم إلى المسجد الجامع ليصلي الجمعة؛ فاطمئني وتخففي من حجابكِ، وكُلي واشربي بحرية". كانتْ سلوان جائعة حقاً ولا سيما بعد أن أحستْ بأمان كانت قد افتقدته منذ زمن؛ فسمتْ الله وأقبلتْ على الطعام، ومضيفتها تناولها اللقمة واللقمتين، وتبالغ في الاحتفاء بها وإكرامها.. فطابتْ نفسها وشعرتْ كأنها بين يدي أمها الحنون. بينما هما على تلك الحال تطاعمان وتتوادان،

وقد تآلفتا كأنهما قريبتان.. إذ دهمهما دخول طيف رجل دون سابق إنذار! فزعت منه سلوان، وراحت تجمع شعث ثيابها، وتُخبئ مفاتنها بغطاء رأسها، وغضتْ طرفها عنه. أما هو.. فوقف منتصباً قُبالتهما في وسط الدار يُنقِّل بصره بينهما -دون حياء- وهو يجأر بصوت جهور: "أسعد الله صباحكِ يا أم هشام!". لم تفزع منه أم هشام كما فزعتْ ضيفتها، ولم تنتفض من وقاحته، ولم تقم إليه توبخه على اقتحامه مجلس النساء دون استئذان –كما حسبتها ستفعل-؛ إنما ردتْ عليه التحية قائلة بهدوء: "أسعد الله صباحك يا سعدون! تعال.. تناول الإفطار معنا!". أجابها بتشنج وعجلة.. وبذات نبرته الجهورية: "لا! لقد تأخرتُ على صويحباتي! حان الوقتُ لأخرج بهن!". فأجابته بتلطف: "كما تشاء! اذهب إليهن". اندهشتْ سلوان لأمر الفتى، وزاد من اندهاشها ردة فعل فاطمة التي تعلم عنها سابقاً من حفيدها: أنها امرأة شديدة في الحق.. ولا تغفر لمن تعدى على الحُرمات. دفعها الفضول والريب أن ترفع بصرها لتتابعه وهو يخترق الدار –كأنه يعرفها جيداً- ليلج إلى باب جانبي علمتْ بعد ذلك أنه المنفذ من الدار إلى الحظيرة؛ فوجدته شاباً طويل القوام، نحيف القِد، يرتدي قلنسوة مصنوعة من القش تنتهي من أسفلها بحواف عريضة كهيئة الفلاحين، ويلبس ثوباً قصيراً خَلِق يصل إلى ركبتيه، ويتمنطق بنطاق عريض كهيئة الفرسان الصيادين، ويكسو ساقيه إلى أعلى ركبتيه بجوارب طويلة من الصوف، وينتعل نعلين من الجلد المبطن باللباد، قد شمر ساعديه وأمسك بيده اليمنى عصا غليظة طويلة تكاد تقاربه طولاً. أوجستْ في نفسها خيفة من هيئته المتضاربة، وسلوكه الجريء، ونبرته الحادة.. فأمسكتْ عن الطعام وهي تراقب الجدة تشيع الفتى بنظرات هادئة يشوبها الحنو والعطف. التفتتْ إليها قائلة بنبرة معتذرة: "أكملي طعامك يا بنية! ولا يروعكِ قدوم سعدون، ولا صوته المخيف! إنه فتى رقيق.. طيب القلب.. على نقيض ما يبدو من مظهره". "عُذراً يا سيدتي! من الفتى؟!". "إنه سعدون.. ابن أم سعدون خادمتي المخلصة.. ورفيقة وحدتي في حياتي الطويلة".

"لكن.. كيف؟!!". "تقصدين دخوله علينا بغتة دون استئذان! لا بأس.. ليس عليه حرج!". "كيف يا سيدتي ليس عليه حرج وهو أجنبي عنا؟!". "إنه فتى ممرور.. خفيف العقل.. رُفع عنه القلم". "هل هو مجنون؟". "ليس جنوناً كما تظنين.. لكن عقله كطفل صغير لم يتجاوز الحلم، فلا بأس عليكِ منه". "ومن صويحباته هؤلاء؟!". فغر فم فاطمة عن ضحكة عذبة تنم عن أنوثة قديمة لم يُبلِها تطاول الزمن.. ثم قالتْ: "هنَّ غُنيماتي وخرافي يرعاها لي.. فيأتي صباحاً ليأخذهن يرعاهن في المروج، ثم يعود بهن، وهو يحسن الاهتمام بهن!". ثم أردفتْ وهي تُقرب إليها بعض الطعام: "أكملي إفطارك يا بنيتي!". بيد أن الفزع –الذي أصابها- أزهدها في الطعام، وأذهلتها الدهشة عن استكمال إفطارها فأجابتها بامتنان: "بارككِ الله –يا سيدتي- لقد شبعتُ! الحمد لله!". ثم استطردتْ بشيء من القلق: "هل سيعود ثانيةً؟!". "لا.. إنه ينفذ من هنا –كعادته- ليُلقي عليَّ تحية الصباح، وأحياناً يتناول إفطاره معي ثم يلج إلى الحظيرة من هذا الباب، فيأخذ الخراف ويخرج بها من الباب الكبير في الجهة الأخرى". سكتتْ لتوحي إلى مضيفتها أنها اطمأنتْ، غير أنها ماتزال تتوجس من الفتى وغرابة أطواره. نفضتْ فاطمة يدها من الطعام متمتمة: "الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا من غير حول منا ولا قوة". ثم همَّتْ لتقوم وتجمع شعث السفرة؛ فقامتْ معها سلوان لتساعدها، وأقسمتْ أن تفعل، فأذعنتْ المرأة المسنة لإلحاحها، ودلفا كلتاهما إلى غرفة الطبخ ليدفع الفضول سلوان أن تسأل: "فما بال المرأة؟ أقصد أم ذاك الفتى؟!". "مَن؟ أم سعدون.. ما خطبها؟!". "أقصد.. هل.. هي.. مثل ولدها؟ خفيفة العقل؟!". ابتسمتْ فاطمة وهي تجيب: "لا.. إنها عاقلة جداً! لكنها ثرثارة بعض الشيء". بينما هما كذلك يتحدثان في مودة؛ إذ سمعا صوت سعدون يجأر من خلفهما وهو يتفحص سلوان بجرأة –لكن بعينين برئتين- مما أفزعها مرة أخرى: "من هذه الجميلة يا أم هشام؟!". تغضنتْ شفتا سلوان، وقطبتْ حاجبيها تبرماً من نظراته الجريئة.. لكنها ظلتْ ساكتة لتجيبه الجدة فاطمة

بملاطفة: "إنها ضيفتي!". أضاف وهو يتأمل في وجهها بشرود: "إنَّ لها وجهاً كالبدر؛ لكن ليس للبدر عينان كعينيها!". زفرتْ سلوان متأففة من غزله الوقح، ونظرتْ لصاحبة الدار نظرة فَهِمتْ معناها؛ فَهَمَّت بالتدخل وخاطبته بشيء من الصرامة: "هيا.. اذهب، ولا تضايق ضيفتي!". انصرف الفتى في هدوء، ثم توجهتْ إلى ضيفتها تُهدأ من روعها: "لا تَراعي يا فتاتي.. إنما هو فتى ممرور! تعالي.. نتجهز لأصحبكِ في نزهة رائقة.. اسأل الله أن تسعدي بها!"

-المشهد الخامس والأربعون-

أكبر مساجد قرطبة التي تجاوز عددها الألف.. هو المسجد الجامع (**جامع قرطبة**): بناه المسلمون الفاتحون الأوائل للأندلس على هيئة بسيطة متواضعة، ثم جاء عبد الرحمن الداخل فهدم البناء القديم، ووسعه ورفع مكانه بناءً جديداً، وصرف همته ليكون هذا المسجد الجامع الجديد –في حاضرة ملكه- تحفة فريدة من حيث بهائه وروعة عمارته؛ فأنفق فيه مالاً كثيراً. ثم توالى من بعده الأمراء الأمويون من نسله ليفعلوا مثل فعله.. ثم الخليفة عبد الرحمن الناصر.. ثم الحاجب المنصور الذي اهتم بالمسجد الجامع اهتماماً عظيماً، ووسعه توسعة كبيرة حتى صار ثاني أكبر مسجد في العالم. وكانت صلاة الجمعة - في ذلك العهد- لا تقام في قرطبة إلا فيه وفي جامع المنصور بالزاهرة. في ذاك المسجد كان يجلس أكثر أهل قرطبة –كعادتهم- ينصتون بانتباه لخطبة الجمعة كما يأمرهم الإسلام. غير أن.. تلك هي الجمعة الأولى –منذ زمن بعيد- التي يسمعون الخطيب يدعو فيها لولي عهد الخليفة –بعد الدعاء للخليفة-. كانت أول جمعة يُدعى فيها لولي عهد خليفة المسلمين بالأندلس؛ والأخطر أنه ليس قرشياً! كانت لحظة صادمة لكثير من الناس –لا سيما بني مروان-. كانت أول مرة يسمع كثير منهم حديث القحطاني الذي استدل به قاضيهم ابن ذكوان على جواز تقلّد شنجول لولاية العهد.. كانت مفاجأة؛ بيد أنها

صارت.. أمراً واقعاً.. ينبغي القبول به. لكن.. هناك الكثيرون الذين لم يقبلوا به، ولم يُأَمنوا على دعاء الخطيب –منهم بنو مروان وبالأخص عبد الجبار ومحمد ابني المغيرة-، ومنهم حمدون الذي كان ينصت للخطبة تديناً إلى الله رغم أنه لا يرضى عن دعاء الخطيب لشنجول كولي عهد للخليفة. لكن لم يعارض أي منهم الخطيب ولم يقاطعه أحدهم؛ ليس استسلاماً.. لكن احتراماً لقداسة المكان، واتباعاً لنهي الإسلام عن مقاطعة خطبة الجمعة. بعد الصلاة خرج الناس من المسجد واجمين! حقاً.. إنَّ أغلبهم يعلمون -من الأمس- أن شنجول صار ولي العهد، بل وذهب بعضهم إلى الزاهرة للاحتفال به. لكن.. أن يدعو إمامهم –في خطبة الجمعة- لولي عهد ليس من قريش.. فهذا أمر عظيم! يستهجنه الراشدون منهم. من بين الموجودين في المسجد كان طرسوس الذي شرع يبحث عن حمدون.. رآه؛ فناداه.. ثم بادره قائلاً: "هل أنت بخير يا حمدون؟!". "الحمد لله يا طرسوس! ما لي أراك مذعورا؟!". "كنتُ أخشى عليك! وحسبتُك أهلكتَ نفسك". "لِمَ أُهلك نفسي؟! أتراني مجنونا يا رجل!؟". "أنت تراوغني يا حمدون! ماذا فعلتَ في أمر فتاتك؟". "تقصد.. سلوان؟". "أجل! وهل غيرها؟؟!". "الحمد لله إنها بخير. لا تقلق!". "كيف علمتَ أنها بخير؟". "هي بخير يا طرسوس! دعني اذهب فإني منشغل الآن!". "كيف أدعك تذهب؟ ينبغي أن نعرف ماذا ستفعل! إنَّ ورائي أبا الوليد يرتقب الخبر!". "اطمئن.. وطمئن أبا الوليد.. فإنَّها –الحمد لله- آمنة في كنف جدتي كما خططنا". "كيف؟ كيف خطفتها من الزاهرة؟ هل يطاردك أحد؟!". "لا! لم أخطفها، ولا يطاردني أحد. اطمئن.. نحن في أمان". "كيف حدث هذا؟ أخبرني يا حمدون!". "سأخبركم عندما آتيكم في الجبل الليلة إن شاء الله.. لكن دعني أذهب الآن". لم يتمكن عقل طرسوس البليد من استيعاب ما قيل، ولم يستطع تصور ما حدث، بل لم يقتنع بأن حمدون يقول الحقيقة، غير أنه لم يملك إلا أن يدعه يذهب مسرعاً لِما رآه في عينيه من إصرار ولهفة على الذهاب،

ثم توجه هو عائداً إلى الجبل ليخبر أميره بما قاله صاحبه. أما حمدون فقد كان على عجل.. لهفةً إلى لقاء سلوان حيث ستكون مع جدته في بستانها.

-المشهد السادس والأربعون-

منية أم هشام المروانية -هكذا يسميه أهل قرطبة-: هو بستان قريب من ضفة نهر قرطبة العظيم، بستان ليس بالكبير في مساحته؛ لكنه عظيم في بركته، يبارك الله في نتاج زرعه وثماره؛ فتجود صاحبته بالخير بأيدي سخية.. ولا تخشى فقراً من صدقة. تؤمن بأنَّ حمد المنعم –عز وجل- هو سر دوام النعمة؛ لذا فدائماً كلما عذلها أحدهم على سخاء الإنفاق؛ قالتْ: "دأبُ ربي معي أنه يعطيني أكثر كلما أنفقتُ أكثر؛ فلما لا أنفق أكثر وأكثر؟!". في ظهيرة اليوم -بينما حفيدها يصلي الجمعة في جامع قرطبة- اصطحبتْ فاطمةُ ضيفتها في نزهة إلى بستانها لتقضيا بقية النهار، ولتتناولا وجبة الغذاء فيه مع بعض الصاحبات اللاتي اعتادتْ دعوتهن للغذاء في بستانها من آن لآخر. دلفتْ سلوان إلى البستان حيث يحوطه سياج من أعواد البلوط المربوطة فيما بينها بحبال من الحلفاء، يتخلله نخل سامق يحيط بكامل البستان. دخلت المكان فاستشعرت كأنما دخلت بستاناً في جنة الخلد.. منظر رائق بديع، أشجار وشجيرات شتى تحيط بها، تذخر بأشكال جميلة وألوان عديدة، فتجذب الأبصار وتبهرها، ومع نسمات الخريف الباردة يسبح العبير.. عبير الأزهار، وأريجها؛ فيُطرب الأنوف ويُزكي النفوس. ويمتد تحت قدميها بساط رحيب من العشب الأخضر مازال يعانقه بعض الندى. أما السماء فوق رأسها فتجول بها ألوان عديدة من الطيور والعصافير.. تغرد وتنشد أناشيد التسبيح للخالق المبدع. أما على مرمى البصر.. من وراء أشجار البلوط الضخمة.. فالمشهد غاية في الروعة؛ إنه نهر قرطبة الأعظم بأمواجه المتراقصة ونسماته الندية، تتبختر فوق صفحته السفن العظام.. تمخر عُبابه بقلوع مشرعة كالأجنحة البيضاء، وقوارب الصيادين الصغيرة

تتمايل كأنما ترقص على أنغام الطيور. صور طبيعية.. تنبض بالحياة، أبدعها الخالق وجمعها في مكان واحد كأنما هي صورة تمثيلية لتقرب إلى الذهن كيف ستكون جنة الخلد؛ فلا يملك المؤمن حين معاينة هذا المشهد إلا أن يردد بكل مشاعره.. من عميق وجدانه: (سبحان الخالق المبدع.. الذي أوجد هذا الجمال من عدم). بعد سير –ليس بالطويل- وعلى بُعد خطوات منها ألفت سعدون يجلس القُرفصاء ويشحذ سكينه ليذبح شاة كانت بجواره، وتعلو وجهه ابتسامة بلهاء، أشاحت بوجهها عنه.. لكيلا يفسد عليها بهجتها واستمتاعها بجمال المكان وروعته. راحت تتنسم نسمات العبير الرائق، وتتنشقها كأنما تريد اختزانها في صدرها. على أكَمَة منبسطة أجلستها مضيفتها وهي ترحب بها في بستانها الصغير، بادلتها التحية بكلمات مقتضبة، وابتسامة رقيقة، فهي ترغب ألا يشغلها الكلام عن إحساسها اللذيذ بروعة المكان، إنما تحبذ أن تغذي روحها منه، وتصفي عقلها ولبها برؤيته. أحستْ فاطمة أن ضيفتها ترغب في الاستمتاع ببهاء المكان وجماله في صمت؛ فخلَّت بينها وبين رغبتها، وصرفتْ وجهها إلى سعدون لتنبهه ببعض الإرشادات؛ فخاطبته قائلة: "يا سعدون! أحسن الذبح! سمِّ الله، وحدَّ شفرتكَ، وأرح ذبيحتكَ كما أمرنا النبي عليه السلام". "عليه الصلاة والسلام! نعم.. يا سيدتي". "أين أم سعدون؟". "إنها تجوب البستان لتجمع لضيفاتكِ ثمار الفاكهة الطازجة". "بارك الله بها". ثم التفتتْ إلى ضيفتها التي كانت لا تزال تجلس بجوارها، لكن يسبح خلدها في خضم الطبيعة الساحرة المحيطة بها. همستْ: "هل يعجبكِ البستان يا بُنية؟". "إنه رائع يا سيدتي! ما شاء الله لا قوة إلا بالله.. بارك الله لكِ فيه". "وبارك بكِ يا بُنيتي! رزقني الله وإياكِ خيراً منه في الآخرة". "اللهم آمين!". ثم التفتتْ فاطمةُ؛ فرأتْ أم سعدون: امرأة تتميز بالنشاط وخفة الحركة رغم بدانتها وقصر قامتها، ورغم تجاوزها الخامسة والأربعين. بيد أنها رأتها مُقبلة -من بعيد- تهدج في مشيتها لثقل سلة الفاكهة فوق رأسها. فأشفقت عليها وبادرتها صائحة بامتنان: "أتعبناكِ يا أم

سعدون! جزاكِ الله خيراً!". فصاح سعدون –معلقاً على امتنانها- بصوته الصاخب: "بلى! تعتقينَ الرقاب؛ ونذق نحن العذاب!". فنهرته أمه صائحة: "صه يا غلام!". ثم ابتسمتْ فتورد وجهها الخمري الممتلئ.. وضاقت حدقتا عينيها الدقيقتين، وقالت مخاطبة الضيفة وهي تنحني لتضع سلة الفاكهة بين يدي السيدة: "يقصد أن أم هشام تُكثر من عتق العبيد حتى أنه لم يعد لها أحد يخدمها غيري أنا وهو، وتالله.. لعناء خدمتها أحب إليَّ من الماء البارد في قيظ الصيف". "بوركتِ يا حبيبتي! وأدام الله الود والمحبة بيننا في الدنيا والآخرة". اندفع سعدون يهلل وهو يشير إلى باب البستان: "أيش هذا! انظرنَّ من أول القادمين!". التفتتْ فاطمة وسلوان بينما كانت أم سعدون منهمكة في إعداد الفاكهة للأضياف. التفتتا فإذا بحمدون هو القادم. نظرا فألفياه قادماً –من بعيد- يُهملج به حصانه.. حتى اقترب؛ فترجل وأقبل عليهنَّ يمسك بلجام حصانه يجره خلفه ثم قال مبتسماً: "السلام عليكم رحمة الله!". ردتْ سلوان –وقد تهلل وجهها لرؤيته-: "وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته". أما جدته فقد جحظتْ عيناها، وعبس وجهها وهي تحملق فيه بارتياب.. كمن راعها قدومه، ثم قالت باستهجان: "ما أقدمكَ الآن يا حمدون؟!". أحرجته ردة فعلها وأصابته بارتباك عجز عن إخفائه؛ لكنه حاول أن يجيبها بلباقة ليتجاوز الموقف: "ل..قد.. جئتُ.. لكي..!" (لم يستطع أن يقول شيء)، فأسعفته أم سعدون صائحة: "ربما جاء ليُسبح حصانه في النهر!". "نعم! لقد جئتُ.. ليستحم الحصان في النهر". أجابته جدته بصرامة: "ألا تعلم أني خصصتُ هذا الوقت لمجلس النساء فقط؟!". أجابها وحمرة الخجل تظلل وجهه: "عفواً يا جدتي! لقد نسيتُ. إنْ أردتِ رجعتُ!". انطلقتْ أم سعدون تهتف بتلطف: "ابق يا ولدي. فمازال الوقت مبكراً عن موعد السيدات!". نظر صامتاً إلى جدته؛ فلم تبدِ اعتراض؛ فأمسك لجام فرسه ومسح على مَعْرَفته، ثم رنا ببصره إلى سلوان كأنما يقول لها: جئتُ من أجلكِ أنتِ. ثم توجه واجماً يجر حصانه إلى ضفة النهر. كانت سلوان تشيعه بنظراتها كأنما تقول له: اعلم أنك جئتَ

من أجلي، وقد أحزنها الخجل الذي أصابه. لف الصمتُ والوجوم المكان؛ فأراد سعدون أن يُعيد له بهجته.. فصاح بلهجة مرحة يداعب حمدون -الذي ولاه ظهره-: "اليوم سجسج يا حمدون!". التفتْ إليه حمدون، وأطال إليه النظر –كأنه يغبطه- قبل أن يقول: "أجل يا سعدون! إنه نهار معتدل الأجواء.. أين صويحباتك؟!". أجاب ببراءة الأطفال: "إنهنَّ في المروج مع زميل لي.. سأُعد الطعام مع أمي ثم سأذهب إليهن". استمر حمدون في سيره تجاه النهر بينما تحدثه نفسه: "يا ليت لي مثل حظ سعدون الممرور؛ فأسعد بالقرب منكِ يا سلوان ولو ساعة!". بعد برهة صامتة.. آثرتْ فاطمة أن تتوجه حيث شرع سعدون وأمه في إعداد الشاة –التي ذبحها- لتُشوى على السفود، وتساعدهما في إعداد الطعام ريثما تصل ضيفاتها. وتركتْ سلوان تجلس –على بعد خطوات منهم- تتأمل جمال البستان وسحر الطبيعة حولها. لكن سلوان انشغلتْ عن روعة المكان بقدوم حمدون، ويممتْ وجهها صوب ضفة النهر حيث ذهب. تعلم أنه جاء من أجلها رغبةً في رؤيتها والاطمئنان عليها، وتعلم –أيضاً- أنه يريد أن يفهم اللغز: كيف جاءت إلى بيته، ونزلتْ ضيفة على جدته، وقد يخشى أن تكون وشتْ به وبرفاقه –في الجبل- عند السيدة أم المظفر. شعور غامض بداخلها يحثها أن تذهب إليه لتطمئنه وتُطيب خاطره. فقامتْ من مجلسها –في تئده- وتوجهتْ إلى الجدة؛ فاستأذنتها أن تتجول قليلاً في المكان ريثما تأتي الأُخريات، فرحبتْ بها صاحبة البستان وقالت: "اذهبي حيث شئتِ فالبستان بستانكِ". دفعها ذلك الشعور الغامض بداخلها أن تتجه صوب حافة النهر.. صوب حمدون. كانت تسير سيراً وئيداً لمسافة ليستْ طويلة –فقد كان النهر حيث حمدون قريب منها-. غير أنها شعرت أنها تسير ليالي وأيام خجلاً. أخيراً أضحتْ على مقربة منه ويُمكنه أن يحس بوجودها، ويُمكنه أن يسمعها. وجف قلبها.. وشعرتْ كأنها لم تحدثه قبل اللحظة، ونسيتْ أنهما كانا يتحدثان كثيراً بلا حرج قبل يومين فقط في كهف الجبل، تبددتْ الكلمات بين شفتيها؛ فجعلتْ تجمع شعثها لتنطق بشيء.. أي

شيء.. أي كلمة! فخرجتْ من بين شفتيها كلمة خافتة تتخطفها الحشرجات فلم تكد تُبين.. قالت: "حمدون!". لم يسمعها؛ بل لم يحس بها وهي على مقربة منه؛ فقد كان مشغولاً عنها بها. اقتربت أكثر واستجمعتْ كامل شجاعتها ونادته بقوة: "حمـدون!". انتبه من شروده ليسمع اسمه يناديه أعذب صوت سمعه، وتنطق بلفظه أرق فتاة عرفها. كان قابعاً على حافة النهر يطالع حصانه الذي تركه يسبح وهو ممسكاً بعِنانه يعبث به بين كفيه.. غائب عقله عن المكان. لكن صوتها أعاده حيث يجلس.. حيث هي بالقرب منه. كانت أكثر إقداماً، لا جرم أنه جاء إلى مجلس جدته بالبستان مخالفاً لتعليماتها.. لكنه اكتفى بذلك، ولم يسع للاقتراب من حبيبته بينما هي قاومت خجلها، وجاءت إليه لتناديه باسمه. انتفض قائماً ليرحب بها، وصاح متهللاً: "لبيك!". لم تدرِ شيئاً تقوله؛ فمازالتْ الكلمات تتبعثر بين شفتيها. بعد لحظات صامتة.. حضرها سؤال –هكذا عفو الخاطر- فهمستْ وهي تشير إلى حصانه: "أ هو عربي؟". التفتَ حيث الحصان الذي يسبح في النهر، ورنا إليه بنظرة تنم عن شغفه به ثم هتف: "بل هو هجين.. أبوه عربي، وأمه برذونة قوطية.. فهو عربي أندلسي!". "هذا شأن أكثر أهل هذه الجزيرة! هل له اسم؟". تنهد بعمق، وهو يشير إلى لون الحصان الأسود كظلمة الليل وقال باقتضاب: "دَّيْجُور!". همَّتْ أن تسأل سؤال آخر عن الحصان؛ لكنه لم يمهلها بل التفت إليها واندفع صائحاً وهو يحدق فيها بلهفة: "لقد خشيتُ عليكِ يا سلوان!". "أنتَ من دفعتني للذهاب مع أميرك!". "لقد أخطأتُ.. وندمتُ شر الندم! لن أستطيع أن أصف لكِ كم كانت لهفتي وخوفي عليكِ". رنتْ إليه بلحظها، لأول مرة لا يمنعها الخجل من النظر في وجهه وتأمل قسماته. ظلتْ صامتة.. غير أن عينيها قالتا: (نعم.. إني أصدقكَ، وأغفر لكَ، وأعفو عنك! فقلبي لا يقدر أن يغضب عليك!). لحظات.. لحظات مرتْ وعيناهما تهامسان.. وتقولان ما يُعجز الخجلُ اللسانَ عن البوح به. لحظات مرتْ وقد حملهما الصمتُ خلالها إلى مكان آخر –غير المكان- انقطعا فيه عن الدنيا، وتوقف

فيه بهما الزمان –أو هكذا استشعرا- إلى أن خرق هو غشاء الصمت اللذيذ متسائلاً بتعجب: "كيف أتيتِ إلى دارنا؟ وصرتِ ضيفة على جدتي؟!". انتشلها السؤال من الملكوت البعيد الذي يسبح فيه خيالها، وأعادها حيث تقف على حافة النهر ببستان فاطمة؛ فأطرقتْ قليلاً.. ثم قالت بهدوء: "فعلتُ ما اتفقتُ عليه مع أميركم.. فأخبرتُ السيدة أم المظفر بكل شيء؛ فصدقتني.. ووعدتني بأن تحميني من ابن الرسان، وأن تعيدني لأهلي قريباً.. واقترحتْ أن أمكث عند صديقة لها لحين أرجع إليهم". "صديقتها هذه.. هي.. جدتي؟!". (أومأتْ برأسها أن: نعم!). رفع يديه إلى السماء متهللاً وقد انفرجتْ أساريره فرحاً وحبوراً، وجأر وهو يكاد يرقص طرباً: "الحمد لك يا رب!". أشارتْ إليه بلحظها: أن احذر قد تلاحظك جدتك. تنبه لأنه ينبغي ألا تلحظ جدته ما ينم عن علاقتهما السابقة، ولا داعي لأن تعرف أنها مكثتْ في الجبل أياماً عديدة مع عصابة ابن هشام؛ كيلا تظن بها السوء. تدارك نفسه، وكتم فرحته، وكظم نشوته؛ ثم تلفت حوله فإذا سعدون قادم -من بعيد- يصيح: "هيا يا حمدون لنخرج.. فقد أقبلت الضيفات!". التفتتْ فرأت سعدون يُقبل من خلفها يحجل بصبيانية، وهو ينادي حمدون بصوت عالٍ؛ فتنبهتْ لوجوب رجوعها كيلا يرتاب فيهما أحد؛ فودعته عينيها، وانصرفت إلى حيث الجدة.

-المشهد السابع والأربعون-

في مجلس النساء الذي أعدته أم سعدون باحتفاء، رأتْ سلوانُ فاطمةَ تجلس مرحبة بامرأتين، ثم أشارت لتعرفها بهما قائلة: "هذه السيدة أم عبد الواحد.. بربرية من قبيلة زناتة، أبناؤها فرسان أبطال في جيش قرطبة، وهذه السيدة جويرية زوجة الفقيه أبي عبد الله، وهو أحد الفقهاء المقلَّسين المبجلين". ثم أشارت إليها وقالت باقتضاب: "وهذه.. سلوان". أمسكتْ جويرية خيط الحديث، وجعلت تخاطب سلوان –تريد أن تتعرف عليها أكثر- فقالتْ: "هل أنتِ من قرطبة يا سلوان؟".

ترددتْ هنيهة قبل أن تؤثر أن تقول: "بل من اشبيلية!". "أنا أيضاً لستُ من قرطبة.. أنا من الجزيرة الخضراء لكني الآن من أهل قرطبة لأن زوجي يعيش فيها.. فزوجي أبو عبد الله أحد أصحاب القلانس المبجلين!". قاطعتها أم عبد الواحد بلهجة متبرمة: "ألا تملين من ذكر هذا لكل الناس يا امرأة؟! زوجي فقيه مقلَّس[1].. زوجي فقيه مقلَّس!". "لما لا؟! إنما القالسُ تاجٌ.. لا يلبسها إلا الفقيه أو القاضي؛ فلما لا أفخر بزوجي وهو من ولاة الأمر؟". أجابتها أم عبد الواحد متهكمة: "ولاة الأمر؟! لعل زوجكِ هو الحاجب؟! أم هو الخليفة؟!". فأجابتها بتحدي: "بل هو من العلماء الذين هم ولاة أمر الحاجب والخليفة! أليس كذلك يا أم هشام؟" كانت أم هشام شاردة العقل، ولم تعِ فيما تتحدثان؛ فانتبهتْ على نداء صاحبتها: "عفواً! ماذا قُلتما؟". قالت أم عبد الواحد باستهزاء وهي تشير إلى جويرية: "ألم تسمعيها يا أم هشام؟! إنها تدعي أن زوجها ولي أمر الحاجب والخليفة!". فأعادتْ عليها جويرية الكلام وسألت بتحفز: "أليس العلماء هم ولاة أمر الأمراء يا أم هشام؟". " بلى.. هكذا كان يقول جدي الأمير عبد الرحمن الداخل –غفر الله له-: الأمراء ولاة أمر عامة الناس؛ وولاة أمرهم العلماء؛ ولن تستقم الدولة إلا أن يُطاع ولاة الأمر. وعلى هذا أقام دولة الأندلس –بفضل الله- التي ننعم جميعاً بخيرها، وبركة توقير العلماء فيها". اندفعت جويرية تهلل: "ها هو ذا! ظهر الحق.. لا فُض فوكِ يا أم هشام". فقالت أم عبد الواحد تبحث –هي الأخرى- عن أسباب الفخر: "فأين أولادي إذاً عبد الواحد وأخوته، وهم يضحون بأرواحهم لأجل هذه الدولة؟!". فأجابتها أم هشام وهي تجبر

---

[1].. المقلَّس هو: الفقيه المشاور الذي له الفتيا في الأحكام والشرائع، ولا يضع القالس على رأسه عندهم إلا من حفظ الموطأ أو عشرة آلاف حديث بأسانيدها عن النبي ﷺ. وكان في قرطبة واحد وعشرون ربضاً وبأحوازها أكثر من سبعمائة قرية في كل قرية منها فقيه مقلَّس، وكانوا هؤلاء يأتون إلى قرطبة في كل جمعة فيصلون مع الخلفاء ويسلمون عليهم ويطالعونهم بأحوال بلادهم.

خاطرها: "إنما تقوم دولة الحق على إحكام الشريعة، وإقامة العدل بين الناس، وردع أعدائها وإرهابهم بجيش قوي يعلو به شأن الجهاد. فإحكام الشريعة واستنباط أحكامها هو عمل العلماء، وتحقيق العدل هو عمل القضاة، وإعلاء قيمة الجهاد وإرهاب العدو هو عمل الجُند أمثال عبد الواحد وإخوته، فلا غنى للأمة عن العلماء والقضاة والمجاهدين!". "أخبريها يا أم هشام إذاً أنه لا غنى للدولة عن الجنود المجاهدين. أليس الجهاد هو ذروة السنام؟!". "بلى! وأنا حين أفتخر بزوجي لا أبخس ابنك حقه يا أم عبد الواحد". "كلٌ ميسر لما خُلق له؛ المهم أن نعمل نحن ورجالنا من أجل إعلاء كلمة الله، ورفع شأن دولة الأندلس". "دعونا من هذا الآن! إنما أردتُ أن أُعرِّف نفسي للضيفة وأتعرف عليها؛ لماذا جئتَ إلى قرطبة يا سلوان؟". لم تُجب سلوان على سؤال جويرية.. فقد كانت شاردة الذهن وهي تتابع – خلسة- ببصرها حمدون الذي يمر من بعيد مغادراً البستان يجر حصانه –ديجور- إليه، وبصحبته سعدون. لكن جويرية ألحتْ في السؤال وكررته قائلة: "سلوان! لمَ أنتِ هنا في قرطبة؟". انتبهتْ والتفتتْ إلى السائلة كأنها لم تسمعها. عجزت عن الإجابة؛ فالتفتتْ إلى الجدة فاطمة كأنما تستغيث بها لتجيب عنها. بيد أن صاحبة البستان كانت أيضاً شاردة تحاول أن تفهم ما رأته –منذ قليل- هناك عند ضفة النهر حيث كانا يتحدثان كأنهما متعارفان منذ زمن؛ بل كانا يتهامسان كأنهما متحابان؟! فلم تُجب جويريةَ، ولم تُطمئن سلوانَ أنها معها. طال الصمت -أو هكذا توهمتْ جويريةُ- فآثرتْ أن تقترح هي الإجابة على سلوان فقالتْ: "لعلك جئتِ طلباً للعلم عند أم هشام؟". تشبثتْ بهذه الإجابة المقترحة من صاحبة السؤال؛ كأنها عثرتْ على ضالتها الشاردة فأجابتْ: "أجل! أنا هنا لطلب العلم". "لقد أحسنتِ الاختيار.. وأنا مثلكِ أطلب العلم على يد أم هشام. ماذا تتعلمين الآن؟". هنا تدخلتْ أم هشام لتقطع الحوار في صرامة –لم ترق لسلوان-: "مازالتْ لم تبدأ! وعليَّ أن أقوِّمها أولاً!". فهتفتْ جويرية بحماس: "أما أنا فلن أدعكِ يا معلمتي إلا أن أكون

مثل عائشة بنت أحمد؛ شاعرة وأديبة وكاتبة، بل.. وبارعة في رسم المصحف أيضاً. ما شاء الله، ولا قوة إلا بالله". تساءلتْ أم عبد الواحد –كأنها تُسكت جويرية-: "حقاً! أ لن تأتِ عائشةُ يا أم هشام؟!". ساعتئذ أقبلت عائشة بنت أحمد –أو عائشة القرطبية كما اشتهرتْ- كأنما سمعتْ أم عبد الواحد تناديها؛ فهتفتْ من ورائها: "لبيك أيتها البربرية!". فزعتْ المرأة لسماع صوت من كانت تسأل عن غيابها؛ وصاحتْ مرتعبة: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم!". فتعالتْ ضحكات الصديقات حولها تهكماً على ارتعابها؛ وإذا بها تحس بعائشة تعتنقها من خلفها، حاولتْ أن تتمالك نفسها وهي تقول بارتباك: "عائشة! والله لو استحضرتُ جنياً ما جاء بهذه السرعة!". "سمعتُكِ تنادي باسمي وأنا خلفكِ؛ فهممتُ بتلبية النداء". "لقد أفزعتني أيتها الشاعرة". "عذراً! لم أكن أعلم أن أم العساكر البربر خوَّافة إلى هذا الحد" (هتفت تمازحها). فتغضنتْ شفتا أم عبد الواحد استياءً، ونظرتْ إليها شزراً تلومها. تدخلتْ أم هشام لترحب بتلميذتها الشاعرة النجيبة وتجلسها إلى جوارها، بينما تنظر إليها جويرية بإعجاب لا تخفيه ثم تشير إليها وهي تخاطب سلوان قائلة: "هذه فخر نساء قرطبة.. بل فخر نساء الأندلس! إنها الأديبة والشاعرة والكاتبة: عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم –القرطبية كما يسمونها- هي أخت الرجال.. بل أفصح منهم وأبلغ؛ ولا دليل على ذلك أوضح من..". قاطعتها عائشة وحمرة الحياء تعلو وجهها: "حنانيك يا جويرية! لقد قصمتِ عنقي بمديحك!". "إني أحسبكِ كذلك؛ ولا أُزكيكِ على الله. إنما أُخبر عن ظاهركِ، ومخبركِ لا يعلمه إلا الله". "الحمد لله! فإنْ كنتُ كما تقولين؛ فالفضل لله أولاً، ثم لمعلمتي وصاحبة الفضل الأول عليَّ أم هشام". ابتسمتْ لها أم هشام وقالتْ في تواضع جم: "العفو يا حبيبتي! فأنتِ تلميذة نجيبة، باركك الله". قالتْ جويرية: "إنها شاعرة فصيحة؛ وأفصح من فحول الشعراء من الرجال. وكنتُ أقول أن أوضح دليل على ذلك: مديحها للمظفر بن أبي عامر حين دخلتْ عليه وعنده ولده فارتجلتْ شعراً جميلاً تمدحه به؛ تغنتْ به

قرطبة كلها حينها". طأطأتْ عائشة رأسها حياءً من مديح جويرية، ثم ابتسمتْ ورفعتْ رأسها كأنه تتذكر مشهدها الذي تحكيه صاحبتها. ثم اندفعتْ جويرية تناشدها: "هيا يا شاعرتنا ألقي علينا هذه الأبيات مرة أخرى؛ فإنها تعجبني". "أ ولستي تحفظيها يا جويرية؟!". "قرطبة كلها تحفظها! ولكني أحب أن أسمعها منكِ كما ألقيتها على الملك المظفر. هيا.. هيا أمتعينا مرة أخرى؛ من أجل هذه الصديقة الجديدة". لم تجد عائشة مفراً من تلبية رغبة صاحباتها؛ فاعتدلتْ في جلستها وتنحنحتْ وهي تسترجع بخيالها ذلك اليوم الذي مر عليه سنوات؛ وتستعيد بذاكرتها مشهد دخولها على الملك المظفر وبين يديه ولده الصغير يلاعبه، ثم شرعتْ تُلقي عليهن أبياتها التي ارتجلتها ذلك اليوم فقالت بصوت هادئ رخيم:

أراك الله فيه ما تريـــــد ... ولا برحت معـــاليه تزيـــد
فقد دلت مخايله عــــلى ... مـــا تؤمله وطالعه السعيد
تشوقت الجياد له وهز ال ... حسام هوى وأشرقت البنود
وكيف يخيب شبل قد نمته ... إلى العلياء ضراغمة أســـود
فأنتم آل عامر خيـــر آل ... زكا الأبناء منكم والجـــدود
وليـــدكم لدى رأي كشيـخ ... وشيخكم لدى حرب ولـــيد

اندفعتْ صاحباتها يصفقنَّ ويهللنَّ طرباتٍ معجباتٍ؛ وأثنتْ عليها أم هشام قائلة بلهجة المعلم الذي يسره تفوق تلميذه: "ما شاء الله! أحسنتِ يا بنيتي!". واندفعتْ جويرية صائحة في إعجاب وحماس: "هل يزعم أحد شعراء الرجال أنه يستطيع أن يرتجل مثل هذا الشعر في ذات الموقف؟! والله كلا البتة! إنك لأخت الرجال حقاً، وأشعر منهم جميعاً". علقتْ أم عبد الواحد البربرية –التي لا تفهم الشعر العربي ولا تتذوقه- مستنكرة في دعابة: "أخت الرجال! وأشعر منهم! وعلى الرغم من جمالها ومالها ومرؤتها لا تتزوجهم؟! أخُلقتْ النساء لتنافس الرجال في الشعر.. أم لتتزوجنهم؟!". فأجابتها عائشة هاتفة في تحد:

أنا لبؤة لكنني لا أرتضـــي نفسي مناخا طول دهري لأحـــد
ولو أنني أختار ذلك لم أجب كليا وكم غلقتُ سمعي عن أُسد

انتشـتْ جويريـة، وصـفقتْ مـرة أخـرى في حماسـة زائـدة وهي تصـيح: "أحسـنتِ يـا عزيزتي! لقـد أفحمتهـا". ثـم جـاءهنَّ صـوتُ أم سـعدون تنـادي مـن قريـب: أن هلـم إلى الطعام. فقطعنَّ حديثهنَّ، وقمنَّ إليها يساعدنّها في إعداد السفرة، وانصرفنَّ مؤقتاً عن حديث الشعر إلى حديث الطعام.

-المشهد الثامن والأربعون-

في طريق عودتهما من البستان إلى الدار، كانت فاطمة مطرقة شاردة الذهن، غافلة عن ضيفتها (سلوان) غير باشة لها أو مرحبة بها كيوم أمس. أما سلوان فقد امتلأ قلبهـا نشـوة، وغمـرتْ نفسـها السـعادة؛ حتى أنهـا انشـغلتْ بنشـوتها وسـعادتها عـن صمت جدة حمدون وشرودها. سجى الليل.. ولفَّ السكونُ أهلَ الدار، فأوت سلوان إلى مخـدعها، أمـا فاطمـة فـذهبتْ إلى حمـدون وهـو يحبـق متاعـه، ويسـرج جـواده. أقبلتْ عليه بوجه صارم وقلب واجم ثم قالتْ: "إلى أين؟!". "سأخرج إلى رحلة صيد كما أخبرتِ عني ضيفتكِ ليلة أمس!". زفـرت زفـرة عميقـة ثـم انـدفعتْ تسـأله في صرامة: "هل عَرفتَ هذه الضيفة من قبلُ؟". باغته السؤال وأربكه؛ غير أنه تشاغل عنها برفع متاعه على ظهر الحصان؛ بينما يفكر كيف يُجيبها: (إنْ أخبرها حقيقة معرفته بها؛ فسيخبرها إذاً بحقيقة مُكثها في الجبل –وحدها- مع عصبة الرجال أياماً؛ وقد يدفعها ذلك لظن السوء بها؛ وهو لا يُطيق ذلك. إذاً عليه أن ينكر سابق معرفتـه بسـلوان؛ عليـه أن ينفـي ذلـك تمامـاً). أعـادتْ السـؤال عليـه بلهجـة أشـد صـرامة: "أجب يا حمدون! هل كنتَ تعرفها؟!". "لا يا جدتي! لم أعرفها من قبـل". "إذاً! فيما كان تحاوركما عند النهر؟!". "أعجبها ديجـور فكانـت تسـألني عنـه". كانـت تحاول أن تواجهه وتنظر في عينيه بينما تسأله ويجيب؛ لكنه كان يراوغها، وتهرب

عيناه من عينيها. ثم أردف يقول وهو يمسك بعنان الجواد، وقد همَّ بالخروج: "عليَّ الذهاب الآن.. استودعكم الله!". "إلى ابن هشام مرة أخرى؟!". أجابها بحسم وهو ينطلق من أمامها خارجاً من الدار: "قد قطعتُ عهدي يا جدتي! السلام عليكم". رددتْ بصوت خفيض متوجس: "وعليكم السلام.. حفظك الله يا ولدي من شرار الناس.. وردك إليَّ صالحاً!".

-المشهد التاسع والأربعون-

انطلق حمدون يحث جواده (ديجور) خارجاً من دروب المدينة كأنما يفر من جدته. ثم استوى على الطريق إلى جبل العروس؛ فشرع يهمز حصانه؛ فيعدو أسرع وأسرع.. وقد خالجه شعور كأنما سلوان تنتظره في الجبل –كسابق عهده بها في الأيام الخوالي- ولكن.. هيهات! إنما كان في انتظاره –بترقب وحذر- طرسوس ومحمد بن هشام. ما برح ابن هشام يذرع مخبأه جيئة وذهاباً، مضطرباً جسده، حائراً قلبه؛ لا يدري ما سُيفعل به في قابل الأيام، وقد أوجسه ما أخبره به طرسوس: أنَّ سلوان تنعم بالأمان والعافية في بيت حمدون! لا جرم.. لقد رابه ذلك بشدة، وأثار شكوكه: (ربما اتفقتْ الذلفاء مع الفتاة على الإيقاع بي، واستغلتْ الفتاة حب حمدون لها وضعفه أمام هذا الحب؛ فعقدوا جميعهم الصفقة: يرشد حمدونُ جنودَ الذلفاء إلى مكاني ثم يسترد فتاته لتعيش معه في الأمان! هكذا إذاً! أتخون عهدي يا حمدون؟! أتُضحي بي لأجل امرأة تتوهم حبها؟! يا لك من ضعيف رعديد!). مازال طرسوس يراقبه وهو على هذه الحال: (ساكتاً عن الكلام، غير ساكن عن الحركة، متشنجاً تتصارع الشياطين أمام عينه). يراقبه وهو قلقاً عليه.. لكن كلما همَّ أن يقوم فيعتنقه ويهدئه قائلاً له: على رسلك يا سيدي، ستُهلك نفسك! كلما همَّ أن يفعل؛ تذكر بطشه وسوء خلقه حينما تصيبه مثل هذه الحال؛ فيقعد ساكناً ساكتاً؛ عسى الله أن يصرف عنه السوء. أخيراً.. بعد طول سكوت صرخ يسأله: "هل

أخبرَكَ أنه سيأتي الليلة يا طرسوس؟". "أجل يا سيدي! ليحدثنا بخبر الفتاة وما حدث لها في قصر المظفر". "بل وشى بنا! وسيأتي ومعه العساكر للقبض علينا!". "ماذا؟! لا يا سيدي! حمدون ليس خائناً.. لن يفعل ذلك". "بل فعل! هيا.. هيا يجب أن نغادر هذا المكان حالاً". "إلى أين نذهب يا سيدي؟! إنَّ هذا هو آمن مكان لنا في قرطبة!". "بعد أن وشى بنا حمدون؛ لم نعد في مأمن هنا!". بينما يتجادلان في الثقة بحمدون؛ إذ سمعا حمحمة حصانه بالخارج، وصوته يأتيهما من بعيد عطوف ودود -كعادته- صائحاً: "السلام عليكم ورحمة الله". ثم دلف إليهما باش الوجه، يحمل سيفه وقوسه وكنانته؛ لكنهما أجاباه بالصمت. أبصر سيده يحملق فيه بأعين فزِعة، بينما يسارع طرسوس بالخروج. أدهشه الهلع الذي يراه؛ فسأل سيده متعجباً: "أبا الوليد! ما هذه الحال التي أرى؟ ماذا بك؟!". باغته سيده فنزع منه السيف بخفة المتحفز لقتال غريمه، ثم رفعه صلتاً في وجهه صارخاً: "كيف تفعل بنا هذا يا حمدون؟!". يرفع حمدون يديه -دون مقاومة- كالمستسلم، مبهوتاً من تصرف أميره، ثم يجيب بصوت مرتبك: "ماذا فعلتُ يا سيدي؟!". يدخل طرسوس مسرعاً، فيحول بينهما ملتقطاً السيف -بحذر- من يد سيده؛ وهو يطمئنه بنظرات عينه؛ فيستسلم ابن هشام لأمان طرسوس، فيدع له السيف، وقد فهم من إشارة عينه أنه ليس ثمة خطر بالخارج. انشده حمدون لما يحدث، وشرع يُقلب ناظريه بينهما؛ فينظر تارة إلى الأمير فيجده متسمراً في مكانه كمن صُعق، يحملق فيه بحدقتين جامدتين لا تبصران. ثم تارة إلى طرسوس فيجده صامتاً مُنقبض الأسارير مهموماً. ينفض عن نفسه غبار المفاجأة، ويتجه إلى طرسوس يسأله في اندهاش: "ماذا حدث؟ ما لي أراكما فزعين؟!". "لا شيء يا حمدون! هدأ من روعك يا أبا الوليد.. لا أحد بالخارج!". تساءل حمدون متحيراً: "ممن كنتما تخافان في الخارج؟ أنا لا أفهم! لم تقابلني بهذا الشكل يا أبا الوليد؟". انتبه أبو الوليد من ذهوله، ونكص حيث مجلسه؛ فجلس مطأطئ الرأس، يحاول استعادة هدوءه. ثم رفع رأسه

ورنا إلى حمدون يهمس فيه بصوت أجوف: "اجلس يا حمدون!". حدَّق فيه حمدون وهو لايزال ينتظر أن يفهم؛ فاستطرد بصوت خفيض محشرج: "عُذراً يا حمدون! فقد ظننتُ بك السوء". رمقه حمدون باندهاش؛ فاستدرك قائلاً: "ظننتُ أنك اتفقتَ مع الذلفاء على أن تسلمني لعساكر شنجول نظير أن تسترجع حبيبتك". اخترقتْ تلك الكلمات مسامع حمدون كرماح مسددة إلى قلبه، فوخزته وخزاً مؤلماً؛ فخرَّ قاعداً، لا تصدق أُذناه ما يسمع. وابتلعهم جوف الجبل بصمته الرهيب... ثم -بعد صمتٍ طويل- انفرجتا شفتا حمدون بعد طول إطباق فخاطب سيده معاتباً: "هل تظن بي الخيانة يا أبا الوليد؟! وتتهمني بعد هذه السنين من الصحبة بيننا؟!". "لقد نزغ الشيطان بيننا يا ابن العمة؛ ووسوس لي أنك قد تضعف.. وقد علمتُ حبك للفتاة". بنبرة أعلى وبغضب أشد اندفع حمدون يصيح فيه: "أما هي: فنعم.. أحبها، وأما أنا.. فو الله لا أخون عهدي أبداً، وأما الشيطان.. فقد وجب عليك أن ترغمه، وتقاوم نزغاته! إنك كسرتَ قلبي يا أبا الوليد!". بصوت أسيف، وعيون معتذرة أجابه: "اغفرها لي يا ابن العمة؛ فقد أربكني ما حدث لنا أمس.. وقد غيَّبتْ الذلفاءُ عقلي بطردها لي.. فلم أعد أرى الأمور على حقيقتها!". "لقد كنتَ بين يديها في قصرها ثم طردتك؛ فإنْ كانت تريد القبض عليك؛ فلما لم تفعل وأنت بين يديها؟ لماذا انتظرتْ حتى خرجتَ من عندها، ثم تبحث عني لتتفق معي أن أدل عساكرها عليك؟ ولما هي تريد القبض عليك؛ إنَّ خصومتكَ مع شنجول.. ليس معها!". همس طرسوس مؤيداً لرأي حمدون: "صدقتَ يا صديقي! لقد كنا مخطئين يا سيدي! لكن زالت الغُمَّة". صرخ فيه حمدون حنقاً: "لقد فجعتما قلبي، كيف تتهماني؟! ألهذا الحد واهيةٌ الثقةُ بيننا؟!". ثم التفتَ إلى ابن هشام سائلاً له سؤال تقرير: "ألم أُعطِكَ عهدي، وأُبايعكَ على الموت إلى أن تنال مرادكَ أو نهلك معاً دونه؟ ألم أكن أول من انضم إليك في تدبيرك على العامرية كي تسترد منهم مُلك آبائك وأجدادك؟ أ

لم تختبر صدقي في عهدي مرات ومرات؟ وهل بدر مني آنفاً ما يجعلك تتمارى في إخلاصي لك؟! هل هكذا ضاع كل شيء؟؟!".

كان ابن هشام يسمعه صامتاً مطأطئ الرأس مُقراً له بفضله الذي يعدده؛ حتى إذا سكت حمدون، وسكت عنه غضبه –أو بعض منه-؛ رفع رأسه، وطالعه بنظرات واجمة وهمس –في أسى- بشفاه مرتعشة: "أجل! هكذا ضاع كل شيء يا حمدون! كل ما خططتَه معي، كل ما دبرناه سوياً، كل ما حلمنا به، وسعينا من أجله.. ضاع! كنتُ أعوّل في تدبيري على مآزرة الذلفاء لنا، وإمدادها لنا بالمال رغبةً في الانتقام لولدها! لكنها أعرضتْ عني، ولم تسمع مني.. فاسودتْ الدنيا في وجهي، وعجز عقلي عن التفكير، وبلغ مني اليأس مبلغه، وظننتُ السوء بمن حولي!". "كن قوياً يا أبا الوليد –كما عهدتُك- لا تستسلم لليأس؛ إنما كانت الذلفاء وأموالها مجرد جزء من خطتنا؛ وسنجد لها بديلاً –إن شاء الله. لكن احذر أن تُمكِّن الشيطانَ من عقلك؛ فيوقع بيننا العداوة والبغضاء!". صاح طرسوس بنبرة مرحة –يُلطف بها الأجواء، ويطيب بها الخواطر-: "قاتل الله الشيطان! إنّه مازال يدبر على بطني؛ فأكاد أهلك جوعاً!". استجاب ابن هشام لمزحة طرسوس بابتسامة خفيفة وقال: "هلم إلى الطعام إذاً! وطب خاطراً يا حمدون؛ فأنت لدينا مكين أمين". كاد حمدون يرفض الجلوس معهما على مائدة الطعام؛ غير أنهما مازالا به حتى طيبا خاطره، فجلس معهما، وسرعان ما تناسوا ما حدث، فشرع حمدون يقص عليهما ما يعلمه من نبأ سلوان.

-المشهد الخمســون-

"سلوان! لقد عثرتي على ضالتكِ! يا لها من امرأة جذابة؛ جذابة في سمتها، في كلامها، في ملابسها! وأشد ما جذبني إليها أيما انجذاب؛ هي أفكارها، أنفتها، اعتزازها بنفسها.. بكونها امرأة: كرمها الله بأن خلقها أنثى! لكم أودُ أن أكون مثلكِ يا عائشة

القرطبية!": كانت سلوان تتحدث إلى نفسها. فقد هجعتْ إلى مضجعها –في دار أم هشام-؛ لكن جفاها النوم، وفارق جفونها فراق العبد الآبق لسيده. فمكثت تتقلب في فراشها ليس تململاً ولا ضجراً؛ وإنما سعادة وسرورا بما لاقته اليوم في بستان أم هشام: أولاً جمال الطبيعة الخلاب الذي بعث فيها حب الحياة من جديد بعد أن كادتْ تبغضها، ثم ثانياً هؤلاء النسوة اللاتي أعدنَّ لها-بتوادهنَّ وتآلفهنَّ- الإحساس بدفء الأسرة، وحميمية الصحبة. والأهم -من أولاً وثانياً- عائشة القرطبية: التي أعادتْ لها الأمل في الحياة بعد أن كادتْ تفقده، والتي دلتها –دون أن توجه لها نُصحاً- على الطريق الذي ستمشي فيه مستقبلاً.. فلكم حار عقلها وانقبض قلبها –لا سيما بعد فقدان أمها- كلما تذكرتْ أنها غدتْ وحيدة بلا ظهير يحميها، أو رجل ذي مال يُنفق عليها –فإن ابن الرسان ليس ظهيراً ولا رجلاً-. بل الأنكى ما فعله ذاك الوغد؛ مما دفعها إلى الفرار منه. لكن بهروبها أصبحتْ طريدة شريدة.. بلا مأوى.. بلا ظهير.. بلا نفقة. أما الآن.. فقد أراد الله الكريم أن يهديها إلى الخير والرشاد؛ فهيأ لها اللقاء بهما: المروانية والقرطبية؛ فعرفتْ طريقها.. بل أيقنتْ به؛ ستطلب العلم على يد فاطمة المروانية مثل جويرية، وستثابر –إن شاء الله- إلى أن تصير كعائشة القرطبية. "بلى! سأطلب العلم حتى أصير أديبة مثلها وأتعلم رسم القرآن.. ولن تمانع جدة حمدون فهي امرأة طيبة كريمة، وسألزمها حتى أتعلم وأكون كاتبة للقرآن؛ فأرتزق من ذلك وأُنفق على نفسي وأعفها عن الناس.. أنا لبؤة لكنني لا أرتضي نفسي مناخا طول دهري لأحد". طفقتْ تسبح هذه الأحلام بخاطرها؛ فسبحت معها بحماس وأمل، وهي تردد في خاطرها بإعجاب أبيات عائشة السابقة.. ثم أطبقتْ جفونها وهي تحدث نفسها: "كلا! لن أرضى أن أكون مطية لأحد بقية دهري".

-المشهد الحادي والخمسون-

انبلج الصبح الذي كانت سلوان ترتقبه بنفاد صبر، نمى إلى سمعها صوت الحركة في صحن الدار؛ فأيقنتْ أن جدة حمدون استيقظتْ وخرجت من مخدعها لشئون بيتها. هبَّتْ تمرق من بابها لتلتقي بها فتعرض عليها ما عزمتْ أن تغير به طريق حياتها. بوجه مشرق.. ونفس مطمئنة تغمرها السعادة توجهتْ إليها لتحييها: "أسعد الله صباحك يا سيدتي!". لم ترد فاطمة التحية كأنها لم تسمعها! كانتا عيناها حمراوين، ووجهها شاحب، تعالج ما تعالجه من أعمالها المنزلية شاردة الذهن خاملة الحركة. أقلقها ما ترى وراعها شرود السيدة وهيئتها المغايرة لليومين السابقين؛ سألتها باهتمام ودود: "سيدتي أم هشام! ماذا بك؟!". أجابت باقتضاب صارم: "لا شيء!". "كيف؟! إني أراكِ شاحبة الوجه.. هل أنتِ مريضة؟ شفاك الله!". فأجابتها فاطمة بكثير من الصرامة وشيء من الضجر: "قلتُ لكِ: لا شيء! ألا تفهمين؟!". انتبهتْ سلوان –الآن فقط- لتبدل حال المرأة معها من مساء أمس؛ فطأطأتْ رأسها واجمة، همستْ وكلماتها ترتعش بين شفتيها: "عُذراً أيتها السيدة! إنما أردتْ الاطمئنان عليكِ!". لم تُجبها فاطمة، ولم تعِرها انتباهاً.. بل تشاغلتْ عنها بما تعبث به من أعمال البيت. انضوتْ سلوان إلى نفسها مرتاعة القلب متحيرة العقل: (ما هذه الحال؟! كيف تغيرتْ من ناحيتي هكذا فجأة؟ ماذا حدث؟ إني لم أفعل شيئاً يسوءها أو يضايقها! ما هذا الجفاء يا أم حمدون؟؟). فاطمة –هي الأخرى- كانت حائرة العقل: (إنَّ حمدون يعرف هذه الفتاة.. يعرفها من قبل أن تأتي إلى هنا! لكن.. لماذا ينكر سابق معرفته بها؟! لماذا يكذب عليَّ؟ لا جرم! قد كذب عليَّ.. إنه حفيدي، وأعرف كذبه –حين يكذب- في عينيه! لماذا أتتْ هذه الفتاة إلى بيتي؟ وماذا تريد من ولدي؟! هل هي حية رقطاء انسلتْ إلى بيتي لتخطف مني ولدي؟! وما علاقة الذلفاء بذلك؟). استرجعتْ ما كان من تصرفات الفتاة وسلوكها خلال المدة القصيرة التي قضتها معها؛ فلم تجد ما يسوءها: (لم أُنكر منها شبهة أو تصرفاً خارجاً! بل ظاهرها أنها دينة تقية.. ولا يعلم السرائر إلا الله. لكني رأيتها تقف معه –

عند النهر- يتهامسان في تواد ظاهر.. فاحت رائحته حتى شممتها وأنا نائية عنهما. ثم إنها فتاة مجهولة لا أدري من أي سماء سقطت عليَّ! لا أعلم لها أهلاً ولا نسبا! كيف يتركها أهلها هكذا تمكث في بيوت الناس دون محرم أو صاحبة؟؟! كيف تبلوني الذلفاء بتلك المصيبة؟). تُراجع نفسها بفكر مضطرب: (الذلفاء امرأة رشيدة، وناصحة لي.. لن تؤذيني بمثل هذه المصيبة! لابد أنها تثق بالفتاة، وتعلم نبأها.. فلماذا لم تخبرني عنها؟! لا مناص مِن أن أسأل الذلفاء!). (أستغفر الله.. إن بعض الظن إثم! لماذا أظن السوء بفتاة طيبة؛ لم أرَ منها غير الخير وحسن الخلق.. إلا فيما رأيتُ بينها وبينه! إذاً.. فلأسألها عما يُريبني.. وأقطع الريبة باليقين). استبشرتْ خيراً، وانفرجتْ أساريرها لمجرد أنها عزمت أن تواجه سلوان بما يُراودها من شكوك؛ فاستدارتْ، وواجهتها –بعد أن كانت ولتها ظهرها- ثم أقبلتْ إليها محاولة أن تتلطف معها فقالتْ: "عفواً يا بنية! فقد أرقتُ البارحة؛ فأصبحتُ وقد تعكر صفو مزاجي!". كانت سلوان قد انزوتْ -في جانب من صحن الدار- واجمة مطرقة، تراقبها بقلب حائر.. كاد الشعور بالقهر والعجز يتسلل إليه فيهلكه كمداً. غير أن إقبالها عليها – الحين- وتلطفها معها أعادا إلى قلبها شيئاً من الطمأنينة؛ فأقبلتْ -هي الأخرى- بوجهها تحاول أن تبسط أساريره وتعيد إليه إشراقه الذي كان؛ وأجابتها: "لا عليكِ يا سيدتي! إنما خشيتُ عليكِ". "لا بأس إن شاء الله! ألستي جوعى؟". "لا يا سيدتي!". "كيف؟! لابد أن نتناول الطعام! هلم معي إلى غرفة الطبخ لنُعد الإفطار!". تناستْ سلوان ما بدر من السيدة –منذ قليل- وتناست إحساسها بالانقباض، وقامت معها إلى غرفة الطبخ.

-المشهد الثاني والخمسون-

صامتاً كان الطعام، ومائدته تكاد تكون ساكنة إلا من حركة واهنة من يد إحديهما تمتد إلى لُقيمة صغيرة؛ فتُدلفها إلى فمها ببطء كأنما تتردد: هل تأكلها أم تلفظها، ثم

تضطر اضطراراً إلى قضمها.. فتظل تلوكها –طويلاً- بين أضراسها كأنها لا تقوى على بلعها! تحاشتْ كلتاهما أن تلتقي عينها بعين الأخرى! وكلما همَّتْ فاطمة أن تسألها عن حمدون؛ تتراجع خشية أن تكذب عليها؛ فتقطع خيط الثقة الرفيع بينهما. وكلما همَّتْ سلوان أن تصارحها برغبتها في ملازمتها لتتعلم منها؛ أحجمتْ مخافة أن ترفض؛ فيتبدد حلمها كسراب. بيد أن تشبثها بحلمها أصبح أشد من أي شعور، وأضحى أقوى من كل خوف؛ فعزمتْ، وانطلق لسانها بعد سكوت.. فتنحنحتْ ثم قالتْ دون أن تنظر في عينين مضيفتها: "تعلمين يا سيدتي! لقد كنتُ أقصد ما قُلتُه أمس للسيدة جويرية!". أجابتها فاطمة دون اكتراث: "ماذا قلتِ لها؟". "قلتُ إني هنا لطلب العلم!". "حقاً؟!". "أُصارحكِ يا سيدتي؛ لم أكن أُخطط لذلك.. لكن لقائي بكنَّ حفَّز داخلي رغبة شديدة في طلب العلم على يديكِ! فإنْ وافقتي؛ فهو شرف عظيم لي.. وأي شرف!". رفعتْ فاطمة وجهها، والتقتْ عيناهما أخيراً. وسألتها بصرامة المعلم: "هل أنتِ من اشبيلية حقاً؟". ترددتْ قليلاً قبل أن تجيب: "أبي من اشبيلية.. لكني ولدتُ في قرطبة!". اعتدلتْ فاطمة في جلستها، وحدجتها بنظرات متفرسة، وقذفتها بالسؤال الأصعب: "هل تعرفين حمدون؟" كان السؤال كحجر قذفتْه جدة حمدون على مسامعها؛ فتدحرج حتى استقر في قاع قلبها ثقيلاً محيراً! (الآن علمتُ سر تغيرها عليَّ! بما أُجيبها؟ هل أُنكر معرفتي السابقة بحمدون؟ هل أكذب عليها؟ لا.. الصدق منجى؛ لن أضعف بعد الآن!) جعلتْ تُحدث نفسها. لم يطل سكوتها، بل أجابتْ بوضوح صريح: "أجل!". انبهرتْ فاطمة لصراحتها الغير متوقعة؛ بيد أن هذه الصراحة تعتبر خطوة إيجابية على طريق استعادة الثقة. استرسلتْ فاطمة في طرح الأسئلة: "منذ متى؟!". أجابتها بثبات: "منذ شهر تقريباً!". لن تشفي هذه الأسئلة وتلك الإجابات المقتضبة صدرَ فاطمة؛ ثمة شيء يُنغصها ويحير عقلها؛ لابد من كشف الغموض بالسؤال الأهم: "سلوان! من أنتِ؟!". (هذا السؤال هو أول اختبار لحقيقة عزمي أن أتغير؛ لن أهرب بعد الآن، لن أضعف، لن

أُخفي حقيقتي.. سأُواجه الجميع، وأتحدى الظروف الصعبة، ولن أطلب العون من أحد.. إلا الله!). (سأُجيبك يا جدة حمدون؛ لكن لن أسكب دموع الضعف بين يديكِ -مثلما فعلتُ مع أم المظفر-: لن أرضى لنفسي الضعف والهوان بعد اليوم، ولن أقبل الشفقة من أحد!). رفعتْ بصرها، وجالتْ بعينيها في المكان هنيهة، ثم قالتْ بهدوء حكيم وقلب رابط: "إنَّ لي حكاية طويلة!". ترددتْ فاطمة قبل أن تهمس: "إنْ شئتِ..". (قاطعتها بحسم قائلة: "سأقُصها عليكِ يا سيدتي!") ثم شرعت تحكي بثبات: "كانتْ أمي جارية بشكنجية، كانتْ فتاة في مقتبل عمرها حين اشتراها تاجر من تجار اشبيلية الميسورين، فعاشتْ في كنف سيدها -مثل غيرها من العبيد والخدم- عيشةً لن يطمح العبد الرقيق لحياة أفضل منها. ثم شرح الله صدرها للإسلام؛ فأسلمتْ بعد أن كانت نصرانية. شجعها ذاك السيد الطيب الكريم على دراسة تعاليم دينها الجديد؛ فتفرغتْ من الخدمة -في داره- إلى طلب العلم.. تعلمتْ اللغة العربية وحفظتْ القرآن الكريم، وبعض علوم الحديث والفقه، وحظيتْ بثناء علمائها ومعلميها؛ فقربها سيدها منه كابنة له -فإنه لم يكن له ولد ولا زوجة- فصارتْ في داره كسيدة حرة.. كابنته على الحقيقة؛ وانشغلتْ أكثر وأكثر في طلب العلم. وكان ذلك يَسُر سيدها أشد السرور. إلى أن مرض السيد واشتد مرضه؛ فآثرتْ أمي الاهتمام به على الانشغال بالكُتب وحلقات العلم؛ فحظيتْ عنده أكثر لحُسن وفائها. ذات يوم اجتمع عنده أخوه وابن أخيه -وهما الوارثان الوحيدان له- ثم نادى أمي لتحضر مجلسهم، ثم شرع يوصيهم بوصيته، كان يتكلم بصوت ضعيف يأكله المرض، وأمارات الاحتضار بادية على وجهه، ثم أفصح لهم عما يريده لأمي فقال: اعلموا أني ميت في ليلتي هذه.. وإني أُشهدكَ يا أخي -أنت وولدك- على أني قد أعتقتُ جاريتي هذه، وأني أهبها ثلث مالي؛ فلا تتلكأ في تنفيذ وصيتي من الغد.. وأعلم بها القاضي، واستوصي بها خيراً؛ فهي عندي بمثابة ابنتي. لم تصدق أمي أن الحياة تبتسم لها بهذه السهولة! مات السيد الكريم في ليلته تلك، وحزنتْ عليه أمي

أشـد الحـزن.. بـل حبسـها حزنهـا عـن النـاس أيامـاً. ثـم إذا بهـا –بعـد أن تقـوَّتْ على أحزانها- تجد أخا سيدها يجحد الوصية، ويتنكر لها، ويهددها: لن تنالي من الوصية إلا حريتكِ؛ أما المال.. فلا! رفضتْ أمي تهديده، واشـتكته إلى القاضي، فـأنكر –هـو وولـده- الـوصية، وأنكـر أنَّهـا حـرة.. وامعاناً في التنكيـل بهـا باعهـا في سـوق الجـواري ليتخلص منها. فاشتراها أبي وكان حريصاً على شرائها. وفي أول يوم لها في بيته قـال لها: (أنتِ حرة لوجه الله.. فاذهبِ أنى شئتِ)، وأعطاها صك العتق قـائلاً: (هذا جـزء من حقكِ في الوصية.. وعسى أن يرد الله إليكِ بقيتها). غير أن أمي بقيتْ مندهشـة.. وبكتْ بكاءً شـديداً. سـألته: (كيـف علمتَ بخبري أيها السـيد؟!). فأجابها بأنه صـديق لابن أخ سيدها السابق، وقد علم منه مصادفتاً بعزمهما على إنكار الوصية، وكتم الشهادة.. طمعاً في نصيبها. فسألته: (لما تقف إلى جواري، وتنصفني ضد صاحبك؟!). فأجاب: (ولا تكتموا الشهادة، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه!). طلبتْ منه أن يشهد معها أمام القاضي بما سمعه من صديقه؛ فشهد معها.. غير أنَّ هذا الجاحد كذَّب أبي؛ وأقسم –أمام القاضي- يميناً غموس أنه لم يقل! فرفض القاضي طلب أمي نصيبها في الوصية. فما كان من أبي إلا أن عرض عليها الزواج شهامةً منه وشفقة؛ فقبلتْ رغبةً في الأمن والحماية. لكن هذا الجاحد الآثم لم يتركهما يعيشا في سلام؛ بل شهَّر بهمـا، وطعنهمـا في شـرفهما، واتهمهمـا بالباطـل! فتـدخل عـم أبـي –كبير العشـيرة وصـاحب الأمـر فيهـا- وأمـره بفراقهـا؛ فـأبى وتمسـك بزوجتـه؛ فنهـره عمـه وأغلـظ لـه القـول، وأقسـم أنهمـا لا يجاورانـه في اشـبيلية مـا دام حيّاً فيهـا، فبـاع والـدي ضيعته وجمع ماله، وهاجر من اشبيلية إلى قرطبة؛ فلم يكن أحد من أهل اشبيلية يجرؤ مخالفة أمر القاضي أبي الوليد إسماعيل بن عباد فضلاً عن بني عبـاد –ووالـدي منهم!". "هـل أبـو الوليـد بـن عبـاد –قـاضـي اشـبيلية- عمـك؟!" (تسـاءلت فـاطمـة باندهاش). "لا غـرو! هـو عـم أبـي". "لقـد كـان أبـوكِ يحـب أُمـكِ بشـدة؟!". "لـم أعلـم متحـابين مثلهمـا!". "أكملي –يـا بنيـة- ثـم مـاذا حـدث؟". فاسـتأنفت قائلـة: "حـاول

والدي أن يعمل بالتجارة؛ غير أن تجارته تعثرت، وفشل في إنماء ماله، وضاقتْ بنا الحال رويداً رويداً، وأثقل الدينُ أبي.. فأصابه المرض غماً وكمداً، واشتد عليه حتى ألزمه الفراش. وظهر في حياتنا ذلك الأفاك –ابن الرسان- على أنه زميل لأبي في تجارته ويساعده في قضاء دينه. مات والدي؛ وألفتْ أمي نفسها –ومعها ابنتها- وحيدة غريبة.. لا أهل لها ولا نصير، تعاني الفاقة، مُطالَبة بسداد الديون؛ فاحتارت في أمرها، وعجزت عن العزائم. كان ابن الرسان مازال يتقرب إليها مثل حية خبيثة؛ فعرض عليها قضاء الدين، وصونها وابنتها بشرط الزواج منها؛ فاستسلمتْ أمي لهذا العرض الذي سينقذها وابنتها من التشرد والضياع. لكن سرعان ما اكتشفتْ كذبه وغشه، وعرفتْ أنه محتال، نصب فخاخه لأبي حتى ورَّطه في تلك الديون، واستولى على ماله بغير حق. أنذرتْه إنْ لم يرد المال، وإنْ لم يطلقها؛ فسوف تفضحه أمام الناس ليعلم الجميع خيانته وغشه. تظاهر بالإذعان لرغبتها، واستمهلها بعض الوقت.. لكن أصابها مرض شديد.. سرعان ما ماتت به. أمسيتُ بعد وفاة أمي فريسة.. ظنها الغادر سهلة؛ فأراد أن يتاجر بي وبشرفي كسلعة تباع وتشترى. زجرتُه وقاومتُ مكائده ليَّ، إلى أن حبسني في وكر خبيث من أوكاره. ذات ليلة جاء إلى ذاك الوكر ومعه رجل خبيث مثله، وكانا ينتظران ثالثهما الذي أتى إليهما متخفياً ثم قتل الأول بيده، ودفنه ابن الرسان حيث قتلاه!". "يا ويلي! وشاهدتِ ذلك بعينكِ؟!". "أجل! كنتُ مختبئة حيث لم يعلموا بي، ولم يروني. وقد علمتُ من حديثهم أنَّ القتيل هو غادر دس السُم للملك المظفر؛ فقتله.. بأمر من القاتل: الذي هو شنجول بن المنصور أبي عامر!". "ماذا؟! أتسمع أُذنكِ ما تقولي يا بُنية؟!" (قالت فاطمة وهي تضرب صدرها بيدها، وقد جحظتْ عيناها انشداهاً وعجباً). "هذا ما رأيتُه بعيني، وسمعتُه بأُذني!". "لا حول ولا قوة إلا بالله! أكملي يا عزيزتي.. أكملي!". "ثم استطعتُ الهرب بمحض فضل من الله؛ وألفيتُ نفسي شريدة طريدة لا مأوى لي، وسرعان ما أمسيتُ أسيرة عند أمير فظ وعصابته، يريد أن يستغلني في

خصومته مع شنجول هذا. لكن.. رغم ذلك شعرتُ بشيء من الأمان؛ لأنَّ من كان موَّكل بحراستي منهم شاب دِيِّن شهم، عفيف النفس، كريم الخلق.. أحسبه كذلك. ذاك الشاب هو: حمدون!".

-المشهد الثالث والخمسون-

حمدون –للمرة الثانية- يقص حديث سلوان مع أم المظفر، وقد اجتمع معه عند محمد بن هشام ابنا عمه المغيرة عبد الجبار ومحمد؛ فأخذوا جميعهم يضربون كفاً بكف عجباً لهذه المرأة التي رقَّتْ لحال فتاة لا تعرفها، وانشغلتْ بها عن الأمير المرواني. صاح عبد الجبار متهكماً: "أهذه من كنتَ تأمل أن تسعى لثأر ولدها يا أبا الوليد؟!". "لقد أفشلتْ مسعاي قبل أن أبدأه يا عبد الجبار!". "لم يفشل يا ابن العم! لا نحتاج للذلفاء، ولا لأموال الذلفاء! إنَّ ما نرغب فيه هو الثأر من شنجول لأبائنا؛ وأنتَ في عصبة من الرجال الأكفاء، وأستطيع أن آتيك بمثلهم، ومالي ومال محمد أخي ملك يمينك؛ فلنعزم أمرنا، ونتحين الفرص.. فننقض على شنجول في غفلة من رجاله فنقتله، ونأخذ ثأرنا!". صرخ ابن هشام مغضباً: "اصمت! قطع الله لسانك!". "على رسِلك يا أبا الوليد! ماذا دهاك؟! إنما أردتُ أن أقول أنه مازال بإمكاننا الأخذ بثأرنا!". "وهل ثأرنا يا فارس بني مروان في قتل شنجول.. فقط؟! أتسوي بين أبائنا –أبناء الخليفة الناصر- وهذا الفتى الرعديد؟! والله! إنه في عيني لا يزيد عن فتى من عبيد أبي!". صمت هنيهة ثم أردف قائلاً: "ليس القصاص لأبي كالقصاص لأي رجل من أغمار الناس، بل سيكون انتقاماً عظيماً! كعظم المقتول! لابد أن أنتزع منهم الملك الذي بأيديهم الذي انتزعوه هم آنفاً من أبي وعشيرتي! أريد مُلك جدي الناصر، أريد أن يعود الخليفة المرواني سيد قراره، وولي عهده أمير من بني مروان، ويعود الحاجب عاملاً من عمال الخليفة؛ يأتمر بأمره! أريد لبني عامر أن يعودوا كما كانوا: رعاع من أغمار الناس، وأريد للعرب أن يقتصوا من البربر،

ويطردوهم عن هذه الجزيرة أذلاء فقراء كما جاءوها من قبل.. أريد أن أتشفى في كل عامري، وكل بربري ظلم قرطبة وأهلها.. أريد ثورة يسعى فيها الناس جميعهم!". "هذا أمر خطير! يتطلب جهداً عظيماً يُبذل، ومالاً كثيراً يُنفق!". "على قدر الأمل يكون العمل، وعلى قدر الطموح يكون بذل الجهد! هل أنتم معي؟؟". أجاب الجميع بحماس وتحدي: "نعم.. نعم!". فتمتم بارتياح: "إذاً على بركة الله؛ نسير فيما خططنا له". قاطعه محمد بن المغيرة: "لكن.. مازالتْ مشكلة المال تعوقنا؟!". "هذا سيأخرنا كثيراً! نحتاج المال لنتألف الناس، ونُجهز السلاح، ونجمع الأنصار.. يلزمنا مال كثير!". "لا مناص من اشراك كبيرنا هشام بن سليمان، وولده سليمان؛ فهو أمير ذو مال كثير، لو أمدنا بماله؛ لاستغنينا به عن غيره.. ثم إنه مقدم عند بني مروان جميعهم" (قال محمد بن المغيرة). وأيده في الرأي أخوه عبد الجبار؛ فوافق محمد بن هشام -مضطراً- على الاستعانة بهشام بن سليمان، وقال: "لا جرم أنه أكثر المروانيين مالاً! حدثاه إذاً في أمرنا، فإنْ كان يرى رأينا؛ فليجتمع معنا، ولنبدأ العمل سوياً من الآن.. إنْ كان يملك الشجاعة لذلك!".

-المشهد الرابع والخمسون-

سألتها باهتمام وشفقة: "هل عرف عمك القاضي بخبركِ.. أو أحدٌ من عشيرتكِ؟". أجابت بنبرة حزينة: "لم يعلم أحدهم حتى بميلادي! فقد كان أبي رجلاً مكابراً ذا أنفة؛ رفض العودة إلى اشبيلية أو الاتصال بأحد من عشيرته إلى أن مات، وكذلك فعلتْ أمي من بعده. غير أنها لما مرضتْ، وشعرتْ بدنو أجلها؛ حكتْ لي ما قصصتُه عليكِ، وأوصتني –إذا وافاها الأجل- أن أفر من ابن الرسان إلى عشيرة والدي في اشبيلية، وأعطتني صندوقاً صغيراً، أوصتني بالتمسك به والحفاظ عليه؛ لأنه يحوي ما يثبت صدق ادعائي بأنني: سلوان بنت عمر بن عباد! وعم أبي هو: القاضي أبو الوليد –قاضي اشبيلية-!". "لكن حبسكِ ابن الرسان –هذا- ومنعكِ من الرجوع

إلى أهلكِ!". "أجل! وحينما فررتُ منه وقعتُ في يد ذلك الأمير الفظ –محمد بن هشام- فخشيتُ أن أخبره بأمر عمي؛ ثم شرح الله لي صدر السيدة أم المظفر عندما قابلتُها، ووعدتني أنها ستُساعدني في اللحوق بأهلي". "خيراً تفعل إن شاء الله". "لكني -الحين- لا أرغب في الذهاب إليهم!". "لماذا يا بنية؟! إنهم أهلكِ.. وهم أولى الناس بكِ". "أخشى أن ينكر عمي وعشيرتي نسبي.. ويتنكرون لي حنقاً على ما كان من أبي رحمه الله!". "لا أظن ذلك! إنَّ ما نسمعه عن سيرة أبي الوليد: أنه رجل صالح ذو مرؤة ودين، ومهما كان خلافه مع والدكِ –رحمه الله- فلن يقطع رحمه، ولن يترك عرضه عورة تأكلها الذئاب!". "هذا كان رأي أمي –رحمها الله-، وهذا ما كنتُ أحدثُ به نفسي قبل الأمس؛ لكن بعد أن عرفتُكِ وعائشةَ القرطبية؛ تغير فكري، وضننتُ بنفسي على الذلة، وعزمتُ على ألا أذهب إليهم إلا غير محتاجة إلى شفقتهم عليَّ.. بل براً لأبي، وصلة لرحمه". "وكيف ذاك؟!". "إذا أذنتِ لي –يا أم هشام- أرغب في تعلم كتابة القرآن على يديك؛ لأكتبه مثلكما". "قولي رسم المصحف، ولا تقولي كتابته!". "عفواً.. أريد أن أتعلم رسم المصحف!". "أ واثقة أنتِ من رغبتكِ في ذلك؟ إنَّ تعلمه شاق، وطريقه طويل!". "ستجدينني -إن شاء الله- صابرة". "ولماذا تريدين ذلك؟". "لكي أكتسب به رزقي؛ وأستغني به عن الناس". "لا تتعلميه لأجل ذلك يا بنية، إنما تعلميه لأنه كتاب الله –الرزاق- الذي يرزقكِ؛ فهو –سبحانه وتعالى- من سيغنيكِ عن خلقه أجمعين!". "صدقتِ –والله يا سيدتي! لهذا أرغب في تعلمه منكِ أنتِ، فهل تقبلينني تلميذة عندكِ؟". "قد فعلتُ! وها.. قد تعلمتِ –التو- درسكِ الأول: الإخلاص لله!".

-المشهد الخامس والخمسون-

قاعة الدرس: هي القاعة الخارجية الملحقة بدار فاطمة المروانية؛ وهي عبارة عن غرفة واسعة لها بابان: أحدهما مطل على الشارع الخارجي وهو كبير نسبياً، والآخر

أصغر حجماً ومن خلاله تتصل القاعة ببقية الدار. علاوة على غرفة صغيرة داخل القاعة بمثابة خلوة للمعلم. أما أثاثها فهو بسيط متواضع غير أنه ينم عن الذوق الراقي لمن اختاره. قد غطى أرضيتها بساط سميك، وبُثتْ على جوانبها الزرابي والمتكآت، في أحد الأركان رُصَّتْ ألواح الدرس، وفي ركنين آخرين توجد رفوف خشبية ضخمة صُفت عليها-بعناية- كُتب كثيرة في مختلف العلوم. باهتمام وشغف كانت سلوان تجول ببصرها في قاعة الدرس، وتطلعت بانبهار للكُتب المكدسة على أرففها. بادرتها فاطمة قائلة: "هذه هي قاعة الدرس! كان الشيخ المصري –زوجي رحمه الله- يُعلم فيها الفقه والحديث والتفسير واللغة؛ وقد كنتُ من تلاميذه. ولما توفاه الله.. ظلتْ مغلقة فترة، إلى أن هداني الله لأن أُكمل رسالته في تعليم الخير.. غير أني كنتُ أُعلم الصبية الصغار القرآن ومبادئ علوم الشريعة واللغة؛ أما الكبار فاكتفيتُ بتعليمهم علوم القرآن ورسم المصحف". مازالت سلوان تطالع المكان بعيون منبهرة وعقل وامض وقلب طموح. حاولتْ أن تعبر عن مشاعرها، وما يجيش في صدرها. مشاعر وأحاسيس متدافعة: فهي تشعر بسعادة تغمر كيانها كله لوجودها في هذا المكان، وامتنان شديد للرب الكريم الذي ساقها إلى هنا دون سابق إعداد منها، وغبطة! لا غرو.. غبطة لجدة حمدون أن رزقها الله العلم ومجلس علم تعلم فيه الناس الخير. إنَّ هذا هو ما أرادتْ –في أعماق نفسها- أن تكونه؛ لكنها كانت غافلة! فالحمد لله أن ساقها لهذه السيدة لتفيق من غفلتها قبل فوات الأوان. أرادتْ أن تعبر لها عن شكرها وامتنانها أن قبلتها طالبة علم لديها، وأنها أتاحت لها الفرصة للجلوس في هذا المكان.. بيد أن الكلمات لم تسعفها. فاطمة كانت تراقب نظراتها المنبهرة، رنت إليها؛ وراحت تتأمل بريق عيونها الطموحة.. ثم هتفت تحمسها وتشجعها: "أرى في عينيك بريق الطموح والأمل! فشمري عن ساعديكِ يا بنية! وتسلحي بالجد والصبر والمثابرة.. تُحققي أملك.. إنْ شاء الله". ثم أردفتْ متممة: "ولا تنسي درسك الأول أبداً –على بساطته-: الإخلاص لله. واعلمي أن هذا العلم هو نور

من الله؛ والله لا يهدي نوره لعاصي؛ فتحصني بطاعة الله، وفري من الشيطان إلى معية الله. وستبلغينَّ مرادكِ إن شاء الله!". فتمتمتْ سلوان محفزةً لنفسها: "إنْ شاء الله. اللهم إنِّي أستعين بك؛ فأعني!". "اللهم آمين! هيا.. إلى درسنا الثاني".

-المشهد السادس والخمسون-

في غضون الأيام القليلة اللاحقة –وبعد جهد- استطاع عبد الجبار بن المغيرة وأخوه محمد أن يُقنعا الشيخ المرواني (هشام بن سليمان) أن يلتقي بمحمد بن هشام؛ ورتبا لذلك لقاءً سرياً في دار عبد الجبار؛ عساهم أن يتفقوا على أمر يجمع المروانيين ويُعيد لهم مُلكهم المسلوب. متستراً بظلام الليل نزل الأمير محمد بن هشام من مخبئه بجبل العروس -يصطحب معه رَجُليه حمدون وطرسوس- لينطلقوا إلى اللقاء المرتقب بدار عبد الجبار بقرطبة. كدأبه مذ مات أبوه؛ راح يتحسس طريقه حذراً متخفياً محاطاً بالرجلين؛ قناعةً منه: أنه مهدد من قِبل العامريين مثل أبيه سابقاً. بل إنه يؤمن أنها مسألة وقت! ولابد من الاصطدام بهم؛ فإنه إنْ تركهم لن يتركوه.. هذا هو يقينه! لذا فهو -مذ دبروا على أبيه وقتلوه- يحترز لنفسه، ويتخفى عنهم، ويسعى في التدبير عليهم والثأر لأبيه. فلا نجاة له إذاً إلا بالقضاء على شنجول والعامريين، وكسر شوكتهم. على مقربة من دار عبد الجبار ترك فرسه وحارسيه؛ ثم تسلل إلى الدار يُكثر الالتفات يميناً ويساراً مخافة العيون المتلصصة! فُتح له الباب؛ فولج يرحب به صاحب الدار. في مجلس -حرص صاحبه أن يُنمّقه بمظاهر الفخامة والعز المرواني البائد- اجتمع الأمراء المروانيون الأربعة. بعيون جامدة تخلو من مشاعر الحنين لذوي القربى نظر محمد لابن عم أبيه (هشام بن سليمان)؛ وبادله الأخير فتوراً بفتور؛ فاكتست جدران المجلس بجليد الجفوة والجفاء، بينما لم يستطع صاحب الدار ولا أخوه دفع تلك البرودة التي أرجفتْ المكان رغم ما بذلاه

من عبارات الترحيب الجوفاء، وبالرغم مما هُيأ من طعام وشراب للأضياف. تململاً من تلك الأجواء الباردة، شرع هشام بن سليمان ينفث في جمرات الماضي الخامدة كي تستعر؛ لعلها تستعيد دفء كبريائه المجروح! فانفرجت شفتاه بعد طول إطباق مخاطباً محمد بن هشام بنصيحة حانقة: "قديماً قالوا: اليأس أحد الراحتين! فلتُؤثر الراحة يا ابن أخي! وتَخَلى عمَّا أنت عازم عليه! لا تُهلك نفسك وتُهلكنا؛ كما فعل أبوك من قبلُ!". أجابه ابن هشام هازئاً: "هل جئتَ مثبطاً؟!". "بل ناصحاً! لأجل الرحم التي بيننا؛ ارجع عن طريق أبيك! فإنها مهلكة. فالكيس من اعتبر بما فات. إني رأيتُ دولة بني عامر في إقبال، ولن يصمد لها شيء إلا عود ينثني ولا ينكسر! وإنَّ من حزم الرجل أن يعلم: متى يُقدم، ومتى يُحجم. فلا تترك مصائب الأمس –يا ولدي- تصرفك عن يومك وغدك!". انتفختْ أوداج ابن هشام غضباً –فقد أثارتْ كلمات الرجل المُسن نار حقده وانتقامه- فغدا يصيح في ابن عم أبيه موبخاً: "هل هذه هي نصيحتك يا شيخ المروانية؟! يا كبير أحفاد الخليفة الناصر! تنصح بالخذلان، والرضا بالدنية؟! جئتْ ناصحاً بالتخلي عن مُلك جدك العظيم؟! لبئس ما جئتَ به! والله.. إنَّ هذا لكلام تمجه الأسماع". "اسمع يا فتى! إني أعلم أنك مكابر؛ وإنْ لم تقاوم نزغات شيطانك؛ فلسوف تندم حينما تنقشع عن رأسك تلك الأوهام! لكن ساعتئذ لن يجدي الندم!". "أية أوهام أيها الشيخ الخرف؟! أشهد أنك منافق طماع؛ وما تريد إلا النجاة بأموالك التي كنزتها ونميتها ببذل كرامتك للمنصور وولده المظفر من بعده! فلبئس المرواني.. أنت!". ألهبتْ صرخاتُ الفتى المهينة الشيخَ الكبير؛ فانتفض قائماً ليثب عليه يُؤدبه، وقذفه بكأس الشراب التي بيده؛ فهمَّ به الفتى المرواني ليرد الإهانة.. لكن حال الأخوان بينهما! وأشعلت البغضاء والشحناء نيرانها بالمكان؛ فاستحال المجلس بجدرانه الجليدية –قبل لحظات- إلى فوهة بركان تقذفهم بحممها الغاضبة. صرخ محمد بن المغيرة مستحلفاً بالله وبالدم وبالرحم أن يجلس الجميع ويدرأوا نزغ الشيطان ثم تمتم يقول مستهجناً تلك الحال التي آلوا

إليها: "والله! ما أُوتينا إلا من قِبل الشحناء بيننا، والفُرقة!". جلس الجميع، وطفق كل منهم يُلملم شعث نفسه ليستعيد هدوءه ووقاره. مرتْ عليهم لحظات خرساء قبل أن يهمس عبد الجبار بحدب حكيم يرجو خير عشيرته: "كلامك –يا عم- عاقل! لم أرَ فيه بأساً!". قاطعه محمد بن هشام مزمجراً: "ها..". غير أن عبد الجبار لم يمهله وهتف فيه بصرامة: "دعني أكمل حديثي!". ثم توجه بالحديث إلى الشيخ المرواني مستطرداً: "أقول –يا أبا سليمان- أني كنتُ أوافقك الرأي، وأرى ما ترى؛ لكن في عهد المنصور وابنه المظفر! أما بعد ظهور شنجول؛ فالأمر اختلف. ألا ترى -يا عم- أن ما أقدم عليه شنجول –منذ أيام- بأن انتزع ولاية العهد من الخليفة المؤيد؛ إنما هو بمثابة إعلان الحرب على المروانية.. بل على قريش.. بل على العرب القيسية جميعاً؟! وإنما هي خطوة كبرى في طريق استلاب مُلك الأندلس الذي هو لبني مروان منذ عهد جدنا الأكبر عبد الرحمن الداخل –رحمه الله-. ألا توافقني الرأي يا عمُ؟!". همس الشيخ المرواني في خضوع: "بلى.. أوافقك!". ثم استطرد قائلاً: "لكن.. ماذا تريدون أن نفعل؟ لقد حاول هشام بن عبد الجبار (يقصد والد محمد) من قبلُ الانقلاب على المظفر؛ فلم يفلح، وضيَّع نفسه وماله!". أجابه محمد بن هشام صائحاً في حنق: "بل أنت وأمثالك من ضيَّعتم أبي بتخاذلكم عنه!". "بل كان أبوك متهوراً جسوراً.. لا يدري في أي وادٍ هلك!". وعادتْ جمرة الشحناء تشتعل بينهما مرة أخرى، وهمَّ كل منهما بالآخر؛ لولا أن صرخ عبد الجبار فيهما منفعلاً: "لم نأت إلى هنا لننكأ الجراح القديمة! جئنا لنتفق، لا لنتشاحن!". وهتف محمد أخو عبد الجبار موجهاً حديثه إلى الشيخ: "أتعلم يا عمُ من صار الحاجب الجديد؟". "لا.. لا أعلم!" (قالها بتأفف). أجابه محمد بن هشام ساخراً في تهكم: "الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن!". "اصمت أنت! خلاك ذم!" (صرخ فيه عبد الجبار). "من الأمير؟!" (تساءل الشيخ وهو يدور بعينيه بين عبد الجبار وأخيه). أجابه عبد الجبار بنبرة حسرة وأسف: "إنه ابن شنجول! صبي صغير.. لم يتجاوز الثالثة من عمره!". انطلق ابن هشام

صارخاً: "أصبح شنجول وليّ للعهد.. وصار حاجب الخليفة طفل صغير يبول على نفسه! وتأتي أنت مدعياً العقل والحكمة وتقول: اعمل لغدك! أي غد هذا يا حكيم بني مروان؟!". "كُف عن الصياح يا ابن هشام! والزم حدك! فأنا كبير المروانية!". قطع تناحرهما عبد الجبارُ: "إنْ عجز الحب عن جمعنا –يا سادة-؛ فليجمعنا حرصنا على مُلك أبائنا!". ثم استطرد صائحاً في أخيه: "خذ أبا الوليد -يا محمد- إلى غرفة أخرى حتى أتكلم مع كبيرنا!". خضع محمد بن هشام لرغبة الأخوين؛ وغادر المجلس تاركاً عبد الجبار يروّض صلف شيخ المروانية، ويعالج جبنه وتخاذله.

-المشهد السابع والخمسون-

على خلاف طبعهما: طرسوس ينتظر سيده في ترقب وحذر، يقاوم الليل القارس باحتكاك دؤوب لكلتا يديه، ومرجحة مستمرة لكلتا رجليه، متدثراً بردائه.. وقد تراجع عن فكرة إشعال نار للتدفئة لأن حمدون خشي أن تجتذب انتباه العسس. أما حمدون.. فقد شرد ذهنه، وهو يتنشق نسمات الليل الباردة، ويستمتع بنداوته وسكونه، وعيناه معلقتان بالسماء وسحابها الكثيف، غير عابئ برفيقه الذي ما فتئ يتأفف من البرودة الشديدة والانتظار الطويل. وحين انتبه لحقيقة أن الأجواء شديدة البرودة والصقيع يلف المكان؛ لم يرق لرفيقه طرسوس؛ بل رق لرفيقه ديجور.. حصانه الأثير لديه الذي ما فتئ يحبه مذ وهبته جدته إياه، وازداد شغفه به مذ حضر مناجاته وسلوان على حافة النهر. رقَّ لديجور وشعر أن برودة الطقس تؤذيه؛ فراح يمسح معرفته وعنقه بكلتا يديه في حنان علّه يُشعره بالدفء؛ ثم شرع يناجيه كأنما يتذكر معه الأيام الخوالي، ولقاءه الأول بسلوان، وأيامها معه في الجبل. نفد صبر طرسوس؛ فقد طال عليه الانتظار، بينما ساعات هذه الليلة المكفهرة ترحل ببطء مقيت، ورياحها القارسة تنخر عظامه -بما يكفي- حتى أكلتها.. وما زال أميرهما لم يأتِ. فهتف متسائلاً في تبرم: "إلى متى الانتظار؟!". "إلى أن يعود أبو

الوليـد". "أحسـب أني سـأهلك مـن هـذا البرد القـارص قبـل أن يعـود؟!". لـم يعلـق حمـدون؛ واسـتمر في ملاطفـة حصانه ومداعبتـه؛ فزعـق بـه طرسـوس مسـتاءً: "ألا تترك هذه الدابة وتلتفتَ إليَّ؟!". "اخفض صوتك يا أبله! قد ينتبه أحدهم لنهيقك.. فتفضحنا!". لم يستمر جدالهما بعدئذ طويلاً؛ فقد أقبل أميرهما.. ثم امتطى صهوة جواده وهو يقول: "هيا.. إلى الجبل يا رجال!". فوثبا في خفة على دابتيهما. وسرعان ما انطلقوا جميعاً عائدين إلى مخبأهم.

-المشهد الثامن والخمسون-

حـول مجمـرة فخاريـة مليئـة بـالجمر المشـتعل، داخـل مغارتـه بجبـل العـروس جلـس الأمير ابن هشـام يقـص على رجليه ما حدث في دار عبد الجبار بن المغيرة، وما كان بينه وبين الأمير هشـام بن سـليمان من مشـاجرة ومشـاحنة. فتمتم حمدون مقاطعاً: "إذاً لم تتفقا على شيء! وعُدنا كما ذهبنا؟!". "بل اتفقنا!" (قالها ابن هشـام وهـو يهز رأسه أسفاً). "علاما اتفقتما؟!". "بعد هذه الليلة الطويلة التي انطوى أغلبها في سب وقـذف اسـتطاع عبـد الجبـار أن ينتزع وعـداً مـن ذلـك الشـيخ البخيـل بـأن يسـاعدنا بماله! لكن بشروط!". "ما هي تلك الشروط؟" (سـأل حمدون بتلهـف). "يشترط إذا تـم لنـا الأمـر، وفـتح الله علينـا، وأجبرنـا الخليفـة المؤيـد على عـزل شـنجول مـن ولايـة العهـد –وطبعـاً من الحجابـة- أن يكون ابنـه سـليمان ولي العهـد!". "هل نقتحم قعـر جهنم؛ لتكون ولاية العهد له وهو قاعد آمن في بيته؟" (صاح طرسوس مستاءً). "هل وافقتَ على هـذا الشـرط يا أبا الوليـد؟!" (سـأل حمـدون مستنكراً). "ما رأيك أنت يا حمـدون؟". "أرى أنـك لـم تسـع في هـذا الأمـر، ولـم تغـامر بنفسـك لأجـل المنصـب؛ بـل لأجل المروانيين والأندلس كلها! لكن.. أن نضحي بأنفسنا ليكون سليمان بن هشـام ولي العهد؟! فيه نظر!". "إنني أسعى يا أخواني –كما قلتَ يا حمدون- لا لمنصب ولي العهـد.. بل لاستعادة مُلك آبائي المسلوب –ملك بني مروان- ولا يشغلني من سيكون

ولي عهد الخليفة". "إذاً.. فقد وافقتَ!" (قالها حمدون بإحباط متبرم). "رفضتُ في البداية؛ فلما رأى أني أرفض ولاية العهد لابنه؛ أخذ يساومني لكي أوافق فقال: يكون ابني سليمان ولياً للعهد، وتكون أنت الحاجب، ولا يقطع أحدكما أمراً دون الآخر! فرفضتُ أيضاً؛ غير أن عبد الجبار وأخاه ألحا عليَّ في الموافقة جمعاً لشمل المروانية، وإتماماً لما تعاهدنا عليه بالاستعانة بماله". "وهل وافقتَ على ذلك؟". "بل عبد الجبار ومحمد أخوه.. هما من وافقا. ثم تعاهدنا عليه، وأشهدنا الله علينا؛ ووعد هو بإحضار أول مبلغ من المال بعد غد إلى عبد الجبار للبدء في تنفيذ خطتنا". جفل حمدون وتجهم وجهه؛ فبادره الأمير: "أراك غير راض يا حمدون؟!". "أصارحك الرأي يا أبا الوليد؟". "هات ما عندك!". "أرى أن هذا هو أول الوهن! كيف نعمد إلى مُلك الآباء المسلوب فنقسمه كالغنيمة قبل أن يتأكد استرداده؟!". "ألم أقل إنك مخموم القلب؟! الأقوى –يا حمدون- هو من يملي شروطه. وأبو سليمان هو الأقوى –الآن- بماله وحظوته عند المروانية. أما بعد أن تنجح ثورتنا ويتم لنا المراد –بما أخذناه من ماله- فسأكون أنا الأقوى. وساعتئذ يملي الأقوى شروطه!". صمت حائر أصاب حمدون.. ثمة تساؤل مريب بدأ يعبث بخاطره: هل يضمر أبو الوليد الغدر؟ هل ينوي أن ينكث فيما عاهد عليه أبناء عمومته؟! لم يتمكن –رغم تفرسه في وجهه- من معرفة الإجابة على تساؤله.

-المشهد التاسع والخمسون-

لم يخيب بُشرى رجاء سيدته فيه؛ فها هو ذا يأتيها بمعلومات كثيفة عن ابن الرسان: رجل مُبهم، مجهول الأصل، قذفتْ به الأقدار في وجه قرطبة دون سابق ميعاد، لا يعرف أحد من أين جاء. يقولون أنه كان يهودياً ثم أسلم، لكن.. لا إيمان لمن لا أمانة له. أما عن عمله: فهو أيضاً مجهول للكثيرين؛ في الظاهر أنه تاجر، بيد أن سوء خلقه يدفعهم للظن بأنه يتاجر حراماً. يظنون أنه نخاس، ويتهمه بعضهم

بأنه مرابي، ويدعي آخرون أنه قواد وتاجر خمور، خلاصة القول عن عمله أنه تاجر فاسد؛ لكنه خبير.. يخبش المال خبشاً، ويبيع الأشياء بأغلى أثمانها؛ إلا شرفه.. فإنه يبيعه بثمن بخس. يضاف إلى عدم أمانته، وسوء خلقه صفة ذميمة أخرى: فهو بخيل شحيح؛ رغم ثرائه المعلوم؛ فلا أحد يرى أثر نعمة الله عليه. أما عن أهل بيته: فحتى عهد قريب لم يُعرف له زوجة ولا ولد، إلى أن تزوج منذ بضعة أشهر بامرأة كانت أرملة تاجر غريب؛ وأقام معها وابنتها في دار زوجها السابق. لكن سرعان ما ماتت المرأة في مرض أصابها، واختفت الفتاة. وبالسؤال عن ربيبته؛ أفاد أنه أعادها لأهل أبيها. يدَّعون أن له علاقة وثيقة برجل ذي شأن في الزاهرة هو من يذلل له العقبات، ويفتح له الأبواب المغلقة. لذا فإن أغلب الناس يكرمونه اتقاء شره. (بالتأكيد لا يعلمون أن هذا الرجل ذا الشأن هو شنجول نفسه!). زفر بُشرى زفرة أخيرة –بعد أن أتم تقريره- ثم غمغم مُعلقاً: "إنه لشيطان!". بيد أن السيدة لم تتفاجأ بما يقول، كأنما كانت تعلمه من قبلُ. بل انفرجتْ أساريرها وبدتْ أمارات الارتياح على وجهها مما أثار فضول بُشرى فاندفع يسأل: "هل تريد سيدتي معلومات أُخرى عنه؟". أجابتْ: " لا! يكفي هذا.. إنه حقاً شيطان كما قلتَ!". همستْ –في نفسها-: "لقد صدقتْ الفتاة، وتجلى الأمر". ثم صرختْ لا إرادياً: "لأقتصنَّ لك يا ولدي!". نظرتْ إلى خادمها الذي مازال يرتقب أوامرها، وهمستْ: "الحين -يا بُشرى- سنشرع في الأمر العظيم الذي أنبأتُك به!". لمَّا يعلم –بعدُ- ما هو الأمر العظيم! فرنا إليها بعيون يملأها الفضول والترقب، فأردفتْ تقول في جدية: "اسمع ما سأقوله وافهمه جيداً، واعلم أنَّ خطأ واحد قد يعرضك وإياي للهلكة، واحذر أن يعلم أحد بما نزمع عمله، لابد أن يتم الأمر في سرية تامة!". نبَّه حواسه كلها وهو يقول بطاعة عمياء: "كُلي آذان مُصغية إليكِ يا مولاتي".

-المشهد الستــون-

الخريـف -هـذا العـام- يـركض حـاملاً أيامـه بـين فكيـه مثـل فريسـةٍ مسـتنفرة تفـر بصغارها أمام ليالي شـتوية متوحشـة أقبلتْ تعـدو –من بعيـد- مُكشـرة عـن أنيابها تنـذر بقـدوم شـتاءٍ زمهرير! ويا لـه من شـتاء! في تلك الليلـة الخريفيـة الخافتـة حيث تبـدل حـال القمـر؛ فلـم يعـد بـدراً.. بـل يُسـرع هـاجراً سـماء قرطبـة مهـرولاً إلى طـور المحـاق.. بينمـا لـم تمهلـه غيـوم الخريـف الغليظـة ريثمـا يرتحـل رويـداً؛ بـل تكاثفـتْ لتحبس أنـواره الرقيقـة عـن تقبيل قرطبـة الحبيبـة قبلـة الـوداع، وحاصرتها بسُحبها الملبـدة لتنتزعهـا من أحضانها، وتدفع بها لترحل بعيـداً دون وداع. في تلـك الليلـة التي يحتضـر فيها قمر قرطبـة المنير، جاء عبـد الجبار بـن المغيرة وأخـوه محمد ليجتمعـا مع ابـن هشـام على موعـدة قـد وعـدهما إياهـا. ولجـا المغـارة يهرعـان إلى نـار المجمـرة الفخارية بين يدي ابن هشـام يدفعان بها برودة قارصة كادتْ تُجمد أطرافهما. جلس عبد الجبار يفرك يديه فـوق جمر المجمرة الدافئ، بينما محمد أخـوه يجاهـد في تسكين عظامـه المرتجفـة؛ وما زال ابـن هشـام يرتقـب نبأهمـا. درأ عبـد الجبـار بعـض البرودة التي تنخر عظمه، وانفرجتْ أساريره قائلاً: "أبشر يا ابن العم! فقد وفى أبـو سليمان بوعـده؛ عنـدي الآن في بيتي الدفعـة الأولى من المـال الـذي اتفقنـا عليـه. فـانظر مـاذا أنـت فـاعل فيـه؟". تغضنـتْ شـفتا ابـن هشـام عـن ابتسـامة فـاترة، سـرعان مـا واراهـا قائلاً بلهجة متحمسة: "سنفعل الكثير! نبدأ العمل من الآن.. نـوزع المال على دهمـاء النـاس ولا سـيما العطـالين والبطـالين وأبنـاء السـبيل –فهـؤلاء يسـهل اسـتقطابهم بالمـال- ثـم نعمـد إلى سـيرة شـنجول فنمزقهـا تمزيقـا.. ونـدفع ألسـنة قرطبـة لتلـوك أخبـاره السـيئة، ونـنـدد بحجـره على الخليفـة وظلمـه لـه، وانتزاعـه ولايـة العهـد رغمـاً عنـه. ثم نتخير من الرجـال -الـذين ناصرونا- الأشـداء المخلصين منهم؛ فنشترى لهم سـلاحاً ونـدربهم عليـه ليكونـوا جيشـنا وعـدتنا في مواجهـة العامريـة. نجتهـد في إنفـاق المـال علـيهم لضـمان ولائهـم، وعلى تسـليحهم كي يصـبحوا جيشـاً قويـاً يواجـه البربـر. لكـن.. المعضـلة كيـف سـنكوّن هـذا الجيش سـراً؟ وكيـف سـندربه على القتـال سـراً؟

سنجد حل! ثم علينا أن نـ...". قاطعه عبد الجبار صائحاً: "رويدك! رويدك يا أبا الوليد. إنَّ الذي تأمل يحتاج مالاً كثيراً؛ وما منحنا أبو سليمان لا يكفي لكل هذا!". فصاح بامتعاض: "ألم أُخبركم أن هذا الرجل الشحيح كالبرق الخُلّب؛ يعد ولا ينجز!". "بل أنجز يا ابن العم.. على قدر طاقته!". هتف ابن هشام في حنق وضجر: "هذا العمل الذي نُقدم عليه عمل عظيمٌ؛ سأُضحي لأجله بنفسي وبرجالي، فلابد من إنجازه كما يجب.. وإلا كنا لقمة سائغة في فم ابن أبي عامر". غشاء من الصمت المحبط غطى المكان حتى اخترقه عبد الجبار قائلاً –كمن تذكر أمراً نسيه: "أمر آخر ينبغي أن أُخبرك به!". "أي أمر؟!" (قالها متبرماً ضجراً). "جاءني (بُشرى) فتى أم المظفر البارحة، وأكد عليَّ أنها تريد أن تلقانا –أنا وأنت- سراً بعد صلاة الجمعة في بيت عمتك فاطمة المروانية!". "ماذا تريد هذه المرأة؟!". "يقول: إنها تريد أن تُكمل حديثاً بدأتَه معها.. ولم يكتمل!". تهللتْ أسارير ابن هشام وهتف مستبشراً: "هل قالتْ ذلك حقاً؟". "أجل!". "فماذا ترى؟". "أرى ألا تذهب إليها!". "لِما؟!". "أخشى أن تكون مكيدة!". "ما رأيك أنت يا محمد بن المغيرة؟". "الرأي رأيك يا أبا الوليد؛ فأنت أكثر منا فطنة وحذرا!". صمت ابن هشام هنيهة كمن يتدبر الأمر، ويقلّبه في عقله ثم همس قائلاً: "إنما أرادتْ بمكان اللقاء –في بيت العمة فاطمة- أن تطمئننا؛ فلو كانت تضمر السوء لاستدعتنا إلى الزاهرة. نقابلها.. لكن نحتاط لأنفسنا، وسوف يساعدنا في ذلك.. حمدون".

-المشهد الحادي والستون-

لم تستطع برودة الأجواء التي دهمتْ قرطبة بغتة أن تُفتّر عزم سلوان، ولم تقدر رياحها الحرجف أن تُطفئ جذوة حماسها المشتعل إصرار ومثابرة؛ فأقبلتْ على دروسها مع السيدة فاطمة بهمة ونهم؛ مما سر السيدة منها أيما سرور؛ فأولتها اهتماماً خاصاً، وبأسرع من مرور الأيام تكسرتْ الحواجز، وزاد الود والحب بينهما،

وغمرتْ السعادة قلبيهما كأنهما أم وابنتها اجتمعتا بعد طول فراق. اليوم الجمعة تأجل الدرس استعداداً لزيارة السيدة أم المظفر –التي نبَّأ بها فتاها بُشرى أول أمس- ولولا أن الزائر هي الذلفاء؛ لكانت حسرة سلوان على هذا الدرس المؤجل أشد. أم هشام (فاطمة) تصول وتجول في الدار -منذ انبلاج الصبح- تُهيئه وتجهزه لاستقبال الضيفة العزيزة التي لم تأت منذ زمن، ويعاونها أم سعدون وسلوان اللتان تُنفذان أوامرها وارشاداتها بانصياع تام، وسعدون الذي ما انفك يخرج ويدخل جالباً كل ما تطلبه أم هشام. الآن الدار مهيأة –كما تحب أم هشام- لاستقبال الضيفة المكرمة. لم تتوقع أن تجد حفيدها (حمدون) يدخل عليها الحين؛ فقد انشغلت عنه بزيارة السيدة المبجلة، وهو –من قبلُ- تشاغل عنها بصحبة الجبل كي لا يواجهها بعد أن كذب عليها بشأن سلوان. بيد أنه جاء! ألفته خارج الدار يستأذن في الدخول؛ أُذن له، فاختلتْ به في مخدعها ليتحدثا منفردين. بنظرات متفحصة.. راحتْ تحدِّق فيه صامتة؛ فشعر كأن عينيها تنزعان عنه رداء الشجاعة المصطنعة الذي يستر به سوءة كذبه عليها، انتظرتْ أن يتكلم فلم يفعل، فسألته بنبرة معاتبة لها معنى يفهمه: "هل أحضرتَ معك حاجيات سلوان.. وصندوق أمها؟". لم يخطر بمخيلته أن تُباغته بهذا السؤال. إذاً.. فقد علمتْ بخبر سلوان ومُكثها في الجبل لأيام عديدة. بالتأكيد سلوان هي من أخبرتها! قد افتضح كذبه لا ريب! أحس ببرودة شديدة تسري في جسده، بينما رياح الارتباك والحرج تعصف به، وتجرده من شجاعته ولباقته، ومن كل ثوب يحاول به ستر عورات كذبه. نكس رأسه، وانتابته رجفة خاطفة تحولت -بعد لحظات- لسكون خَجِل؛ فبدا ماثلاً بين يديها كهيكل بالٍ لعظم إنسان تساقط عنه اللحم خجلاً. بخضوعٍ همس: "نعم.. أحضرتها!". نظراتها المعاتبة تخترق عقله، وتبعثر أفكاره بحثاً عما يعتذر به. طأطأ رأسه وهو يستطرد هامساً في تلعثم: "سامحيني يا جدتي! هذه أول مرة أكذب عليك! فقد خشيتُ أن تظني بها السوء!". "كانت أفضل منك شجاعة، وأحسن ظناً بي منك! كم أحزنني

أنك كذبتَ عليَّ يا حمدون!". حنانها المختبئ -خلف كلمات العتاب ونظرات اللوم- بعث الروح في جسد شجاعته من جديد؛ فخطى نحوها، وارتمى في أحضانها كطفل صغير مُقبلاً يدها في تعظيم وانكسار. كدأبها معه دائماً كلما أخطأ واعتذر؛ سرعان ما سامحته، وعفتْ عنه، وشرعتْ يداها في حنان تمسح على رأسه.

-المشهد الثاني والستون-

جلجلةُ موكب السيدة أم المظفر تملأ الدرب من قصرها بالزاهرة إلى دار أم هشام. على باب الدار انتصبتْ أم هشام واقفة في ترحاب وحفاوة لاستقبال الضيفة العزيزة، وإلى جوارها حفيدها حمدون، وابنتها الجديدة.. سلوان. توقف الموكب أمام الدار، وترجلتْ السيدة المبجلة متوجه إلى حبيبتها (أم هشام) ترفل في رداء الهيبة والوقار، هرعتْ إليها أم هشام مرحبة بتعظيم، حتى دلفا إلى الدار فتعانقا عناق أختين متحابتين دون كُلفة ولا تكلف.. كان لقاء حميمياً ودوداً مما استفز الدمع في مُقل من شهدوه. على متكأ وثير -هُيأ لها خِصيصاً- جلستْ السيدة في صحن الدار حيث رغبتْ أن تجلس مع صديقة عمرها كما كانتا تجلسان في سالف الأيام. أشارتْ إلى حمدون وقالتْ مداعبة وابتسامتها الودودة تملأ مُحياها: "هذا حفيدك يا أم هشام! ما شاء الله.. لقد صار شاب وسيماً؛ احذري عليه من فتيات قرطبة!". ابتسمت أم هشام ابتسامة رزينة دون أن تُعلق، وتراجع حمدون إلى الخلف ليقف إلى جوار بُشرى، بينما أقبلتْ سلوان تحمل للسيدة قدحاً من الحليب الممزوج بهشيم الفاكهة المجففة؛ فهمَّتْ إحدى جاريتين قدمتا مع السيدة أن تأخذه من سلوان لتقدمه هي، غير أن السيدة أشارتْ إليها؛ فتوقفتْ، وتقدمتْ سلوان بتوقير وأدب، تناولتْ أم المظفر القدح، وهي تحدج سلوان بنظرات حانية، وهمستْ: "كيف حالك يا بُنية؟ هل طاب لكِ المقام هنا؟". أجابتْ بابتسامة رقيقة: "الحمد لله.. ذلك لحُسن اختيار سيدتي!". تهلل وجهها حينما نظرتْ في القدح وصدحتْ:

"هذا شرابي المفضل الذي لا تُحسن صنعه امرأة مثلك في قرطبة يا أم هشام!". "صنعتُه لكِ خاصة يا أم المظفر.. هنيئاً مريئا!". "سلمتْ يداكِ يا حبيبة قلبي!". سمَّتْ الله.. ثم شرعتْ ترتشف شرابها باستمتاع رزين، بينما سلوان تدور بأقداح الشراب على الآخرين: أم هشام وبُشرى وحمدون، وأم سعدون، وجاريتي أم المظفر؛ غير أن خدم أم المظفر امتنعوا عن تناول الشراب حتى أذنتْ لهم مخدومتهم؛ فشربوا.

كم كانتْ الغبطة تغمر قلب حمدون حينما التقط القدح من يد سلوان، ليتْ الزمن توقف به عند هذه اللحظة؛ وهو يرى ابتسامة عينيها الواسعتين الخجولتين. لكن! لا وقت للحب والمشاعر الرقيقة الآن! إنه وقت العمل! إنما هبط من الجبل اليوم إلى بيت جدته ليراقب زيارة أم المظفر عن كثب قبل قدوم أبي الوليد وعبد الجبار كما طلبا منه. إنَّ حرس موكب السيدة يملأ الشارع والدرب كله، وهو حرس كثيف لو أرادتْ القبض على أبي الوليد والفتك به لفعلتْ. عليه إذاً أن يُحذر عبد الجبار في صلاة الجمعة –كما هو متفق عليه- فلا يأتيان؛ ويكون قد فوَّت عليها فرصة القبض عليهما. انتهتْ أم المظفر من شرابها؛ فهرعتْ إحدى الجاريتين لتحمل عنها القدح الفارغ؛ ثم أشارتْ إلى بُشرى فأقبل إليها؛ قالت بهيبة ووقار: "أخبر قائد الموكب أن ينصرف بالموكب والحرس إلى بيت أم عبد الواحد البربرية، ولينتظروني هناك وابق أنت خارج الدار ريثما أُناديك!". ثم التفتتْ إلى صاحبة الدار وقالت بمودة: "أريد أن آأنس بكِ يا أم هشام، قبل أن أذهب إلى أم عبد الواحد". "هذا شرف لي يا أم المظفر!". بعد لحظات وجد حمدون أنه الرجل الوحيد بين النساء؛ فاستأذن في حياء متوجهاً إلى المسجد الجامع لأداء صلاة الجمعة. أصبح الشارع والدرب خاليين، وانفض الموكب وحرسه الكثيف إلى دار أم عبد الواحد –كما أمرتْ السيدة-، وهي دار بعيدة عن بيت جدته مسافة لا خوف فيها على أبي الوليد

إذا قدم للقائها! "سأُخبر عبد الجبار أن المكان آمن، وليأتِ أبو الوليد". انطلق إلى الصلاة تاركاً بُشرى ماثلاً وحده أمام الدار.

-المشهد الثالث والستون-

أومأتْ برأسها لجاريتها؛ فخرجتا مع أم سعدون إلى غرفة الطبخ، وبقي معها أم هشام وسلوان؛ فهمستْ بنبرة معتذرة: "اعذريني يا أم هشام! ليستْ المودة وحدها من أقدمتني إليكِ! فإنَّ لزيارتي أهدافاً أخرى!". "قدومكِ إليَّ يسعدني في كل وقت.. مهما كان هدفه!". رنتْ إلى سلوان بتفحص وتأمل قبل أن تهمس: "سلوان.. هي أحد هذه الأهداف. هل تعرفينَّ خبرها؟". ضمتْ سلوانَ إلى صدرها بحنان الأم وأجابتها: "لقد قصتْ عليَّ خبرها!". تنهدتْ كأنما تنفث عن صدرها حملاً ثقيلاً، ثم قالتْ بمرارة: "هي صادقة يا أم هشام فيما نبَّأتْ به". "لقد آمنتُ لها، وأشفقتُ عليها.. يلزمنا مساعدتها يا أم المظفر!". "لا جرم سنساعدها إن شاء الله". ثم التفتتْ إلى سلوان قائلة: "لا تجزعي يا بُنية؛ فلن تضطري للذهاب إلى اشبيلية ومواجهة عمكِ وحدكِ، بل سأُرسل إليه وسأُعلمه الحقيقة، ولن أتركِكِ له حتى يُعطيني موثقاً من الله أنه سيرعاكِ ويحسن إليك". تنحنحتْ سلوان مستجمعة شجاعتها الأدبية وهي تقول: "اسمحي لي يا سيدتي! فإني أُحبذ البقاء هنا في قرطبة مع سيدتي فاطمة إلى أن أُنهي تعلمي رسم القرآن بين يديها.. إذا أذنتما لي!". "إنْ لم تمانع أم هشام.. فهذا عمل مبارك. لكن لا يمنع من أن نُعلم عمكِ بمكانكِ.. فهو وليكِ؛ وأحق بكِ". "صدقتِ يا سيدتي! لكني أرغب ألا أذهب إلى أهل أبي إلا متحصنة بعلم وعمل يحفظاني من الشفقة عليَّ!". ثم استطردتْ بتوسل: "أرجوكِ يا مولاتي ساعديني في

ذلك؛ وأخفي خبري عنهم إلى حين!". التفتتْ السيدة إلى فاطمة تسألها: "ما قولكِ يا أم هشام؟". "لقد تحدثتُ معها في هذا الأمر، وإني أوافقها الرأي، وستمكث عندي ابنة كريمة معززة". "إذاً.. كما ترغبين يا سلوان لكن إذا تغير رأيكِ؛ فأعلميني!". سكتتْ أم المظفر كأنما فقدتْ القدرة على الكلام، أو.. الأحرى: فقدتْ الرغبة في الكلام! لحظات من الصمت -لم تكن طويلة- مرتْ.. غير أنها مرتْ على أم المظفر كعمر ثان؛ تذكرتْ خلالها فقيدها وولدها المحبوب عبد الملك المظفر، فما استطاعتْ أن تمنع دموعها من الانفلات أمام صديقتها القديمة. ثم همستْ بصوت خافت يخنقه النشيج: "إنني.. أنا الثكلى.. يا أم هشام!". رنتْ إليها بإشفاق، فهي أعلم الناس بفاجعة صديقتها في ولدها. وقد شهدتها -منذ أسابيع قليلة- تكاد تذهب نفسها حسرات من شدة الحزن عليه، حينما زارتها في قصرها لتقديم واجب العزاء. بصمتٍ حنون التقطتها في أحضانها؛ فأسلمتْ أم المظفر نفسها لأحزانها.. ولصدر صديقتها الحاني، واسترسلتْ في نشيجها، وارسلتْ دموعها دون أن تخشى شيئاً، ودون أن تتحرج من أحد. رأتْ فاطمة أن تُخليها -في أحضانها- تذرف دموعها.. فإن في دمع العين راحة عندما يشتد الحزن والألم.. وأي راحة! سلوان التي حضرتْ هذا المشهد الشجي عجزتْ –هي الأخرى- عن منع عَبراتها شفقةً وأسفاً على الأم الثكلى. راحتْ أم هشام تربتْ على كتفها وتمسح على رأسها مثل أم رؤوم تهدهد وليدها، وهي تهمس بأسى مبثوثٍ في حروف كلماتها: "اصبري واحتسبي يا أم عبد الملك! عسى أن يجمعكِ الله به في الجنة! فإنا نحسبه مات مرابطاً في سبيل الله!". لم يستسغ سمعها كلمة (مات)؛ فانتبهتْ رافعة رأسها كأنما مجَّت أُذنها الكلمة؛ وبعينين حمراوين –من الحزن والحنق معاً- صرختْ قائلة: "بل.. قُتل يا فاطمة! ولدي قُتل؛ لم يمتْ!". استطردت –وهي تشير إلى سلوان- وبنبرة متوترة: "ألم تخبركِ بذلك؟!". جذبتها إلى صدرها مرة أخرى، واحتوتها بذراعيها محاولة تهدأتها. بيد أن الانفعال قد بلغ منها مبلغه؛ فرفعت رأسها، ومسحتْ دمع الحزن عن عينها؛ لتستبدله بشرر

يتطاير حقداً وغضباً. كانت تضغط بأسنانها على كل حرف تقوله كأنما تريد أن تخنق الكلمات: "لن يرتاح قلبي.. إلا أن انتقم لك يا حبيبي ممن غدروك! هذا عهدٌ عليَّ!". "استعيذي بالله من الشيطان يا أم عبد الملك؛ ودعي المنتقم الجبار ينتقم! فإنه يمهل ولا يهمل!". "ولكم في القصاص حياة يا فاطمة! لقد قُتل هابيل ولمَّا يؤخذ ثأره.. الآن سأثأر له. إنَّ ألم الفراق يقتلني –في كل ليلة- ألف مرة! يا لقسوة الموت الذي خطفه مني وأبقى عليَّ؛ إنه يعذبني عذاباً أشد وأنكى". "الانتقام والثأر.. لن يردا قتيلاً يا أم عبد الملك!". "كلا! لن يرده الانتقام لي؛ لكن سيُطفئ جمر الغضب في صدري! ليس لحياتي معنى بدون عبد الملك –يا فاطمة- ولا هدف لبقائي بعده غير الثأر له!". شرعتْ فاطمة –وهي تترفق بها- أن تعظها بكلمات حانيات؛ لتثنيها عن عزمها! وهي –في الحقيقة- لا تدري عن عزمها شيئاً! غير أنها ترى الحقد والغضب يتدفقان من وجهها كسيل جارف، إنْ لم تمنعه فسيهدم كل خير في قلبها.. فهتفتْ بنبرة حكيمة: "إنَّ الحقد والرغبة في الثأر والانتقام كالنار المستعرة تحرق كل شيء حولها.. حتى من أوقدها؛ فاحذري على نفسك منها يا أم المظفر!". استعادتْ كثيراً من هيبتها ثم هتفت بجدية: "قد حال الجريض دون القريض[1] –يا فاطمة- لن أتراجع عما عزمتُ عليه!". تساءلتْ بتوجس: "علام عزمتي يا ذلفاء؟! إني أخشى عليكِ!". تنهدتْ بارتياح، وشرعتْ تستنشق أريج المكان المعبأ بعبير الذكريات الحلوة، وقالت بابتهاج كسير: "آه.. لم تنادِني باسمي منذ زمن بعيد يا أم هشام! كم اشتقتُ لتلك الأيام الخوالي التي كنتُ أقضيها معكِ تحدثيني، وأبُثكِ شجوني!". أجابتها بمودة حانية: "أنا معكِ يا حبيبتي.. إنْ شئتي..". أومأت بيدها مقاطعة: "لن يعود الزمان كما كان يا فاطمة.. ولن ترد لي الأيام الآتية ولدي مرة أخرى. لكن ستهبني ثأره؛ لذلك جئتُ إلى هنا اليوم! فإن هدفي من زيارتكِ الثأر لعبد الملك!". "كيف يكون ثأر ولدكِ في بيتي يا ذلفاء؟! لستُ أفهم مقصدكِ!". "لا عليكِ! اسمحي لي فقط أن التقي برجلين سيأتيان بعد قليل. ولا أريد أن يعلم أحد بهذا اللقاء!".

همَّت -باستهجان رأته الذلفاء في عينيها- أن تسأل مَن هذين، ولماذا اخترتي بيتي دون أن تعلميني؟! غير أن الذلفاء قطعتْ عليها طريق السؤال والاستهجان مقررة في حسم: "لن يتكرر هذا اللقاء عندكِ مرة أخرى!".

---

[1].. مثل عربي أندلسي معناه: هذا الشيء فات أوانه. وهو يضرب لأمر يعوقه عائق.

-المشهد الرابع والستون-

كما الجمعة السابقة الخطيبُ في نهاية خطبتيه يدعو لأمير المؤمنين (الخليفة) والمصلون يُأمِّنون على دعائه.. ثم يدعو لولي عهد الخليفة؛ فتُردد الألسنة: آمين. غير أن كثيراً من القلوب تُنكر الدعاء! وألسنة أخرى –مثل لسان حمدون وعبد الجبار وغيرهما- تهمس بخفوت أقرب إلى الصمت: إنا لله وإنا إليه راجعون. أتم المصلون مناسك الصلاة، وانزوى حمدون وعبد الجبار في انتظار محمد بن هشام؛ ثم انطلق ثلاثتهم –على حذر- إلى بيت جدة حمدون. أُوصِدتْ أبواب قاعة الدرس حيث انعقد اللقاء السري، وانتصب بُشرى على الباب الخارجي كأنما يحرس سرية اللقاء، ووقف حمدون خلف الباب الداخلي المؤدي إلى صحن الدار. وفي صحن الدار كادتْ فاطمة تغرق في بحر من الحيرة، وتقاذفتها أمواج الهواجس والأفكار: (ما هذا الذي يحدث في بيتي؟! الذلفاء (الصديقة القديمة) تلتقي سراً بمحمد بن هشام، وعبد الجبار بن المغيرة! في قاعة الدرس التي كانا يهربان منها غلامين رغبةً عن العلم؛ ويأتيانها الحين رغبةً منها في الانتقام لولدها؟!) (لا شك أن ابن المغيرة يطلب ثأر أبيه القديم؛ وممن؟! من المنصور بن أبي عامر! وابن هشام يطلب ثأر أبيه الحديث؛ ممن؟! من المظفر بن المنصور! فكيف تطلب منهما الذلفاء (زوجة المنصور وأم المظفر) الثأر لابنها! يا لتدابير الأقدار! كيف يتفاهم ثلاثتهم؟! وعلى أي مبدأ يتفقون؟! بل كيف يجتمعون؟! كانت بالأمس الدنيا تفرقهم.. والطمع في السلطان. واليوم تجمعهم نار

الحقد والانتقام وطلب الثأر! علام يتآمرون الآن؟! في بيتي.. في قاعة الدرس.. التي ما فتأتْ تحفها الملائكة وتضع أجنحتها لمن يجلس فيها! لكن اليوم.. يجتمع هؤلاء الثلاثة فيها وقد فرتْ الملائكة.. وحفتهم شياطين الحقد والانتقام! وأسفاه! وأسفاه!) (كيف أتصرف معهم؟ هل أطرد ضيفي من بيتي؟! هل أطرد الذلفاء التي جاءتني تتذرَّع بالصداقة الغابرة وبالمودة القديمة؟! هل أطرد هذين الفتيين اللذين أقبلا عليَّ يقبِّلان يديَّ، ويناديانني: جدتي؟!) (أم هل أدعهم يتآمرون على أمر –ما زلتُ لا أعرفه- ليصير بيتي وكراً للتآمراتِ الشيطانية بدلاً من أن يكون داراً للعلم الرباني؟! وحفيدي!! أراه ضالعاً معهم في مؤامرتهم، ويُخفي عني أمره! لا أصدق! كيف أصبحتُ لا أعرفك يا حمدون؟!). أوشكتْ على الغرق في خضم حيرتها لولا انتشلتها أم سعدون التي ما برحتْ تناديها وتهز كتفها. أفاقتْ من شرودها وخادمتها تقول بهدوء ساذج: "قد نضج الطعام يا أم هشام.. هل أُعد الموائد للأضياف؟". بعينين زائغتين لم تجبها.. بل حدثتْ نفسها بتحسر: (وسيأكلون من طعامي أيضاً؟!). طال سكوتها؛ فأعادتْ الخادمة السؤال: "هل نُهيأ موائد الضيف الحين يا أم هشام؟". بعقلٍ شارد، ويد مستسلمة لوحتْ أن: نعم!

-المشهد الخامس والستون-

طرقات خفيفة على الباب، وصوت حمدون من وراءه ينادي بخفوت: "الغذاء يا سادة!" بحنكة الملك المنصور وحزمه وحسمه؛ أتمتْ الذلفاءُ اللقاءَ –الذي قد أعدتْ له جيداً- كما تريد؛ حيث بدأتهما بالحديث متسائلة: "هل كنتَ ترجو –بإعلامي خبر الفتاة سلوان- أن أقتل شنجول يا ابن هشام؟". لم يُجبها، وظل صامتاً فاستأنفتْ قائلة: "لا فائدة لك وراء ذلك! لكني جئتُكَ بخير من ذاك. سأُساعدك –إنْ اتفقتَ معي- بمالي وجاهي في تحقيق ما كانت تطمح له نفس أبيك. سأُساعدك في الوثوب على شنجول واسترداد مُلك الناصر من يده. فما قولكَ؟". "كيف أتفق

معكِ؟". "تعاهدني أن تسعى جاهداً في نزع مُلك المروانية من يد شنجول، وأن تجرده من سطوته وسلطانه. فإنْ مكَّن الله لك؛ تدعه لي أقتله بيدي!". "كيف تتآمرين على شنجول والعامرية؟ وأنتِ منهم؟". سكتتْ برهة، ثم أجابته بكبرياء وتغيظ: "أُريد ثأر ولدي أيها المرواني.. كما أنك تريد ثأر أبيك!". "لو عاهدتُكِ؛ كيف ستُساعدينني؟". أخرجتْ من طيات ثيابها بعض أكياس مملوءة بالنقود الذهبية، وخلعتْ شيء من حُليها ثم وضعتْ كل ذلك أمامه؛ وقالتْ وهي تحدجه بنظرات كلها تحدٍ وأنفة:

"هذا لك.. وسأُعطيكَ أضعافه كي تنجح في مهمتك، لكن أرني علو همتك!". "الأمر يحتاج تفكير؛ أمهليني لأتدبر أمري". "إذا خرجتما من هنا دون أن نتفق؛ فانسيا الأمر برمته!". "قد فعلتُ! أُعاهدكِ على السعي الحثيث في الثأر لكلينا من شنجول حتى يُمكننا الله منه أو أهلكُ دونه". وبينما يعاهدها عبد الجبار مثله؛ جاءتهم طرقاتُ حمدون من وراء الباب.

-المشهد السادس والستون-

اعتذر محمد وعبد الجبار عن الطعام، واستأذنا في الانصراف؛ فغادرا –على عجل- حاملين أموال الذلفاء معهما. ولحق بهما –بغير تريث- حمدون.. كأنما يريد الفرار من وجه جدته. على طاولة عتيقة -من خشب البلوط – لكنها أنيقة نُضِّد الطعام بتنسيق ينُّم عن ذوق أم هشام في إعداد موائد الملوك. بوقار وهيبة جلستْ الذلفاء على المائدة أمام صديقتها التي كانت ترمقها بعيون متربصة؛ بينما تتحاشى هي أن تلتقي عيناهما، وتُقبل على الطعام تتشاغل به عن مضيفتها التي تعلم أنها ستنفجر فيها عما قريب. على مقربة منهما جلستْ سلوان وأم سعدون على مائدة أُخرى، وأجلستْ سلوان معها الجاريتين بعد أن أذنتْ لهما السيدة المبجلة. ما زالتْ أم هشام تُحدِّق فيها بنظراتها المتحفزة، والمليئة بالريب والتساؤل؛ فلم تجد مفراً من

أن تقول لها وهي ترمقها بلحظها: "أفصحي عما بداخلكِ يا أم هشام! اقذفيني بما في جوفكِ قبل أن يحرقكِ!". تكلمتْ أم هشام بصوتٍ خفيض، وعينين معلقتين بوجه ضيفتها، وجسد ينتفض: "حقاً.. إنَّ بداخلي ناراً تستعر من الريب والتغيظ يا ذلفاء!". "فيما الريب؟! ولِما التغيظ؟". "أرتاب في لقاءكِ بهذين الرجلين! وأغتاظ من مواعدتكِ لهما في بيتي دون أن تخبريني!". نفضتْ يدها من الطعام، وبوقار الملوك وصرامتهم.. لكن بنبرة خفيضة أجابتْ: "هذان الرجلان مروانيان مثلكِ، وأنتِ في مقام جدتهما، وليس مستغرباً أن يأتيا إلى بيت جدتهما ليزوراها. أما أنا فقد أتيتُ للقاء صديقتي القديمة، وأقرب نساء قرطبة إلى قلبي.. فما الريب في ذلك؟!". "فلِما لم تخبريني آنفاً؟!". "لم أكن على يقين من أنهما سيأتيان!". "فيما كان لقاؤكم سراً؟". "لم أعهدكِ متطفلة يا فاطمة.. هذا ليس شأنكِ!". "بل شأني.. لأن لقاءكم كان في بيتي. ولقد أفصحتي عن رغبتكِ في الثأر قبيل لقائهما.. وأنا لا أحب أن تحاك مثل تلك المؤامرات في بيتي!". بصوت تملأه الأنفة والحِدة رفعتْ نبرتها يسيراً وهي تقول: "لو غيركِ قالها يا فاطمة! أنا السيدة أم المظفر.. زوجة الملك المنصور كيف تخاطبيني هكذا؟!". أجابتها فاطمة بصوت خفيض –كيلا تسمعها الأخريات- وبنبرة تهكم وتغيظ: "عذراً أيتها السيدة العظيمة! حسبتُ أنني أُخاطب الذلفاء حبيبتي القديمة!". رقّتْ لها الذلفاء، فتواضعتْ واعتدلتْ في جلستها ثم همستْ في لين: "ما كنتُ أرجو أن أسمع هذا منكِ يا أم هشام! وما هذا طبعكِ، ولقد سمعتُ منكِ ما لا أُطيقه من غيركِ، غير أن مودتنا القديمة تشفع لكِ. فانتهي عن مراجعتي ومعاتبتي، وانسي أمر هذا اللقاء.. فإنه لن يتكرر في بيتكِ! لكن عديني أنكِ لن تُنبئي به أحداً". "تعلمين أني لن أخبر أحداً.. من دون وعد!". "أعلم يا أم هشام.. أعلم!". "لكن.. ما بال حمدون حفيدي أشركتموه معكم في أمركم؟!". "لستُ أعلم من أمره شيئاً! اسأليه أنتِ ما خطبه!". أومأتْ لإحدى جاريتها؛ فهبّتْ تسعى لتنادي بُشرى إلى سيدته. ولج إلى صحن الدار متنحنحاً –كالمستأذن- وأقبل على السيدة غاضاً بصره.

هتفتْ بهيبة: "استدعِ الموكب والحرس، واعتذر لأم عبد الواحد عن عدم ذهابي لها. وسأزورها قريباً إن شاء الله". انطلق بُشرى لينفذ أمر سيدته، بينما عمَّ صحن الدار سكون حذر، وصمت واجم.

-المشهد السابع والستون-

على الطريق إلى جبل العروس.. كانت الخيل تسابق الريح، بل كادتْ تطير حاملة فوارسها: محمد بن هشام، وعبد الجبار، وحمدون. دلف ثلاثتهم إلى المغارة الآمنة، ومحمد يكاد يرقص فرحاً بما أثمر عنه لقاءه مع الذلفاء. استوى في مجلسه ثم شرع يُقلِّب أموالها بين يديه، ويقول: "ألم أقل لكم.. إن هذه المرأة لن تدع ثأرها.. ولو كان شاة عجفاء!". "لقد صدق حدسك يا أبا الوليد.. هذا مال كثير!". "ولقد وعدتْ بأكثر منه وأكثر، وإني أظنها ستصدق معنا". "ماذا سنفعل الآن؟". "كما أزمعنا من قبلُ.. الآن نبدأ تنفيذ مخططنا!". صمتَ برهة، ثم استأنف يقول: "يا حمدون.. اعمد إلى صاعد بن عبد الوهاب الحرار وأخبره أني أريده!".

-المشهد الثامن والستون-

رغم قِصره المعهود -في مثل هذا الوقت من العام- إلا أنه بالكاد انسلخ ذلك النهار الثقيل عن تلك الليلة الواهنة الخافتة.. المظلمة إلا من سراج ضعيف ينفث دخانه ليتبدد في هواء صحن الدار الذي لا يزال بارداً رغم الدفء الذي تبعثه المجمرة التي جلستْ أمامها أم هشام شاردة الذهن مُختَّرة النفس مرتجفة الفرائص، وقد اكفهر وجهها وعلاه كدر بيِّن. طفقتْ سلوان تحوم حولها جيئةً وذهاباً؛ تُعيد ترتيب الدار بعد رحيل الأضياف، وتستكمل ما تخلف من أعمال البيت بعد انصراف أم سعدون مجهدة من مشقة عمل اليوم. فقد قررتْ سلوان –في نفسها- أن تخدم أم هشام مدة مكثها معها محبةً لها –أولاً-، ثم كردٍ لمعروفها -ثانياً- الذي هو تعليمها رسم

القرآن واستضافتها لها حتى تتم دروسها.. فإنها فرضتْ على نفسها ذلك العمل عرفاناً بالجميل رغم معارضة أم هشام الشديدة. وها هي ذي تفعل ما عزمت عليه وتساعد أم سعدون كل يوم دون الإذعان لنهي السيدة أم هشام المستمر لها. غير أنها مذ غادرتْ الضيفة وهي تجلس –هكذا- ساكنة واجمة على أريكتها في الصحن، لم تنها عن عمل، ولم تتحرك، ولم تقم من مقامها إلا دقائق صلت خلالها المغرب وعادتْ لمجلسها دون أن تتنفل، ولم تقرأ وردها القرآني الذي اعتادت عليه. وها قد أُذِّن للعشاء؛ فلم ترها تقم للصلاة.. بل لم تسمعها حينما نادتْ عليها لتنبهها لدخول وقت الصلاة. بل تحسب أنها لم تشعر بها وهي تضع المجمرة بين يديها لتتدفأ بحرارتها! (ماذا دهاكِ يا أم هشام؟! ما كل هذا الشرود؟! أظنها ستُهلك نفسها كمداً!). تفرغتْ لها من أعمالها المنزلية، وجعلتْ تراقبها عن كثب؛ فإذا ببصرها معلق بالسراج، كأنما تراقب دخانه الذي يبثه في الهواء؛ ليتيه سريعاً مع نسمات الليل الباردة. أو تراقب سِّنَاجه الذي خطَّ أثره الأسود على الجدار، وتراكم بعضه فوق بعض مع تراكم الأيام والسنين كأنها ترى فيه سنوات عمرها الطويلة التي مرتْ كأنما تفلَّتتْ من بين يديها. لا تدري فيما تفكر! ولا تعلم فيما شردتْ! لكنها تظن أن سبب تكدرها هكذا هو لقاؤها مع الذلفاء، وتعتقد أن عليها التدخل، والتحدث معها لمواساتها والتخفيف عنها. أقبلتْ عليها بوجهها الصبوح وبسمتها العذبة، وهمستْ في مودة: "هل آتيكِ بماءٍ للوضوء يا أم هشام؟". لم تجب.. فكررتْ النداء حتى بالكاد انتبهتْ من شرودها، فهمستْ بصوت يخنقه الوهن كأنما يأتي من بئر عميق: "نعم يا بُنيتي!". أجابتها بحنان: "العشاءُ وجبتْ يا سيدتي.. هل آتيكِ بوَضوئك؟". فهمست باقتضاب شارد: "بُوركتِ.. لا.. أنا على وضوئي!". انتظرتها، فلم تحرك ساكناً، ولم تقم من مقامها.. بل شردتْ مرة أخرى، وصرفتْ وجهها العابس عنها إلى السراج الخافت ضوؤه. أقبلتْ عليها، وجلستْ إلى جوارها بحنان البنت المحبة لأمها وحدبها عليها: "ما بكِ يا أماه؟! أراكِ حزينة مهمومة مذ غادرتْ السيدة

أم المظفر!". بابتسامة باهتة ساخرة أجابتها بتساؤل حائر.. كمن تحدث نفسها: "مَن السيدة أم المظفر؟! إنَّ حبيبتي وصديقة عمري التي كنتُ استقبلها هنا في بيتي هي الذلفاء: الفتاة الرقيقة الناعمة التي تمتلئ عيونها براءة، وتبرق ببريق حب الحياة، والتي يشع من قلبها نور وضَّاء يغمر مَن حولها سعادة وحبور. الذلفاء الرقيقة الطيبة التي تحب الخير لكل الناس. الذلفاء التي نصحتُها بالموافقة على الزواج من ابن أبي عامر لِما توسمتُه فيه من الخير والصلاح والطموح؛ وقد كان! أتذكرها بعد زواجها حينما جاءتني تبكي.. وقد تأخر إنجابها فاتخذ زوجها جارية يتسرى بها عسى أن يُرزق منها الولد. جاءتني تبكي وتنتحب لغيرتها عليه، ولحزنها أنه لم يُرزق منها الولد! فما زلتُ بها حتى صرف الله عنها ما بها من هم وحزن، وقلتُ لها دعيه يلتمس الولد من سواكِ؛ لكن امنحيه أنتِ ما لا تستطيعه امرأة أخرى.. امنحيه السعادة بحبك وإخلاصكِ، شاركيه طموحه وأهدافه وغاياته؛ يكون لكِ خالصاً من دون النساء.. وإنْ لم يُرزق منك الولد! ثم استعيني بالله، واسأليه أن يرزقكِ الولد الذي ترغبين، واصبري لعل الله يخبئ لكِ في قابل الأيام خيراً عظيماً لم يحن أوانه، وولداً صالحاً لم يأتِ –بعدُ- زمانه! وقد كان.. رزقها الله عبد الملك الذي كان قرة عين أبيه وأحب أبنائه إليه، وأقربهم منه مودة.. والذي ورث عنه ملكه ليصير بعد حين: الحاجب المظفر، وتصبح هي: السيدة أم المظفر!". أحستْ سلوان برغبتها في التحدث عن علاقتها بالذلفاء وأيامها الخوالي معها؛ فراحت تُحفزها على الاسترسال في الحديث عساه يُفرِّج عنها فقالتْ: "أحسبُ أنكما كنتما متحابتين يا أماه؟". "مذ عرفتها -وهي طفلة- لم تكن تستأمن أحداً على سرها غيري، ولم تستجب لنصح أحدٍ سواي.. فقد كانت مكابرة. أتذكرها حين جاءتني تفوح منها رائحة الغيرة، وتضرم في صدرها نيران الحنق والبغض.. لتُردد ما يُشاع بين الناس: إنَّ محمد بن أبي عامر على علاقة –لا يعلم أحد حقيقتها- بصبح البشكنجية أم الخليفة الطفل! أذكر ذلك جيداً كأنه بالأمس.. ضربتُها على صدرها ونهرتها ووبختها، وقلتُ: اتقِ الله يا هذه!

أتهمين زوجكِ بالفاحشة؛ وأنتِ أعلم الناس به؟! وتتهمين أم الخليفة.. وهي من هي؟! كان الأحرى بكِ أن تقطعي ألسنة المرجفين الذين يحسدون زوجكِ على ما حباه الله من مكانة! كان الأجدر بكِ أن تذُبي عن عرض زوجكِ.. لا تتهميه مثلهم! اتق الله يا ذلفاء، وثوبي إلى رشدكِ، واصرفي عنك وساوس الشيطان، وتمسكي بزوجكِ واحفظيه". انفرجتْ أساريرها كمن تتذكر ذكريات حلوة.. وابتسمتْ وهي تسترسل قائلة: "ثم جاءتني بعد حين.. تحمل غيرتها بين ضلوعها كخنجر يمزق الأحشاء لتصرخ فيَّ: ألم أقل لكِ يا فاطمة أن هذا الرجل ليس له أمان؟! ها هو ذا إذ انصرف عن البشكنجية؛ ينصرف إلى أسماء بنت غالب الناصري؛ ويوافق أبوها على تزوجها إياه.. ونكاية فيَّ ستُزف إليه من الزهراء.. من قصر الخليفة! فضحكتُ منها ملء عيوني وأنا أقول: أعرف! وأعرف.. كما تعرف قرطبة كلها.. وكما يعرف جعفر المصحفي أن هذا الزواج نكاية فيه هو؛ ليس فيكِ. استمسكي بالعقل والروِّية يا ذلفاء.. تعلمين أنه يتزوجها للمصلحة لا للحب؛ فاهدأي وتريثي ولا تحولي غيرتكِ على زوجكِ إلى سبع كاسر يأكل حبكِ ويأكلكِ معه.. اتركي لزوجكِ عمل السلطان، وانشغلي أنتِ بأن تكوني أحظى زوجاته عنده، وأقربهن إلى عقله، وأحبهن إلى قلبه.. وقد كان! فهداها الله للعمل بنصيحتي؛ فكانتْ أحظى زوجاتِ المنصور عنده، وأحبهن إلى قلبه.. وقد ورث ولدها ملكه.. جاءتني يوماً تداعبني وتقول: (قلتُ للمنصور لولا فاطمة بنت أحمد المروانية؛ لفعلتُ معك كذا وكذا! فابتسم وقال: ليت لي أخاً صادق النصح كما لكِ صديقتكِ فاطمة!) ثم تحتضنني وتهتف: أنتِ حبيبتي يا فاطمة، ولولاكِ لضاع مني زوجي المنصور!". تسكتْ برهة يعاودها فيها الكدر والوجوم، وتكتسي أساريرها بالكآبة.. ثم تهمس في أسى: "واليوم.. تأتي لتقول لي بصلف وكبر أنا السيدة أم المظفر؛ فلا تراجعيني، ولا تعاتبيني! يا لضيعة المحبة والوفاء بين الناس!". استمعتْ سلوان إليها بقلب عطوف، وعقل صافٍ؛ فأرادتْ أن تخفف عنها، وتنصح لها نصح الصغير الذي يرى ما لا يراه الكبير، فرنتْ إليها هنيهة

ثم قالتْ بحنو وود: "لا تحزني –يا أماه- فإن ما سمعتُه منكِ الآن تحزن له الذلفاء، لا أنتِ! فإنها إنْ تستنكف عن نصحكِ لها؛ فإنما تخسر الأختَ صادقةَ النصحِ.. وإنها -وأيم الله- لخسارة عظيمة تغفل عنها!". نبهتْ كلماتها فاطمة من شرودها.. فرمقتها بنظرات لا تخلو من الإعجاب، وتطلعتْ إليها تحثها أن تكمل مقالتها؛ فاستطردتْ سلوان تقول: "أجل يا أماه! لا تحزني على نصح قدمتيه لأحد؛ وإنْ أنكره. فإن الدين النصيحة. ولعمري إنَّ جزاء الله لكِ خير وأبقى. واعلمي كما أن الله يحب إدخال السرور على قلب المؤمن؛ فإن الشيطان يحب أن يحزن قلب المؤمن؛ فينقطع عن عمله، ويتخلف عما كان يبذل من الخير.. وإني قرأتُ القرآن؛ فوجدتُ أن الحزن لم يذكر فيه إلا منهياً عنه كما في قوله: (ولا تهنوا ولا تحزنوا)، وقوله: (ولا تحزن عليهم) وقوله: (لا تحزن إن الله معنا).. أو منفياً عن المؤمنين كما قال: (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)!". ثم سكتتْ لما ألفتْ معلمتها تُطالعها بنظرات عميقة، وتنصتْ لها باهتمام. اعتدلتْ فاطمة في جلستها، وقد انفرجت أساريرها، ونشطتْ همتها كأن تلك الكلمات أيقظتها من غفلتها، ثم قالتْ بإعجاب لا تخفيه: "زديني يا بُنيتي! جزاكِ الله خيراً!". "العفو يا سيدتي! إنما أقصد من حديثي أن أُخفف عنكِ!". "وقد فعلتي! فزديني من حديثكِ!". "كذلكِ تعلمين أن رسول الله –ﷺ- قد استعاذ بالله من الحزن، وعلمنا الاستعاذة منه فقال في دعائه: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن).. وقد قرنه بالهمّ لأن كليهما يُضعف القلب، ويُفتِّر عزم المؤمن عن العمل.. وها هو ذا الشيطان –أخزاه الله- قد أحزنكِ؛ فأقعدكِ عن صلاتكِ، وعن وردكِ المعتاد.. ليفسد عليكِ ليلتكِ كلها.. فأرغمي الشيطان –يا أمي- واطردي عنكِ الأحزان، وقومي إلى صلاتكِ.. وادعي الله أن يصرف عنكِ الهم والحزن، واسأليه أن يهدي صديقتكِ الذلفاء إلى سواء السبيل، فدعائكِ لها بظهر الغيب أغيظ للشيطان، وأقرب للمودة والحب في الله!". فتحتْ فاطمة قلبها.. وذراعيها –مشيرة إليها أن أقبلي إليَّ- فاحتوتها في أحضانها، وطفقتْ تقبل رأسها وتمسح عليها بحنان

الأم التي تستبشر بابنتها البارة خيراً. ثم أقبلتْ عليها بوجه باش، قد صُرف عن صاحبته كثيراً من الكآبة والوجوم، واستُبدلا للتوِ بالغبطة والسرور.. وقالتْ بامتنان: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم! لقد صرفتِ عني السوء بمقالتكِ هذه يا سلوان، أنعم بكِ من فتاةٍ صالحة". فهتفت باستحياء وتواضع: "أستغفر الله يا أماه.. إنما أردتُ...". قاطعتها فاطمة بلهفة –لما رنَّتْ في أُذنها كلمة (أماه)- وبمودة فيَّاضة قالتْ: "الحمد لله! قوليها ثانيةً يا سلوان.. كرريها كثيراً يا حبيبتي! لكم وددتُ أن اسمع هذه الكلمة من فتاة مثلكِ.. أماه!". "معذرةً يا سيدتي أم هشام! فقد نطق بها لساني عفواً دون قصد". "إنْ كان هذا حقيقة شعوركِ نحوي.. فقد نطق لسانكِ بما يُكنّه صدركِ!". "يشهد الله أني أحس كأنكِ أمي، ولقد صار حبي لكِ مثل حبي لها!". "إذاً.. فلا تناديني بعد اليوم إلا بأمي! وإنْ كان فارق السن بيننا أكبر من ذلك.. ويشهد الله أن صدري انشرح لكِ مذ رأتكِ عيني، وأحببتُكِ مذ عرفتُكِ.. وإني أسأل الله أن يجعلنا متحابتين فيه.. والآن سأعمل بنصيحتكِ وسأُخزي الشيطان، وأقم إلى صلاتي، وسأدعو للذلفاء بالهداية".

-المشهد التاسع والستون-

إن ابن ذكوان وابن برد	قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق إذ أقاما	حفيد شنجه ولي عهد

البيتان للشاعر: ابن أبي يزيد المصري

بأسرع من انتشار النيران في الحطب اليابس انتشرتْ الأراجيف في قرطبة، وأظهر الناس استياءهم من هذا الأمر الجلل (تقلُّد شنجول ولاية عهد الخلافة)، وشرع المرجفون –في المجالس العامة والخاصة- يتندرون بمرسوم ولاية العهد وما جاء فيه: يا معشر بني مروان.. يا بني أمية.. يا معشر قريش! خسئتم يا قوم السوء.. إنَّ الخليفة –أعزه الله وأطال بقاءه- نظر فيكم؛ -وبعد أن شاور قاضي الجماعة- فلم

يجد منكم رجلاً خليقاً بولاية عهده، ولم يجد فيكم رجلاً جديراً بالخلافة؛ فبحث فيمن سواكم –تقرباً إلى الله-.. يا لضيعة قريش!

أيها الناس.. نظر أمير المؤمنين في طبقات الرجال من قريش وغيرها؛ فلم يجد أجدر أن يقلَّده الخلافة غير التقي الورع، العفيف النازح عن كل عيب: شنجول ابن شانجة!! فأشار عليه قاضي الجماعة بتوليته عهده.. يا لضيعة الخلافة!

ويل لكم -أيها العرب- فقد جاءكم القحطاني ليسوقكم بعصاه، وينذركم بقيام الساعة! وقد عرفه قاضي الجماعة بصفته وسمته؛ عرف أنه شنجول. فقد آتاكم شنجول يا عرب.. يسوقكم بعصاه! يا لضيعة العرب!

يا أهل الأندلس! أبشروا قد فوَّض الخليفة النظر في أمور الدولة.. لشنجول، وأعطى على ذلك عهد الله وميثاقه، ووافقه قاضي الأندلس على رأيه! لكن.. شنجول منصرف مذ تولى العهد إلى لهوه ولعبه.. وقد قلَّد حجابة الأندلس لابنه: الأمير سيف الدولة عبد العزيز بن شنجول.. الطفل الفذ النجيب الذي لم يتجاوز الثالثة من عمره! يا لضيعة الأندلس!

باستياء يتساءل أهل قرطبة ويتهامسون في حيرة وريبة: (أين أنتم يا بني مروان؟ أين أنتم من إرث أجدادكم، ومُلك آبائكم؟ كيف تتركوه –هكذا- يُضيِّعه خليفتكم الضعيف الإرادة، الواهن العزم ويسلمه إلى شنجول؟! أين أنتم يا بني مروان؟! أليس فيكم رجلٌ رشيد؟!). لكن يزعق زاعق مجهول.. وينادي في الأسواق والمساجد والمجالس العامة.. وفي كل مكان في قرطبة: "بلى.. إنَّ في بني مروان رجل رشيد سيقوم بالأمر، ويرد الأمور لنصابها، وسيعيد الحق لأهله، وقد آن أوانه، وقد حان زمانه!". ولا يدري أحد من أين جاء الصوت الزاعق، ولا يعلم أحد من ذاك الثائر المرواني الذي حان زمانه. غير أن صاعد بن عبد الوهاب الحرار يعلم من هذا الثائر، ويتخير –بعد تفحيص وتمحيص- الرجال الذين ينقمون على شنجول والعامريين. ثم

يُحدثهم خفية.. ويُنبئهم بأنه ولي هذا الثائر، ورسوله السري إلى أهل قرطبة، ويطلب منهم مبايعته على السمع والطاعة، والنصرة لذاك الثائر المنتظر عند خروجه، دون أن يعين شخصه. وبأموال الذلفاء السخية -التي يُفرقها ابن هشام بيد صاعد- يزداد الأنصار يوماً بعد يومٍ، وتتضاعف أعداد المترقبين لخروج الثائر المرواني.. دون أن يعرفوا من هو. زيادة في الحيطة والكتمان.. يُقسِّم صاعد هؤلاء الأنصار إلى مجموعات صغيرة، لا تكاد المجموعة منهم تعلم شيئاً عن الأخريات، وقد أخفى شخصه –هو أيضاً- عن كثير من هؤلاء. ثم يتخير من بينهم الأشداء الأقوياء والأكثر ولاءً؛ فيُرسلهم –خُفية- إلى جبل العروس حيث يُدربهم طرسوس وحمدون على استخدام السلاح وفنون القتال. ويوم بعد يوم.. تشتعل قلوبهم حميةً وحماساً لكونهم جيش الغائب المنتظر؛ ويزداد عطاؤهم كلما أحسنوا؛ فيزداد ولاؤهم وتفور حميتهم. وتمر الأيام.. تلو الأيام.. تبذل فيها الذلفاء لمحمد بن هشام من أموالها الشيء الكثير –في سرية وكتمان- عن طريق اتصال فتاها بُشرى الصقلبي بعبد الجبار بن المغيرة الذي ينقلها بدوره إلى ابن هشام فيُنفقها بسخاء على صاعد الحرار ومجموعاته السرية، وعلى طرسوس وحمدون ومن يُدربان من المتطوعين.

-المشهد السبعون-

أقبل شتاءٌ قاسٍ شديد الصقيع، بارد الأجواء، غزير الأمطار. من شدته أُقعد أهل قرطبة في الدور والبيوت.. إلا قليل منهم، ومن هؤلاء القليل: أنصار الثائر المرواني المنتظر. أمسى حديث الناس في مجالسهم –العامة والخاصة- هو الغائب المرواني المنتظر: (هل هو حقيقة أم خيال؟ هل هناك ثائر مرواني حقاً؟ هل سيستطيع الثورة على العامريين وسلطانهم؟ هل سيتمكن من تحرير الخليفة والخلافة من قبضتهم؟! هل له أنصار؟ أين هم؟ ومن هم؟). يتساءل الناس؛ فيُنكر المروانيون! لكن ارتفع الضجيج، وعلتْ الأصوات. لم يعد الأمر خافياً؛ قرطبة كلها تتكلم. ها قد

بلغتْ الأنباء إلى الزاهرة، وسمع بها عبد الله بن مسلمة (صنيعة العامريين) قائد شرطة قرطبة ورئيس مدينة الزاهرة؛ فأبلغها إلى الأمير العامري عبد الله بن عسكلاجة[1]؛ فانزعج بشدة، وأقر بخطورة الموقف! لابد من التصرف سريعاً قبل أن تستفحل الفتنة، لابد من كبتِ بني مروان وإجهاض خططهم الانقلابية بكل حزم.

---

[1].. عسكلاجة هو: أبو الحكم عمرو بن عبد الله بن عامر، هو ابن عم الحاجب المنصور، وأحد وزرائه الثقات. وعبد الله المذكور هو ابنه.

لابد من إعلام المأمون ليتخذ قراره في الحال. يستأذنان في الدخول على شنجول، ويُنبئه ابن مسلمة النبأ.. فلا يُبالي بالأمر.. كأنه لا يعنيه، بل يهزأ منهما ومن بني مروان. لكن ابن عسكلاجة يخشى استفحال الفتنة؛ فيستأذن في الكلام.. ربما يُقنع ابن عمه برأيه فيقول: "سيدي الحاجب المأمون.. إنَّ الأ...". هنا ينتفض شنجول منتصباً في غضب، ويركل الطاولة التي أمامه برجله، ويصرخ في قريبه مغضباً: "ماذا تقول يا ابن عسكلاجة؟ تناديني: الحاجب؟! ألا تعلم أن الحاجب الآن هو سيدك الأمير سيف الدولة عبد العزيز بن عبد الرحمن؟! وأنَّ مهامه منوطة بك حتى يكبر؟!". ثم يهدأ.. فيجلس جامعاً ذيل ثوبه بين يديه كأنه يجمع نفسه بعد نوبة الغضب، ويستطرد في زهو وتفاخر: "أما أنا.. فإنني الملك المأمون أبو المطرف بن أبي عامر وليَّ عهد الأندلس!". يعتدل ابن عسكلاجة واقفاً في توقير.. ثم يعتذر قائلاً بتحرج: "عُذراً مولاي ولي العهد.. ذلة لسان.. ولن أعود لمثلها!". يُشير إليه شنجول بيده: أن اجلس، ثم يرمقه بأنفة كمن يقول عفوتُ عنك إلا أن تعود لمثلها. يجلس ابن عسكلاجة صامتاً، وقد بردتْ أطرافه.. فشعر ساعتئذ أن هذا الشتاء سيكون مختلفاً عن سوابقه.. سيكون أقسى شتاء يمر عليه وعلى العامريين. بعد لحظات صامتة.. يهمس ابن مسلمة متردداً: "ماذا سنفعل يا مولاي إزاء هذه الأراجيف؟". فيعود ابن عسكلاجة للحديث فيجأر: "لا بد من التصرف السريع الحازم! ينبغي

إجهاض انقلاب بني مروان قبل أن يبدأ!". بتباطؤ يفتح شنجول فمه بعد صمتٍ وجيز –ظنوه صمت تفكر وتدبر- ثم يقول: "أجل! لا بد من فعل سريع.. ليعلم بنو مروان قدرهم عندي!". يسكت هنيهة ثم ينادي على كبير فتيانه صائحاً: "يا مُحب!". يأتي محب: "لبيك مولاي!"؛ فيستأنف قائلاً بخيلاء: "أعدوا العدة لرحلة صيد.. سنخرج غداً صباحاً.. أخبر الندماء.. فليتجهزوا سريعاً!". ثم يلوح بيده بكبرياء إلى جلسائه أن: انصرفوا!

-المشهد الحادي والسبعون-

توَّغل الشتاء في جسد قرطبة وتغوَّل؛ فاشتعلتْ هامة العروس شيباً.. ومثله سائر الجبال. والتهمتْ الريحُ أوراقَ أشجاره المتساقطة، وبُترتْ أغصانُها وحُطِّمتْ؛ لتُسعر بها النارُ طمعاً في دفء صعب المنال؛ واكتستْ تلك الأشجار بالجليد الأبيض كعادة أهل قرطبة في لبس الثياب البيض من الأحزان، وما أقلعتْ السماءُ عن ذَرْفِ الدموع إلا يسيراً. (يتساءل ابن الرسان) بينما يخطو حصانه –بتثاقل ومشقة- حذو جواد سيده: "هل تجاوب إرهاصات ثورة بني مروان برحلة صيد في هذه الأجواء القارصة يا سيدنا؟!". فيجيبه شنجول –بخيلاء-: "تعلم أن غيرك لا يجرؤ على سؤالي مثل هذا السؤال!". "عفواً يا سيدنا! أنا خادمكم المطيع.. لكن عقلي البليد لا يفهم حكمة مولاي الكامنة وراء هذا التصرف!". "فما شأن عقلك البليد إذاً بأفعال الملوك والخلفاء؟!" (قالها بازدراء). "حنانيك يا مولاي! إنما دفعني الفضول.. والرغبة في أن أنهل من نبع حكمتكم!". تتعالى ضحكته المختالة –كم يحب مداهنة هذا المنافق وتزلفه إليه- ثم يقول بتعاظم كأنه حكيم حقاً: "أما وإنْ كان كما تزعم؛ فإني سأخبرك.. عساك تتعلم شيئاً ينفعك! أما بنو مروان، وما يزعمه الناس من أنهم سيقومون بثورة؛ فهو محض شائعات يروجها الحانقون الفاشلون من بني مروان

ليستروا بها سوءاتهم أمام العامة؛ لكنهم على الحقيقة أضعف من ذلك وأوهن، وإنْ كان زعمهم حقيقي فستكون ثورة فاشلة وسيهلك القائمون بها –كما دأبهم سابقاً- وليس المجحوم هشام بن عبد الجبار منهم ببعيد. لذلك فهم أقل شأناً من أن أنشغل بهم؛ وسيكفينيهم ابن مسلمة وابن عسكلاجة. أما خروجي للصيد في مثل هذه الأجواء القارصة؛ فالغرض الأول منه أن يعلم الناس أني لا أخشى المروانيين، ولا ثورتهم!". "والغرض الثاني يا سيدنا؟!". سكتَ لحظات يفتش فيها بين أفكاره عن الغرض الثاني، ثم قال بتباهي: "الغرض الثاني: أن تطمئن الأمة الأندلسية أن ولي عهدها، وخليفتها القادم قوي وشجاع، ولا يخشى الشتاء وزمهريره ولا صواعقه ولا هطول أمطاره.. بل يخرج للصيد في هذه الظروف الصعبة دون أن يثنيه عن عزمه شيء.. وبذلك تطمئن الأمة أن مستقبلها في يد قوية صلبة قادرة على حمايتها من أي عدو يتربص بها!". يهلل ابن رسان بنبرة إعجاب مبالغ فيها: "الله! الله! ما أحكم مولانا!". يصمت برهة.. ثم يتساءل ببلاهة مُرْهَقة: "هل يوجد غرض آخر يا سيدنا لهذا العناء الذي نحن فيه؟!". ينكز جواده لينطلق مطارداً خلف ظبية ضئيلة لمحها تركض فزعة تحت زخات المطر صائحاً: "إنني أحب الصيد في مثل هذه الأجواء!".

هلع عظيم تملَّك ابن الرسان ورفاقه لما اختفى الملك المأمون عنهم بغتة بين الأحراش والأشجار. ولم تكن معاناة ذاك الحصان الذي يرزح تحت الملك بأدنى من هلعهم، ولم يكن فزع تلك الظبية الصغيرة الضئيلة بأقل من الجميع؛ فقد كانت تركض في خوف ومشقة.. لا تدري أين تهرب من البرق والرعد والمطر؛ بينما لم تلحظ ذلك الصائد الماكر الذي تربص بها! ران القلق والترقب على وجوه القوم، ولم يعد يُسمع غير رجَّة الرعد ودقات المطر الغليظ فوق أغصان الشجر، أو فوق جُثالَتها التي افترشت الأرض. ارتفع لهاث الخيل وراكبيها، وما فتئوا يترقبون خروج الملك من وراء الأحراش، طال انتظارهم، كما ارتفع لهاثهم، وبين الفينة والفينة ينفث أحدهم -أو أحد خيلهم- بخار أنفاسه في الهواء البارد فيزداد كثافة كأنه لن

ينقشع. ملّتْ الخيل الانتظار وتململتْ، وغرق القوم في ثيابهم المبتلة، ولم يعد لديهم طاقة للصبر أو لتحمل تلك السياط المصبوبة فوقهم من السماء. استجمع ابن الرسان كل طاقته –التي بالكاد اجتمعتْ- واندفع يصرخ منادياً سيده خلف الأحراش: "سيدنا أمير المؤمنين! هل أنت بخير؟". واندفع الآخرون يصرخون مثله بكل ما لديهم من قوة، وبكل ما لديهم من رغبة في التخلص مما يكابدون. ارتفع الصراخ، وتعالتْ الصيحات؛ ولمّا يجيبهم الملك! يتكرر النداء، ويتعالى صياح ابن الرسان: "مولانا أمير المؤمنين! مولانا أمير المؤمنين!". أخيراً.. وقُبيل أن ينفجر القوم تغيظاً، وقبيل أن تُهلكهم زخات المطر.. والانتظار؛ طلع عليهم الجواد يئن من الاجهاد والبرد وهو يرزح تحت الملك الذي تشبث بصهوته حاملاً بين يديه ظبية ضئيلة نافقة، وبين شفتيه ابتسامة فيها تحد المنتصر. خاطبهم بصوت يُجهده المطر ويتهدجه اللهاث: "ما لكم تصرخون هكذا؟! هل أنتم مجانين؟!". فصاح ابن الرسان بهلع مصطنع: "كدنا نجن خوفاً عليك يا أمير المؤمنين". "لو خفتَ عليَّ حقاً للحقتْ بي أيها اللكع! بماذا ناديتني التوِ؟!". "قلتُ: أمير المؤمنين! هل أخطأتُ يا سيدنا؟". علتْ ضحكته المغرورة وهو يصيح: "لم تخطئ.. وسيناديني الجميع بهذا اللقب عما قريب.. لكن اكتمها الآن!". تساءل ببلاهة وضجر: "ألا ننصرف إلى قرطبة يا سيدنا؟! الخيل كادتْ تهلك، واركبوها!". فصاح شنجول بإباء وأنفة: "نعم! فلنعد إلى قرطبة.. يكفيني هذه الفريسة لإثبات ذاتي!". بعد جهد جهيد ومكابدة شاقة في تلك الأجواء المضنية عاد ركب الملك -شبه سالم- محملاً بغنيمة صيده: فريسة نافقة يلعنها الجميع.

-المشهد الثاني والسبعون-

في مقر الحاجب بقصر الخلافة استقبل ابنُ عسكلاجة عبدَ الله بن مسلمة. رحب به في عجالة ثم أجلسه إلى جواره، وصرف من في المجلس من خدم وإماء، ثم ناول

ضيفه كأساً من الخمر وهو يقول: "اشرب هذا فهو يبعث على الدفء!". سكت برهة ثم بدأه بالحديث قائلاً: "لابد من وضع حد لثورة بني مروان المزعومة!". "أجل! لا جرم أن الأمر يثير القلق والريب!". "لذلك ينبغي علينا أن نبادرهم، ونكون أسرع منهم في الوثوب عليهم!". "يا سيدي.. نحن لسنا واثقين إنْ كان ثمة ثورة حقيقية؛ ولا نعلم من الثائر المزعوم؟!". قطَّب ابن عسكلاجة جبينه وأخذ يعبث بأنامله في عُثْنُونه، وأمعن عقله في تفكير عميق ثم هتف: "صدقتَ! لذلك يجب أن نبدأ من هذه النقطة؛ علينا أن نعيِّن هذا الثائر المرواني.. ونعرفه: من يكون! فهو رأس الحية!". "كيف ذلك يا سمو الأمير؟! وكما تعلم فإن المروانيين يُنكرون، وكلما سألناهم؛ نفوا أن يكون ذلك صحيحاً، ويؤكدون أنهم على عهدهم ووفائهم لبيعة ولي العهد". "لابد للسراج من السِّناج يا ابن مسلمة؛ وإني واثق أنهم يدبرون أمراً عظيماً!". "كما تعلم أيها الأمير فإن المأمون ليس مقتنع بذلك، ولقد رأيتَ بعينكَ ما فعله حينما أخبرتُه بنبئهم!". أجاب بنبرة حسرة وتأسف: "نعم! خرج لرحلة صيد في مثل هذه الأجواء". سكتْ هنيهة ثم استأنف كلامه هاتفاً بحماس وإصرار: "لكن هذه ليستْ دولة المأمون وحده؛ بل هي دولتنا –نحن العامريين- جميعاً، وهو إذ يخرج للصيد؛ إنما يترك لنا التصرف في الأمر. فأنا رئيس الزهراء والقائم بأعمال الحاجب، وأنت رئيس الزاهرة وقائد الشرطة". "أنا طوع بنانكَ! أشر بما يجب فعله؛ وسأُنفذ تواً!". "أبغي أن ألتقي بشيخ المروانية: هشام بن سليمان، وأريدك أن تراجع أسماء من بايع منهم المأمون بولاية العهد ستجد أسماءهم في الديوان. واحصر أسماء من لم يبايع منهم". "إنك تبحث عن شخص الثائر المرواني؟". "أجل.. أود أن أعرف إنْ كان موجوداً حقاً!" "وماذا نفعل مع المرجفين الذين يرددون الشائعات في كل أنحاء قرطبة؟". حدَّق فيه بعينين كأنما تستعر فيهما النيران؛ ثم صاح بنبرة حازمة: "نقطع الألسنة! لتأمر بالقبض على كل من يتكلم في هذا الشأن. بل.. كل من ترتاب أنه يثير هذه الفتنة.. ولتودع الجميع السجن!". "إذا أخذتُ بالريبة؛ فسيزداد عدد

السجناء!". "لا تهتم؛ وإنْ سجنتَ أهل قرطبة كلهم. يجب أن يهابنا الناس؛ فإنَّ الرعية أطوَّع للسلطان بالخوف منه. وإنْ لزم الأمر؛ فاعمد إلى أهل الريبة؛ فاعمل فيهم السيف؛ فهذا أحفظ لأهل اليقين. أريد أن يعلم المروانيون وأهل قرطبة جميعهم: أن بطش العامريين شديدا!". "أخشى -إنْ فعلنا- هيجانَ الناس علينا!". "أحكم قبضتك على قرطبة، وبُث عيونك في المحافل والأسواق والمساجد. ومن يهيج -كما تزعم- فدواء دائه السجن أو السيف. لن نحفظ هذا المُلك إلا بالخوف.. أتفهم يا رجل؟!". "فهمتُ! لكن.. المروانيون! هل أقبض على من أرتاب فيه منهم أيضاً؟". صاح بتوتر: "لا.. لا! هل جُننتَ؟! إنهم عشيرة الخليفة؛ إياك أن تمسهم بسوء. لكن.. إنْ عرفنا ذلك الثائر المزعوم؛ فسيكون لنا معه شأن آخر. عليك فقط بالدهماء، والبسطاء من أهل قرطبة.. إلى حين! ثم نتدبر أمر المروانيين على مهل". "فهمتُ؛ وسأُنفذ أيها الأمير، لكن.. ستزداد نفقات الشرطة.. والعيون التي سنبُثها في الأسواق!". "خذ من بيت المال ما يكفيكَ".

-المشهد الثالث والسبعون-

"لابد من رأب هذه الصدوع في سقف الحظيرة؛ وإلا ستهلك الماشية من كَلَب المطر والبرد القارس!". "صدقتِ يا سيدتي! إن شاء الله سعدون ولدي ومعه الخشَّاب يأتيان بعد قليل لإصلاحها". "ليتْ شعري! أين منا حمدون حفيدي الآن؟! علام يتركني هكذا في مثل هذه الأجواء؟! ويفارق البيت بالليالي والأيام الطوال.. لا أراه فيها! ولا أعلم عنه شيئاً! هداك الله يا ولدي". "اعذريه فهو شاب؛ والشباب يُحب الانطلاق في الحياة". "ويتركني هكذا وحدي بلا معين.. يا أم سعدون؟!". "يا ويحي! كيف هذا؟ ألسنا أعواناً لكِ يا سيدتي أنا وولدي، وسلوان أيضاً؟!". "لم أقصد! تالله إنكم خير معين، وأحسن جليس.. لكنه حفيدي؛ وليس لي في هذه الدنيا سواه؛ وإني أخاف عليه!". "حمدون لم يعد طفلاً صغيراً لتخافي عليه يا أم هشام لقد بلغ

مبلغ الرجال؛ فذريه يواجه الدنيا ويعش حياته وفق ما يحب. ولا تضيقي على ولدكِ؛ فينفر منكِ!". رمقتها بلحظها، وقالت بتهكم ممازحةً لها: "بخٍ بخٍ يا أم سعدون! من أين أتتكِ هذه الحكمة؟!". فأجابتها بابتسامتها العجوز الطيبة: "إنما علمتني الحياة!". سمعتا جلبة عربة تجرها البغال تتوقف أمام الدار، ثم أقبل سعدون منادياً بصوته الجهوري: "أين أنتنَّ يا سيدات؟ لقد أحضرتُ حسان الخشَّاب!". تدركه أمه قبل أن يلج من الباب، وتُنذره بصرامة: "احذر! لا تطأ أرض الدار بقدميكَ الموحلتين هاتين. اذهبا إلى الجهة الأخرى حيث باب الحظيرة". عدَّل حسان الخشَّاب من وضع عربته لتواجه باب الحظيرة، ثم دلف من الباب حاملاً بعض الأغراض من فوق العربة وهو يصيح: "السلام عليكم يا أهل الدار". "وعليكم السلام ورحمة الله.. مرحباً بك يا حسان!" (قالت أم هشام). "مرحباً يا سيدتي! لقد أحضرتُ الأخشاب والعِدد اللازمة لإصلاح السقف.. وسأنقلها إلى داخل الحظيرة". "أحسنتَ يا ولدي.. بارك الله فيك!". "لكني لن أتمكن من العمل اليوم يا أم هشام!". "لِما يا ولدي؟!" (تساءلتْ بتحسر). "كما ترين يا سيدتي المطر لم يتوقف منذ أيام، والبرد قارص.. ولم يرض أحد من العمال أن يأتي لمساعدتي. وتالله.. لولا أنها حظيرتكِ أنتِ لما جئتُ أنا أيضاً". "سلمتَ يا عزيزي! لكن.. -كما ترى- الصدوع تزداد، والماشية تتأذى؛ وأخشى لو تركناها أن يتهدم السقف فوق هذه الحيوانات العجماء التي لا حول لها ولا قوة!". "أنا سأُساعدكَ! وتصلحه الآن" (صاح سعدون متحمساً). "لا تكفي وحدك.. أحتاج إلى رجلٍ آخر معنا". هنا.. جاءتْ سلوان من أقصى الدار تصيح: "أنا سأساعدكما.. هلما نبدأ قبل أن يجن الليل علينا أو يشتد كَلَب الأمطار!". توجهتْ إليها أم هشام تعترضها في مودة وهي تقول: "لا! هذا عمل الرجال يا بُنيتي وهو شاق عليكِ!". "لا تراعي يا أمي! إن شاء الله سأقدر على مساعدتهما؛ فما ذنب هذه الحيوانات العجماء لتبقى في هذا البرد القارس والمطر الغزير ليلة أخرى؟!". "هل أُنقذ ماشيتي لأُضحي بكِ؟!" (هتفتْ أم هشام باستهجان

عطوف). بعد جدال طويل –ليس له سبب إلا المودة- حسم حسان النقاش بين أم هشام وسلوان صائحاً: "إنْ كان ولابد؛ فسوف استعين بكِ فيما تقدري عليه.. لكن هيا نبدأ الحين لكيلا نتأخر!". استسلمتْ أم هشام لإصرار سلوان، ولوعد الخشَّاب بألا يُكلفها فوق طاقتها؛ فبدأ ثلاثتهم العمل؛ بينما أم هشام وأم سعدون تعتنيان بالماشية، وتراقبان العمل عن كثب.

"صوت الرعد يرعبني!!" (صاح حسان) وهو متسلق جذع نخلة وسط الحظيرة، بينما يتفادى سعدون لوحاً خشباً -كاد يسقط فوق رأسه من يد حسان- ويصرخ قائلاً: "احذر يا هذا! لقد كدتَ تقتلني!". "أُعذرني أيها الفتى الطيب؛ فإن صوت الرعد يرعبني!". أقبلتْ أم سعدون من جانب الحظيرة تسعى لتتفحص ابنها، وتطمئن عليه؛ بينما هتفتْ أم هشام من بعيد: "هل هو بخير يا أم سعدون؟". فأجابتها وآثار الجزع لا زالت على وجهها: "الحمد لله! أنجاه لُطف الله!". تطلعتْ سلوان لأم هشام –وهي مقبلة عليهم- فإذا بزخات المطر قد أخضلتْ رأسها وثيابها؛ فاستوقفتها؛ وهتفتْ إليها بتوسل: "بالله عليكِ يا أمي ادخلي إلى الدار.. فقد ابتلتْ ثيابكِ؛ وأخشى عليكِ من هذا البرد!". ابتسمتْ بدلال وهي متقمصة هيئة الشباب، وقالتْ مداعبة: "وأنتِ أيضاً ابتلتْ ثيابكِ! أم تحسبين أنكِ أكثر مني شباباً، فإني الحمد لله أتحمل مثلكِ!". "بارك الله في صحتكِ وعمركِ يا أماه.. بالله عليكِ ادخلي الدار؛ ونحن نكفيكِ العمل!". "لن أترككم حتى تنتهوا مما بين أيديكم!" (أجابتها بلهجة حازمة ودودة). صوَّتَ الرعدُ مرة أخرى؛ فارتجف حسان! لكنه تمالك نفسه سريعاً، فابتسمتْ أم هشام من هيئته المرتعبة، وضحك منه كل من سلوان وسعدون وأمه. خاطبته أم هشام: "إلى هذا الحد تخاف من رجَّة الرعد؟!". "إني أرتعب منه يا سيدتي!". أجابته بخشوع وهي تتأمل بناظريها قبة السماء: "سبحان الله! نخاف الرعد؛ وهو من آثار رحمته؛ فما بالنا بعذابه؟". "اللهم إنا نعوذ برحمتكَ من عذابكَ!" (تمتم الجميع خلفها في خشوع). ثم استأنف حسان الكلام هامساً –

كأنه يخشى أن يسمعه أحد-: "أحسبُ أن الرعد هذه الأيام من عذاب الله، لا من رحمته!". استهجنتْ أم هشام: "استغفر الله! لِمَا تقول هذا يا ولدي؟!". " ألا ترين ما نحن فيه يا سيدتي من كساد الأسواق، ونقص الأقوات؟!". "اللهم ارفع عنا ما بنا من كساد ونقص!". "إنما كسبناه بأيدينا يا أم هشام. إن الله لا يغير ما بقوم؛ حتى يغيروا ما بأنفسهم. وأهل قرطبة كلهم يعلمون أن سبب ما نحن فيه من الفاقة بعد رخاء ليس ببعيد؛ هو غضب الله علينا لسكوتنا عن منازعة الأمر أهله؛ وانتزاع الخلافة من بني مروان دون وجه حق!". "حتى أنتَ تتكلم في هذا الشأن يا خشَّاب!!". "ليس لأهل قرطبة حديث هذه الأيام غير شنجول وانتزاعه الحق من أهله".

"من شنجول؟!" (تساءلتْ أم هشام)؛ فأجابها حسان متعجباً من عدم معرفتها به: " "إنه المأمون عبد الرحمن بن أبي عامر يا سيدتي. لم تعد قرطبة تسميه إلا بهذا الاسم". سكتتْ أم هشام، ولم تُعلق.. لكن جال بخلدها: الذلفاء وما أبدته من إصرار على الانتقام من شنجول هذا. استأنف حسان حديثه بنبرة خفيضة كمن يخشى أن تشي به الجدران إذا سمعته: "لكني متفائل يا أم هشام لأن هذا الحدث هو ما أيقظ بني مروان من غفلتهم.. وفي هذه الأيام العصيبة بدأتْ بشائر هذه الصحوة؛ فالكل يتحدث عن الثائر المرواني القادم الذي سيُزيح شنجول عن ولاية العهد، والعامريين عن الحجابة؛ ثم يرد الحق لأصحابه.. وتعود الأندلس لبني مروان". "وما أدراك أن العامريين سيقفوا مكتوفي الأيدي؟" (تساءلتْ أم سعدون). "بالتأكيد لن يستسلموا! فقد سمعتُ أن ابن عسكلاجة وصاحب الشرطة يتوعدان كل من يتحدث في تلك الفتنة –كما يسمونها-، وسوف يبطشون بكل ضالعٍ فيها. لكن أين سيدهم وزعيمهم شنجول؟! إنه مشغول عن الدولة وتدابيرها باللهو والصيد والمجون؛ وأحاديث فحشه وفسقه تملأ الأسواق". "ستكون فتنة عظيمة إنْ استمرت قرطبة على هذه الحال!" (علقتْ أم هشام بعد طول سكوت). "إن كنتَ تعيب على المأمون الصيد؛ فكلنا نخرج للصيد.. حمدون الحين خارج للصيد!"

(صاح سعدون ببلاهة الأطفال)؛ فنظرتْ إليه سلوان شزراً.. وقالتْ تُأنبه مغتاظة: "ليس صيد حمدون كصيد شنجول يا سعدون!". تألمتْ أم هشام لقول سعدون، ووخز صدرَها إهمال حفيدها لها واشتياقُها إليه، فهتفتْ بمرارة: "لا ينبغي للمرء أن ينشغل بالمفضول عن الفاضل، ولا باللهو عن العمل!". استأنف حسان –وهو منهمك في عمله- كلامه متحمساً.. لكن بصوت هامس: "صدقتِ يا أم هشام! لذلك أنا متفاءل كما قلتُ لكم؛ فإن انشغال شنجول بلهوه عن عمله سيُتيح الفرصة للثائر المرواني أن يقوم ويهب لتخليص أهل الأندلس من نير العامريين والبربر الذي خنقنا جميعاًا!". "أنت تردد حديثاً لا تفهمه أيها الرجل. كُف عن الثرثرة؛ وانتبه لعملك؛ كي ننتهي من هذا الكَبَد؛ فقد آذتنا الأمطار!" (صاحتْ فيه أم سعدون لِما رأته على وجه سيدتها من آثار تعب ووجوم). "حقاً! إنه جبانٌ ثرثار!" (هتف سعدون وهو يضحك ملء شدقيه). فضربه حسان على رأسه ضربة خفيفة، وصاح فيه موبخاً: "انتبه لما تقول أيها الأحمق!". قطعتْ أم سعدون تشاجرهما الصبياني وهي تخاطب سيدتها: "أرى عليكِ أثر التعب؛ هلمي إلى الداخل يا أم هشام!". غير أن أم هشام –في هذه اللحظة- كانت تراقب سلوان التي انزلقتْ قدمها –وهي تحمل سعفاً لتناوله حسان- فوقعتْ في أوحال الأرض؛ هرعتْ إليها أم هشام لتساعدها في الوقوف: "احذري يا سلوان!". اندفعتْ إليها أم سعدون –هي الأخرى- صائحة: "هل أصابكِ مكروه يا بُنية؟". ابتسمت سلوان ابتسامة خافتة وهي تحاول الوقوف دون أن تستند إلى يد أم هشام الممدودة إليها، ثم قالتْ بنبرة فيها تألم عبثاً حاولتْ إخفائه: "الحمد لله.. أنا بخير؛ لا ترتاعا!". "ألا تنتهي أيها البطيء؟! لقد كدتَ تُهلكنا جميعاً في عملك هذا!" (صاح سعدون في حسان وهما يراقبان بتلهف سلوان وهي تقف من سقوطها). "الحمد لله.. قد انتهيتُ، وإن شاء الله بعد أن يُقلع المطر آتي لأتأكد من سلامته مرة أخرى!" (قالها حسان وهو ينزل بحذر من تحت السقف دون أن يأبه لكلام سعدون). بينما تتكأ سلوان على كتف أم سعدون؛ قالتْ أم هشام له

وهي تراقبها بقلق: "سلمتْ يداك يا ولدي! وسامحني على اضطرارك للعمل في هذه الأجواء". "لا تقولي هذا يا سيدتي! سأنصرف الآن. وليطمئنكم الله على الفتاة.. السلام عليكم!".

-المشهد الرابع والسبعون-

سليمان وأبو بكر أرادا أن يذهبا مع أبيهما (هشام بن سليمان) حيث استدعاه ابن عسكلاجة إلى مجلسه؛ لكن الأب أصر على الذهاب وحده، وأرشد ولديه إلى توخي الحذر، وعدم إفشاء سرهم مع محمد بن هشام، وترقب عودته من لقاء الأمير العامري. فإنْ لم يعد؛ فعليهما اللجوء إلى محمد وجماعته لاستنقاذه من بين يديه. دخل الشيخُ المرواني مقر الحاجب الذي خلف أسوار قصر قرطبة، ومكث ينتظر حتى يأذن له الأمير العامري. طفق يجول بناظريه في معالم المكان: قصور وحدائق غنّاء كانت كلها طوّع بنان أجداده، وساكنوها كانوا عبيد وخدم جده. يا لغدر الأيام! الحين يدخلها هو منكس الرأس؛ كرجل من الدهماء باستدعاء من أحد خدَّام آبائه. فراح يُتمتم في نفسه: (إنا لله وإنا إليه راجعون) تأسفاً على مُلك المروانية الذي يتنعم به غيرهم. أُذن له بالدخول على ابن عسكلاجة فاستقبله بفتور.. ثم راح يحدجه بعيني ذئب يطالع فريسته قبل الفتك بها؛ بينما الشيخ المرواني ساكت لكن يبادله نظرة بنظرة متمسكاً بشيء من أنفة المروانيين الغابرة. بعد ساعة من الصمت، والنظرات المتبادلة بتحفز؛ صاح ابن عسكلاجة قائلاً بغلظة: "ما خطبكم يا بني مروان؟! منحكم الله مُلك هذه البلاد؛ فكنا لكم تبعاً: تقولون فنسمع لقولكم، وتأمرون فنطيع أمركم. وعندما وليتمونا حجابتكم توليناها بأحسن ولاية وحفظناها بأفضل رعاية، ورفعنا رايتكم وجاهدنا تحتها مضحيين بالغالي والنفيس والدم والروح. ثم أراد الله أن نتولى عهدكم بمحض إرادة الخليفة المؤيد وبايعتم على ذلك بحُر إرادتكم؛ ثم تأتون الآن تريدون نقض العهد والإفساد في الأرض

وسرقة ما منحنا اللهُ إياه؟؟!". "تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد في الأرض وما كنا سارقين!". "فما بال ما نسمع من قول العامة: أظلنا زمان الثائر المرواني الذي سيفعل ويفعل!". "ليس لي به علم! وإنك تعلم أنَّنا لم ننقض بيعتنا، وأننا أحرص منكم على طاعة خليفتنا المؤيد أعزه الله!". "إذاً! من أين يأتي العامة بهذه الشائعات والأراجيف؟ من هذا الثائر المزعوم؟!". "لستُ على علم بشيء من ذلك!". "أرأيتَ إنْ كان منكم متآمرون حقاً؟! أريتَ إنْ كان ثائر مرواني كما يدعي المرجفون؟!". "لا أظن ذلك!". "فما جزاؤه إن كنتَ من الكاذبين؟" (صاح به في صرامة وانفعال). "جزاء من نقض البيعة؛ فهو جزاءه.. كذلك نجزي الظالمين!" (صاح بذات الصرامة والانفعال).

"مَن مِن المروانية لم يبايع الملك المأمون بولاية العهد؟" (استأنف كلامه بنبرة أهدأ). "كلنا بايعنا!" (أقر في حسم، وبنبرة أهدأ). "لا! لم يبايع كل المروانية يا شيخ المروانية. بقي رجل منكم لم يبايع!". "من هذا؟!" (تساءل بإنكار). "محمد بن هشام بن عبد الجبار! ألا تعرفه؟!" (صاح كمن يباغته). "أنت تعلم أننا -معشر المروانية- قد تبرأنا من هشام بن عبد الجبار منذ فِعلته التي فعل!". "ومحمد ابنه؟!". "هذا فتى صعلوك.. لا يُأبه له!". "أريده أن يأتي إليَّ ليبايع المأمون على ولاية العهد؛ فهو الوحيد من عترتكم الذي لم يبايع!". "أنا لا أعلم له مكاناً.. فهو صعلوك هائم على وجهه في أنحاء الأندلس. إنْ ظفرتَ به فهو لك!". "سأظفر به، وسيُبايع.. وإلا!".. (أراد أن يهدده)؛ لكن.. قاطعه الشيخ قائلاً في كبرياء وأنفة مروانية عتيدة: "هل يأذن الأمير لي بالانصراف أم يريدني في شأن آخر؟!". انصرف أيها الشيخ إلى حين!".

-المشهد الخامس والسبعون-

أصرتْ أم هشام ألا تدع سلوان حتى تطمئن على سلامتها بعد سقوطها. وأعدتْ لها ماء دافئاً لتغتسل به، وجلستْ إلى جوارها تدلك لها قدمها ورجلها بحنان الأم

ولهفتها؛ مما استفز الدمع في مقلتي سلوان التي راحتْ تُقبل يد أُمها الجديدة بامتنان الابنة المُحبة لأُمها الحنون. أما أم سعدون فقد غادرتْ إلى بيتها -بعد الاطمئنان على سلوان- مع ابنها بعدما عاون حسان الخشَّاب في تحميل أغراضه على عربته. كي تُطمئنها وتُأكد لها أن ليس بها بأس؛ قامتْ سلوان من مجلسها وذهبتْ تمشي إلى مخدعها، وأخرجتْ من خزانة أغراضها صندوقها الصغير -الذي أعاده لها حمدون آنفاً- وجاءتْ تمشي به إلى أم هشام حيث جلستْ تلتقط أنفاسها؛ ثم شرعتْ تفتحه لتستخرج محتوياته وهي تقول: "أود أن أُريكِ الدليل على صدق ما قصصتُه عليكِ من حكايتي يا أمي!". أمسكتْ يدها بحنان لتمنعها من فتح الصندوق ورنتْ إليها بعيون مُحبة، وهمست في مودة: "كما قلتُ لك من قبل: لن أرى شيئاً؛ فأنا أصدقكِ بغير دليل". كان همسها ودوداً حنوناً؛ لكنه ضعيف واهن، يتهدجه ألم لاحظتْ سلوان آثاره على وجهها، وأحستْ بحرارة شديدة تنبعث من يدها حين لمستها؛ فهتفتْ بارتياع: "ماذا بكِ يا أمي؟ هل تشعرين ببأس؟!". أجابتها بابتسامة باهتة، هامسة بصوت خائر: "لا بأس إن شاء الله إنما هي آثار عمل يوم شاق...". حاولتْ القيام من مجلسها؛ غير أنها ترنحتْ واختل توازنها؛ فأسرعتْ سلوان وأسندتها إلى ذراعها، ثم أجلستها على أريكتها بهوادة، وجلبتْ لها وسادة أسندتْ رأسها إليها، ثم رفعتْ قدميها عن الأرض وأضجعتها على الأريكة.. وهي تهتف في ذعر: "أنتِ متعبة يا أمي! وحرارتكِ مرتفعة!". "لا تجزعي يا بُنية! إنما أصابني دوار.. سأكون بخير بعد قليل بإذن الله!". سكتتْ كأنما أجهدتها تلك الكلمات ثم زفرتْ زفرة ألم خائرة.. ثم زرعها العطس والسعال، مما دفع سلوان إلى أن تسند رأسها إلى صدرها وهي تهتف مذعورة: "لا إله إلا الله.. لا بأس عليكِ يا أمي!".

-المشهد السادس والسبعون-

ليالي قارسة البرد تمر بطيئة قاسية؛ وما زالتْ أم هشام طريحة الفراش مريضة منذ ذلك اليوم. وسلوان قائمة إلى جوارها تطببها وتخدمها وترعاها وإلى جانبها أم سعدون وابنها. وما أن علم الجيران والأصحاب بمرض أم هشام حتى هرع الجميع إلى عيادتها والاطمئنان عليها. غير أن الحُمى الشديدة التي أصابتها منعتها من الكلام.. أو التعرف على زوارها. حينما علمتْ الذلفاء بمرضها خافتْ عليها؛ وأرسلتْ لها طبيبها الخاص ليباشر علاجها بنفسه! بيد أن المرض أغفلها عن ذلك كله.. وتأخر شفاؤها. كانت -إنْ أفاقتْ للحظات ضئيلة- تهمس بصوت خائر: "حمدون!". وإذا غابتْ عن الوعي؛ تفتأ تذكر حمدون، وتهلوس باسمه. لكنه غائب، ولا يعلم أحدٌ بمكانه. كانتْ أم سعدون تبكي فرقاً على سيدتها وتصيح منتحبة بقلب موجوع: "أين أنت يا حمدون؟! جدتكَ ستموت وهي مشتاقة إليك! يا حسرتي عليكِ يا فاطمة!". تنهرها سلوان صارخة: "لا تقولي هكذا يا أم سعدون! ادع الله بالشفاء والخير!". غير أنها تعجز عن إسكاتها، وتعجز عن منع عيونها من ذرف دموع الشفقة والهلع. بعد أيام قاسية لا شمس فيها ولا أمل هدى الله سلوان إلى وسيلة عسى أن يصلوا بها إلى حمدون! فاستدعتْ سعدون وهمستْ في أُذنيه أن يذهب إلى سوق الحرير ويسأل عن تاجر اسمه: صاعد بن عبد الوهاب ويقابله بنفسه ثم يُسر إليه: أن جدة حمدون بن هشام مريضة مرض شديد ويجب أن تراه في أسرع وقت. لم تكن سلوان على يقين من أن هذه الوسيلة ستنجح في الوصول إلى حمدون، وإعلامه بمرض جدته.. لكن ليس لديها حيلة أخرى! فقد خمنتْ أن صاعد –الذي تذكره منذ التقتْ به في مغارة ابن هشام ذات ليلة غابرة- قد يعرف مكان حمدون، وعساه أن يصل إليه! قبل أن ينطلق سعدون إلى صاعد أكدتْ عليه سلوان للمرة المائة أن يحرص على كتمان الأمر، والإسرار إلى صاعد نفسه بالخبر خُفية، ولكيلا يرتاب حمدون وصاعد أنها مكيدة؛ أرسلتْ معه منديلاً لها –يعرفه حمدون جيداً- ليعطيه صاعد إلى حمدون.

-المشهد السابع والسبعون-

دأب الأمير ابن هشام -منذ بدأ تنفيذ خطته الانقلابية بأموال الذلفاء- على الاجتماع برجاله الخلصاء خُفية بشكل دوري، وتأكيداً للحيطة والسرية يتغير مكان اللقاء من آن لآخر. اليوم يجتمع معهم –في بيت مستور نائي خلف جبل قرطبة- لمتابعة آخر مستجدات الأحداث، وليُناقش معهم ما دار في لقاء شيخ المروانيين مع ابن عسكلاجة. العُصبة المجتمعة معه هذه المرة هم: عبد الجبار بن المغيرة ومحمد أخوه وصاعد الحرار وحمدون وطرسوس، وسليمان بن شيخ المروانيين. بدأ صاعد الكلام بتحفز، وهتف بنبرة تفوح تغيظاً وتحذيراً: "شرع ابن مسلمة وابن عسكلاجة في ملاحقة الناس والتضييق عليهم، وقد أعلنا في الأسواق أن كل من يثير الفتنة ليعبث بأمن الرعية، وكل من يسعى للخروج عما أجمعتْ عليه الأمة، وكل من يطعن في عهد أمير المؤمنين؛ فمصيره إما السجن أو القبر! وأضافا -بزعمهما-: أن حياة الأمة وأمنها في وأد الفتنة وأهلها!". "طبعاً المقصود بقولهم (الفتنة): خبر الثائر المرواني، وأهلها هم أعواننا!" (قال عبد الجبار معلقاً بسخرية). "يا حسرة على العباد! أتتني الأخبار أن ابن مسلمة قد بث رجاله في كل مكان، وأمر باعتقال كل من يذكر الثائر المرواني وأحقية المروانيين في الخلافة، وكل من يتهم شنجول بالسوء. وقد أحاط جنوده بالأسواق وبالمجالس العامة حتى تأذى منهم الناس.. وقد اعتقلوا أناساً كثيرين". "هل اعتقلوا أحداً من رجالنا؟!" (تساءل الأمير باهتمام). "لم يعتقلوا أحداً من خلصائنا.. لكن بعض الجهال من الدهماء الذين يروِّجون لنا". "فماذا ترى يا صاعد؟" (تساءل الأمير). "أرى يا سيدي أن نتوقف عن العمل حتى تمر الأزمة، ويكفون عن ملاحقة الناس". "ما هذا برأي!" (هتف الأمير بجدية)، ثم أضاف: "لو توقفنا عن شحذ الناس ضد العامريين الآن؛ فسيضيع كل ما بدأناه.. وسنضطر بعد حين للبدء من جديد كأننا لم نخطُ خطوة واحدة.. ولن أقبل بهذا!". فقال عبد الجبار: "أتفق معك يا أبا الوليد! إنْ توقفنا عن العمل الحين؛ فقد تبددتْ جهودنا

سدى!". " فما الرأي إذاً؟!" (تساءل محمد أخوه متحيراً). "يجب أن نستمر في عملنا، لكن نحتاط لأنفسنا أشد من قبلُ.. ونتمسك بسرية العمل، ونُخفي –يا صاعد- حقيقة شخصياتنا عن عامة أتباعنا إلا القليل منهم الذين يتحتم أن يعرفونا!" (هتف الأمير)، وهو يتنقل ببصره على صفحات وجوههم تثبيتاً لهم وتحميساً، ثم أردف قائلاً بحسم: "الغاية الآن يا سادة أن نبقى أحرار بعيداً عن قبضة العامريين؛ مع بقاء نيران الدعوة مستعرة يشع ضيائها في كل أنحاء قرطبة. ولتحقيق الغايتين؛ وجب علينا العمل في الخفاء.. تحت الأرض. نعمل بجد ومثابرة كما نحن؛ لكن نتمسك بالحذر والحيطة أكثر من قبلُ". "هل نستمر في تدريب الرجال على القتال يا سيدنا؟" (تساءل طرسوس). صمت الأمير حائراً! غير أن عبد الجبار هتف في ثبات وحمية: "أجل! فليستمر التدرب على السلاح والتجهز للقتال؛ ولأقتلنَّ ابن مسلمة هذا بسيفي قريباً!". استأذن حمدون في الكلام؛ ثم تحدث موجهاً حديثه لعبد الجبار بينما نظراته موزعة على الجميع: "إذا كان الأمر كما حدثنا السيد صاعد: أن رقابة العامريين على الأسواق زادتْ، وبلغ الهلع بابن مسلمة أن يعتقل الأبرياء من عامة الناس؛ فذلك معناه: أن خبر معسكر التدريب -الذي شرعنا في إنشائه- لن يبقى خافياً عنهم طويلاً؛ وسرعان ما سيفطنون إليه. ولو حدث ذلك، وتمكنوا من الوصول إلى معسكر المقاتلين؛ فستكون خسارة فادحة لنا. فإن هؤلاء المقاتلة هم عدتنا عندما تحين الساعة المنشودة! لذا.. فإني أرى يا أبا الوليد أن ننقض المعسكر، وأن نتوقف عن التدريب حتى تهدأ الأمور". كان عبد الجبار يرمقه مستاءً من حديثه، وهمَّ أن يقاطعه؛ فاندفع فيه صائحاً بسخرية: "إنْ فَعَلنا –كما تريد أيها الفارس الشجاع- فلسوف يتفرق عنا مقاتلونا بلا رجعة، وقد يُعتقل أحدهم؛ فيرشد العامريين إلى مخابئنا.. فتكون النهاية". سكتْ هنيهة ثم أردف صائحاً بنبرة تهكم: "لن نتراجع.. ولا مكان بيننا للجبناء!" (قالها يلمز بها حمدون). فأحمر وجه حمدون وجحظتْ عيناه غضباً، وهمَّ أن يرد الإهانة؛ بيد أن الأمير أشار

إليه أن يهدأ ويسكت، ثم نظر إلى عبد الجبار وقال في كياسة: "رغم حداثة سنه إلا أن حمدون رجل حكيم لا تنقصه شجاعة الفرسان، وفارس شجاع لا تنقصه حكمة الشيوخ.. فلا تغمطه يا عبد الجبار". سكتْ هنيهة ثم استطرد هاتفاً في حمية حكيمة: "وإني أُقدر تخوّف كلا من صاعد وحمدون من استمرار العمل في ظل إرهاب العامريين للناس، وأُقدر خوفك يا عبد الجبار من خسارة ما قد كسبناه لو توقفنا الحين! لذلكم فالرأي عندي –كما قلتُ آنفاً- أن نجمع بين الرأيين؛ أي نستمر في العمل الدؤوب.. لكن بحذر شديد، ونبالغ في الاحتياط لأنفسنا وإخفاء شخصياتنا الحقيقية؛ فإن العزيمة أن نبقى أحياء دون أن تصل إلينا أيديهم. أما معسكر التدريب؛ فإني اتفق مع حمدون في رأيه. لذا فلتنقض –يا حمدون ومعك طرسوس ورجالكما- المعسكر، ولنكتفي بتدريب الرجال سراً في مجموعات صغيرة داخل الكهوف كما كنا نفعل آنفاً". ثم سكتْ يسيراً.. ورنا بناظريه إلى سليمان وهتف متفاخراً: "ويشجعنا أن نستمر في العمل ما اجتمع عندنا من مال كثير يضمن لنا ولاء الأنصار، ويشتري لنا ذمم المنافقين في فريق الخصوم! (قال كلماته الأخيرة وعيونه تخترق وجه سليمان كأنما يقول له: (لستُ محتاجاً إلى مال أبيك الشحيح!) ثم استطرد مخاطباً سليمان بتكبر: ما الذي كان يريده ابن عسكلاجة من أبيك؟". كان سليمان يراقب نظراته إليه مقطب الجبين حانقاً على إعجابه بنفسه وماله الذي لا يدري من أين جاءه؛ فبادله نظرة بنظرة، وأجابه بنبرة لا تخلو من التهديد المستتر: "كان يريدك أنت.. يا محمد!". "وأنا أيضاً أريده.. وسنلتقي يوماً ما! بماذا أجابه أبوك؟". "قال له: لا علم لي بمكانه. وقال أيضاً: هو فتى صعلوك لا يأبه له" (أجابه بذات النبرة المستترة المستفزة)؛ فانتفض محمد غاضباً.. واحمرتْ عيناه، وصاح صارخاً: "ماذا تقول أيها الوغد؟! أنا صعلوك!!". كاد المجلس السري أن يتحول إلى مجلس حرب علنية بين الأميرين المروانيين: محمد وسليمان؛ لولا أن تدخل جلساؤهما –ولا سيما عبد الجبار-؛ فهدأتْ نيران غضب محمد باعتذار سليمان

المقتضب والذي أفاد أنه وأباه لم يقصدا إهانته؛ وإنما قصد أبوه التدليس على ابن عسكلاجة لكيلا يفطن لعلاقتهما.. وهذا لا شك لصالح الدعوة وسريتها. وسرعان ما أوشك المجلس على الانفضاض بعد تلك المشاحنة بين الأميرين. بينما يَهّمُ القوم بالانصراف فُرادى واحد تلو الآخر إمعاناً في التخفي والحذر؛ مال صاعد على أُذن حمدون وهمس: "عندي خبر سيء!". "خيراً يا سيد صاعد؟!". "جدتكَ مريضة منذ أيام، والمرض يشتد عليها؛ وتريد أن تراك!". بُهت حمدون وأذهله الخبر عن الكلام، وألهبته سياط ضميره الذي أيقظته تلك الكلمات بغتة. ظل صامتاً كأنما ألجمته المفاجأة؛ بينما يُخرج صاعد من طيات ثيابه منديل سلوان ويستكمل حديثه هامساً: "هذا المنديل أرسلته الفتاة لنطمئن إلى صدق النبأ، ومع ذلك فقد أرسلتُ من قِبَلي من يستجلي الخبر عند جيرانكم؛ فعلمتُ أنها مريضة منذ فترة، وقد تأخر بُرؤها رغم أن طبيب قصر المظفر هو الذي يداويها.. لكن الشافي هو الله!". بيد يُرجفها وخزُ ضميرٍ نادم تناول حمدون المنديل، وقبض عليه بشدة كأنما يؤنب نفسه على غفلته عن جدته، ثم ارتعشتْ شفتاه وهي تهمس: "كيف وصل إليك هذا المنديل؟". فأجاب: "غلام اسمه سعدون جاءني به وأسر إليَّ بالخبر المُحزن، ماذا ستفعل؟!". أجاب بحسم وأسى: "يجب أن أذهب لأطمئن عليها وأكون بجوارها.. فليس لها غيري!". "فلتُخبر الأمير، وكن على حذر.. وإياك أن تأمن كيد العامريين!".

-المشهد الثامن والسبعون-

كان الحصان (ديجور) يهبط منحدرات الجبل منكس الرأس، يدبدب بحذر على صخره الذي يعانق أغلبَه الجليدُ، وقد تناثرت على جسده القوي الضخم ندف من الصقيع الأبيض. كان حزيناً كأنه يعلم بمرض أم هشام.. ويُنفِّس عن حزنه بزفرة متوترة من آن لآخر. وكان فارسه (حمدون) المتشبث بصهوته منكس الرأس أيضاً مطرقاً، قد تسربلتْ ملامحه بالحزن والأسى، واكتسى وجهه بالتجهم والكدر،

واعترتْ قلبه مشاعر متشابكة من القلق والندم والحزن، والتألم لإهماله جدته تلك الأيام الطوال التي قضاها مختفياً في هذا الجبل يتدرب مع جنود الثورة المرتقبة. فتئ ضميره يصرخ فيه مؤنباً وموبخاً: "كيف تنسى جدتك وتهملها هكذا.. وليس لها في الدنيا سواك؟! هل ظننتَ أنَّ تركك لها مع سلوان كافياً؛ كأنك أديتَ حقها وبرها؟! أم عساك كنتَ تهرب من سلوان؛ لكيلا تضعف عن عهدك لأبي الوليد؟! فسهوتَ -بحيرتك بين حبيبتك وصديقك- عن واجبك نحو جدتك! إلى متى تظل تتصرف مع جدتك كصبي صغير؟! ألا تدرك أنك كبرتَ.. وأنها كبرتْ وهرمتْ.. وصارت تحتاج إليك كرجل يقف بجانبها يرعاها ويرعى شئونها؟!".

الحذر من الانزلاق على صخر الجبل وجليده أبطأ سرعة ديجور؛ لكن.. ها هو ذا قد بلغ آمناً بفارسه سفح الجبل، ثم بطن السهل. دفعته لهفته على سيدته، ونكزات فارسه للانطلاق مسرعاً إلى الاطمئنان عليها. وما برح ضمير فارسه يوبخه ويعنفه بصرخات تتردد في صدره؛ فتزلزل قلبه ندماً حتى كاد أن يتدأدأ عن حصانه؛ أراد أن يدفع عن نفسه بعض لوم ذاك الضمير الغاضب؛ فشرع يسترحمه، ويعتذر على استحياء هامساً: "لن أُنكر أني فارقتُ البيت مخافة الانشغال بسلوان؛ فيُقعدني عن الوفاء بما عاهدتُ أبا الوليد عليه: أن أنصره وأسعى معه في استرداد حق المروانيين. لن أنكر أني خشيتُ من حبي لسلوان؛ فآثرتُ الابتعاد عنها إلى حين.. لكني لم أقصد إهمال جدتي". غير أن ضميره يجأر ناصحاً: "الرجل الحق هو الذي يراعي مسئولياته كلها، ويؤدي ما عليه من واجبات؛ دون أن يشغله واجب عن آخر! عليك ألا تنشغل بحبك لسلوان عن عهدك لأبي الوليد، وينبغي ألا يشغلك الوفاء بالعهد عن البر بجدتك! كلها حقوق يجب أن تؤديها لأصحابها.. فأعطِ كل ذي حق حقه! أعطِ كل ذي حق حقه!". اطمأن قلبه لتلك النصيحة التي وصاه بها ضميره، وما برحتْ تتردد في روعه حتى علا صوتها فغطى على كل الأصوات من حوله؛ فلم ينتبه إلا وديجور يخترق به الربض.. والعيون الحائرة للجيران تسأله –وتكاد تلومه-:

"أين كنتَ يا حمدون؟! وكيف تترك جدتك وحدها هكذا؟!". لم يجبهم إلا بعقل شارد وعيون زائغة، استمر في سيره نحو الدار الحزينة. قفز عن ظهر ديجور تاركاً إياه قُبالة الباب الذي اندفع يقرعه بوجل وتلهف؛ فانفتح له هلعاً، ومن وراءه شاهد سلوان وسعدون وأمه يرمقونه بعيون جامدة.. أجهدها الحزن والنصب، وأضناها البكاء والسهر. لم يكلمهم، ولم يكلموه.. بل هرع إلى مضجع جدته حيث ترقد هامدة، خائرة القوة، ذاهلة عما حولها، تتردد أنفاسها الواهنة بصعوبة، وتلهج شفاهها الزابلة بحروف اسمه. ارتمى إلى جوارها يبكي كأن لم يبكِ من قبل، وأمسك يدها -التي أفزعته حرارتها- وطفق يلثمها ويُقبلها. أذهله البكاء والجزع عمن حوله، وأغرقته لوائم ضميره في خضم من الأسى والكآبة؛ فأذعن لها برهة.. إلى أن انتشلته يد رفيقة رقيقة تربت على كتفه، رفع رأسه والتفتَ إليها؛ فرأى عيونها الحنونة تواسيه وتهدأه، قام معها مستسلماً لنظراتها الحانية، خرجا معاً إلى صحن الدار حيث ينتظر سعدون وأمه، حاول أن يتماسك ليتكلم ويسأل عما حدث؛ لكن جزعه ونشيجه منعاه.. فوقف بين أيديهم ساكناً صامتاً. اندفع سعدون يصيح فيه موبخاً: "أيش هذا يا حمدون؟! كيف تخرج للصيد وتترك جدتك كل هذه الأيام؟! إنها تموت بسببك أيها العاق!". زفرتْ أم سعدون زفرة تأوه أليمة، وراحتْ تبكي وتنتحب، وانهالتْ دموعها على قلب حمدون توبخه هي الأخرى. لايزال ساكناً صامتاً؛ لم يتحرك لتوبيخ سعدون المرور، ولا لدموع أمه التي تُقرِّعه؛ كأنه يقول لهم: "إنَّ ما يعتريك في نفسي من الندم، وما يختلج صدري من اللوم والتوبيخ أشد بكثير مما تفعلانه!". اجتذبتْ سلوانُ أمَ سعدون في أحضانها، وشرعتْ تهدئها بعد أن نهرتْ سعدون.. ثم رنتْ إلى حمدون وهمستْ في أسى رحيم: "جدتكَ تحتاج إليك يا حمدون!"

-المشهد التاسع والسبعون-

شمسٌ خجولة اطّلعت على سماء قرطبة إشعاراً بهدنة قصيرة تكرم بها زمهرير الشتاء على أهل قرطبة رأفةً بهم بعدما أصابهم في لياليه العاتية. لملم غمامه؛ فانقشع إلا قليلاً لتسفر الشمس عن وجهٍ اشتاقتْ لرؤيته وحوشُ قرطبة ودوابها.. فضلاً عن أناسيها. لم تبخل عليهم تلك الشمس الرحيمة؛ فأرسلتْ إليهم آشعتها الدافئة وضياءها المنير؛ فأحيا بها الله مخلوقات كادتْ أن تهلك برداً! وأقلعتْ السماء –إلى حين- عن صب الأمطار الغارقة إلا رذاذاً؛ فخرج الزُراع لضياعهم، والرعاة لمراعيهم، وعادت دكاكين الأسواق وحوانيتها لتفتح أبوابها من جديد.. لكن على استحياء وتوجس من شتاءٍ قاس لم ترحل لياليه القارسة بعد.

في غضون بضعة أيام دافئة تحسنتْ حالة أم هشام؛ كأنما كانت تنتظر تلك الشمس الحنونة لتوقظها من مرقدها! بل.. كانت تنتظر حمدون؛ فبرء قلبها من حزنه، وبرء جسدها من مرضه. وها هي ذي تتماثل للشفاء، وتستأذن الطبيب في الخروج من مخدعها إلى صحن الدار؛ فيأذن لها مسروراً بشفائها. تخرج متكئة على حمدون -الذي لم يفارق ظلها منذ أيام-، وقد تدثرت بملحفتها الصوفية ذات الطراز البربري، ثم تجلس على أريكتها في صحن الدار لتنعم بدفء الشمس الذي أذاب جليد الأحزان عن جدران الدار.. وعن قلبها. تراها أم سعدون تمشي على قدميها؛ فتُزغرد مبتهجة، ثم تسعى إليها تقبل رأسها ويديها، ولسانها يلهج بالحمد لله. وتُهلل سلوان –ابنتها التي جاءتها في آخر العمر- فرحاً، ثم تهرول إلى غرفة الطبخ؛ فتُعد لها حساءً لذيذاً يُطعمها حمدون إياه؛ فيرد لها شهيتها.. ويردها للحياة من جديد. ويتكرر المشهد ذاته في ضحى الأيام التالية، ويأتي سعدون ليُصارح أم هشام بأن صويحباته تشتاق -هي الأخرى- إلى شمس المرعى الدافئة بعد أن حبسها كَلَب المطر عنه أياماً عديدة؛ فتأذن له باصطحابهن إلى المروج. تستعيد قوتها.. وبهجتها التي ازدادت بما لاحظته من رونق البيت ونظافته التي لم تتأثر بغيابها عنه، ولما استفسرتْ من أم سعدون؛ علمتْ أن سلوان كانت وما زالتْ هي الملاك الذي أرسله الله لرعايتها في

مرضها.. ورعاية دارها. علمتْ الجاراتُ والصاحباتُ بتشافي أم هشام؛ فأقبلنَّ يعدنَّها ويطمئننَّ على صحتها، وازدحم البيت بالأحباب ساعة أصيل ذلك اليوم الدافئ؛ فوجد حمدون نفسه وحيداً بين زائرات جدته.. فتذكر ديجور (حصانه الأثير)، فذهب إليه ليأنس به. ولج إلى مربض حصانه، فوجد سلوان عنده؛ تعتني به وتلاعبه. ألفاها قد انتهتْ من تنظيف جسده: أزالت العوالق منه بفرشاة جافة، ثم مسحتْ جلده بقماشة مبتلة، ثم غسلته جيداً بالماء والصابون، ثم أزالتْ عنه آثار الماء بالمقشطة.. وها هي ذي تجففه بمنشفته وتدلكه وتمشط شعره وذيله. وألفى ديجور مستسلماً لها في استرخاء وسعادة؛ فسره ما رآه، وأقبل عليهما يهتف باسمها بكل ذرة في كيانه: "سلوان! حتى ديجور تهتمي به؟!". أجابته وأصابعها منهمكة في فك تعقيدات شعر عنق الحصان: "أليس من أهل الدار؟!". فهتف موافقاً: "صدقتِ! وإني أحسب أنه كان قلقاً على جدتي مثلنا تماماً". فقالت بعذوبة: "نعم! لقد لاحظتُ ذلك عليه؛ فقد كان حزيناً أيام مرضها، وها هو ذا الآن مسرور لتعافيها. إن الحصان الأصيل يخلص لصاحبه.. يتألم لألمه، ويفرح لفرحه". فهتف معجباً: "ما أراه وأسمعه منكِ يُنبأ بأنَّ لكِ دراية عظيمة بالخيل!". ابتسمتْ ابتسامتها الحلوة وهي تصدح باعتزاز: "إني فتاة عربية، ابنة رجلٍ من بني عباد!".

"أخيراً.. تذكرتَ ديجور!" (صاح -بصوته الجهوري- سعدون الذي دخل إلى الحظيرة مصطحباً الغنيمات بعد أن قضتْ نهاراً دافئاً ترتع في المروج). أعاد الغنيمات إلى مربضها، ومكث يسيراً؛ ثم أقبل عليهما يحمل بين يديه قدحاً من حليب الماعز الطازج قدمه بأدب جم إلى سلوان، وحاول خفض نبرة صوته وهو يقول: "تفضلي! قدحكِ مثل كل يوم!". ابتسمت له ابتسامة امتنان أم لطفلها، وهتفتْ قائلة: "شكراً يا سعدون!". زفر حمدون ضجراً من ذاك المتطفل الذي جاء يفسد عليه أُنسه بمحبوبته؛ لكنه ترفق به وهتف متمسكاً بالحلم: "ألن تمنحني قدح حليب يا سعدون؟!". "لا! أنا أعطيه لأم هشام ثم لسلوان فقط.. ولا أحد غيرهما!". "حتى

أنـا؟!". "حتى أنـت.. وحتى أمي لا أعطيها حليـب صـويحباتي!". "أتـأذن أن يشـاركني قدحي يا سعدون؟" (سألتْ سلوان مداعبة). "لأجل أنه هرب من جدته.. فلا!". "لكنه عـاد إليهـا ليرعاهـا في مرضـها، وقـد شـفاها الله!" (هتفـتْ سـلوان ترجـوه في دُعابـة مرحة)؛ فاستسلم لشفاعتها هاتفاً: "صحيح! قد عاد نادماً! ولأجلكِ أنتِ سأسمح له بقدح!". راغ إلى صويحباته، ثم جاء إلى حمدون بقدحٍ مملوء بالحليب، ثم صاح محـذراً: "اعلـم أني لـن أمنحـك مـن حليـب صـويحباتي مـرة أخـرى". تبـادل النظـر والابتسام مع سلوان، وشرعا يشربان الحليب.

-المشهد الثمانـون-

نهر (الـوادي الكبير): هـو نهـر قرطبـة العظيـم الـذي ينحـدر نابعـاً مـن جبـال جيَّـان ليصب غرباً في بحر الظلمات مخترقاً –هو وروافده- سهل قرطبة الفسيح؛ ليمنح مدينة قرطبة ومدينة اشبيلية وما حولهما من قرى عديدة ومروج كثيرة الخصب والنماء؛ فيُحيي به الله أرضاً كانت ميتة. (الوادي الكبير) نهرٌ أحب قرطبة، وأحبه أهلهـا.. مـنحهم خيره ونمـاءه؛ فأخصـبتْ أراضـيهم ومـروجهم، وسـمنتْ مواشـيهم وأنعامهم؛ فسعدوا وأصبحوا في نعمة الله فاكهين. نادراً ما كان يغضب عليهم؛ فيثور ثـورة فيضـانه.. لكن حتى وإنْ حدث؛ فسرعان ما كانت تهدأ ثورته وينحسر مدُّه الغاضب عن رواسب غنَّاء تمكث في الأرض؛ فيزداد خصبها.. وينتفع الناس. أما هذه الأيام! فالأخبار التي يُسمع بها عن جيَّان –حيث أعالي النهر- غير مطمئنة.. بل تنذر بشرٍ عظيم؛ فقد ارتفع منسوب النهر –بسبب غزارة الأمطار- حتى فاضتْ مياهه عن ضفتيه، وما زال يرتفع ويمتد منذراً قرطبة بفيضان عظيم لم تشهد مثله من

قبلُ! تأكدتْ الأنباء الوافدة من جيان، فأهلها يعانون من فيضان النهر أشد المعاناة. ومياهه الهادرة تتدفق بقسوة تجاه قرطبة محطمة في طريقها كل شيء.. أخضراً ويابساً. اهتم أهل قرطبة لهذه الأخبار المحزنة، وشغلتهم عن الثائر المرواني المرتقب وثورته، وسعى كل امرئ منهم لإنقاذ ضياعه وممتلكاته من غضب النهر الجارف.. ومثلهم كانت أم هشام وحفيدها حمدون الذي أقبل ومعه الفَعَلَةُ والرجال ليُنشئ السواتر ويُحكم حماية بستان جدته من الفيضان المرتقب؛ فاجتهد –لأول مرة في حياته- في ذلك الأمر اجتهاداً سر جدته وأثلج صدرها؛ فدعتْ له بالخير والفلاح، ودعتْ لقرطبة وأهلها بالنجاة. غير أن السماء لم تنتظر فيضان النهر؛ بل انفتحتْ بماء منهمر إيذاناً بنقض الشتاء لهدنته القصيرة؛ فأمسى أهل قرطبة في شر حال بعد أن كادوا يتنفسون الصعداء. لم يغفل صاعد بن عبد الوهاب عن استغلال فرصة هذه الأجواء القاسية في التنديد بالعامريين والتشهير بشنجول ومساوئه! امتلأت الأسواق والمساجد بالمبتهلين الذين يجأرون إلى الله: "اللهم ارفع مقتك وغضبك عنَّا"؛ فتوسوس شياطين صاعد في أسماع الناس: "كيف يرفع الله مقته وقد بدلتم دينكم، ورضيتم بالفساد؟! كيف يرفع الله غضبه عنكم وقد سكتم عن انتزاع الخلافة من بني مروان -ومن قريش كلها- وهي حقهم؟! كيف يرفع غضبه وقد أضلكم شنجول وأعوانه، وغركم في دينكم الغرور؟!". ثم يزعق الزاعق المجهول، ويتردد صدى صوته المخيف في أرجاء قرطبة: "يا أهل قرطبة! انتظروا طوفان كطوفان نوح.. قد انفتحتْ السماء بماء منهمر، وتفجر النهر بسيل عرم؛ ولا ناصر لكم.. إلا أن تتوبوا إلى الله فتردوا الحق لأهله!".

-المشهد الحادي والثمانون-

غضب النهر الجارف يدمر كل شيء.. ويبتلع كل شيء! وسياط السماء الهاطلة تنهمر غاضبة! فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدر! ارتفع السيل الهائج فابتلع كل ما بلغته

مياهه: بلغ السوق العظيم بأسفل قرطبة فابتلع أجزاء كبيرة منه حتى بلغ مجلس قاضي السوق، وبلغ سوق الصبّاغين فابتلع كثيراً من حوانيتهم، وابتلع حوانيت كثيرة في أسواق الحرف الأخرى أيضاً! ولم يكتفي بذلك فقط؛ بل.. بلغ مدينة الزاهرة فابتلع بستان ابن أبي غالب، وأصاب بساتين أخرى!

الارتباك هو السائد على تحركات رجال دولة شنجول؛ فلم يتمكنوا من مواجهة الأزمة كما ينبغي! الكل يرتجل دون خطة حقيقية! ها.. قد امتلأتْ مستشفيات قرطبة بالمرضى والمصابين! وتضخمتْ خسائر التجار والزراع فلم تعوِّض خزانة الدولة تلك الخسائر. صار الناس في الشوارع والأسواق يصبون لعناتهم على الجنود البربر وعلى شرطة ابن مسلمة: "كانوا –قبل أيام- يتأسدون علينا فيضربوننا ويعتقلوننا لأحاديث نتحدثها في مجالس سمرنا؛ فلمَّا جاءت الشدة واحتجنا معاونتهم؛ وجدناهم ينشغلون بأنفسهم وبأسيادهم.. ولا نجد لهم رِّكزا!". حتى من كانوا يناصرون العامريين وفاءً للحاجب المنصور وَدَعوا صمتهم، وعلتْ أصواتهم وهم يجأرون إلى الله ويصرخون في وجوه جنود ابن مسلمة متحسرين نادمين: "أين الجلاب؟! مات الجلاب! مات الملك المنصور!". يفزع ابن مسلمة إلى ابن عسكلاجة ليُطلعه على الموقف.. فالأزمة تتفاقم والمحنة تشتد ومصاب الناس عظيم! وما زاد الطين بله أن خازن المال رفض أن يعطيه أموالاً إضافية بأمر من الملك المأمون! كيف يتصرف؟! وكيف يواجه سخط الناس وتذمرهم؟! يهرعان إلى المأمون ليشرحا له صعوبة الموقف وهول الشدة، ويلتمسان منه المبادرة باتخاذ اللازم لمساعدة الناس، وأن يُفرج عن الأموال لمواجهة تلك المصائب! يُفاجئهما بقوله: "إنَّ المال شحيح.. وخزانة الدولة ليس بها ما يكفي لتعويض الناس.. وتحمل خسائرهم!". تساءل ابن عسكلاجة بارتياب مرتاع: " فما العمل إذاً؟! كيف نواجه الناس؟". فقال شنجول باستخفاف: "لن نتمكن من تعويضهم! فليساعد قويهم ضعيفهم، ويحمل غنيهم فقيرهم!". "إنْ تخلينا عن مساعدتهم؛ فقد يفلتْ زمامهم

من أيدينا!" (قال ابن مسلمة مُحبَطاً). "وقد يدفعهم لأعمال نحن في غنى عنها" (قال ابن عسكلاجة باضطراب.. مؤكداً كلام رفيقه). "أعمال.. مثل ماذا؟!" (يتساءل شنجول بلامبالاة). يصيح ابن عسكلاجة وقد أثارت حفيظتَه استهانةُ شنجول بالمصيبة واستخفافه به: "أعمال مثل الثورة على الدولة التي لم تحمِهم، ولم تساندهم في محنتهم الكُبرى! وليستْ أنباء الثائر المرواني بالتي تخفى علينا!". فصاح شنجول مستاءً من تلميحه: "هل تُخيفني بشرذمة من السوقة والدهماء ينعقون بخبر ثائر مجهول؟! فإنَّ معي جيشاً من البربر يهدم قرطبة على رؤوس أهلها.. لو أردتُ!". فصاح ابن عسكلاجة بإصرار ساخط: "وأولئك أيضاً ضجرون؛ قد أهمتهم أنفسهم وأهليهم! فالسيل لم يترك بيتاً في قرطبة –بربري ولا أندلسي- إلا وأصابه بمكروه.. فضلاً عن أنهم يُطالبون بأرزاقهم المتأخرة ليُصلحوا بها ما أصابهم من جراء السيل". صاح شنجول بعدم اكتراث: "قلتُ لك أنَّ الخزانة ليس فيها ما يكفي لكل هذه النفقات!". " أين ذهبتْ الأموال التي تركها أبوك وأخوك؟ هل هلكتْ في بضعة أسابيع؟!". لم يُجب؛ فصاح فيه ابن عسكلاجة حانقاً غير مبالٍ بمنصبه ولا بقرابته: "لا غرو! أهلكتَها بتبذيرك.. وإسرافك في الانفاق على جواريك وندمائك.. والأفاكين من أصحاب السوء!". برق الغضب في عيني شنجول، وارتجف جسده وهو يصرخ حميةً وأنفةً: "ثكلتكَ أُمكَ يا ابن اللخناء! كيف تخاطبني هكذا؟!".. وقام إليه ليصفعه تقريعاً له على قولته، لكن يندفع ابن مسلمة ليواجهه، ويحول بينهما مخلفاً ابن عسكلاجة وراء ظهره، ويرفع يديه لشنجول مسترحماً وهو يصرخ: "مولانا أمير المؤمنين! مولانا أمير المؤمنين تمالك نفسك.. ولا تغضب!". نداؤه له: "أمير المؤمنين" كان كماءٍ سكبه على نيران غضبه؛ فخمدتْ.. وانطفأتْ جذوتها! كم يحب أن يناديه الناس بهذا اللقب. أغمض عينيه وهلة.. ثم فتحهما وجال بهما في سقف المجلس، ثم زفر زفرة عميقة قبل أن يقول مستنكراً: "ألا تسمع ما يقول يا ابن مسلمة؟!". "مولانا أمير المؤمنين! إنَّ الأمير عبد الله (يشير إلى ابن عسكلاجة) هو

أخلص رجالكم لكم، وهو أقربهم منكم نسباً؛ وما دفعه لهذا القول إلا حرصه عليكم. وحاشاه أن يقصد به إهانتكم! إنما نحن رجالك يا أمير المؤمنين وسهام في جعبتك فارمِ بها حيث شئتْ. فالأمر لك يا أمير المؤمنين! وما أُريد –أنا والأمير عبد الله- إلا حفظ دولتكم ورعيتكم!" (تكلم ابن مسلمة ضاغطاً بتكرار ندائه المحبوب على أذنه ليُطفئ غضبه)، ثم تكلم ابن عسكلاجة بانكسار المعتذر فقال: "عذراً يا أمير المؤمنين فقد خانني لساني! وما أردتُ إلا حفظ دولتكم ورعيتكم!". لوَّح إليه شنجول بيده متأففاً، ولم ينبس بكلمة. مما دفع ابن مسلمة للتساؤل بجدية: "بماذا تأمرنا أن نفعل حيال تلك الأزمة يا أمير المؤمنين؟". يسكت ملياً.. ثم يُجيبهما متقمصاً سمت أبيه الملك المنصور: "أولاً ينبغي ألا تصل تلك الأنباء إلى الخليفة المؤيد.. يجب ألا يظن أننا غير قادرين على تجاوز المحنة.. مفهوم يا ابن عسكلاجة؟!". "مفهوم يا سيدنا! لن يصله إلا الخبر الذي أُريد إيصاله إليه!". "أما المتضررون! فإنَّ قلة ذات اليد تجعلنا عاجزين عن مساندتهم؛ فليؤازر بعضهم بعضا". تجرأ ابن مسلمة وصارحه بحقيقة قول العوام: "إنهم يدَّعون أن هذا السيل طوفان -كطوفان نوح- ابتلانا الله به غضباً علينا؛ يقصدون الطعن فينا يا أمير المؤمنين!"؛ غير أن شنجول لم يكترث، ومكث صامتاً كالمتأمل؛ فتجاوز ابن مسلمة جملته السابقة واستطرد: "كيف نحل مشكلة المال يا أمير المؤمنين؟!". أثر لفظة "أمير المؤمنين" على أُذنه كأثر السحر على المسحور؛ انتشى لها، ثم أجابه بكبرياء وأنفة قائلاً: "سأحلها!". سكت هنيهة ثم أردف: "وسأحل مشكلة الطوفان أيضاً!". ثم أشار لهما أن ينصرفا؛ فانحنيا له تعظيماً.. وانصرفا.

-المشهد الثاني والثمانون-

السيل دخل كل دار في قرطبة: مياهه أو آثاره المدمرة! فمن سلمتْ داره؛ لم تسلم ضيعته أو بستانه. ومن سلمتْ ضيعته؛ لم يسلم حانوته أو مخزن بضاعته. ومن

سلم ماله؛ أُصيب في نفسه أو أحد من أهله! الجميع مصابون.. إلا القليلين! ومن هؤلاء القليلين: أم هشام المروانية ومالها.. وأهل بيتها إلا كدمات طفيفة أصابتْ أم سعدون عندما اجتاح السيلُ السوقَ الكبيرة؛ فوقعت على الأرض من جراء تدافع الناس في السوق، ولولا عناية الله.. وسعدون الذي كان بصحبتها لدهستها أقدام الفزعين الفارين أمام الماء الجارف. فيما عدا هذه الحادثة؛ فإنَّ أم هشام وأهلها ومالها سالمون. بيد أنَّ أم هشام –بكرمها وإيثارها المعهود- تعتبر مصاب أهل قرطبة مصاباً لها؛ لذا فإنها تعتقد أن نجاتها ليس نجاة في ذاتها؛ إنما حفظها اللهُ وحفظ ذويها ومالها لتساند المنكوبين من أهل قرطبة! فتحولت دارها إلى مأوى لمن تهدمتْ داره، وراحتْ تواسي بمالها من فقد ماله.. يعاونها في ذلك أهلها وجيرانها ولا سيما حمدون وسلوان.. حتى سعدون وأمه (المصابة) لم يدخرا جهداً! وغدتْ أم هشام قدوة حسنة لأهل العافية من القرطبيين؛ فأخذوا يحذون حذوها. فتمكن أهل الخير والاصلاح من السيطرة على آثار السيل المحزنة بصورة من التكاتف والتكامل يفتخر بها كل أهل قرطبة.. إلا المقصرين من رجال الدولة أو البخلاء من أهل العافية أمثال ابن الرسان الذي كان يهزأ من فِعل المؤثرين على أنفسهم (أمثال أم هشام) مردداً الحكمة التي يؤمن بها: "أنا وبعدي الطوفان.. وها هو ذا الطوفان!". وكان ينفث حكمته الابليسية في آذان ندمائه قائلاً: "إذا أراد الله بقوم سوء؛ فلا راد لقضائه.. وقد أراد الله بهؤلاء المنكوبين السوء؛ فلما نعاند قضاء الله؟! وإنْ أراد بقوم خيرا؛ فلا مانع لعطائه.. فلما نجحد نعمة الله.. ونجود بخيره على من أراد هو حرمانهم منه؟! إنَّ هذا في مذهبي اعتراض على قدر الله.. أعوذ بالله أن اعترض على قدره!".

"إنا لله وإنا إليه راجعون! مات ابن أبي غالب البارحة، لقد مات كمداً!" (قالت إحدى الجارات بينما تُعد -مع أُخريات- في غرفة الطبخ طعام الغذاء لضيوف أم هشام من منكوبي السيل.. وما أكثرهم هذه الأيام). "لا حول ولا قوة إلا بالله! هذا

السيل لم يترك فقيراً ولا غنيً.. حتى أهل الزاهرة! لقد جرف السيل بستانه ودمره عن آخره!" (قالت امرأة ثانية). "اللهم لا شماتة! لقد افتقر بعد غنى، وذُلَّ بعد عز.. فلم يحتمل الصدمة! رحمة الله عليه!" (قالت ثالثة)، حال أن أجابتهم امرأة رابعة وقد اشمأزتْ من إشفاقهنَّ عليه: "لا رحمه الله؛ فقد كان رجل سوء، وكان يظن أنَّ سُكناه في الزاهرة تحفظه من البلايا! تالله.. أحسبه كان يقول مثل صاحب الجنتين: (ما أظن أن تبيد هذه أبدا)! فأخزاه الله، وأصبحتْ خاوية على عروشها!". "اذكري محاسن الموتى أيتها المرأة، ولا تقولي مقالة السوء! (صاحتْ فيها أم هشام تنهرها) بينما تُهيأ صحن الدار لاستقبال الطاعمين، ومعها سلوان. "والله ما قلتُ مقالة سوء! وأهل قرطبة يعلمون صدق مقالتي!" (جاوبتها المرأة بإصرار)، ثم استطردتْ مؤكدة صدق حديثها قائلة: "انظري يا أم هشام: كيف نجاكِ الله وابتلاه!". "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: {كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا تُرجعون}!" (رفعتْ سلوان صوتها بتلاوة عذبة لتلك الآية من القرآن الكريم)؛ بينما تجتهد بهمة وحيوية في معاونة أم هشام. انصتتْ أم هشام للقرآن الكريم، ثم رددتْ بخشوع: "صدق الله العظيم"، ورددتْ مثلها الأخريات. ثم توجهتْ أم هشام بالحديث إلى المرأة الرابعة قائلة في نصيحة حكيمة: "وما يدريكِ يا أختاه ربما ابتلاه الله بالشر فصبر؛ فيجزيه بصبره في الآخرة جزاء الصابرين! وهو الحين -سبحان وتعالى- نجانا من الشر فتنة! فيا ليتنا نثبت ونحسن شكر نعمته! ولا تدري -أنتِ ولا أنا- على أي حال سنلقى الله! فاتقي الله يا أختاه وانشغلي بذنبكِ، واسألي الله العافية في الدنيا والآخرة، وليرزقنا الله جميعاً حسن الخاتمة!". بينما النساء يُؤَمِّنَّ على دعائها؛ إذا بسعدون يقف أمام باب الدار سائلاً سلوان بصوتٍ جهوري يتهدجه اللهاث: "أين حمدون؟". "في المضيفة!" (أجابته) وهي تشير بيدها حيث قاعة الدرس -التي تحولتْ إلى مضيفة لاستضافة المنكوبين من الرجال-، وقد رابتها هيئته اللاهثة. أومأ برأسه شاكراً، ثم أسرع راكضاً إلى حمدون.

-المشهد الثالث والثمانون-

انزعج حمدون لمنظر سعدون وهو مُقبل عليه لاهثاً؛ فقام –من وسط أضيافه- يسعى إليه، سلم سعدونُ عليه، وأومأ إليه أنه يريده على انفراد. تنحيا في جانب من القاعة حيث لا ينتبه أحد لتحاورهما! انتظره ريثما يلتقط أنفاسه.. ثم استحثه سائلاً: "ما خطبك تلهث هكذا؟! ماذا وراءك؟". "الأمير... يريدك!" (همس بصوت خافت على غير عادته). "أي أمير؟!" (همس متظاهراً بالجهل)، فنظر إليه الفتى بعيون مكرهنَّ كمكر الأطفال؛ ثم أجاب باقتضاب: "أنت تعلم!". تأكد حمدون أنه يقصد الأمير ابن هشام؛ فتساءل باستنكار: "وما شأنك أنت به؟!". "هذا سرٌّ.. ولن أبوح به لأحد!" (هتف حاسماً بنبرة أعلى)، ثم هرول إلى حيث يجلس الرجال، تابعه حمدون بعينيه حائراً يتساءل في نفسه: "كيف يعلم هذا الفتى الممرور بخبر الأمير؟ ومن عساه أرسله إليَّ؟!". كان الرجال في القاعة يتسامرون، ويتجاذبون الحديث حول السيول –فلا حديث للناس سواها- ومصائبها التي سقطت على رؤوسهم. فجأة وثب سعدون منتصباً، ولوَّح بيديه يلفت انتباه الجميع، ثم وضع سبابته اليمنى على شفتيه المضمومتين إشارة لهم بالسكوت، ثم صرخ فيهم بصوته الجهوري: "انصتْ!". أمسك الجميع عن الكلام والهمهمة، وأرهفوا السمع بانتباه في استجابة لا إرادية لصوت الفتى المُخيف! مرتْ لحظات.. ولحظات والكل منصتٍ يترقب؛ لكن.. لم يسمعوا أي صوت مريب؛ فالتفتوا جميعاً إليه وعيونهم تسأل: "ماذا هنالك؟!". رنا الفتى الممرور إليهم وهلة.. ثم رمى ببصره إلى الأفق البعيد خارج الباب وهتف بصوت أجوف: "أسمعُ غراباً يَنْعَب!". تبادل القوم النظرات المستهجنة والمستاءة، ثم انفجروا ضحكاً وسباً في هذا الفتى الأبله. تنامتْ أصوات ما يحدث عند الرجال إلى مسامع النساء اللواتي يعددنَّ خوان الطعام؛ فتساءلنَّ فيما بينهن: "ما بال الرجال! سكتتْ أصواتهم فجأة؛ ثم انفجروا ضحكاً وصخباً! ماذا يحدث في قاعة الرجال؟!". جاءت إحداهن من تجاه القاعة تُشير إليهن: "أنّ أنصتنَّ فهنالك

أصوات مريبة في الخارج". تُرهف النساءُ أيضاً أسماعهن، ثم تصيح إحداهن: "أسمع أصوات طبل وزمر.. كأنه عُرس أو احتفال!". تُسكتها أخرى ساخرة منها في حدة: "من تطاوعه نفسه للاحتفال في أيامنا هذه.. يا بلهاء!". لحظات مُنصتة تمر عليهن؛ ثم يأتيهنَّ الخبر على ألسنة بعض صبيان الحي جاءوا يركضون قادمين من جهة النهر ويصيحون: "موكب الخليفة في النهر!"

-المشهد الرابع والثمانون-

لم يكن (موكب الخليفة في النهر) كما ادَّعى صبية الحي؛ بل كان موكب ولي العهد! فقد أمر شنجول بالتجهز لنُزهة عظيمة فوق موج هذا النهر الهائج: "لكي يروِّضه"! لكن.. محب (كبير الفتيان) لم يكن متحمساً لهذه الرحلة ومثله باقي الخدم والجواري.. حتى العازفين والقيَّان؛ فالكل يخشى على نفسه ركوب أمواج ذاك النهر الغاضب. غير أن أمر الملك المأمون (ولي العهد) واجب التنفيذ بلا اعتراض وبلا نقاش؛ لذا فقد اضطر محبُ لاستئذان سيده في مضاعفة العطايا للخائفين كي يُشجعهم على خوض تلك المغامرة؛ فأذن له.. واستخرج من خزينة المال –الشحيحة على المنكوبين- مالاً كثيراً ليمنحه للمتنزهين. ورغم احتفاء شنجول بالرحلة، ومتابعته بنفسه لإجراءات الإعداد لها، وإلحاحه في سرعة إتمام الاستعدادات، والتهيؤ للخروج؛ إلا أنها تأجلتْ أكثر من مرة بسبب سوء الأحوال الجوية واستمرار مدِّ النهر! ورغم الإغراء بالعطايا الباهظة لمن سيصحب الملك في نزهته النهرية؛ فإنَّ عدداً قليلاً من الندماء هم من جازفوا بالخروج إلى تلك النزهة! واعتذر عددٌ منهم بأعذار مُلفقة دلتْ في مجملها على الرهبة وعدم الرغبة. كانت سفينة الموكب الضخمة تمخر عباب النهر الغاضب، وقد هدأتْ غضبته بعض الشيء، وانحسر بعض مدّه، وانقشع بعض سحاب السماء التي ما انفك مطرها يتساقط رذاذاً ساخطاً على وجوه العازفات والعازفين الذين صبُّوا جمَّ ضجرهم وتبرمهم على

آلاتهم الموسيقية؛ فأخرجتْ ألحاناً صاخبة شاذة.. لا أُنس فيها ولا طرب، في حين شرعتْ القيّان بالغناء؛ فخرجتْ أصواتهنَّ واهنة ضعيفة.. وغير متوافقة مع الألحان المعزوفة رغم محاولاتهنَّ إتقان عملهنَّ في هذه الأجواء المفزعة المحزنة.

غافلاً عمن حوله وقف شنجول -أعلى مقدمة السفينة- يختال في حُلته الخليفية المذهَّبة وفي كامل زينته. رفع ذراعيه في الهواء.. ووجهه إلى السماء مغمضاً عينيه.. تاركاً العنان لرياح النهر الهابّة تعبث به وبثيابه.. ولمطرها الرَّذاذ يُنعشه.. مستمتعاً بتلك الأجواء المثيرة. انتبه من غفلته على أحد خدمه يقدم له كأساً أخرى من الخمر؛ حمل كأسه في يده، ثم اجتفها دفعة واحدة وهو يُرهف السمع للألحان التي تنامتْ إلى أذنه واهنة خافتة –رغم صخبها-؛ فصاح في العازفين والقيَّان: "ارفعوا أصواتكم بالغناء والطرب أيها الخَمَلَة!". رنا ببصره إلى ندمائه الواقفين مضطربين -على بُعد خطوات خلفه- قد منعهم قلقهم من غدر النهر عن الاستمتاع بالأجواء مثله؛ فرأى القلق والخوف في عيونهم.. والاحجام والارتباك في حركاتهم؛ فانفجر ضاحكاً ساخراً منهم. تعالتْ ضحكاته الهازئة وعيونهم ترمقه في توجس. طال ضحكه.. فتحرجوا وتحركوا، وانفرجتْ شفاههم عن ابتسامات منافقة، واندفعوا يراؤونه بضحكات مختلة هي أقرب في صورتها للصراخ من الضحك! ضحكَ الجميع نفاقاً أو خوفاً.. لكن ضحكوا؛ مما أدخل السرور والبهجة على قلبه. لحظاتُ الضحك المنافقة طالتْ أكثر من احتمال بعضهم، وظن عدد منهم أن تلك الضحكات المقيتة لن تتوقف، وتمنى عدد آخر أن يموت من الضحك، لكن لم يجرؤ أحدهم أن يمتنع عن الضحك! أخيراً انفك أسرهم من قيد الضحكات الخانق؛ وأمسك الأمير عن ضحكه.. فأمسكوا! قلَّب صفحات وجوههم بين عينيه، ثم هتف فيهم بنبرة مرحة: "ما بكم أيها الأصحاب؟! استمتعوا بنزهتكم! لا حرج على أحدكم فيما يفعل!". كانت تلك الكلمات إذناً لهم أن يتصرف كل منهم بحريته؛ فانتشروا في أرجاء السفينة يسعى كل منهم لبُغيته. أما الملك فقد استدعى ابن

الرسان لمؤانسته؛ فمَثَلَ بين يديه في قُمرته: "طيِّب الله يوم أمير المؤمنين!" (هتف ابن الرسان) وهو ينحني تبجيلاً. أجابه شنجول بنبرة تمني محزونة: "آه! كم أتعجل أن يناديني الناس بهذا اللقب!". "نحن نُناديك به يا سيدنا!". "أنتم تنافقونني يا ابن الرسان! أمير المؤمنين على الحقيقة هو: هشام!". "وأنت ولي العهد.. وقريباً ستكون أمير المؤمنين.. رغم أنف المعارضين". "اجلس يا رجل، أريد أن آنس بك؛ فلماذا أراك مضطرباً؟!". "مثلي مثل سائر أهل السفينة.. إلا سيدنا طبعاً!". "وما شأن أهل السفينة؟" (تساءل متعجباً). "يخشون غدر النهر أو تبدل مفاجئ في الأجواء؛ فتنقلب النزهة إلى فاجعة! يخافون الطوفان يا سيدنا!" (هتف ابن الرسان يفتعل نبرة مذعورة). "الطوفان! هل تعلم أن الدهماء يتغامزون فيما بينهم ويدَّعون أن هذا السيل غضب من الله كطوفان نوح.. يقصدون الطعن فيَّ!" (أجابه بمرارة وأسى). "حاشاك يا سيدنا أن تكون. وليقطع الله ألسنة الطاعنين!". "تعلم يا ابن الرسان! قد يكون معهم حق.. هذا كطوفان نوح؛ لكن ما هي سفينة نوح؟!" (صاح متسائلاً في سخط على طاعنيه)، سكتْ وهلة، ثم صرخ حاسماً في حمية وكبرياء: "إنها سفينتي هذه.. التي أنا على متنها.. ومعي سيكون الناجون!". ابتلع ريقه، وتنفَّس نفساً عميقاً يستجمع به نفسه بعد صراخه المتحمس، ثم رنا إلى ابن الرسان – الذي كان يستمع إليه ساكناً- وقال في هدوء: "وأنت من الناجين يا ابن الرسان؛ بل أنت أدناهم مني.. لذلك سأجزل لك العطاء، وسأوليك شيئاً من أعمالي! ماذا أُوَليك يا ترى؟". جعل يفرك جبينه بسبابته كمن يُبعثر أفكاره بحثاً عن فكرة جديدة براقة؛ ثم هتف مبتهجاً في حماسة: "آه! ستكون حاجب بابي ورئيس حرسي الخاصة، لن يدخل أحدٌ عليَّ مجلسي إلا من خلال بابك. وهذا أمر أصدرته.. لا رجعة فيه!". ظل ابن الرسان ساكتاً في سكون.. فصاح فيه كأنما ينبهه من سهوه: "ماذا دهاك يا رجل؟ ألا تبتهج لمنصبك الجديد؟!". ثم مدَّ له يده في تعاظم قائلاً: "أ لن تُقبِّل يد مولاك شكراً على إنعامه؟!". انتبه ابن الرسان لما عليه أنَّ يفعل؛ فانكب

على يده يُقبّلِها بتعظيم مفتعل، ثم أظهر الفرح والسرور صائحاً: "أشكرك من عميق فؤادي يا سيدنا! إنه شرف عظيم أنعمتَ به على خادمك المطيع!". كم يحب تملق المنافقين أمثال ابن الرسان! رمقه بعين الكِبر، ثم قال مشيراً إلى صندوق في جانب القُمرة: "تستحق أن تحتسي معي من هذا الخمر يا خادمنا المطيع!". هرول ابن الرسان إلى الصندوق، واستخرج منه قنينتين؛ دفع إحداهما إلى سيده بتأدب، وانتظر حتى يبدأ سيده بالشراب، ثم شرع يرتشف قنينته. كان خمراً لذيذاً معتقاً بعناية؛ مما دفع ابن الرسان إلى التبسط في الحديث.. فقال مستعجباً: "إنك تشرب خمراً غير خمر خادمك ابن الرسان.. يا سيدنا؟!". فأجابه مازحاً منتشياً: "ما رأيك؟ إنه خير من خمرك المغشوش؟!". "هو خير منه؛ لأنَّ سيدنا شهد بذلك!". ضحك شنجول ملء شدقيه، ثم قال بجدية: "بعيداً عن تزلفكَ الذي أحبه؛ أود أن أستعين برأيك في مسألة هامة!". "رأيي أنا يا سيدنا! وأين كبار رجال الدولة؟!". "كلهم جامدي الفكر! وأنا أُريد أفكاراً جديدة مبدعة!". "كلي آذانٌ تُصغي إلى سيدي". "دولتي مقبلة على الفقر يا ابن الرسان، فالخزينة خاوية إلا من القليل الذي لا يكفي، وقرطبة.. حالها لا يخفى عليك، وأهل الأندلس لو علموا بما أنا فيه من الفاقة لانقلبوا عليَّ!". "سيدنا! أنا لا أملك ما يكفي لإقراض الدولة!" (هتف ابن الرسان مُمازحاً). فابتسم شنجول ابتسامة فاترة مجاملةً، ثم استكمل حديثه قائلاً: "فضلاً عن أن العوام عادوا يرددون من جديد: أين الجلاب؟ أين المنصور؟ يُعرِّضون بي.. وبأنني لستُ مثل أبي! ماذا أفعل يا حاجبي الحكيم؟!". سكتْ منهياً كلامه؛ وانتظر أن يجيبه نديمه؛ بيد أنه.. ظل صامتاً، وطال صمته؛ فتململ الأمير مما دفعه إلى التظاهر بإمعان التفكير؛ فجعل يعبث بيده في خصلات شعره الأشمط، ويجول ببصره في سقف القُمرة كأنما يفتش فيه عن فكرة مبدعة. لكن.. لم تفلح حيلته، ولم تواتيه الفكرة المبدعة؛ فانتصب واقفاً ثم سأل سيده أن يمنحه قنينة خمر أخرى؛ فأذن له. عرف الضجر في عيني سيده، وعلم أن صبره

ينفد؛ فرفع صوته –ليرفع عن نفسه الحرج- هاتفاً: "إذا كانوا يريدون الجلاب؛ فلنأتهم بالجلاب!". فصاح فيه ساخراً: "هل أُحي المنصور بعد موته؟!". هنا.. واتته الفكرة، وأسعفه خياله؛ فصاح بنبرة حازمة جادة: "فلتكن أنت الجلاب يا سيدنا!". نظر إليه شنجول متأملاً كأنه يستوثق من جدية الفكرة، فاستطرد بحماس: "تفعل كما كان يفعل المنصور؛ تخرج بجيشك العرمرم إلى بلاد الروم.. فتقاتلهم ثم تعود جالباً الغنائم والأسلاب؛ فيسمُّونك: الجلاب! وتمتلأ خزانة الدولة من جديد!". شرع شنجول يتأمل قول نديمه، ويتفكر فيه كأن الفكرة أعجبته. صمت ملياً وهو يُقلِّب الأمر في رأسه، وإلى جواره ابن الرسان يحتسي قنينة الخمر بتلذذ ظاهر. ضربه بكفه على رأسه، وهتف بحيوية: "فكرة معقولة! لكن.. حجم المال الذي في الخزانة أقل من أن يسمح بالانتظار للصيف!". "لا تنتظر للصيف يا سيدنا. خير البِر عاجله.. اخرج للغزو الآن!". "لقد لعبتْ الخمر برأسك أيها الأرعن؛ كيف نغزو الشمال في هذا الشتاء القارس، وتلك الأجواء القاسية؟! هذا أمر لم يفعله أحدٌ من قبلُ!". رمقه بإصرار، وهتف بحماس: "نعم! لم يفعلها أحدٌ قبلكَ! هذا هو ما نريده!". "كيف؟! أفصح عما يدور بعقلك!". "غزاة واحدة يا سيدنا تغزوها الحين؛ في وقت من العام لم يغزُ أحدٌ قبلُ في مثله! أمرٌ جديد على الناس، يجعلهم يُكبرونك ويعظمون شأنك، ويهابونك لأنك تخرج للغزو في مثل هذه الأجواء، أما أعداؤك: فإنهم لن يتوقعوا هجومك عليهم في مثل هذا الوقت؛ فتفاجئهم ويهون عليك أمرهم فتهزمهم بسهولة، وتعود محملاً بالغنائم والأسلاب؛ فتمتلأ خزانتك وخزانة الدولة، ويذكرك التاريخ كبطل عظيم ليس أقل شأناً من الملك المنصور، ولا الخليفة الناصر!". "إنك لشيطان! لكن.. إنْ لم يهلك جيشي بسيوف الأعداء؛ فسيُهلكه جذفُ السماء!". "لن يهلك كله! ولكل غزاة خسائر! هل كان جيش المنصور يعود منتصراً بلا قتلى أو مصابين؟". "هل تعلم ما هو أفضل شيء فعلتُه في حياتي يا ابن الرسان؟". "ما هو يا سيدنا؟". هتف مازحاً وهو يضحك ملء شدقيه: "أني جعلتُك

نديمي ومستشاري في المُلمات!". فصاح ابن الرسان مبتهجاً: "إذاً.. قد أعجبتك فكرتي!". "سأتدبرها.. وأسعى في تنفيذها!". بينما يتلذذان بكؤوس الخمر.. انتبها لصراخ مذعور يأتي من أعلى السطح خارج القُمرة، أومأ الملك إلى نديمه أن يُهرول لينظر ماذا يحدث، ثم دفعه الريب للخروج وراءه، رأى أحد الخدم يهرول قريباً منه؛ فصاح يسأله في توجس: "ماذا حدث؟! ما هذا الصراخ والذعر؟!". "وقعتْ جارية في النهر يا سيدنا، وانتشلناها؛ لكنها ورفيقاتها مازلنَّ يصرخنَّ في ذعر!". لوَّح بيده ساخطاً، ثم ولاه ظهره عائداً إلى قُمرته وهو يسب اللاتي أفزعنَّه عن مجلسه ومشربه.

-المشهد الخامس والثمانون-

بناءً على استدعاءٍ لاجتماع عاجل حضر ابنُ عسكلاجة وابن مسلمة إلى مجلس الملك المأمون، فوجدا عنده: الوزير الأكبر أحمد بن سعيد بن حزم، والكاتب ابن برد، والقائد محمد بن يَعْلَى الزَّناتيّ. سلما على الملك ثم جلس كل منهما في مقعده. بدأهم شنجول بالحديث قائلاً: "بلغتنا من عيوننا أن أمير قشتالة ماضٍ في غيَّه بنقض عهد السلم، والامتناع عن دفع الجزية.. بل وصل به التهور إلى أنه يُعد للإغارة على حدودنا الشمالية. فماذا ترون؟". "لا بد من ردعه وتأديبه!" (أجابوا بإجماع حازم). "قد علمتم أن أخي الملك المظفر –غفر الله له- قد وافته المنية وهو خارج إلى تأديبه؛ لذا فإني قد قررتُ الخروج فوراً لملاقاته.. بل والتوغل في أراضيه حتى يعتبر به أمثاله". "قررتَ الخروج متى.. أيها الملك؟!" (تساءل ابن عسكلاجة باستنكار). "الآن يا ابن عسكلاجة! قررتُ الخروج للغزو الآن!". فصاح ابن

عسكلاجة مستهجناً رأيه: "هذا لا يصلح! إنَّ أباك وأخاك لم يخرجا في مثل هذا الوقت من الشتاء أبداً؛ الأجواء سيئة: برد شديد، وهطول أمطار، وفيضان أنهار، وفي الشمال عواصف ثلجية مُهلكة! إنك بذلك تُهلك الجيش.. لا تغزو به!". كظم شنجول غيظه.. لكنه أسرها له في نفسه، ثم توجه بناظريه إلى ابن يعلي وسأله: "ما رأيك يا زعيم الجنود البربر؟". "نحن طوْع بنانك يا سيدي؛ فارم بنا مَن شئتَ.. أنى شئتَ!". "هذا هو قول الشجعان!" (صاح شنجول بارتياح متحمس)، ثم وجه حديثه إلى ابن عسكلاجة يوبخه استخفافاً برأيه: "منذ متى وجيش الأندلس وفرسانه الأبطال يهابون الموت أو الأجواء الصعبة؟! أقول لك أنَّ ذلك العلج يُعد للإغارة على حدود المملكة؛ فتقول: ستُهلك الجيش؟! لا نامت أعين الجبناء!". ثم يُشير بيده إلى ابن يعلى في حركة مسرحية مفتعلة، ويهتف بحماس: "ها هم أولاء جنودنا الأبطال مستعدون للخروج في أي وقت للذب عن حدودنا.. عن شرفهم، وشرف دولتهم! فلا تُثبط الهمم، وكن على رأينا!". "سيدي! إنَّ أحوالنا الداخلية لا تسمح بذلك الحين!" (يهتف ابن عسكلاجة مصراً على رأيه لكن بنبرة أربكها التردد)، فيندفع فيه شنجول متحدياً ويتساءل باستخفاف واستنكار: "أي أحوال تلك؟! تقصد مدَّ النهر الذي أصاب قرطبة؟ سأخرج أنا على رأس الجيش إلى ابن غرسية؛ وابق أنت وابن مسلمة لتتدبرا معالجة هذا الأمر!". "ليس هذا فقط! إنيَّ أعني أيضاً ما يتردد بين الناس بشأن ثورة المروانيين!". ضحك شنجول باستهزاء وهو يستخرج سكينه الصغير ليلوّح به في وجهه صائحاً بسخرية: "والله لو اجتمع بنو مروان على مرقدي وأنا نائم ما أيقظوني! إنْ كنتَ تخشى المروانية إلى هذا الحد: فاعتزل، ولا تثبط عزمنا!". كان رفع السكين في وجه ابن عسكلاجة أمام الحضور تصرفاً مهيناً له تأذى منه! فضلاً عن التعريض به وتهديده بالعزل من منصبه. فآثر السلامة والسكوت آيساً من إثناء شنجول عن عزمه. بعد الجدال العقيم الذي دار بينهما لم

يتكلم أحد الحضور برأي يعارض شنجول أو يُخالفه؛ لذا فقد أمرهم بإعداد الجيش والتجهز للخروج في أسرع وقت.

-المشهد السادس والثمانون-

انحسر فيضان النهر عن قرطبة؛ لكن.. بعد أن التهمها، ولاكها في فمه، ثم لفظها على شاطئه مثل مضغة هرئة. بيد أن الله بارك في تكاتف أهلها وتعاونهم فيما بينهم، وكان إيثارهم على أنفسهم مضرباً للأمثال؛ فتجاوزوا الأزمة سريعاً. وبدأت الحياة تدبُ في دروب مدينة النور من جديد. لكن قبل أن يعود النهر حبيباً كما كان، وقبل أن يتعافوا نهائياً من مصابهم؛ نادى منادي الخلافة: "حي على الجهاد"! فأُسقط في أيدي جنود الدولة منهم، واغتم أهلوهم وذووهم؛ وعادتْ شياطين صاعد الحرار توسوس في آذانهم: "كيف هذا؟! كيف يخرج جيش الحضرة ويغادر قرطبة ولمَّا تتعافَ من محنتها؟! وكيف يخرج الجنود من أبنائنا لغزو بلاد الشمال في مثل هذا الشتاء العاتي؟! إنَّ الأجواء في الشمال الآن أكثر حدة وأشد قسوة؟! ما لهذا الشنجول.. لا تنفك عنا المصائب بشؤمه وشؤم رأيه؟!". وعاد الزاعق المجهول ينادي في الأسواق –التي فتحت أبوابها على استحياء- فيقول: "أين الخلاص؟ أين أنت أيها الثائر المرواني؟".

سلوانُ.. كان لها الفضل في إقناع أم هشام بالسماح لحمدون بالعودة إلى الجبل وفاءً لعهده مع الأمير ابن هشام. وأكثر من ذلك! لقد ساعدته في توضيح موقف ابن هشام وتحسين صورته أمامها، وساعدهما في ذلك استياء الجدة من تقاعس رجال دولة شنجول في محنة السيل، واستهجانها خروجه للتنزه فوق النهر الهائج بدلاً من أن يعتبر به أو أن يتفقد رعيته. غير أن السبب الأهم الذي جعلها تتركه يفعل ما يريد هو مرضها الأخير الذي غاب عنها في بدايته، ثم عاد فشفاها الله بعودته؛ لقد جعلتها هذه المحنة تُدرك أن الزمن يتغير، وأن حمدون لم يعد الطفل الصغير الذي

تُهدهده وتلاعبه؛ إنما صار رجلاً شاباً له أهدافه الخاصة وطموحاته، وأيقنتْ أن عليها أن تُخلي بينه وبين طموحاته تلك، وعليها ألا تحجر على اختياره لطريق مستقبله الذي ينشده؛ فهي الماضي وهو المستقبل! لكن.. عليها أيضاً ألا تتخلى عن نصحه، ولا عن الدعاء له بالتوفيق والسداد. دفعتها قناعاتها الجديدة تلك إلى قبول ما كانت ترفضه آنفاً، فخلَّتْ بينه وبين العودة إلى ابن هشام؛ غير أنها أوصته بإعمال عقله وتقديم مرضاة ربه، وقالت له: "أذنتُ لك بمصاحبة ابن عبد الجبار.. ولكن احذره؛ فإنه فتى أرعن مخاطر، لا عقل له!"، ثم طلبتْ أن يعدها بالعودة إليها كل عشرة أيام؛ لكي تطمئن عليه ويطمئن عليها؛ فوعدها بما يُثلج صدرها، ثم أعد حصانه ومتاعه، وانطلق إلى حيث يريد، بينما قلبها وقلب سلوان يُشيعانه بالدعاء والتمنيات بالصلاح والنجاة من كل شر.

-المشهد السابع والثمانون-

كان ديجور يرقل في صعوده الجبل غير عابئ بإرهاق؛ حين استوقفه وفارسَه نفرٌ من رجال جُدد؛ لا يعرفهم، صاح أحدهم بغلظة -والآخرون مشرعون أسنة رماحهم-: "من أنتَ؟!". "أنا رجلٌ من أهل قرطبة!". "ماذا تُريد من هنا؟!". قبل أن يُجيب أتاهم صوت أجش ينادي من بعيد: "دعوه يمر يا أخوة؛ إنه أحد أصحابنا". نظر حمدون؛ فإذا طرسوس ومعه بعض الرجال الآخرين؛ فأقبل عليه مترجلاً عن حصانه.. فسلم عليه وعانقه. همَّ طرسوس أن يسأله عن صحة جدته؛ لكنه لم يُمهله وأسرع يتساءل مندهشاً: "من كل هؤلاء الرجال؟!". "وما زال هناك غيرهم يختبئ داخل الكهوف!". "متى زاد عددهم هكذا؟! لم أغب عنكم إلا أياماً قليلة!". "في غضون هذه الأيام القليلة فعل مدُّ النهر بأهل قرطبة الأفاعيل –كما تعلم-؛ فلم يضيع صاحبنا صاعد الحرار ودعاته تلك الفرصة؛ فقد بثهم وسط المنكوبين، ومدَّ لهم يد المعونة، فمن استوثق منهم ووجدهم رجالاً أشداء دفع لهم أموالاً يُصلحون

بها أهليهم، ودفعهم إلى هنا لنُدربهم على القتال كما أمر الأمير!". "هل أنت واثق من ولاء كل هؤلاء؟ قد يكون ولاؤهم للمال الذي نعطيهم!". "المهم ألا يكون ولاؤهم لشنجول وزبانيته!". "أخشى أن يكون أحدهم جاسوساً! فلو أنَّ ولاءهم للمال؛ فهذا يعني أنَّ ولاءهم لمن يدفع أكثر!". "لن يدفع شنجول ورجاله أكثر مما ندفع! لا تقلق! ثم إن أحدهم أول ما يأتي يُقسم على الإخلاص وكتمان السر؛ فإنْ خان أو أفشى؛ فجزاؤه أن يُذبح بسيفه!". "زيادة في الحذر؛ ينبغي أن نكتم عنهم شخص الأمير!". "لا يعرف الأميرَ إلا القليلون منهم، وحاجتهم للمال الذي نُعطيهم جعلتهم صماً بكماً عمياً مثلما نريد!". لم ترُق لحمدون طريقةُ كلامه تلك؛ فأراد أن ينهي الحوار معه، فسأل بجدية: "أين الأمير؟". "إذا جن الليل؛ سآخذك إليه.. فهو يترقب عودتك!". سكت طرسوس هنيهة ثم استطرد قائلاً وهو يشير إلى أحد الرجال يقف على بُعد خطوات: "أريدك أن تتعرف على أحد رجالنا الجُدد؛ فسيسعدك لقاؤه!".

تطلَّع حمدون إلى الرجل وهو يأتيهم يمشي بخطى واسعة وهمة عالية؛ فرآه رجلاً ضخم الجثة طويل القامة عريض المنكبين، له هيئة مصارع كمصارعي الأساطير الرومانية القديمة، مثله في ذلك مثل طرسوس. أقبل عليهما، فأشار إليه طرسوس وهو يهتف مفتخراً: "أعرفك يا حمدون برجلنا الشجاع: فرتون". "مرحباً بك معنا أيها الفارس الهُمام!" (قالها حمدون وهو يومأ برأسه ترحيباً). "أ لم يُذكرك اسمه بشيء؟" (تساءل طرسوس في تحاذق). "اسم أندلسي أصيل؛ يدل على أن أباه يعتز بانتمائه للأندلس، لا لجِبلة غيرها!". "هل غير ذلك؟". "لا شيء! بما تظن أنه يذكرني؟!". فمال هامساً في أُذنه دون أن يسمعه فرتون: "إنه فرتون حارس ابن الرسان الذي فرتْ منه فتاتُك!". انتبه حمدون متذكراً تفاصيل القصة كما حكتها سلوان، ثم عاد يتفحص الرجل ببصره كأنه يريد أن يحفظ صورته في ذاكرته، ثم همس في أُذن صاحبه محذراً: "إياك أن يعرف بخبرها، أو أنها عندنا! أتفهم؟ إياك!". "لا ترتاع.. يا صاحبي! أنا لستُ غبياً!". "أشك في ذلك!" (أجابه حمدون ممازحاً).

فتساءل طرسوس بنبرة استنكار: "تشك في ماذا؟!". " أشك أنك غبيٌّ حقاً يا صاحبي". خنس طرسوس، وسكت سكوت الغاضب، ثم هتف يُبادله المزاح باعتراف مرح: "وأنا أيضاً أشك أنني غبيٌّ!". ثم اندفع ضحكه كضحك طفل برئ، وضحك معه حمدون من قلبه، ثم ضحك فرتون الذي لم يفهم همسهما؛ غير أنه ضحك لضحكهما. توقف طرسوس عن ضحكه، وعلتْ الجدية قسمات وجهه وهو يهتف بحيوية وهمة: "هيا لنستكمل عملنا؛ أمامنا تدريبات شاقة!"

-المشهد الثامن والثمانون-

في لقاءٍ ودود ستره غسوق الليل التقى حمدون بأميره محمد بن هشام، صافحه بحرارة وعانقه، ثم أجلسه إلى جواره وهو يهتف في حميمية: "لقد افتقدناك يا حمدون! لم تغب عنا مثل هذه المدة من قبل!". "سلمتَ يا أبا الوليد! أنا أيضاً افتقدتكم؛ لكنك تعلم تأخر شفاء جدتي، ثم ما أصابنا بسبب السيل ومدِّ النهر جعلني أمكث معها زمناً!". "كيف صحة الجدة فاطمة الآن؟". "هي بخير والحمد لله، تعافتْ واستردتْ كامل صحتها ونشاطها". "الحمد لله! ماذا فعل بكم مدُّ النهر؟ هل أصابكم ما نكره؟!". "من نعمة الله علينا لم نُصب بشر في أنفسنا ولا في أموالنا؛ لكنك تعرف جدتي.. اعتبرتْ مصاب قرطبة هو مصابها، وشرعت تساعد المنكوبين وتصلهم بالمال والجهد؛ فأردتُ أن أكون معها.. أُعاونها!". "خيراً فعلتْ، وخيراً فعلتَ! يا ليت عُشر نساء قرطبة كجدتك يا حمدون. لقد فعلتْ ما لم يسع رجال شنجول لفعله". سكت هنيهة ثم استأنف قائلاً: "نحن أيضاً حاولنا مساعدة أهل قرطبة، ولقد أرسلنا للمنكوبين أموالاً كثيرة بواسطة صاحبنا صاعد الحرار، ومن فرط امتنانهم لنا انضم العديد منهم إلينا!". "لا جرم! فقد رأيتُ وجوهاً جديدة لم تكن هنا من قبلُ". "أرني همتك مع طرسوس في تدريبهم وإعدادهم لليوم الموعود!". "نبذل قصارى الجهد إن شاء الله يا أبا الوليد!". "هيا.. اذهب الآن لترتاح، ونم جيداً، فلقد

الـزمتهم بتـدريبات شـاقة؛ وسـتكون مشـرفاً عليهـا مـع طرسـوس كمـا كنـتَ!". أومـأ حمدون برأسه استجابة لأوامر أميره، ثم حياه وانتقل إلى كهفه حيث سيقضي بقية ليلته.

-المشهد التاسع والثمانون-

طرق ابن الرسان باب مجلس الملك المأمون عدة طرقات متتابعة، ثم دلف محاولاً المشي بخطوةٍ وقورة منتظمة كما تستلزم وظيفته الجديدة. رآه شنجول مقبلاً عليه في زي الجُند محاولاً التحرك مثلهم؛ فضحك.. واشتد ضحكه حتى لمعت الدموع في عينيه. وقف بين يديه ساكتاً -يُخفي ضجره- ينتظر حتى ينتهي سيده من ضحكاته التي اعتاد عليها مذ قيامه بعمله الجديد، أمسك شنجول عن الضحك، ثم لوَّح بيده كالمعتذر وهتف وهو يجتهد أن يكتم ضحكاته: "عُذراً يا صاحبي! كلما رأيتُك في هذا الزي، وكلما رأيتُ اضطراب خطوتك العسكرية؛ لا أتمالك نفسي، ولا أقدر أن أمتنع عن الضحك. فأنت غير لائق بهذا العمل أبداً!". فأجابه مكظوماً: "إذاً! لماذا وليتنيه يا سيدي؟!". "لكي أضحك كلما رأيتُك!" (هتف وقد عاودته نوبة ضحك أخرى لم يكتمها)، ثم امتنع عن الاسترسال لما رأى الضيق على وجه نديمه وحاجب بابه، وأردف يقول تطيباً لخاطره: "وليتُك لأني أحبك، وأحب أن أراك دائماً؛ لذلك أردتُك أن تكون بالقرب مني نهاراً أيضاً. لكنك متعلم فاشل وبطيء الفهم؛ منذ أيام وهم يعلمونك كيف تمشي المشية العسكرية، ولم تتعلمها! يا لك من أحمق!" (لم يستطع أن يكتم نوبة ضحك أخرى فاستسلم لها، وترك العنان لمرح قلبه يقرع قلب نديمه). غير أن ابن الرسان أراد أن يقطع هذا الهزل الذي ضاق به فقال بجدية الجندي: "كبير الفتيان (محب) يستأذن في الدخول يا سيدنا!". "أدخله!" (قالها وهو يحاول أن يملك نفسه، ويُعدِّل هيئته لاستقبال الزائر). "السلام على مولانا الملك المأمون!" (حياه محبُ فور ولوجه) وهو ينحني توقيراً. سأله لما رأي الوجوم في ملامح

وجهه: "ما لي أراك حزيناً؟!". "كيف أحزن وأنا أسعد برؤية مولاي كل يوم؟! لكن! مولانا جعل بيني وبينه حاجباً!" (أجابه متزلفاً إليه). "هذا إذاً ما يُحزنك منذ أيام! ابن الرسان.. حاجب بابي؟!". "عفواً يا مولانا! إني كنتُ أُفاخر الناس بدخولي عليكم من غير حاجب استأذنه؛ والحين حرمني مولانا –أطال الله بقاءه- من منزلتي؛ تلك التي يغبطني عليها الناس، وقد كنتُ أسعد بها أيما سعادة!!". (كم أُحب تزلف المتزلفين والمنافقين! لكن.. من منهم مخلصاً لي على الحقيقة؟! لن أقدر أن أعرف إلا أن يُنزع عني سلطاني وأصير فرداً مثلهم! وهذا لن يكون أبداً!): هجستْ في نفسه هذه الخاطرة؛ بينما يسترسل كبير فتيان القصر في التزلف إليه. نظر إليه بعين الكبر وقال في خيلاء: "إذا تعارضتْ سعادتك مع سعادتي يا محب؛ فأيهما تختار؟". "أختار أن يسعد مولانا الملك! لا ريب في ذلك!". "إذاً فسعادتي في بقاء ابن الرسان إلى جواري. ماذا كنتَ تريد؟" (هتف بحزم وصرامة). "جئتُكم يا مولانا كما جاء الهدهدُ إلى سليمان الحكيم عليه السلام! رغم وضاعتي وقلة علمي إلا أن إخلاصي لمولانا وولائي له يحتمان عليَّ أن أنصح له!". "ماذا تقول يا أحمق؟! أنت تنصحني.. أنا!!". "حاشاني أن أنصح مولانا وهو أعلم مني وأحكم! إنما قصدتُ الإخبار يا مولانا؛ كما جاء الهدهد -الطائر الحقير- بالنبأ اليقين لسليمان الحكيم.. وهو الملك العظيم والنبي المرسل!". "بماذا تريد أن تُخبرني أيها الفقيه؟! لقد مللتُ ثرثرتك!". "المروانيون يا مولانا يدبرون لثورة حقاً.. وقد تأكد عندي الخبر!". "أنت أيضاً تخشى المروانيين؟! أقولها لك كما قلتُها لابن عسكلاجة: والله لو اجتمع بنو مروان على مرقدي وأنا نائمٌ؛ ما أيقظوني! فكُف عن هذا الهراء ولا تحادثني فيه مرة ثانية". "أمر مولانا!" (قال مذعناً لرغبة سيده). غير أنه مكث متلكئً في الخروج كأنما يريد أن يقول شيئاً آخر؛ فطن شنجول لتلكؤه.. فصاح متهكماً في ضيق: "هل ستُخبرني بنبأ آخر؟!". "أجل!" (أجاب متردداً مرتبكاً). "لقد أزعجتني يا هذا! هات ما عندك!". "الجنود البربر مستاؤون، ويتباطؤون في الاستعداد.. كأنهم لا يريدون غزو الشمال!".

هزته المفاجأة؛ فوثب هلعاً وهو يصيح: "ماذا؟؟ هل أنت واثق مما تقول؟!". "نعم يا مولانا! الأخبار أكيدة". انهد جالساً مرة أخرى، وقد بدا الهلع على وجهه والتوتر في حركته. ظل ساكتاً حيناً.. ثم قال حانقاً بصوت متهدج: "أفسد الله عليك حياتك كما أفسدتَ عليَّ يومي! ألا تعلم لماذا يفعلون؟". "لا أعلم يا مولانا!". سكتْ.. وظل مطرقاً ملياً، وقد رانتْ عليه الكآبة والوجوم، ثم قال مستسلماً بصوت خفيض: "استدعي لي محمد بن يعلي الزناتي وجميع زعماء البربر.. في أسرع وقت!".

-المشهد التسعـــون-

رغم انحسار فيضان النهر، ورغم توقف هطول الأمطار إلا رذاذاً؛ إلا أن برد الشتاء لا يزال قارساً، ولا سيما على تلال جبل العروس، خاصةً إذا جن الليل واشتدت الريح. بيد أن حماس الأمير ابن هشام ورجاله وهمتهم العالية وحيويتهم ونشاطهم في تدربهم واستعدادهم للحظة الانطلاق الموعودة قد أحال الأجواء الباردة القارصة إلى أجواء دافئة مبهجة. في ظل هذه الأجواء وتحت جناح الليل المظلم اجتمع الأمير في أحد الكهوف برجاله الخلصاء: حمدون وطرسوس وعبد الجبار وأخيه وصاعد. اجتمعوا.. وأنوار المشاعل الخافتة تتراقص حولهم؛ فتبدو ظلالهم على جدران الكهف كأشباح تحيط بهم وتحفهم في حركة دؤوبة مما أطفى على المكان رهبة أعظم، وراحت أنفاسهم المترددة -شهيقاً وزفيراً- تبعث في المكان دفء حيوتهم وحماستهم المتقدة مما قرَّ عين ابن هشام. بدأهم بالابتسام ارتياحاً، ثم هتف قائلاً: "قد علمتم أن شنجول يستعد للخروج لغزو الشمال!". "كأنه يُعين كاشحه في الوثوب عليه!" (قال محمد بن المغيرة). فهتف عبد الجبار أخوه في حماس زائد: "وإنَّا لكاشحوه!". فقال صاعد معلقاً: "لكن.. بلغتني يا سيدي أخبارٌ تفيد أن الجنود البربر يتذمرون، وقد لا يطاوعونه في الخروج!". "لا أظنهم يفعلون! وأحسبه سيجزل لهم العطايا ليغزو بهم.. ليُثبت أنه مجاهد مثل أبيه وأخيه.. فإن أخطر ما ينتقصه

الناس به أنه تسمى بألقاب الملوك ولمَّا يخرج للغزو بعد!". فهتف عبد الجبار متحمساً:" صدقتَ يا أبا الوليد! هذا الجيش سيخرج لا محالة. وساعتئذ تخلو لنا قرطبة من العساكر؛ فنضرب ضربتنا، ونقوم بثورتنا!". "هذا بالضبط ما أردتُ قوله.. ولذلك جمعتُكم!". "لكن.. ألم يزل عددنا قليل؟!" (تساءل صاعد بإقرار). "ولم يكتمل التدريب على القتال بالشكل الكافي!" (أضاف طرسوس). فهتف محمد بن المغيرة متحفزاً: "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله". بينما يعلق الأمير على كلام صاعد وطرسوس قائلاً: "أعلم يا أصحاب! وقد كنا نُعد أنفسنا لذلك اليوم الذي حسبناه سيكون في الصيف كما كان يفعل المنصور ومن بعده المظفر". "كانا عاقلين.. أما هذا الأرعن؛ فإنه يستعجل نهايته، وعلينا أن ننتهز الفرصة!" (قاطعه عبد الجبار في تحمس). "نعم! هذا ما أردتُ! فإن خلو قرطبة من جيشها وعساكرها فرصة ينبغي علينا ألا نفوّتها. لذا فإني أرى أن نستعد بقدر المستطاع؛ فإذا خرج الجيش من قرطبة سارعنا إلى الثورة وإنجاز ما قد تعاهدنا عليه!" (قال ابن هشام موافقاً لرأي عبد الجبار). ثم نظر إلى حمدون فألفاه واجماً؛ فتوجه إليه قائلاً: "أراك صامتاً يا حمدون؟!". "إنما أتفكر في الأمر يا أبا الوليد!". "أدلي بدلوك إذاً وأعلمنا رأيك!". "إني أوافقك الرأي يا أبا الوليد؛ فإنَّ خلو قرطبة من الجيش فرصة يجب ألا نُضيعها. لكن.. إذا قُمنا بما عزمنا عليه فور خروج الجيش؛ فقد يعلم شنجول بنا –ولا بد له أن يعلم- ساعتئذ فسيعود إلينا بجيشه العرمرم الذي لا قوة لنا به؛ وستكون نهايتنا!".

وجم الجميع، ولاح الإحباط واليأس على وجوههم! اندفع صاعد هاتفاً في أسف: "أوافقك الرأي يا حمدون! يا لها من فرصة قد ضاعتْ!". "لن تضيع إن شاء الله إذا عدَّلنا خطتنا" (قال حمدون في رباطة جأش). فصاح ابن هشام وقد أعياه الإحباط: "هات ما عندك يا رجل!". "ننتظر حتى يبتعد شنجول بالجيش ويغادر حدود الأندلس ويتوغل في أرض الأعداء؛ حينها إنْ علم بنا؛ فلن يعود هو أو جيشه

إلا وقد استتب الأمر لنا. لكن.. يلزمنا أن يكون لنا عيون في ذلك الجيش تُبلغنا خبره أول بأول!". "الله أكبر. يا لك من داهية!" (هتف طرسوس؛ بينما رمقه عبد الجبار مستاءً من إعجابه به). بينما يُثني عليه الأمير قائلاً: "أحسنتَ.. إنك حقاً داهية كما قال طرسوس. ما رأيُكم يا أخوتي فيما قال؟". صفق صاعد هاتفاً بإعجاب: "هذا رأي عظيم، وتخطيط بارع!". "أنا معه.. على بركة الله" (قال محمد بن المغيرة، وأومأ عبد الجبار أخوه مقراً بحُسن رأي حمدون رغم حسده له). "تبقى أمر العيون التي ستكون لنا في الجيش؟". "أنا أستطيع أن أدبر رجالاً ثقات يخرجون مع الجيش كمُتطوعين؛ فيكونون لنا عيوناً يرسلون لنا أخباره!" (قال صاعد في عزم وتأكيد). فهتف الأمير مستبشراً: "إذاً توكلنا على الله.. قد مضى الهزل؛ وحان وقت الجد!".

-المشهد الحادي والتسعون-

دلف ابنُ الرسان إلى مجلس سيده الذي لم يمرح لرؤيته يتعثر في ثياب الجندية، ولم يضحك من هيئته وهو يضطرب في مشيته العسكرية كدأبه الأيام السابقة؛ إنما.. أمسى واجماً ساكناً منذ لقائه أمس بالفتى محب، والأسوأ من ذلك أنه لم يعقد مجلس سمره البارحة! لابد أن ثمة شأنٌ عظيم يعكر صفوه! بيد أنه لن يتمكن من سؤاله عن ذلك الآن؛ سيتمهل ريثما يعتدل مزاجه ثم يسأله. لكن.. الفضول يعتصره ليعرف ما هو الأمر الخطير الذي يُعكر صفو شنجول! الرجل الذي لا يعبأ لشيء أبداً، ولا يهتم لأي أمر مهما كان! في صرامة وجدية -يحاول التظاهر بهما هذه الأيام- هتف: "مولانا الملك المأمون! إنَّ القائد محمد بن يعلى الزناتي يستأذن في الدخول". "هل جاء وحده؟!" (سأل شنجول باهتمامٍ بيّن). "أجل.. وحده!". "أسرع.. أدخله!" (صاح في اضطراب وتعجل). فانحنى ابن الرسان تعظيماً، ورجع القهقرى بضع خطوات لكيلا يولي سيده ظهره إجلالاً له، ثم استدار وخرج من حيث أتى، وقد فهم من تعبيرات وجهه واحتفائه بالقائد البربري أن الأمر يتعلق

بالبربر! دلف القائد البربري المجلس؛ فلم يُمهله شنجول إلى أن يُحيه.. بل صاح متسائلاً في استهجان: "ما هذا الذي سمعتُ يا زناتي؟!". "ماذا سمعتَ يا سيدي الملك؟". "سمعتُ أن الجنود البربر متذمرون، ويتلكؤون في الاستعداد للغزو! كيف تجرؤون -بعد كل ما منحناكم- أن تتخلوا عنا وتتذمروا علينا؟!". "عفواً أيها الملك المأمون! من أبلغكم قد دلس عليكم! ليست الحقيقة هكذا!". "فما حقيقة أمركم؟! هل تتمردون على طاعتنا، أم لا؟!". "معاذ الله أن نتمرد على طاعة أمير المؤمنين وولي عهده، وحاش لله أن نتذمر على سيدنا المأمون بن المنصور بعد النعم التي حبانا الله بها بفضل الملك المنصور أبيكم، والمظفر أخيكم!". "فما حقيقة الأمر؟". "حقيقة الأمر.. هي أن الجنود يستثقلون خروجهم لغزو الشمال في مثل هذا الوقت من العام.. فهو شاق عليهم؛ ورغم ذلك هم على الطاعة، وسيخرجون جميعهم ولن يخالف منهم واحد! لكن.. الكثيرون منهم أصابهم مدُّ النهر كما أصاب أهل قرطبة؛ فهم يسألون جلالتكم أرزاقهم المتأخرة لكي يتزود بها أهلوهم وذووهم في غيابهم.. وهذا حقهم!". "أفهم من حديثك أنه ليس هناك اعتراض على الخروج للغزو!". "لم نعترض؛ إنما نطلب المال لإتمام الاستعداد!". "إذاً.. لماذا لم يأتِ معك باقي زعماء البربر؟!". "لقد وكلوني للقائك، ورأيهم من رأيي". "وما هو رأيك؟". "أرى أن تمنح جنودنا أرزاقهم المتأخرة فتهدأ نفوسهم، ويطمئنون على أهليهم بتركهم ميسورين. إنهم يتوجسون أن يُخلِّفوا أهليهم عالة بين أهل قرطبة الذين صاروا يُظهرون الاحتقار والضغينة لكل بربري علناً بلا حياء. وإنما يفعلون ذلك لأننا رجالكم –أنتم العامريين- وصنيعة أبيك وأخيك؛ فينبغي أن تنصفنا.. كما كان يُنصفنا أبوك وأخوك!". استاء شنجول من نبرة حديث الرجل، وأحس فيها بالإهانة والتهوين؛ غير أنه أخفى استياءه وتمالك نفسه لأنه يحتاج إلى البربر وزعمائهم؛ فآثر أن يصبر على هذا البربري الجِلْف، وقرر في نفسه أن يأخذه بالسياسة والحيلة. فسكت.. وأطال السكوت وهو يسترق النظر إلى القائد البربري الذي لا يزال واقفاً بين يديه منذ

ولوجه، ثم ابتسم له بمودة مصطنعة، وأذن له بالجلوس كأنما يريد أن يبدأ صفحة حوار جديدة، ثم هتف قائلاً في كياسة: "لعنة الله على النمَّامين! إنهم لا يزالون بالمرء حتى يُفسدوه على رجاله، ويفسدوهم عليه. أنت محق في كل ما قلتَه يا زناتي؛ لذلك سأعمل برأيك، وسأدفع لكم أرزاقكم المتأخرة، بل.. ضعفيها، وسأجزل العطاء لقوادكم ورؤسائكم. لكني أرى أن يؤجل ذلك إلى بعد عودتنا منتصرين من غزوتنا إن شاء الله؛ فيأخذون ضعفي أرزاقهم المتأخرة بجانب الغنائم التي سيغنمونها. فما جوابك؟". "عذراً أيها الملك المأمون! كيف أخرج من عندك فأقول لجنودي: أخرجوا للغزو دون أن تقبضوا أرزاقكم، واتركوا أهليكم بين أهل قرطبة يفعلون بهم كذا وكذا؟! أنا لا أرضى لهم ذلك!". كاد صبر شنجول ينفذ؛ غير أنه تمالك نفسه؛ فقام من مقامه متجهاً إليه، ثم ربت على كتفه وتأبط ذراعه وهو يهمس في أذنه كصديق حميم: "اسمع يا زناتي! إنك أقررتَ أن أهل قرطبة يحقدون على البربر لقربهم منا وعلو منزلتهم عندنا.. أليس كذلك؟". فأجابه مستسلماً للإنصات إليه: "بلى يا سيدنا.. ولقد تأذينا منهم في الآونة الأخيرة!". "إذاً.. هل ترى أن من الحكمة أن نُوسع الخرق على الراتق، فنخص البربر بعطايا دون أهل قرطبة فيزداد حقد أولئك على هؤلاء؟!". "إنها حقوقنا التي ضمنتموها لنا أيها الملك!". "أعلم! وإني أعدك.. ستأخذون ضعفيها؛ لكن بعد العودة من الغزو حتى لا نفسد أهل قرطبة علينا.. فانظر ماذا ترى؟!". "إنْ أقنعتهم بالصبر عن قبض الأرزاق؛ فليس أقل من رد اعتبارهم بين أهل قرطبة!". "أعدك بذلك! أنا سأرد للبربر اعتبارهم، وسأرفع قدرهم فوق جميع القرطبيين! بشرط أن تعدني بالخروج للغزو الجمعة القادمة! فما رأيك؟". "ليس الأمر بهذه البساطة.. أيها الملك!". "افهم يا رجل! أنتم مني وأنا منكم! ولا مناص من خروجنا للغزو الآن كي نحفظ هيبتنا، ونرهب أعداء الداخل قبل الخارج! فلا تحملني على إفشاء أسرار الدولة لكي أُقنعكَ". "هل سداد حقوقنا وأرزاقنا المتأخرة يُفشي أسرار الدولة؟!". "اسمع! لقد أوهمنا أهل

قرطبة أنَّ خزانة الدولة خاوية حتى لا يطمع في مال الدولة غير مستحقيه ممن يدَّعون التضرر بالسيل؛ فلو أظهرنا المال الآن بصرف أرزاق جنودك؛ فسوف يتهمنا الناس بالكذب، وسيزداد حسدهم وبغضهم لكم! أما إذا خرجتم في مثل هذه الأجواء بدون منحكم أرزاقكم دفاعاً عن حدود الدولة؛ فإنَّ ذلك سيرفع قدركم بين الناس. وانظر ماذا سيقولون عنكم عند عودتكم منتصرين محملين بالغنائم، وحينها أُظهر أنا الأموال وأُجزل لهم العطاء.. فيقولون ساعتها: هذا بفضل البربر وجهاد البربر!". ما انفك شنجول يسول له الخروج، ويغريه بإقناع جنوده بذلك دون سداد رواتبهم؛ حتى شعر الرجل أنه محاصر ولا فكاك له إلا القبول؛ فوعده بإقناع الجنود بما يرغب شريطة أن يعده هو أيضاً أن يضاعف لهم العطاء، وأن يرد للبربر هيبتهم بين الناس. فوعده شنجول، وأقسم له بأغلظ الأيمان أن يرفع قدر البربر فوق قرطبة كلها!

-المشهد الثاني والتسعون-

(الفرار إلى الأمام): هذا هو أسلوب شنجول في معالجة أخطائه! بمعنى: أنه إذا ارتكب إثماً أو خطأً؛ فإنه يسعى إلى معالجته –لا بالتوبة ولا بالإصلاح- وإنما بالفرار منه إلى إثمٍ أكبر وخطإٍ أفدح؛ وهكذا درج على محوِ كل فعلٍ مشينٍ يفعله بفعلٍ أبشع منه! ويهرب من وخز الضمير على الذنب الهين إلى ارتكاب الجرم الفاحش! أبلغ الأدلة على ذلك: أفعاله التي فعلها خلال الشهرين الآخرين منذ توليه الحجابة بعد أخيه: بدايةً من معالجته لاستهجان الناس لتعجله ألقاب الملك.. وتلقبه بالملك المأمون؛ بأن أجبر الخليفة على توليته عهده. ثم معالجته لإهماله أحوال الرعية؛

بالإمعان في الملذات والانغماس في الشهوات. ثم معالجته لتخاذله عن مساندة أهل قرطبة في نكبة فيضان النهر؛ بالخروج للنزهة أمام أعينهم فوق مياهه. ثم معالجته لإرهاصات ثورة المروانيين المتوقعة؛ بالفرار بجيشه من وجه تلك الثورة. ثم معالجته لعجز خزينته عن سداد رواتب الجند بالتعهد لهم بمضاعفتها. ثم.. أخيراً معالجته لاستياء البربر من احتقار أهل قرطبة لهم بعمله بنصيحة ذلك الأخرق العربيد ابن الرسان.. ولبئس النصيحة!

-المشهد الثالث والتسعون-

خصصتْ أمُ هشام جُل نهارها لسلوان ولتعليمها رسم القرآن الذي تعطل أثناء مرضها ثم بسبب مواساتها لمنكوبي السيل؛ لذا.. فقد عزمتْ أن تعوِّض سلوان عن ذلك التأخير، ولا سيما أنها كانت لها نعم الابنة البارة التي أحسنتْ رعايتها في مرضها، وعاونتها في برها بأهل قرطبة. أما سلوان.. فعلى الرغم من صدق إخلاصها وحبها لأم هشام؛ فإنها لم تسهو عن استذكار دروسها التي تعلمتها؛ فما انفكتْ تُراجعها وتجوِّدها ليلاً طوال فترة رعايتها لمعلمتها في مرضها، وأيضاً خلال انشغالهما بالمنكوبين. ولما علمتْ أم هشام بذلك أثنيتْ عليها وعلى اجتهادها، ودعتْ لها بالخير. وها هي ذي أم عبد الواحد البربرية تأتي لزيارة صديقتها فتجدهما يطالعان كتب العلم في قاعة الدرس، تُسلم عليهما ثم تهتف سائلة: "هل استأنفتِ العمل في دروس العلم يا أم هشام؟". "ليس بعد.. يا أم عبد الواحد!". "فماذا تفعلان؟!". "لقد استأنفتْ الدرس لسلوان فقط". "مرحى يا سلوان.. إنَّك محببة إلى قلب معلمتكِ" (هتفتْ تُداعب سلوان)، ثم التفتتْ إلى أم هشام قائلة: "إذا استأنفتِ الدرس فأعلميني كي أُرسل إليكِ كَنّتي الجديدة.. ويا ويلي من كَنّتي!". "ما شأنكِ والفتاة.. يا امرأة؟ لِمَ تدعين بالويل؟!" (صاحتْ فيها أم هشام تستقبح قولها)، فأجابتها مستأنفة كلامها: "ليس بها بأس.. غير أنها أقامتْ في الدار مأتماً.. ولم تفض سرادقه

إلى الحين!". "إنا لله وإنا إليه راجعون! من الميت يا أم عبد الواحد؟". "لم يمت أحد سوى عقل تلك الكَنّة البلهاء؛ فإنها مذ علمتْ باستعداد زوجها للغزو مع جيش قرطبة لم تكف عن البكاء والعويل.. حتى فررتُ من البيت كرهاً لما تفعل!". ابتسمتْ أم هشام باطمئنان وهي تقول برحمة: "أُعذريها يا أم عبد الواحد! فهي لم تزل عروساً جديدة؛ ومن حقها أن تخاف على زوجها!". "وهل سيخرج وحده؟! سيخرج معه أخوه الأكبر عبد الواحد وسائر أخوته وأبناء عمومته! فإنْ كانتْ ثمة باكية.. فهي أنا، وإنْ كان قلب موجوع.. فهو قلبي! إنها ستفتقد رجل واحد؛ أما أنا فسأفتقد أبنائي الخمسة!". "استغفري الله يا امرأة! ولا تقولي ذلك.. بل ادعي الله أن يردهم سالمين!". "والله إني صابرة محتسبة.. وإنَّ قلبي ليتفطر خوفاً وقلقاً كلما خرجوا، وأمكث ليلي ساهدة أدعو الله لهم بالنجاة حتى يعودوا سالمين فكأنما عادتْ معهم روحي إلى جسدي. أما هذه المرة.. فإنهم يخرجون في وقت من السنة قارس البرد، شديد الجذف.. حيث هم ذاهبون!". "عافاهم الله هم والمجاهدين من أبناء الأندلس.. وردهم لنا صالحين!". "اللهم آمين!" (قالتْ بأسى)، وقد رانت الكآبة والحزن على وجهها؛ فصاحتْ فيها أم هشام تمازحها تطيباً لخاطرها: "وها أنتِ ذي قد قلبتِ مجلسنا مأتماً كما فعلتْ كنتكِ؛ فلما تعتبين عليها؟!"؛ فانفرجتْ أساريها وابتسمتْ، وابتسمتا أم هشام وسلوان لابتسامتها ثم هتفت باستسلام: "فليدبر الله لنا أمرنا.. إنَّه حكيم عليم! لا تنسي أن تُعلميني إذا استأنفتِ الدروس كي آتيكِ بهذه البلهاء عساها تنشغل بالدرس عن النوّح والبكاء في غياب زوجها.. فأنا لا أحب النكد كما تعلمين!". "أفعل إن شاء الله!". ثم جلستْ أم عبد الواحد ساكنة ترتشف الحليب الذي جاءتها به سلوان كواجب الضيافة، وفتأتْ تنظر إليهما وهما يستأنفان الدرس غير مكترثة بما تفعلان. مرَّ وقت –ليس بالقصير- وهنَّ على هذه الحال؛ فكادتْ أم عبد الواحد أنْ تملَّ القعود معهما؛ وهمَّتْ بالانصراف لولا أنْ جاءتهنَّ السيدة جويرية (زوجة الفقيه أبي عبد الله) تهرع إلى أم هشام تبكي جزعاً،

فما زلنَّ بها حتى قطعتْ بكاءها وهدأتْ أنفاسها.. ثم سألَتْها: "ما خطبكِ يا جويرية؟ لماذا تبكين هكذا؟!". "مصيبة ودهمتنا! تالله.. إنِّي خلَّفتُ أبا عبد الله في البيت يكاد يهلك كمداً!". "أي مصيبة.. يا امرأة؟ ماذا حدث؟ تكلمي!!". شرعتْ تبكي من جديد، واشتد عليها الجزع؛ فأخذتْ أم هشام تربتْ على كتفها ثم تحتضنها، وجاءتها سلوان بكوب ماء شربتْ منه قليلاً.. ثم نضحتْ أم هشام وجهها ببعض منه ثم سألتها بإشفاق وعطف: "تكلمي يا بنيتي! أي مصيبة تلك؟! لعله خيراً إن شاء الله!". صرختْ ونشيجها يُبهم كلماتها: "كيف يكون خيراً يا أم هشام.. إنه شر عظيم!". "والله.. إما أن تفصحي عما بكِ.. أو ضربتُك!" (صرختْ فيها أم عبد الواحد مغتاظة من فرط قلقها عليها)، هدأتها أم هشام، ثم توجهتْ إلى جويرية واحتضنتْ وجهها بين كفيها، ثم نظرتْ في عينيها بحزم الأم الحانية وهمستْ: "جويرية! بُنيتي! تكلمي.. أخبرينا ماذا حدث كي نتمكن من مساعدتكِ!". "لقد أمر المأمون (ولي العهد) أن يجتمع عنده القضاة والفقهاء المقلَّسون صباح غدٍ الجمعة طارحين قلانيسهم على أن يستبدلوا بها عمائم البربر!". "وما المصيبة في ذلك؟!" (تساءلتْ أم عبد الواحد مستخفة بجزعها)، استأنفتْ جويرية حديثها غير عابئة باستخفافها فقالتْ: "وقد توعد من يتخلف منهم عن أمره؛ ولأجل ذلك فإن زوجي يكاد يهلك كمداً مذ علم بالأمر!". "ولِمَ تركتيه يهلك وجئتِ إلينا؟!" (سألتها أم عبد الواحد متهكمة). "لم أطق رؤيته يتألم كمداً وحسرة بهذا الشكل؛ فقلتُ له سأذهب إلى أم هشام عساها تُشير علينا! وبالله.. ما استطاع أن يرد عليَّ من شدة حزنه!". "هل هو حزين.. وسيهلك كمداً لأنه سيستبدل عمامة البربر بقالسه المُرقَّشة؟! ما هذا الهراء؟!" (صاحتْ أم عبد الواحد ساخرة). "حباً لله.. ولأجل المعروف الذي بيننا؛ اصمتي!" (صاحتْ فيها أم هشام تنهرها). "تُسكتينني لأني ألوم على زوجها ازدراءه عمامة البربر؟! ألهذا الحد تحتقروننا؟!" (هتفتْ أم عبد الواحد مغضبة). "تالله.. إنني لا أحتقر مسلماً أبداً! فكيف أحتقر البربر وقد صاروا –مذ قدموا إلينا- جيراننا وإخواننا، وأندلسيين

مثلنـا؟! اتقي الله.. ولا تظني بنـا السـوء!". "فلمـاذا حزنهـا وكمـدها هي وزجهـا إذاً؟!".
فـأجابتهـا أم هشـام بجديـة وصـرامة مسـتهجنة سـوء ظنهـا: "لأنـه مـن قـديم الـدهر والقلانس الطِّوال المُرقَّشة هي تيجـان القضـاة والفقهـاء وذوي الهيئـات التي يبـاهون بها الرعية في سائر المملكة؛ فإنْ استبدلوا بها غيرها الحين لغير حاجة.. استهان بهم النـاس، واسـتقبحوا صـورتهم لمخـالفتهم العـادة!". أحـاط الصـمت المتـوجس بهـنَّ، وحفهنَّ الوجوم.. وطالت عليهن لحظات خرساء إلى أن سألتْ جويرية سؤال اليائس: "ماذا أفعل يا أم هشام؟ كيف نحصل على عمامة بربرية يلبسها زوجي غداً؟". لم تُجب أم هشـام؛ بـل.. ظلـتْ سـاكنة صـامتة! غير أن أم عبـد الواحـد أجابتهـا بكـرم مستسلم فقالتْ: "عـودي إلى زوجكِ يا جويرية، وسأرسل لكِ –بعد قليل- عمامة نظيفـة من عمامات ابني عبد الواحـد.. لعلـه ينتفع بها!". "بـارك الله فيكِ يـا أم عبـد الواحد!". "أصلحنا الله وإياكم".

-المشهد الرابع والتسعون-

ربمـا نهـار ذاك الجمعـة كـان أسـعد نهـار يمـر على ابـن الرسـان مـذ تـولى وظيفتـه الجديـدة؛ فقـد بلغـتْ بـه لـذة التشـفي ذروتهـا –في ذاك النهـار- وهـو يتفـرَّس وجـوه القضـاة المارين أمامه داخلين إلى مجلس ولي العهـد منكسي الـرؤوس خجلاً بسـبب تخليهم عن قلانسهم الطوال المرقشة التي هي بمثابة تيجانهم. كان يحدِّق بجرأة في وجه كل قاضي يمر به منهم؛ فإذا التقتْ عيناهما ابتسم ابتسامة ضبع يرقص فوق جيفة أسد كأنما يقول له: "ها أنا ذا قد نزعتُ عنك تاجك الذي كنتَ تباهي به؛ وأنا المحتقـر في عيـونكم". فقـد كانـتْ تلـك هي نصـيحته التي نصـح بهـا شـنجول عنـدما استشاره فيما يفعل لجبر خاطر البربر، ولرفع قدرهم بين أهل قرطبة وفاءً لوعده لقائدهم الزناتي! انتهز ابن الرسـان هذه الفرصـة ليُنفِّس بها عـن حقده الـدفين بين ضلوعه على قضـاة قرطبـة.. بـل قضـاة المسـلمين كافـة! فمنـذ نعومـة أظفـاره وأبـوه

اليهودي يُنشئه على تبجيل قضاة المسلمين والخوف منهم؛ حتى استقر في روعه أن هذا القاضي قد يُغني ويُفقر، ويحبس ويُطْلق، بل.. قد يُحيي ويُميت بكلمة من فمه. ولما كبر وشب عن الطوق.. أحب أن يقتل خوفه ورهبته من القضاة؛ فاعتنق الإسلام ظناً منه أن قضاة المسلمين يحابونهم ضد غيرهم، لكنه وجد غير ذلك! وجد القاضي يحكم بشريعة الإسلام وبالعدل وإنْ حكم للذمِّي ضد المسلم؛ فازداد حنقاً على القضاة! وصار يبغضهم لأنهم قضاة.. لا لسبب آخر. ولما كانت القلانس الطوال المرقشة هي تيجانهم التي تُميزهم عن باقي الخلق؛ فقد توهَّم أنَّ خلع هذه التيجان عن رؤوسهم هي أبلغ إهانة يمكن أن تُحزنهم؛ فأراد أن يُحزنهم! فزيَّن لشنجول الأمر بأن قال له: "إنَّ أرفع الناس منزلةً عند الرعية –بعد أمير المؤمنين وولي عهده المأمون- هم القضاة.. وهم غالباً من العرب، وليسوا أبداً من البربر، وإنَّ غطاء رأسهم هو تاجهم الذي يميزهم بين الناس؛ فإذا أمرتم أن يكون تاج رأسهم هو عمامة البربر؛ علا قدر البربر وقدر عمامتهم بين الرعية.. وتكون وفيتَ بعهدك يا سيدنا!". أُعجب شنجول بالفكرة لمجرد أنها مخالفة للعادة، فأمر بها من غير تروٍ ولا إعمال عقل. غير أن الأمر لم يزد عن أن يُمثل إهانة للقضاة لم يرض بها البربر، ولم يقنعوا بأنها تمكين لهيبتهم بين الناس، بل تحدث العقلاء منهم بأنها ستُزيد بغض أهل قرطبة لهم. وقد فطن شنجول لذلك -لكن.. بعد فوات الأوان- عندما دخل عليه القضاة محزونين متضايقين لتخليهم عن تيجانهم، وحين لم يسعد البربر.. ولم يفخروا بارتداء القضاةِ عمامتهم! ومما أفسد عليه الأمر عدم حضور قاضي القضاة (ابن ذكوان) لهذا الاجتماع؛ مما يعني اعتراضه! وبالتأكيد سوف يطلب لقاءه ليوبخه على إهانته القضاة.. وليطلب منه أن يتراجع عن قراره.. الذي هو نادم عليه الآن فعلاً.

في تلك الليلة.. قرر أن يصب جم حنقه على من أشار عليه بهذه الفكرة الصبيانية الحمقاء، وقرر أن ينتقم منه! فلربما كان نهار الجمعة سعيداً لابن

الرسان؛ لكن.. بينما هو يزهو بنفسه بين الندماء في مجلس سمر سيده ليلاً؛ ألفاه يحدجه بعيني ذئب يهّم أن يفتك بغريمه؛ فافتعل الخوف والرهبة، وأقبل عليه يسأله: "ما بال سيدنا ينظر إليَّ شزراً؟!". بهدوء يسبق العاصفة أجابه: "استعد للخروج معي للغزو.. سيخرج الجيش بعد غدٍ". فسُقط في يده وضاق صدره، وأمستْ تلك الليلة هي أشأم ليلة مرت عليه.. بعد أن كان نهارها أسعد نهار!

-المشهد الخامس والتسعون-

متدرِّعاً بدِرْعه الفضي المطرز بالذهب، ممتطياً جواده المجلل بسِّرْج مزين بالجوهر.. وقف شنجول مختالاً يستعرض جيشه الذي اصطف ليخرج للغزو. طفق يجول ببصره يُطالع ما حوله من أبهة ملكه وعظيم سلطانه مزهواً بنفسه مفتخراً بسؤدده، ثم صاح بعظمة وكبرياء: "انطلقوا على بركة الله!". انطلق شنجول بالجيش مغادراً قرطبة إلى معركة لم يخطط لها جيداً؛ إنما أراد أن يخرج لكي يُسكت ألسنة من يتهمونه بالتقاعس عن الجهاد، وأوهمه شيطانه أنه سيعود منتصراً ظافراً محملاً بالغنائم. كان ذلك في يوم الأحد ١٦ جمادى الأولى عام ٣٩٩هـ، الموافق ٢٢ يناير ١٠٠٩م؛ وقد استخلف على شئون المُلك في غيبته ثلاثة رجال هم: الوزير الأكبر أحمد بن سعيد بن حزم، ثم عبد الله بن مسلمة (صاحب شرطة الزاهرة)، ثم الكاتب أحمد بن بُرد. ولم يشأ أن يمنح عبد الله بن عسكلاجة أي سلطة غير كونه (حاجب على قصر الخليفة) نكاية فيه لمجادلاته الكثيرة. ثم ترك سبعمائة مقاتل بكامل سلاحهم وعدتهم تحت تصرف ابن مسلمة ليحفظ بهم قرطبة. بعد مرحلة قصيرة من الطريق لحق به ابن الرسان وبصحبته "سبعين" جارية حسناء، جاء بهنَّ ليُؤنسنَّ سيده في رحلته الحربية المُضنية. كلا! لم يكن ابن الرسان ليستسلم للخروج مع المقاتلين: يعاني معاناتهم ويذق مرارة الكدِّ معهم! إنه لم يعتد حياة الجندية التي أقحمه فيها شنجول رغماً عنه؛ لذلك فقد فكر: (إنْ كان

لابد من الخروج طاعة لشنجول؛ فلأُزيننَّ له خروج الجواري والحرس الخاص معه.. وأكون أنا رئيس حرسه على خمره وجواريه.. فأنعم كما ينعم!). تساءل شنجول مستهجناً الفكرة في البداية: "هل ترى أن ذلك مناسباً مع الخروج للغزو؟!". غير أنه أقنعه بأسلوبه الإبليسي اللعين قائلاً: "وهل يصبر مولاي عن خمره وجواريه طيلة هذه الرحلة التي قد يقضي فيها أسابيع طوال؟!". فأجابه بتبرم وتحسر: "تالله.. لا أصبر ليلة واحدة!". "يا مولاي! ذاك أمرٌ ركبه الله فينا! فلماذا نغالب فطرة الله؟! لا تضيع يا سيدنا أيام شبابك في مغالبة فطرة الله؛ بل.. تمتع بها، واقتنص اللذة، وفُز بلحظات الصفا وإنْ كانت في وقت الحرب!". "صدقتْ يا نديمي! إنك لخير ناصح!" (هتف مقتنعاً بتلك الحكمة الإبليسية)، ثم استطرد قائلاً: "إذاً.. تأخر أنت لتُعد ما يلزمنا في هذه الرحلة الشاقة؛ لكن احذر أن تتأخر عليَّ!". "سأجعلكَ تحس كأنك لم تغادر قصرك بقرطبة يا سيدنا!". وها هو ذا يلحق به ومعه عدد من الجواري لم يخرج مثلهنَّ مع جيش كهذا من قبلُ!

-المشهد السادس والتسعون-

احتفتْ قرطبة بخروج الجيش، لكن.. بقلوب محزونة! فما برح الناس يُعالِجون آثار ما أصابهم أيام الفيضان والسيل، ولمَّا تعد أحوال المدينة كسابق عهدها من الخير والرخاء. أما الأمهات والزوجات والأبناء؛ فإنَّ مصابهم شديد وقلوبهم وجلة.. لخروج رجالهم للحرب في وقت من الشتاء لم يخرج أحدٌ قبلهم في مثله قط! فكيف إنْ نجوا من عدوهم؛ أنَّ ينجوا من برودة الطقس وهطول الأمطار ووعورة الطريق ووحشته؟! بيد أن ذلك كله.. كان فرصة سانحة منحتها الأقدار لصاعد بن عبد الوهاب فأحسن استغلالها؛ فجعل دعاته يُظهرون ذم شنجول والتشنيع عليه في الأسواق وبين الناس، وغدا آخرون يجأرون في الأسواق.. يُطالبون أن يظهر الثائر المرواني ليُخلصهم من نير شنجول والعامريين؛ فانتشرتْ الأراجيف والشائعات بين

الناس، وأظهروا سب العامريين والبربر علانيةً؛ فاغتاظ لذلك ابن عسكلاجة، وطلب من ابن مسلمة أنَّ يُطلق رجاله وجنوده لتأديب هؤلاء الذين يروِّجون للفتنة؛ فشمَّر عن ساعديه، وأطلق رجاله يضربون الناس في الأسواق، ويفتشون في الدور والبيوت، ويقبضون على من يرتابون فيهم، فامتلأ السجن بخلق كثير من عوام الناس وغوغائهم.. ورغم ذلك لم يتمكن من إسكات الألسنة الطاعنة، ولمَّا يتمكن من الوصول إلى شخصية الثائر المرواني الحقيقية!

استمرتْ اجتماعات الأمير محمد بن هشام برجاله الخلصاء المستترة في كهوف الجبل؛ وكان اجتماع الليلة بعد مرور أسبوعين على خروج جيش شنجول من قرطبة. في غضون هذين الأسبوعين تضاعفتْ أعداد الرجال والأنصار حتى قارب عددهم الأربعمائة رجل، وانضم إليه عدد من كبراء قرطبة؛ منهم.. الحسن بن حيَّ الفقيه الذي حضر اجتماع الليلة -لأول مرة له- مع قواد الأمير؛ فرأى منهم حمدون وطرسوس وعبد الجبار وأخاه محمداً، وصاعد الحرار الذي يعرفه من قبل. دفعه حماسه الزائد وحنقه على شنجول والبربر أن يبدأهم بالحديث فهتف: "سيدي أبا الوليد! نحن الآن كثيرون.. لِمَا لا نخرج ونهاجم الزاهرة ونقضي على ابن مسلمة ورجاله؟! لماذا ننتظر؟!". "هدأ من روعك أيها الفقيه! لا تتعجل قطف الثمرة وقد دنا قطافها! إنَّ أخبار الجيش تأتينا تباعاً، إنهم لا يزالون داخل حدود المملكة، وقد علمنا أنهم يكابدون مشاق الطريق، وشراسة الأجواء بما يجعلهم يصلون إلى عدوهم مهزومين من تلقاءِ أنفسهم!". فهتف صاعد مؤكداً: "إنهم خلال جمعتين لم يقطعوا نصف الطريق!!". فاستطرد الأمير موزعاً نظراته بين جلسائه): "لذلك أقول: علينا بالصبر وضبط النفس بينما عملنا في شحذ الناس والاستعداد للثورة مستمر.. وميقاتنا سيكون حين يعبر شنجول بجيشه إلى أرض النصارى". ثم استقر بصره على وجه صاعد قائلاً له: "أريد حدثاً ذا صيت يهز قلوب أهل قرطبة؛ فنعرف به حقيقة موقفهم منا!". فتساءل صاعد بشغف: "ما هذا الحدث يا سيدي؟".

"لستُ أدري بعدُ.. لكني أريد افتعال حادثة يتحدث بها الناس، وتُبين لنا حقيقة موقفهم منا.. ومن العامريين!". "سأتدبر الأمر! وسأعمل على ذلك!" (أجابه صاعد). بينما وجه الأمير حديثه لحمدون وطرسوس سائلاً: "ما حال التدريبات وإعداد المقاتلين؟". "التدريبات تسير وفق ما تُحب يا أبا الوليد" (أجابه حمدون). "كم عددهم الآن؟". "قد قاربوا الأربعمائة.. ويزدادون في كل يوم" (قال طرسوس). فأضاف حمدون: "لكن.. الأكفاء منهم لم يتجاوزا المائة!". "اعملوا على رفع كفاءتهم جميعهم قدر المستطاع.. وفي أسرع وقت؛ فعلى الرغم من خروج معظم عساكر جيش قرطبة؛ إلا أنَّ ابن مسلمة لا يزال معه قرابة السبعمائة فارس بكامل سلاحهم وعدتهم.. وتلك قوة لا يُستهان بها!".

-المشهد السابع والتسعون-

وفاءً لوعده لها عاد حمدون إلى بيت جدته ليقضي معها ليلة الجمعة ونهارها فتطمئن عليه وتأنس بمجالسته. ذهب إلى الدار كعادته من جهة مربض حصانه، ثم ولج متنحنحاً، فوجد أم سعدون تقمُّ البيت، حياها.. فبشَّتْ لقدومه وأحسنت استقباله، ونادتْ على جدته وسلوان؛ فهرولتا إليه مرحبتين قادمتين من قاعة الدرس. ضمتْ رأسه الحاسر إلى صدرها، وطفقتْ تمسح عليه وتمسد شعره بعدما تفحصته بعناية –كدأبها في كل مرة- لتطمئن أنه لم يصبه ما تكره. كانت أشد لحظات عمره أمناً هي تلك التي يرتمي فيها بين أحضان جدته، وكانت أشد لحظات عمره سعادة هي تلك التي ينظر فيها إلى عيني سلوان الباسمتين فيرى فيهما فرحتها بعودته.. شرع يسبح فيهما؛ فكأنما يسبح في خضم من نعيم! انتبهتْ أم سعدون لنظراتهما فسرتها حال هذين المتحابين الخجلين فراحتْ تدعو الله في سريرتها أن يجمع بينهما في خير. نادتها أم هشام: "هلمي لنُعد الطعام لحمدون!". فذهبت وهي ترمقهما بنظراتٍ أثارتْ الخجلَ في نفس سلوان؛ فهرولتْ خلفها إلى غرفة الطبخ.

انتشل حمدون نفسه من خضم النعيم الذي عاش فيه لحظات سعيدة سابحاً في عيونها، ثم اتجه إلى غرفته الجديدة التي هُيئتْ له بعيداً عن الصحن لكيلا يجرح سترها أثناء تواجده حيث أنَّها سكنتْ غرفته القديمة بجوار مخدع جدته. دلف إلى الغرفة فوجدها قد أُحسن تهيئتها، وألفى فيها إبريق ماء وطستاً أُعدا ليغتسل. علم أنَّ سلوان هي التي هيأتْ له الغرفة؛ فانتشى لاهتمامها به، وغمرته سعادة ملكتْ عليه جوارحه، فمكث هائماً في نشوته.. إلى أن ألفى بابه يُفتح ويلج عليه سعدون فسأله: "عُدتَ مبكراً من المرعى؟!". "أجل.. سأذهب إلى الحمام لأتهيأ لصلاة الجمعة غداً!". "ليستْ عادتك أن تزور الحمام قبل الجُمع!!" (هتف حمدون مفتعلاً الاندهاش ليمزح معه)، غير أن سعدون اقترب منه كمن سيخبره بسر خطير، ثم همس بجدية: "جمعة غدٍ.. ليستْ كأي جمعة!". ثم دس يده في حقيبته وأخرج منها شيئاً ناوله إياه وهو يستطرد هامساً: "انظر.. سألبس هذا غداً في صلاة الجمعة!". "إنه قميص فاخر! كيف حصلتَ على ثمنه؟!" (سأل حمدون وهو يتفحص القميص بين يديه)، فأجابه بذات النبرة الجادة الهامسة: "إنه هدية من أصدقاء. أُريدك أن تُصلي الجمعة في المسجد الجامع!". "سأُصلي فيه إن شاء الله، لكن أخبرني من هم أصدقائك الأغنياء الذين يهدونك مثل هذا الثوب الباهظ ثمنه؟!" (سأله متعجباً). "هذا سرٌ.. ولن أبوح به!". ساعتئذ جاءهما صوت أم سعدون تنادي: "هلم يا حمدون إلى الطعام!". فقال له وهما يغادران الغرفة: "هيا.. تعال لتأكل معي!". "لا.. سأذهب إلى الحمام الآن، سلامٌ عليكم!". "وعليكم السلام!!" رد عليه التحية، بينما تخامر عقله حيرة مريبة في أمر هذا الفتى المرور!

-المشهد الثامن والتسعون-

بُعيد صلاة الجمعة.. كانت سلوان تقرأ وُردها القرآني جالسةً في صحن الدار؛ فسمعتْ صوتاً ينادي من الخارج: "يا أم هشام.. يا أم هشام!". أغلقت مُصحفها

بتؤدة وقبَّلته وهي تضعه بتقديس وعناية في موضعه، ثم هرولتْ إلى باب الدار لتنظر مَن بالخارج. فتحتْ الباب.. فإذا أحد غلمان الحيَّ. اندفع صائحاً بصوت لاهث: "أين الجدة أم هشام؟". أتاه صوتها من خلف سلوان: "ها أنا ذا!"، فهتف قائلاً: "حمدون يقول: لا تقلقي.. إنه سيبقى مع سعدون حتى يطمئن عليه!". "سعدون.. ولدي!! ماذا حدث له؟؟!" (هرعتْ أم سعدون قادمة من الداخل تسأل في ارتياع عن ابنها)، أخذتْ أم هشام بيد الغلام لتدخله إلى الدار في حين أم سعدون تتكئ على سلوان من شدة الوجل. جلس الفتى مطأطئ الرأس في سكون وثلاثتهنَّ يترقبنَّ أن يتكلم، حضَّته أم هشام على الكلام صائحة: "تكلم يا بُني.. ماذا حدث لسعدون؟!". فقال: "بينما يُنصتْ الناس للخطيب وهو يدعو في نهاية خطبته لوليِّ العهد كالمعتاد؛ قام قُبالته سعدون معترضاً، وصاح بأعلى صوته قائلاً:" آش هذا الدلس يا شيخ السوء!"؛ فبادره من حوله يُقعدونه ويُسكتونه، لكنه.. أبى، وظل يصرخ: "آش هذا الدلس يا شيخ السوء!"، ويكررها بأنكر صوت؛ حتى ضاق الناسُ به لمقاطعته الخطبة.. وجاءت عساكر ابن مسلمة ليأخذوه!". "وامصيبتاه! ماذا دهاك يا سعدون؟ ماذا فعلتَ بنفسك.. يا ولدي؟!" (صرختْ أم سعدون مفزوعة) وراحتْ تبكي وتنتحب، وسألته أم هشام بارتياع: "ثم ماذا حدث؟ تكلم!!". "قام بعض الجيران يمنعونه من العساكر، ويشفعون له قائلين: سامحه أيها القائد إنه فتى ممرور! لكنه أخذ يسب العساكر ويسب ولي العهد والعامريين، ولم يستطع أحدٌ إسكاته؛ فجروه إلى ابن مسلمة.. وذهب معه حمدون وأبي.. ورجالٌ من الحيِّ، وجئتُ لأطمئنكنَّ". "فعلتَ خيراً يا ولدي! اذهب إلى والدتك كيلا تقلق عليك!".

اللحظات.. تمر بطيئة قاتلة! وأم سعدون قابعة مهدودة على الأرض تضرب فخذيها بكلتا يديها.. لا تنفك عيونها عن ذرف الدمع، ولا صدرها عن النشيج! وبجانبها جلستْ سلوان تربت على كتفها حيناً، وتتلو عليها قرآناً حيناً.. بعدما عجزتْ عن تهدأتها أو إسكات نحيبها! وإلى جوارهما أم هشام مضطربة تذرع صحن الدار

جيئةً وذهاباً دون كلل، لم يفتر لسانها عن ذكر الله ولا عن الحَوْقلة مذ جاءهم الخبر المشئوم! مضى أغلب النهار.. وهنَّ ينتظرنَّ عودة حمدون، ويلهجنَّ بالدعاء لله أن يرد سعدون سالماً. بانقضاء صلاة العصر لم تملك الأم نفسها فالجزع والترقب يُمزقان نياط قلبها. حاولت الوثوب.. فلم تستطع، جاهدتْ في القيام مرة أُخرى متكئة على سلوان التي قامتْ معها، تحاملت على نفسها.. ونصبتْ قامتها، واعتدلتْ وحدها متخلية عن مساندة سلوان. عدَّلتْ غطاء رأسها وخمارها، واجتهدتْ في استجماع قواها فبالكاد اجتمعتْ.. ثم هتفتْ بعزم.. وبصوت يتقطعه النشيج: "علام الانتظار؟! إني ذاهبة لولدي!". جذبتها أم هشام من ذراعها برفق وهي تصيح فيها: "إلى أين ستذهبين يا امرأة؟! امكثي حتى يرجع الرجال بالخبر!". نزعتْ ذراعها.. وهي تصيح منتحبة: "لم أعد أطيق صبراً.. ذريني ألحق بولدي!".

بينما تهدج في مشيتها العنيدة تجاه الباب، وأم هشام تسعى وراءها لتُثْنيها عن عزمها؛ ألفيا حمدون قادماً من بعيد. انتظرته أم سعدون لدى الباب بقدمين خائرتين.. وبفؤاد يرتجف وجلاً. تطلَّعتْ جدته إليه من بعيد؛ فألفته يمشي متثاقل الخُطى منكس الرأس.. كأنما يجر أذيال العجز واليأس؛ فانفلتْ الدمع من عينها رغماً عنها! استوقفته الأم بتلهف، وجعلتْ تربت بيدها على صدره كأنما تتشبث به، ثم سألته بهلع: "أين سعدون؟! ماذا فعلوا بأخيك.. يا حمدون؟ أين ولدي؟؟!". لم يستطع أن ينظر في عينها؛ وإنما.. أمسك يدها برفق حاملاً إياها عن صدره، ثم مسنداً لها وهي تترنح ولهى إلى ولدها. هرولتْ سلوان إليهما لتسندها معه، دلفا بها إلى الدار ذاهلة عمن حولها، وهو يتحاشى أن ينظر في أعينهنَّ. لم تقدر أن تتحرك خطوة أخرى، وتطوَحتْ ساقطة على الأرض تولول بصوت خائر: "واولداه! وابُنياه!". على أريكة جدته.. جلس يلتقط أنفاسه إلى خطوات منها حيث جثمتْ وإلى جوارها جدته تواسيها، في حين جاءته سلوان بماءٍ يرتوي به. راحتْ جدته تنظر إليه.. تنتظر أن يتحدث؛ لكنه.. أطال السكوت؛ فهتفتْ: "ماذا حدث يا حمدون؟

أخبرنا يا ولدي.. لقد أهلكنا الجزع!". "ذهب العسكر به إلى ابن مسلمة، فاستأذنتُ في الدخول إليه ومعي رجالٌ من الحيِّ، واجتهد كل منا في الشفاعة والتوسل إليه بأن الفتى غير عاقل.. ولا يؤاخذ بما يفعل! فرد شفاعتنا قائلاً: سأرفع أمره إلى الأمير ابن عسكلاجة ليحكم فيه، وأمر باحتجازه.. وأخرجنا من عنده!". فصاحتْ أم هشام بتوتر: "هلا.. ذهبتم إلى ابن عسكلاجة!!". "نعم! سارعنا إليه في مقره بقصر الخلافة.. ووصلنا إليه والبريد عائداً من عنده إلى ابن مسلمة. حاولنا لقاءه.. لكنه رفض، وأمر بطردنا من عنده! فرجعنا إلى ابن مسلمة بالزاهرة!". "هل علمتم بماذا حكموا في أمره؟" (سألتْ أم هشام بوجل). "أجل!" (أجاب حمدون بصوت مكتوم). حدجته عيونهنَّ بترقب ليعلمنَّ مصير الفتى؛ غير أنه ظل صامتاً.. ونكس رأسه محاولاً أن يُخفي رِّعْدَةً أصابتْ جسده، وجاهد أن يكبح دمعه؛ فلم يستطع! قامتْ إليه جدته هلعةً تسأل: "بماذا حكموا عليه؟؟ انطق!". استجمع شجاعته ليتكلم.. فخرج صوته ضعيف تكتمه الحشرجة: "حكموا.. بصلبه!". أخرسهم الخبر جميعاً، ومادتْ الأرض بأم هشام؛ فأمسكتْ بيد سلوان، ثم انطرحتْ إلى جوار الأم البائسة التي أشعلتْ تلك الصاعقةُ النارَ في أحشائها؛ فتحجرتْ عيناها، وجف دمعها لوهلة.. طرحتْ خلالها خمارها عن رأسها، وشرعت تلطم خديها.. وتصرخ بقلب مذبوح: "واثبوراه! واثبوراه!". ثم أغرقتهم الدموعُ فكأنما ألجمتهم وصمَّتْ أسماعهم، وانذهل كلٌ منهم بالمصيبة عن الآخر! بعد مدة من الصمت.. كانت سلوان أول من نطقتْ؛ فتساءلتْ بذهول وحيرة: "هل سنتركه لهم.. يقتلوه؟!!". فأجاب حمدون بصوت خفيض يائس: "لا نملك له شيئاً! مصيرٌ محتوم!". "لا يأس من رحمة الله!" (قالتْ أم هشام محاولةً أن تستجمع قواها)، بينما راحت أم سعدون تصرخ مخاطبةً نفسها في وَلَهٍ: "هل يرضى المسلمون أن يعاقب من لا عقل له؟! تالله.. إنَّ ولدي مرفوعٌ عنه القلم.. فكيف يا مسلمين يعفو عنه الله؛ ولا تعفون؟! هل يرضى خليفتكم بهذا؟! واولداه.. واثبوراه!". ثم مدَّتْ يدها المرتعشة

إلى أم هشام التي أمسكت بها مشفقةً عليها.. وأنصتتْ لها وهي تستطرد هامسة برجاء يائس: "اذهبي للخليفة يا أم هشام! أليس ابن عمك؟ اذهبي إليه.. وأخبريه أن سعدون ممرور.. لا يُؤاخذ بما يفعل؛ وهو سيُسامحه! خليفتنا رحيم.. أنا أعرف! لن يرضى الضيم في مدينته.. بالله عليكي اذهبي له!". فأجابها حمدون متأسفاً في أسى: "قلنا هكذا لابن مسلمة؛ فانكر علينا قائلاً: هل الممرور يلبس قميصاً فاخراً كالذي يلبس؟! ثم طردنا!". "لعنةُ الله على من ألبسه هذا القميص! لا سامحه الله.. ولا غفر له!" (اندفعتْ أم سعدون تدعو على صاحب القميص)، فهتفتْ سلوان بتحير: "ربما من أهداه القميص هو من دفعه لصُنع ما صنع!". "لعنة الله عليه! فجعه الله في ولده.. كما فجعني في ولدي!" (صرختْ الأم تردد دعاءها على صاحب القميص)، ثم رنتْ بتوسل إلى سيدتها وهمستْ بتشنج: "أم هشام! افعلي معروفاً لأجل سعدون! اشفعي له عند الخليفة!".

-المشهد التاسع والتسعون-

لقاءُ أحد الرعية بالخليفة (المؤيد بالله هشام) مستحيلٌ! وإنْ كان ثمة سبيل للقائه؛ فيجب موافقة ابن عسكلاجة العامري أولاً! وهذا ما يعلمه أهل قرطبة يقيناً! ترددتْ سلوان قليلاً قبل أن تذكر الذلفاء قائلة: "قد تتوسط أم المظفر لنا في لقائه! أو قد تشفع هي عنده!". قالتْ وهي تخشى استياء أم هشام (لِمَا كان بينهما مؤخراً). بيد أن أم هشام ما كادتْ تنتبه لذلك؛ حتى هرعتْ إلى بغلتها تسوقها إلى الذلفاء وبصحبتها حمدون يمتطي حصانه. حثتْ السير إلى قصر الحاجبية بالزاهرة غير عابئة بخلافهما الأخير؛ فإنَّ خوفها على سعدون وإشفاقها على أمه أكبر من أن تمنعها مغاضبتُها للذلفاء عن السعي في إنقاذه. ولقد أحسنتْ الذلفاء لقاءها (كأن شيئاً لم يكن)، واستهجنتْ تجبر ابن عسكلاجة على الرعية، ووعدتها بالتدخل في الأمر.. ثم صرفتها مجبورة الخاطر على أن تنتظر منها خبراً حسناً الليلة أو صباح

الغد! باتتْ عيون البيت ساهرة الليل كله.. تذرف الدمع بقلوب وجلة وألسنة لاهجة بالدعاء؛ حتى انبلج الصباح؛ فجاءهم بُشرى (خادم الذلفاء). رحب به حمدون، واستقبله في غرفة الضيف؛ فاستأذن أن يلتقي بأم هشام وأم سعدون لتسمعا مقالته. جلس بأدب غاضاً بصره في احتشام، هرعتا إليه وحيتاه في عُجالة، ثم وقفتا تنصتان لما يقول: "أبشروا بنجاة ولدكم.. إن شاء الله!" (هذا ما بدء به حديثه)، فضغطتْ أم سعدون بيدها على صدرها كأنما تكتم وخزاً يصيبها، وترنحتْ.. ثم تماسكتْ وصاحت باغتباط: "الحمد لك يا ربي!". أما أم هشام فقد تهلل وجهها استبشاراً، وسألته أن يقص عليهم ما حدث؛ فقال: "لم تشأ سيدتي أن تذهب بنفسها إلى أمير المؤمنين لكيلا يؤخرها ابن عسكلاجة عن لقائه؛ وحبذتْ أن أذهب أنا برسالة منها إلى (جؤذر الفتى) خادم أمير المؤمنين. فتسللتُ إليه –دون علم ابن عسكلاجة- وأعطيتُه الرسالة وأعلمتُه بالأمر؛ فولج إلى مولانا وأخبره الخبر؛ فغضب –أول الأمر- لمَّا علم أن سعدون لغا في خطبة الجمعة وقاطع خطيبها. غير أن جؤذر أقسم له أن الفتى مصاب في عقله؛ فرقَّ له مولانا وعفا عنه. ثم أرسل إلى ابن عسكلاجة يستدعيه في الحال وجؤذر عنده؛ فاغتاظ لعِلم مولانا بالأمر.. وراح يُقبِّح لمولانا فعل الفتى، وأسهب في المقال؛ حتى صاح فيه مولانا: "إنَّا عفونا عنه؛ فأطلقه"، لكنه كابر وأخذ يُجادل قائلاً: "لقد هيأنا له جذع يُصلب عليه.. ودعونا الناس لحضور صلبه غداً!"، فنهره مولانا وقال مُشدداً: "أطلقه.. إنَّا عفونا عنه!"، فاستنكف عن طاعة مولانا، وقال: "إنَّ الفتى سب ولي العهد وقومَه العامريين؛ فالعفو عنه حق المأمون ولي العهد.. لا حق أمير المؤمنين!"، فلما أرهق مولانا بكثرة جداله ومكابرته؛ رأي أمير المؤمنين –أعزه الله- أن يُؤَّجل النظر في الأمر إلى أن يعود المأمون! وأن يودع ولدكم السجن إلى ذلك الحين!". سُقط في يد الأم المكلومة وانطمستْ فرحتها. رمقتْ الرجل بعتابٍ كأنه خذلها هو وسيدته.. ثم هتفتْ بتحسر وألم: "ما أغنيتم عن ولدي شيئاً! يا أسفاه عليك يا سعدون!". "استبشري خيراً!

نجاه الله اليوم؛ وسيُنجيه غداً إنْ شاء الله!" (قالت أم هشام تُطمئنها وتُهدأ روعها)، وتبسم حمدون لها، ثم أمسك يدها يُقبلها وهو يهتف بجدية وحماس: "ثقي بالله يا خالة.. لن يناله مكروه بإذن الله.. وسيعود إليكِ قريباً!". "أُريد أن أراه يا حمدون!" (هتفتْ في أسى) وهي تهمُّ أن تقبل يده توسلاً؛ فنزع يده بخفة قائلاً: "اصبري يا خالة.. عسى أن يجعل الله لنا فرجا!". فصاح بُشرى بتطيب خاطر: "سأُدبر لكِ لقاءً به!"، فسألته أم هشام بلهفة: "هل يُمكنك ذلك حقاً يا بُشرى؟". فأجاب: "أمهلوني يومين أو ثلاثة؛ ثم يمكنكم رؤيته إن شاء الله!".

-المشهد المـــائة-

اجتمع عامة أهل قرطبة أمام باب السُّدة[1] لينظروا إلى الخشبة الطويلة التي نُصبتْ ليُصلب عليها سعدون! فحديث الناس منذ الأمس هو: (الفتى الممرور، وما فعله الفتى الممرور!). فقال بعضهم: "لا يجوز اللغو في خطبة الجمعة؛ فضلاً عن مقاطعة الخطيب، ورفع الصوت في المسجد باللعن والشتم والسباب! هذا ذنبٌ عظيم.. يستحق العقاب!". فعارضهم آخرون: "إنَّ الفتى غير عاقل.. رُفع عنه القلم.. عفـــــــــــــــــــــــــــــــــــا الله

[1].. أحد الأبواب الرئيسية لقصر قرطبة وكان يُعدم المتمردون أمامه وتصلب جثثهم على شُرفاته، وكان الخليفة يُشرف من السطح فينظر إليهم وهم يُعدمون، ولذلك كان يُسمى أيضاً: باب السطح المُشرف.

عنه؛ فهلا.. عفونا!". "لابد من معاقبته.. لكيلا يتجرأ غيره؛ فيصنع مثله؛ وتضيع هيبة المساجد وحرمة الصلاة.. لا مناص من عقابه!". "فليكن العقاب على قدر الجُرم! هل ذنبٌ كهذا يستحق فاعله القتل صلباً ولا سيما أنه ممرور.. ليس عليه حرج؟!". "إنهم يصلبونه لأنه سب شنجول! ومَن منا لم يسب شنجول؟! فليصلبونا

جميعاً مثله!". "حقاً! إنَّ القتل على ذنب كهذا لهو عقاب أبشع من الجريمة ذاتها؛ لا.. لا يجوز صلب الفتى.. هذا ظلم فاحش!".

ضجرين ناقمين.. اندفع الناس إلى باب السُّدة ليمنعوا تجبر بني عامر على الرعية، ويمنعوا صلب هذا الفتى المظلوم: "لا ينبغي أن نفجع فيه أهله.. لذنب مغفور!". تجمع الناس بالساحة، وتزايدتْ أعدادهم. الجميعُ يرتقب ظهور الجلاد وظهور ضحية بني عامر الأخيرة؛ والكلُ متحفز: "لن نستسلم لظلم بني عامر بعد اليوم".

غير أن الضحية لم تظهر، والجلاد لم يخرج عليهم؛ بل خرج عليهم مَن يُعلن: "إنَّ أمير المؤمنين (المؤيد بالله هشام بن الحكم) –أعزه الله- قد أرجأ أمر الفتى المذنب لحين عودة ولي عهده المأمون ليحكم فيه بنفسه". انفض الناس.. يضربون كفاً بكف: "إنا لله وإنا إليه راجعون، حتى هذه القضية.. لا يقدر الخليفةُ أن يحكم فيها برأيه؟! وينتظر عودة شنجول.. يا لضيعة الخلافة!". "أين أنت أيها الثائر المرواني؟! اخرج! نجانا الله بك مما نعاني!".

-المشهد الحادي بعد المـائة-

لم يُفرِّط شنجول في نصيحة شيطانه (ابن الرسان): لم يضيع ساعات شبابه سُدى! بل.. اقتنص كل لذة ممكنة في سفرته هذه إلى الحرب! فرغم مكابدة الجيش ومَن فيه لمشاق الطريق إلى طُلَيْطُلة، ورغم ما تجشمه الجنود من البرد الذي يهرأ الأجساد، ورغم جذف السماء الذي أعاق مسيرهم أياماً.. رغم هذه الأجواء ورغم هذه الشدائد؛ فإنَّه لم يتورع عن التمتع بالملذات والإسراف في الشهوات، وما انفك يلهو ويشرب طيلة الطريق. وكان قد عيَّن ابن الرسان حارس على باب خيمته يمنع عنه من لا يرغب في لقائهم، فكان لا يكاد يدخل عليه إلا الجواري.. أو الخدم! فاشمأز منه قادة الجُند! ورغم ضجرهم.. فهو ماضٍ في غيه، ولا يستنكف عن

رذائله! وصل الجيش طليطلة؛ فتوقف بها أياماً معدودة.. يستجمع قوته ويستكمل عدته وعتاده، وقد أحسن القائدُ واضح الصقلبي (أمير طليطلة) استقبالهم، وأمدهم بما يلزمهم من مؤونة وعتاد ورجال. وفي طليطلة قَدِمَ على شنجول القومسُ[1] شانجةُ بن غومس بن ديز، جاء ليُجدد فروض الولاء والطاعة، ويُعلن رفضه لموقف الأمراء الناقضين للعهد من بني جلدته، ويسأل ملك الأندلس أن ينصره على خصمه ألفونسو الخامس (ملك ليون) ولا سيما وإنه انضم للناكث سانشو غرسية (أمير قشتالة)؛ فتعاظمتْ نفس شنجول وتقمص سمت أبيه حينما كان يركع أمامه أمراء الفرنج وسادتهم. فرحب بالقومس، ووعده بنصرته.. والتوجه معه إلى ألفونسو الخامس.

القاضي ابن ذكوان.. كان قد لحق بالجيش بعد انطلاقه من قرطبة بمرحلة قصيرة.. غير أنه كان ساخطاً.. ضائقةٌ نفسه بشنجول وأفعاله منذ حادثة العمائم: فالقضية في نظر القاضي ليست استبدال عمائم بربر صنهاجة[2] بقلانس القضاة، ولا شعور القضاة بالإهانة لذلك فقط! وإنما هي مؤشر خطير لتدخل سافر من ولي

---

[1].. قومس مقاطعة كريون التي تقع في شرق جليقية بجوار ليون. وقومس أي: "كونت" ومعناها: رئيس مقاطعة أو دير.

[2] قبيلة بربرية كبيرة كانت موالية للدولة الفاطمية الباطنية الشيعية، استقدمها المنصور إلى الأندلس بعد خلاف رؤسائها مع الفاطميين، ثم استكثر المظفر منهم.. وجعلهم في جيشه وولاهم المناصب والولايات.

العهد في شئون القضاء.. فهل سيأمر القضاةَ بعد ذلك بالتحول عن المذهب المالكي السني إلى مذهب صنهاجة؟! لن يسمح القاضي بذلك أبداً. لذا فقد حاول لقاءه أكثر من مرة؛ لكن شنجول كان يتهرب منه مما زاده حنقاً. وها.. قد همَّ الجيش بالخروج من طليطلة متجهاً إلى جليقية.. ولم يحظ القاضي بلقائه؛ مما جعله

يمكث في خباءه.. يكاد يصرعه الغضب! دخل عليه عكاشة بن ناصر (أحد زعماء البربر)؛ فراعته حال القاضي، وسأله عما يُغضبه؛ فأخبره بامتناع المأمون عن لقائه رغم إلحاحه في الطلب.. ورغم اقتراب الجيش من أرض المعركة! ثم ذيَل حديثه حانقاً: "تالله.. لقد كان أبوه خيراً منه وأعظم، ولم يُغلق بابه دوني يوماً. ثم يأتي هو.. فيزدريني هكذا؟!". راح عكاشةُ يُخفف عنه ويُطيب خاطره، ووعده بالذهاب إلى المأمون وعتابه على ذلك وتحديد موعد قريب للقائه.

-المشهد الثاني بعد المـــائة-

الأمير العامري (ابن عسكلاجة) يشعر بتهميشه بين رجال المأمون! فمع بقائه حاجباً لقصر الخليفة إلا أنه لم يعد له من الأمر شيء!! فقد غدا تدبير الدولة والنظر في الأموال من مهام الوزير ابن حزم، وأصبح زمام الجُند وضبط الزاهرة وقرطبة بيد ابن مسلمة، (فماذا بقي له؟! حجابة هشام.. هأ؟!). أحب أن يستعيد أهميته التي كانت؛ فذهب للقاء الوزير ابن حزم بالزاهرة؛ فاعتذر عن مقابلته، وتعلل بأعذار واهية.. مما زاده سخطاً واستياءً. لكنه تمالك نفسه وكظم غيظه.. وعرَّج على ابن مسلمة في دار الشرطة. استقبله ابن مسلمة بفتور لم يعتاده؛ فتغافل عن ذلك.. متصنعاً المجيء في أمر هام. سأله بلامبالاة: "ما هو الأمر الهام؟". "لقد علمتُ مَن هو الثائر المرواني الذي يُرجف الغوغاءُ بذكره!". "مَن هو؟" (سأل ابن مسلمة وقد تبدلتْ لامبالاته إلى اهتمام مفاجئ). "إنَّه: محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر!". "كيف عرفته أيها الأمير؟". "ليس أحدٌ غيره؛ فهو الوحيد من المروانيين الذي لم يُبايع المأمون على ولاية العهد، وهو موتور.. يسعى للثأر لأبيه!". "إنها بعض ظنون.. هل عندك دليل عليها؟!". "الأمرُ واضح كالشمس.. لا يحتاج دليلاً يا ابن مسلمة!". "فماذا تقترح أن نفعل؟". "لن تفعل أنت شيئاً! اترك لي زمام الجُند؛ وأنا سأقضي على فتنته!" (هتف بحماس وحمية)، فاتكئ ابن مسلمة في كرسيه، ورمقه

يستخبثه.. ثم قال: "سيدي الأمير! أنا متقلد الزاهرة وأمير جند قرطبة.. ولن أتخلى عن زمام الجند لحين عودة المأمون ظافراً!". "إنما أردتُ تخفيف العبء عن كاهلك!" (رد عليه ابن عسكلاجة يوضح حسن نيته)، بيد أنه حدَّق في وجهه –غير مصدق- وقال بنبرة جافة: "أشكرك! لا أحتاج مساعدتك!". "لا تحتاج مساعدتي! فلِمَ أحلتَ إليَّ أمر الفتى الممرور؟! لأتخذ قراراً يجعلني غرضاً للناس من دونك؟!" (صاح ابن عسكلاجة مغضباً). فنهض ابن مسلمة قائماً وصاح فيه بذات النبرة الغاضبة: "لأنه كان يسب بني عامر علناً؛ وأنت وليُّ عقيلة بني عامر في غيبة المأمون. وقد حسبتُك أحكم من أن تأمر بقتله.. فتُقلِّب علينا الناس!". تنهد ابن عسكلاجة تنهيدة عميقة يحاول أن يتمالك بها نفسه ويُنفِّس عن غضبه، ثم أشار له بيده أن اجلس واهدأ! ثم رنا إليه وهو يقول بنبرة عاقلة: "اسمع مني يا ابن مسلمة.. إنْ لم تجتمع كلمتنا اليوم في مواجهة بني مروان؛ فلن يبق لنا غداً شيءٌ نتنافس عليه. فضع يدك في يدي لنقضي على فتنة المروانيين.. ثم افعل ما بدا لك!". "لك هذا! ولك عليَّ عهد الله أن أكون معك عليهم" (أجابه ابن مسلمة باسطاً كفه لمصافحته، ومحدثه بذات نبرته الهادئة). فصافحه ابن عسكلاجة، ثم راح يتلطف معه سائلاً: "هل من خبر عن غزاة المأمون؟". "سيلج الجيش إلى جليقية هذا الأسبوع!". "الأيام القادمة.. ستكون عسيرة؛ احذر.. ولا تذر بني مروان يعبثون بنا!". "هل تظن أنهم سيفعلون شيئاً هذه الأيام؟". "لو كنتُ مكانهم لانتهزت فرصة غياب الجيش عن قرطبة؛ وضربتُ ضربتي!" (قال ابن عسكلاجة معجباً برأي نفسه). "بما تشير عليَّ؟!". "كن أسبق منهم.. وكُلهم قبل أن يأكلوك!". أراد ابن مسلمة أن يستعرض قوته ويتباهى بكفاءته فهتف مفاخراً: "إني أضرب بيد من حديد.. بثثتُ العيون في أرباض قرطبة لتأتيني بأخبارهم؛ ولقد سجنا كل من ارتبنا في أمره". فأجابه ابن عسكلاجة كأنما يقلل من شأن إجراءاته: "ورغم ذلك.. فالأراجيف تكثر، وذكر الثائر المرواني يتعاظم!". فتساءل جليسه مستسلماً لإحساسه بالعجز: "فماذا ترى؟!". "ابحث عن ابن عبد

الجبار.. واعتقله؛ إنه المقصود!". "فإنْ لم يكن هو؟". "ساعتئذ سيهب المروانيون حمية لاعتقال ابنهم.. وسيكشفون بحميتهم الهوجاء عن ثائرهم المزعوم، فنأخذهم بلا رحمة قبل أن تتعاظم قوتهم!". "أعدك أني سأُعمل العقل في رأيك". "شيءٌ آخر أُريده.. لابد من وجود قوة من الجنود معي لحماية الخليفة!". "تعلم أن مَن بقيَّ معنا من عساكر الجيش قليلون! فحسبك فتيان القصر الصقالبة". فتساءل ابن عسكلاجة باستهجان: "هل سبعمائة جندي بكامل سلاحهم.. قليلون؟!". فأجابه بنبرة شبه عدوانية قائلاً: "إنهم بالكاد يكفون لحماية الزاهرة!". "لو هاجم المروانيون؛ سيُهاجمون القصر الخلافي.. لا الزاهرة!". تساءل ابن مسلمة باستنكار: "كيف؟! الزاهرة فيها دواوين الإدارة والحكم، وخزائن الأموال والسلاح.. والجميع يعلم ذلك حتى أطفال قرطبة! فهل يذرها الثوار.. ليهاجموا خليفة.. لا يحل ولا يعقد؟!". "هذا ظني!". فهتف ابن مسلمة ببرود وتململ كأنما يُنهي اللقاء: "لا تقلق! لو حدث؛ فسأكون إلى جوارك؛ ولن يمس الخليفةَ ما تكره!".

-المشهد الثالث بعد المائة-

لم يغفل بُشرى الصقلبي عن زيارة ابن عسكلاجة للزاهرة؛ بل.. راقبه، وعلم بلقائه بابن مسلمة، فدس خلف بابهما مَن تنصَّت على تحاورهما؛ ثم أسرع إلى سيدته يخبرها الخبر؛ فأمرته بسرعة إبلاغ محمد بن هشام. في ذات الوقت تمكن من أن يرشو أحد حراس السجن، ودبر موعداً للقاء أم سعدون بولدها كما وعدها، فذهب إلى دار حمدون وطلب منه أن يُحضرها ليلاً حيث يلتقي بهما لترى ابنها، وقصَّ عليه ما دار بين الأميرين العامريين ليُبلغه للأمير ابن هشام. بُشِّرتْ أم سعدون بلقاء ابنها الليلة؛ فتهللتْ كأنما رُدتْ روحها إلى جسدها، ومكثتْ بقية النهار هلعة مضطربة، تدور في فَلَك سعدون وتُحلق في سمائه.. تُعد له طعاماً، وتحبق له متاعاً، وتجهز له

ملابس صوفية ثقيلة: "تقيه برد السجن.. قبَّح الله مَن بنوه!"، هكذا قالت لسلوان التي كانت معها يداً بيد فيما تصنع.

بعد انصرام هزيع الليل.. عاد حمدون إلى البيت؛ فوجد جدته وسلوان تنتظرانه؛ ارتاع ظاناً حدوث مكروه لهما؛ فطمأنته جدته بأنهما يُريدان الاطمئنان على سعدون؛ أجابهما باقتضاب -لم يشف الصدور- مفاده أن سعدون بخير، وستخبرهما أمه بتفاصيل لقائها به صباحاً، ثم طأطئ رأسه وهو يهتف بجدية: "يجب أن أرحل الآن يا جدتي!". "الآن! في هذا الليل القارس؟!". "لديَّ عمل يجب ألا يؤجل!" (قالها وهو يُقبل يدها)؛ فمسحت على رأسه بحنان، وقبَّلتْ وجنتيه، ثم احتوته في حضنها الرحيم حيناً.. وعينا سلوان تراقبانهما في مودة وإشفاق، رفع رأسه نحوها؛ فالتقتْ عيناهما في سكون. مرتْ لحظات شجية.. ثم ولاهما ظهره راحلاً، رنتْ إليه سلوان.. وتابعته عيناها حتى غاب؛ فأطبقتْ جفونها على صورته.. كأنما لا ترغب أن ترى بعده شيئاً.

في الآونة الأخيرة.. الأمير محمد بن هشام لا يكلُّ ولا يملُّ، يبيتُ كل ليلة ونار الانتقام تضطرم بين ضلوعه، وحماس الثورة يقض مضجعه؛ فجفاه مرقده، وأسهدته الأفكار. استأذن حمدون في الدخول عليه فور وصوله الجبل؛ فاستقبله بسؤال قَلِق: "ما أبطأك علينا يا حمدون؟!". "هل بلغك خبر الفتى الممرور يا أبا الوليد؟". "بالتأكيد!" (هتف وهو يبتسم مُنتشياً مسروراً). فقال حمدون بتأسف: "إنه.. سعدون.. خادم جدتي.. وربيب دارنا.. منذ طفولته!". "آه.. حقاً؟! لم أكن أعلم.. هوَّن الله عليكم مصابكم!". "وفك الله أسره من هؤلاء الظالمين! تالله لقد خلَّفتُ أمه ولهى تكاد تقتلها أحزانُها!". "صبَّرها الله! لكن يا حمدون لقد قرَّبتنا هذه الحادثة من هدفنا بشكل كبير، وجعلت قرطبة تكاد تفور فوق بركان الثورة!" (صاح بحماس سعيد)، ثم استأنف قائلاً بارتياح ورضا: "لقد حبك صاعدُ الأمرَ جيداً!". انشده حمدون.. وصاح متعجباً: "هل هذا تدبير صاعد؟! هل هو من أهداه

القميص؟!". "لا أدري.. ماذا فعل بالضبط؛ لكنه أحسن التدبير!". "لقد فجع أماً بائسة في ابنها المجنون!" (صاح حمدون في استياء)، فهدَّأه الأمير قائلاً: "أعدكَ أنِّي سأُخرج هذا الفتى ومَن في السجن جميعاً!". تنهد حمدون وهو يتساءل يائساً: "متى يا أبا الوليد.. متى؟!". "عندما يلج شنجول بجيشه إلى جليقية!". "سيحدث خلال أيام". فسأل الأمير باهتمام: "كيف عرفتَ؟!"؛ فقص عليه ما سمعه من بُشرى.. وأخبره أن الجيش سيدخل حدود جليقية في غضون هذا الأسبوع، وأخبره أيضاً أنَّ ابن عسكلاجة أمر ابن مسلمة بالقبض عليه! اعتدل ابن هشام في جلسته، وأسند رأسه على جدار الكهف الصخري الرطب، ثم صاح بحماس واثق: "إذا كان ابن عسكلاجة يريد لقائي.. فأنا أيضاً أريد لقاءه.. وسألقاه قريباً". سكتَ برهة.. ثم شرع يتأمل حمدون كأنما يقرأ على صفحات وجه سطور خطته القادمة؛ ثم همس بتأكيد: "أخبر الخواص بأن اجتماعنا سيكون هنا ليلة الغد.. واحرصوا على السرية!".

-المشهد الرابع بعد المائة-

بعد صلاة الفجر.. جاءتْ أم سعدون إلى الدار.. مبكرة، وانخرطتْ في عملها المنزلي المعتاد.. لكن بحيوية ونشاط زائدين عن الأيام الفائتة. رأتها أم هشام وهي تقمُّ الدار ممسكة بمكنسة من سعف النخيل كأنها تحتضنها اغتباطاً، وسمعتها تترنم بأهازيج مرحة.. فاستبشرتْ وسُرتْ لتحسن حالها بعد أيامٍ عاشتها كئيبة لما حدث لولدها. أرادتْ أن تداعبها.. فهتفتْ: "نضَّر الله وجهكِ يا أم سعدون جئتِ اليوم مبكرة؟!". فأجابتها بانشراح صدر: "أسعد الله صباحكِ.. يا أم هشام!". "ما شاء الله.. أراكِ كأنما أُنشطتِ من عقال؟!" (قالتْ تُمازحها). فهتفتْ وهي تتنهد بارتياح ورضا: "الحمد لله.. رأيتُ ولدي البارحة!". "هل مجرد رؤيته.. تُبدل حالكِ هكذا؟!" (سألتها مُداعبة). "بل اطمأننتُ عليه! لن يصلبوه يا أم هشام.. لن يصلبوه!". "من أخبركِ؟؟"

(سألتها باهتمام بالغ). "هو.. مَن أخبرني!". "أخبرك بماذا.. يا امرأة؟؟" (سألتها بدهشة). "أخبرني أنه لن يُقتل.. وقال لي: (لن أُصلب يا أمي، والمصلوب غيري! ولن يهنأ مَن رام صلبي! وسوف تعلمون أمري!)". فتساءلتْ أم هشام تستعجب من مقالته: "ومَن أعلمه؟!". "أوليس من أهل الله.. الذين قد يُلهمهم اللهُ شيئاً من علمه؟!" (تساءلتْ بيقين). "هكذا يقول الناس.. لكن لا سبيل لتصديق ذلك!" (أجابتها متشككة). "أنا أُصدق ولدي يا أم هشام!". "بشَّركِ الله بما تُحبين، ونجاه مما نكره!". "أين سلوان؟؟" (سألت وهي تتلفتْ حولها.. تريد أن تغير موضوع الحوار). "إنها تُنظف حظيرة الدواب.. وإني لآسفة لذلك! لكنها تُصر على فعله منذ غاب سعدون، ولو طاوعتُها.. لخرجتْ بالأغنام إلى المروج!". "كان هذا عمل حبيبي سعدون! أما هذه الفتاة الرقيقة.. فهو عليها شاق!!". "تالله.. إنها مذ جاءتني وهي تشق على نفسها في مساعدتي، وأيضاً.. تجتهد في طلب العلم؛ فلقد حصَّلتْ في أيام ما يتكلَّفه غيرها في شهور!". كانت تتكلم عن سلوان بإعجاب بالغ، ثم ذيلتْ كلامها قائلة: "وإني أحسبها من خير بنات قرطبة وأفضلهن.. ولا أُزكيها على الله!". "صدقت يا سيدتي! إنها لخير بنات قرطبة.. باركها الله!". "لقد عزمتُ على شراء جارية أو اثنتين تساعداننا.. رحمةً بهذه الفتاة الطيبة". "خيراً تفعلين.. إلا أن تعتقي كما هي عادتك!". "إذا جاء حمدون سآخذه إلى سوق النخاسين؛ ويوفقنا الله إلى الصالحات". "هلا.. زوجتيهما!" (هتفتْ تحضَّها باستحسان). "مَن؟؟" (تساءلتْ باندهاش). رمقتها بعيون ماكرة.. ثم همستْ وابتسامتها العجوز تنير وجهها الممتلئ: "حمدون.. وسلوان!". حملقتْ إليها أم هشام صامتة؛ وطال صمتها تفكيراً وتأملاً: "كيف سهوتُ عن ذلك؟! أما زلتُ أعتقد أن حمدون طفلاً صغيراً؛ فلم أُفكر في تزويجه؟! أم كنتُ أخشى –إنْ زوَّجته- أن تشاركني فيه امرأة أُخرى؟! الآن.. ينبغي عليَّ تزوِّجيه.. لقد صار رجلاً شاباً! ألا أود أن أفرح بذريته قبل موتي؟! إنَّه لخيرٌ عظيم أن احمل أبناء حفيدي في حِجْري؛ وهل أجدُ أماً لهم خير من سلوان؟!". نبَّهتها

أم سعدون من شرودها صائحة: "هه! فيما تفكرين يا أم هشام؟؟". "كيف خطرتْ لكِ هذه الفكرة يا امرأة؟!". "إنَّني أري ما لا ترين!". "وما الذي ترينه ولا أراه؟!" (تساءلتْ باستهزاء). "أرى شابين متحابين يُباعد بينهما الخجلُ.. وامرأةٌ عجوز!" (همستْ تُعرّض بها)، حدجتها حينئذ أم هشام بعين الأنفة، وهمستْ بدلال: "هكذا!!"، ثم صاحتْ في خادمتها: "دعكِ من هذا الحديث.. وانتبهي لعملكِ يا امرأة!". أجابتها أم سعدون بابتسامة عجوز ماكرة، ثم صمتتا.. وقد عقدتْ أم هشام النيةَ على حاجةٍ في نفسها!

-المشهد الخامس بعد المائة-

في عصر ذلك اليوم، وبُعيد انتهاء الدرس.. جذبتْ أمُ هشام يد سلوان بحنان وقرَّبتها منها.. ثم قالتْ بمودة: "أتعلمين كيف تزوجتُ الشيخ المصري رحمه الله؟ أريد أن أحكي لكِ قصة زواجي!". "إنِّي اسمع يا أمي!" (أجابتها بعطف الابنة البارة، وبابتسامتها الرقيقة). فطفقت تحكي: "سافر أبي (أحمد الأصغر) إلى الحج؛ فركب البحر إلى ثغر الإسكندرية بأرض مصر حيث سيُكمل رحلته إلى أرض الحجاز براً. ومن هناك صحبه مع القافلة شاباً صغيراً اسمه عبد البر.. جاء يخدم في القافلة ليبلغ معها مكة.. فقد كان فقيراً. تعرَّف إليه أبي؛ فألفاه شاباً عاقلاً ذا دين وخُلق قويم وأمانة شديدة؛ فأحبه وقرَّبه منه، وعلم أنه لا أهل له في مصر (بعد أن مات أبواه)، وأنه خرج مع القافلة إلى مكة ليحج.. ثم سيذهب للمدينة لزيارة النبي صلى الله عليه وسلم وينوي الاستقرار بها طلباً للعلم. وصلتْ القافلة مكة، وأتم أبي فريضته الحمد لله.. ثم عرَّجتْ القافلة إلى المدينة للزيارة والسلام، وقُبيل الرحيل.. وجد أبي نفسه وقد تعلقتْ بهذا الشاب، وأحس أنه لن يُطق بُعده عنه؛ فحدَّثه بذلك، وحبَّب إليه الرجوع معه إلى الأندلس، وزيَّن له طلب العلم في قرطبة، وما زال به حتى أتى معه. كنتُ ما زلتُ صغيرة دون سن الزواج حين قدِم إلينا. لبث زمناً

يطلب العلم في قرطبة.. وعند علماء الأندلس. وما برح الود بينه وبين أبي يزداد، وبلغ هو في العلم شأواً عظيماً وأصبح يُشار إليه بالبنان، وصار يُعد من الفقهاء المُعتبرين، وساعده والدي في افتتاح مدرسته. وبلغتُ أنا سنَ الزواج.. فزوجنيه أبي؛ فعشتُ معه أسعد أيام حياتي". سكتتْ.. وطالعتها بنظراتٍ حانية ثم أردفتْ سائلة: "ما قولكِ في هذه الحكاية؟!". "أسعدكِ الله يا أمي.. وجمعكِ بهما في الجنة!". "إنيَّ أراها تتكرر معي ثانيةً يا سلوان!" (نظرتْ إليها الفتاة باندهاش لطيف)، فاستأنفتْ قائلة: "لا تتعجبي! إني أراها تتكرر بصورة مختلفة: لقد أحببتُكِ يا بُنيتي كما أحب والدي الشيخَ عبد البر، ولن أصبر على فُراقكِ كما لم يصبر هو على فراقه!!". "إنْ شئتِ.. لن أُفارقكِ أبداً يا أمي". "أ لن يأتي يوم وتتزوجين فيه يا حبيبتي؟!". "هذا يومٌ بعيد! لم يزل طريقي معكِ طويلاً في طلب العلم؛ ولن أتركك لأجل الزواج!". "وإذا كان الزواج سيُدنيكِ مني أكثر؟!" (تساءلتْ وهي تُدقق النظر في عينيها لتقرأ ما في نفسها)، استعجمتْ سلوان الكلام وتساءلتْ بدهشة: "كيف؟؟!". فأجابتها بنبرة لها معنى: "أُريد أن أزوجكِ حمدون ولدي.. لتمكثي معي إلى الأبد!". بُهتتْ من المباغتة، وارتبكتْ.. ولم تدر ماذا تفعل! أو ماذا تقول! فاستطردتْ جدة حمدون هامسة بأمومة: "اعلمي أنها رغبة حمدون كما هي رغبتي!". أبهرتْ تلك الكلمات قلب سلوان؛ وتوردتْ وجنتاها خجلاً.. فازداد وجهها جمالاً وبهاءً. اغتبطتْ فاطمة لمَّا رأتْ آثار الفرحة الخجلى على وجه ابنتها؛ وحملقتْ في عينها كأنما تُطالبها بإجابة؛ فزادتها استحياءً. ارتجفتْ تحرجاً وارتباكاً؛ وانكسر لحظها ونكَّستْ رأسها خجلاً. ودتْ في نفسها لو جرتْ إلى حجرتها استحياءً من معلمتها وأم حبيبها! بل.. ودَّتْ لو جرتْ لحضن أُمها فترتمي به وتبكي فرحاً بلا خجل.. وبلا تحرجٍ! (كم اشتقتُ إليكِ يا أمي! كم أفتقد حضنكِ الدافئ!).. دهشها حضنُ أُمها الدافئ يحتويها، ويدُها الحنونة تربت عليها، وثغرُها الباسم يُقبّلها! فأسلمتْ نفسها لها وللبكاء.. فأرسلتْ العنان لعَبَراتها: (لك الحمد يا ربي! إنك قادر على كل شيء!) رفعتْ وجهها لتحمد لأمها أنها

عادتْ إلى الحياة لتحتضنها. نظرتْ في وجهها فغَبِشتْ الدموع في عينيها؛ فلم تستبن وجه أمها الذي تذكره، مسحتْ عينَيها بظهر كفها تلهفاً لرؤية أمها؛ فألفتها هي أمها.. غير أنها بوجهها الآخر.. وجهها الصبوح صاحب الستين عاماً.. وجه أُمها العجوز الجديدة.. وجه أم هشام! دفنتْ رأسها مرة أخرى في الحضن الدافئ، وجهشتْ بالبكاء بلا خجل.. وبلا تحرج! توجع قلب الأم العجوز إشفاقاً على هذه الفتاة اليتيمة؛ فلقد تفهمتْ ما شعرتْ به، وجاش بصدرها ما جاش بنفسها؛ فاحتوتها في أحضانها.. وضغطتْ عليها برفق حناناً وإشفاقاً، ثم تمتمتْ قائلة: "الحمد لله الذي جمع بيننا!".

-المشهد السادس بعد المائة-

مُرتدياً بُرنساً[1] من الصوف فوق محشاةٍ[2] سميكة، وملثماً بغفارةٍ[3] صوفية حمراء.. ولج الأمير ابن هشام متخفياً إلى الكهف حيث ينتظره رجاله الخُلصاء للاجتماع به. حياهم واعتذر لتأخره عنهم لأمر هام يخص الثورة، ثم جلس طارحاً عنه بُرنسه؛ فبادره صاعد الحرار قائلاً: "أراك تُبالغ الليلة في التستر يا سيدي؟!". "علمتُ أن ابن عسكلاجة يشتد في طلبي!". "خذ حذرك إذاً يا ابن العم!" (قال محمد بن المغيرة). "ينبغي ألا يعلموا أنك الثائر الموعود!" (هتف عبد الجبار). "بل.. سنُعلن أنني أنا هو!". "أخشى عليك ساعتئذ كيد العامرية يا أبا الوليد" (قال الحسن بن حيٍّ).

[1].. نوع من الثياب الخارجية الأندلسية يشبه المعطف المفتوح وينتهي من أعلى بطاقية تغطي الرأس.

[2].. والمحشاة فهي لباس غليظ وسميك كان يُلبس في الشتاء.

[3].. أما الغفارة فهي عبارة عن طاقية تطوق الرأس تشبه القلنسوة.. لكنها تنسدل على الكتفين.

"لا أشك في أنهم علموا بأنني هو!". "فما العمل؟" (تساءل صاعد بدهشة). "تُعلن يا صاعد بين الناس أنني أنا الثائر المرواني. أريد أن ينتشر الخبر في قرطبة حتى تعلم

به جواسيس ابن مسلمة". "لن يتركوك ساعتئذ.. وسيبحثون عنك بكل قوة!" (هتف الحسن بن حيَّ). "هذا ما أُريده! بل.. أريدهم أن يعلموا أني أتوعد الزاهرة وأهلها، وأني لن أذر فيها حجر على حجر.. ولا رأس على كتف". رمقه الجميع باندهاش وارتياب، وهتف عبد الجبار متعجباً: "سيأخذ حذره.. ويحتاط في تأمينها!!". "وهذا أيضاً ما أُريده". "لا جرم أن الأمير لديه خطة" (صاح صاعد). "حقاً! وهاكم خطتي: الأخبار التي أتتنا تُنبئنا أن جيش شنجول سيجتاز إلى جليقية بنهاية هذا الأسبوع؛ وساعتئذ سينشغل بحربه مع الأعداء.. صحيح؟". "صحيح!" (أجابه الجميع مُقرين.. وقد أرهفوا السمع بانتباه)، فاستأنف قائلاً: "سأختفي عن الأنظار خلال هذا الأسبوع حتى أنتم لن تعرفوا مكاني! ثم تشيعون في أهل قرطبة أنني الثائر المرواني، وتعدوهم باقتراب خروجي. وسيشتد ابن مسلمة في تأمين الزاهرة، وفي البحث عني.. ولن يجدني. في غضون ذلك.. تجتهدون أنتم في تجهيز الأنصار وتهيئتهم لتكونوا على أهبة الاستعداد للقيام بالثورة حين ظهوري". "ومتى سيكون ظهورك؟؟" (تساءل عبد الجبار). "ترقبوا علامة ظهوري من الثلاثاء القادم؛ فإنْ لم يكن فالأربعاء.. وهكذا حتى أظهر لكم؛ فتهبُّوا إليَّ جميعاً حيث أنا وفي أسرع وقت؛ وساعتئذ نبدأ العمل الجاد!". "وما هي تلك العلامة يا سيدي؟!" (تساءل صاعد). "أمرٌ سأُحدثُه.. عظيمٌ إلى حد أنه سيُزلزل قرطبة؛ حينما تعلمون به أسرعوا إليَّ حيث أنا!". "ألا تخشى أن تغامر بنفسك يا أبا الوليد؟!" (تساءل الحسن بن حيَّ). "مَن طلب المغنم؛ فعليه المغرم!" (صاح الأمير بحماسة شُجاعة)، ثم وزَّع نظراته بينهم: "إليكم مهمة كل رجل منكم من الحين إلى ميقاتنا: عبد الجبار ومحمد بن المغيرة؛ عليكما ضم جميع بني مروان إلى صفنا، واجعلاهم يترقبون ظهوري.. وضما إليكما سليمان بن هشام إنْ أراد العمل معنا. أما صاعد والحسن فعليكما جمع أنصارنا من العامة، وكل أهل قرطبة إنْ استطعتما إليهم سبيلا، وكونوا على أتم استعداد في الموعد المتفق عليه". "نفعل إن شاء الله يا سيدنا!" (أجاب صاعد بثقة وحماس). "بقي شيءٌ واحد.. لابد

أن أُوكد عليه: إنْ فشلتُ فيما أنوي فعله، وسمعتم أني قد أُوقع بي ولم أنجُ؛ فلا تخرجوا.. واحفظوا أنفسكم.. ورجالكم!". "وفقك اللهُ.. ونجاك يا أبا الوليد.. ونصر بك قرطبة على ظلم العامريين" (هتف الحسن بن حيَّ الفقيه)؛ فصاح الجميع وراءه بقوة وحماس: "آمين!". أشار لهم الأمير بيده أن اخفضوا أصواتكم، ثم هبَّ قائماً وقال: "والآن.. استودعكم الله.. إلى أن نلتقي في ميقاتنا!". وطفق يصافح كل رجل منهم ويعانقه، ثم همُّوا جميعهم بالانصراف؛ غير أنه استبقى طرسوس وحمدون!

-المشهد السابع بعد المائة-

طفق الأمير ينظر إليهما في صمت، وراح يحملق فيهما وهما يرتقبان أمره.. حتى هتف بنبرة القائد الواثق من عزم رجاله قائلاً: "اعلما أني عجمتُ عيداني فلم أجد خيراً منكما لأنتدبه لهذه المهمة الخطيرة!". "ما هي المهمة يا سيدنا؟؟" (تساءل طرسوس بشغف زائد). "إنها مهمة قد نُضحي فيها بأرواحنا! فهل أنتما مستعدان؟". "روحي فداؤك يا أميري!" (صاح طرسوس). وهتف حمدون: "إنما تعاهدنا على الموت يا أبا الوليد؛ ولن ننكث بإذن الله!". "إذاً فلنتعاهد الحين من أجل هذه المهمة خاصة. نتعاهد على إتمامها أو الموت دونها، ونتعاهد على كتمان أمرها حتى يفتح الله لنا!" (همس الأمير بجدية وهو يبسط لهما يده ليصافحهما)؛ فتصافحوا، وأقسم ثلاثتهم يميناً مغلظاً على إنفاذ المهمة وإنْ كلفتهم التضحيةَ بأرواحهم. ثم تمم الأمير على القسم بقوله: "والله علينا شهيد! فمن نكث فإنما ينكث على نفسه!"، ثم أردف قائلاً: "يلزمنا معكما بضعة عشر رجلاً من خيرة رجالنا وأشجعهم.. ويُقسمون كما أقسمتما على كتمان السر وإتمام المهمة.. مهما كانت التضحية!". "عندي رجال.. الواحد منهم بمائة!" (هتف طرسوس واثقاً من رجاله). وهتف حمدون متحمساً: "لك هذا يا أبا الوليد!". "إذاً.. فاعلما أن نجاح مهمتنا يكمن في السرية والمباغتة. هاكما تفاصيل المهمة التي علينا القيام بها، وبدون نجاحها.. لن تكون ثمة ثورة..

فضلاً عن أننا سنكون في عِداد الأموات إنْ فشلنا". ثم مكث يخبرهما بتفاصيل خطته، ويتشاورون فيها.. حتى طلع عليهم الصبح.

-المشهد الثامن بعد المائة-

في اليوم الأخير قبل المهمة الحاسمة.. أذن الأميرُ لحمدون بالذهاب إلى جدته ليراها ويودعها دون أن يُعلِمها سر المهمة. كما دأبه.. دلف إلى مربض حصانه، نزع عنه سرجه ولجامه، ثم أَرْسَنه.. وربطه بالرِّبْق، ووضع له العَلَف. كان يتلكأ -رغم اشتياقه لجدته وصَبابته إلى سلوان- في تسكين الحصان في مربضه كأنه يخشى لقاءهما.. بل إنه يخشى فراقهما. قدومه هذه المرة ليس ككل مرة؛ لقد أتى اليوم ليُوَدِّعهما دون أن تعلما أنه يودعهما! جاء اليوم ليرتمي في حضن جدته الدافئ.. عسى أن يرتوي من نبعها الحاني، جاء ليملأ جفونه من سلوان.. فقد يكون لقاءهما الأخير. لا مناص من الولوج إلى البيت، ينبغي أن يلقاهما ويبشُّ لرؤيتهما، لابد أن يبدو سعيداً للقائهما؛ بينما هو حزينٌ لفراقهما! لكن.. يجب ألا تلحظا عليه ذلك لكيلا ترتاعا؛ فهو يُقدر مدى حبهما له. لو علمتا.. لن تصبرا على فراقه، وقد تتشبثا به؛ فتخور عزيمته أمامهما.. وهذا ما لا يرغبه! وإنْ انتبهتا لتغيره.. فقد تسألان عن السبب؛ وقد ينكشف سر المهمة الذي أقسم على كتمانه. دلف إلى البيت متمنياً أن يجد –أول من يجد- أم سعدون؛ فلقاؤه بها أولاً قد يُهيئه للقاء من يخشى لقاءهما. لكن.. لم تكن أم سعدون؛ بل.. كانتا هما الاثنتان تجلسان في مودة.. تتحدثان وتتحابان. لم يُمهله قلب سلوان ليستجمع شجاعته؛ إنما شعرتْ به قبل أن يطرق الباب؛ فهرولت تفتحه.. وهو لم يكد يقرعه. واجهته ابتسامتها الحلوة فانشرح لها صدره وطرب لها فؤاده.. مما زاده وجلاً وتوتراً. كتم ما يخالجه ورسم على وجهه ابتسامة باهتة سُرتْ بها.. ولم تفطن إلى ما يخفيه وراءها. أقبل على جدته؛ واختبأ في أحضانها خشية أن يفضحه وجله! كم يتمنى أن تزول الدنيا قبل أن يزول دفء

حضن جدته، وقبل أن يُحرم وضاءة ابتسامة حبيبته. جلس معهما بوجه باسم.. وقلب واجف، تجاذب معهما أطراف حديثٍ مرحٍ بأسارير منفرجة.. يُخفي بها مشاعر منقبضة. وقع في روعه أن سلوان تتبسط معه في الحديث أمام جدته دون تحرج –على غير طبعها- لأنها أحستْ بانقباضه وتبدل حاله؛ فاجتهد أن يُخفي ما يخالج نفسه بانفراجٍ أكبر في أساريره ونبرةٍ أعلى في لهجته. تفاجأ بجدته تطلب من سلوان أن تأتيه بماء ينضح به عن وجهه غبار الطريق، ثم أدهشته وهي تخاطبها أمامه بنبرة مرحة قائلة: "قدِّمي يا سلوان شراب الورد لحمدون!". انطلقتْ سلوان لتُحضر الشراب كأنهما اتفقتا على ذلك من قبل، بينما تحدثه جدته عنها باعجاب زائد: "إنها أمهر فتاة تصنع شراب الورد في قرطبة.. إنها أمهر مني!". لم يُعلِّق على كلامها، والتزم السكوت، وقد رابه تبسطها هي الأخرى؛ ليس من طبعها أن تجمع بينهما بهذا التساهل والمرح.. ربما تكون أحستْ بانقباضه وتوتره هي أيضاً! أتته سلوان بشرابها، احتضنتْ كفه الكأس، سَمَّ الله وشرع يرتشف، كان الشراب لذيذاً. لم يمنع الخجلُ سلوانَ من أن تطالعه وهو يلثم كأسها؛ فازدادتْ دهشته من حالهما حتى طغتْ على تلذذه بالشراب. أفرغ الكأس سريعاً في فمه، فالتقطته سلوان من يده وهو يتمتم: "الحمد لله.. سلمتْ يداكِ!". انتهزتْ جدته فرصة ذهاب سلوان إلى غرفة الطهي، وهتفتْ –بلا مقدمات- قائلة: "أُريد أن أُزوجكَ سلوان!". بهتته الصدمة! (ليستْ الصدمة في زواجه من سلوان فإنه يتمناه مذ عرفها؛ إنما الصدمة المفاجِئة هي عرض جدته للأمر عليه بهذه البساطة الصريحة؛ وربما سلوان تسمع! وهي بعدُ صدمة مُفجعة في يومٍ كهذا!). ظنتْ جدته أن سبب سكوته هي سعادته بالمفاجأة التي فاجأته بها هو وحبيبته؛ لكن حين نظرتْ في وجهه لم تُبصر عليه أثراً لسعادة؛ فانتابها القلق.. وسرعان ما تبادر لذهنها أنه بسبب غياب سعدون، فهتفتْ: "إذا كنتَ قَلِقاً لغياب سعدون؛ فلا تهتم. إنما أخطب لك سلوان من نفسها الحين؛ ثم نتمم الزواج بعد عودته قريباً إن شاء الله. فإني سألتمس من

أم المظفر أن تشفع له عند المأمون كما شفعتْ عند الخليفة، وإن شاء الله يُطلقوه، لا تهتم أنت يا حبيبي!". "ليس الأمر كذلك يا جدتي!" (همس بشفتين مرتجفتين.. ويدٍ ترتعش). "أم سعدون! إنها امرأة طيبة.. وتُحبكما كحبها لسعدون.. وستفرح معنا.. وسيعود لها ابنها راشداً.. وسيحضر معنا العرس إن شاء الله!". "كفى يا جدتي.. كفى!" (صرخ متألماً من وخزات حديثها الساذج البريء)، ثم حاول أن يتكلم بنبرة أهدأ؛ فاستطرد –بعد برهة خرساء- قائلاً بتأسف: "ليس الأمر خاصاً بسعدون ولا بأمه! ينبغي أن نؤجل هذا الزواج وقتاً يسيراً!". "لماذا يا بُني؟؟!" (تساءلتْ وقد راعها توتره الزائد). "لا أقدر أن أقول لك شيئاً.. غير أنه يجب أن يؤجل بعض الوقت!" (هتف حاسماً كأنما يغلق باب الجدال في الأمر)، انزعجتْ الجدة من اضطراب حفيدها وانفعاله. إنها لا يخامرها شكٌّ في حبه لسلوان؛ (فلماذا لم يفرح للخبر؟! لماذا كان رد فعله بهذا التوتر.. وبهذا الغموض؟! ما الذي يخفيه عنها؟!): حدثتها نفسها بارتياب؛ بينما تتطلع إلى وجه العابس الكئيب، عسى أن تفهم موقفه، أو ربما تستشف شيئاً من عينيه اللتين تُحسن قراءتهما. غير أنه تحاشا نظراتها، وأشاح بوجهه عنها، ثم نهض من مقامه هامساً بنبرة مكبوتة: "عليَّ أن أرحل حالاً!". "لقد قدِمتَ التو! فيم أتيتَ إذاً؟!" (تساءلتْ باستهجان). ثم أضافتْ بحسم: "لن تغادر قبل أن تصارحني بما تخفيه!". بيد أنه صاح فيها بلهجة صارمة –لم تعهدها عليه من قبل- قائلاً: "لا أُخفي شيئاً.. ويجب أن أرحل حالاً!". انسلخ من بين يديها، وبينما يهرول مندفعاً إلى مربض حصانه التقتْ عيناه بعيني سلوان –التي وقفتْ مبهوتة في غرفة الطهي- فألفاهما شاخصتين ذاهلتين؛ فغضَّ الطرف عنها في تحسر وألم، واختفى! بخطوات ثقيلة يُوهنها الاندهاش والخزي توجهتْ فاطمة حيث تجمدتْ سلوان واقفة كجِذْعٍ يابسٍ في مهب الريح، رأتها تنظر إليها.. لكنها لا تبصرها، قالتْ كلام مرتبكاً يواسيها؛ لكنها لم تسمعها! إنما جرتْ إلى

مخدعها ذاهلة مصدومة، وأغلقتْ بابها دونها. لم تدر فاطمة شيئاً تفعله.. وانكفأتْ إلى غرفتها في حيرة حزينة.

استوى الجوادُ ديجور على الطريق إلى جبل العروس حاملاً فوق صهوته دموع حمدون وعيونها، وجسده جامداً بلا روح تغذيه بالحياة! فقد بقيتْ روحه هناك حيث سلوان حبيبة روحه التي كسر بخاطرها: لقد التقت عيناهما؛ فقدَّر أنها سمعتْ مقالته، وعلمتْ تردده في قبول الزواج منها، ورأى هو صدمتها في عينيها! "آهٍ يا حبيبتي.. لو تعلمين كم أُحبكِ! آهٍ لو تعلمين أن إزهاق روحي أحب إليَّ من أن أُحزنكِ! آهٍ لو تعلمين أني أصبحتُ الآن جسداً.. بلا روح؛ لأني خلَّفتُ روحي بين يديكِ عساها تخفف عنكِ!". "لقد آثرتُكِ على نفسي يا حبيبتي، فإني مُقبلٌ على أمرٍ.. موتي فيه أقرب من حياتي. آثرتُ أن أُضحي بحبي لكِ.. بفرحتي بزواجنا التي ستموت معي غداً وتتركُكِ محطمة القلب تعيسة لفراق خطيب لم ينعم بخطبتكِ، حزينة على فراق حبيبي لم تُمهله الدنيا ليعترف لكِ بحبه. أَحبُ إليَّ أن يُغضبكِ تأجيلي لزواجنا من أن يُتعسكِ حزنكِ على موت خطيبكِ!". "وددتُ لو أعترف لكِ بحبي! وددتُ لو قبلتُ جدتي، وحملتُها بين ذراعيَّ ورقصتُ بها فرحاً لأنها ستجمع بين قلبينا! لكني يا حبيبتي عاهدتُ عهداً لا سبيل لنقضه؛ وأعوذ بالله من أنَّ ينكث حبيبكِ عهده! إنْ فعلتُ –حتى لو كان من أجلكِ- فلن أكون جديراً بحبك! فسامحيني يا حبيبتي.. واغفري لي!". ما برحتْ نفسه تحدثه وديجور يهذب به في طريقه وهو ذاهل عما حوله.. حتى اصطدم بصره بصخور جبل العروس الضخمة؛ فأفاق من شروده، ونفض عن رأسه غبار اليأس والإحباط، وهتف في نفسه يُشجعها ويُخسئ الشيطان: "ما هذا اليأس؟! يا لك من رجلٍ مُحبط! تالله لإنْ خُضتَ معركتك بهذا اليأس لتكوننَّ أول المهزومين.. ولتكوننَّ في عِداد المقتولين! استعذ بالله من الشيطان.. فاليأس من الشيطان، والفأل من الإيمان! تمسك بالتفاؤل.. وقل: سأُنجز وعدي، وأُؤدي مهمتي بنجاح، وسأعود لحبيبتي لأُصارحها بما

في قلبي، وساعتئذ ستسامحني، وسيجمع الله بيننا كما نحب إن شاء الله!". كاد أن يصل لموقعه في الجبل فنادى نفسه بحماس وعزم: "تفاءل بالخير تجده، وقل سأعود غداً إلى حبيبتي منتصراً؛ وإنَّ غداً لناظره قريب!".

-المشهد التاسع بعد المائة-

بناءً على أوامر ولي العهد والقائد الأعلى للجيش (الملك المأمون بن أبي عامر) تغيرتْ وِجْهة الجيش إلى مملكة ليون لتأديب ملكها (ألفونسو الخامس)، ثم يأتي بعده دور سانشو (أمير قشتالة)، وقد أمر شنجول بذلك وفاءً بوعده للقومس ابن غومس الذي اصطحبه ورجاله في حملته تلك. جاز الجيش الحدود إلى ليون مخترقاً أحراش وغابات جبلية في أجواء مضنية وبمجهودات شاقة؛ ورغم ذلك.. لم يلقوا جيشاً ليحاربوه! إنما وجدوا قرى حدودية خاوية على عروشها؛ لم يجدوا فيها شيئاً ليغنموه، ولا إنساناً ليسبوه! فلقد أخلى أهل تلك القرى قُراهم، وفروا من أمام الجيش الأندلسي إلى رؤوس الجبال فتحصنوا فيها.. يحميهم جيش ليون الذي فضَّل ألا يواجه الجيش الأندلسي الأقوى.. بل تحصن برؤوس الجبال تاركاً الطبيعة تحارب الأندلسيين نيابة عنه؛ فحالت بينهما العواصف الثلجية والأمطار الرعدية.. وفيضانات الأنهار في السفوح. أمسك الأندلسيون عن التقدم خشية أن يُباغتهم جيش ليون بحرب عصابات تقطع عليهم الطريق. عقد شنجول مجلس الحرب، واجتمع بقادة الجند يشاورهم في الأمر. بعد مشاورات ومجادلات استقر الرأي على عدم التوغل في أراضي ليون أكثر.. خاصةً في هذه الأجواء. إنما عليهم التراجع ليحفظوا قوة الجيش الذي كاد يهلك في الطريق دون أن يلقى عدواً يُقاتله، ولا سيما أنَّ هدف الحملة على ليون قد تحقق.. ألا وهو إرهاب ألفونسو وجيشه. علاوة على أن الجيش لم يخض بعدُ معركته الأساسية التي خرج من قُرطبة لأجلها.. ألا وهي معركته مع أمير قشتالة. ثم إنَّ مؤنة الجيش قد أوشكتْ على النفاد، وبقاء الجيش

في سفوح هذه الجبال -في هذه الأجواء- قد يُعرضه لخسائر فادحة هم في غنى عنها. لذا فقد اتفق رأي قادة الجيش على العودة إلى طليطلة لإعادة تنظيم الصفوف، وللتزود بالمؤنة ولتعويض الخسائر. ثم التريث بها فترة لحين تحسن الأجواء؛ ثم البدء في الهدف الرئيسي للحملة. استسلم شنجول لرأي القادة وأمر بالقفول إلى طليطلة. في طريق العودة الشاق إلى طليطلة –الذي ضجرتْ به الدواب كما الجنود- جالتْ برأس ابن الرسان فكرة؛ فاندفع يُكلم فيها سيده: "سيدي الملك! إنَّ ملك ليون فرَّ بجيشه من أمامك.. ألا نحتفل بهذا النصر العظيم؟!". جعل يفرك لحيته بيده وهو يتطلع إلى وجه ابن الرسان وابتسامته الصفراء، ثم قال بكبرياء:

"هذا صحيح! لقد انتصرنا على ملك ليون.. فلنحتفل حينما نصل طليطلة". "ألا نتريث يوماً نحتفل فيه هنا؛ ثم نقيم الاحتفال الأعظم في طليطلة؟" (هتف ابن الرسان يحفَّز شبقه للملذات)، راقتْ الفكرة في نفس شنجول.. فإنه حُرم من ملذاته مذ ولج الجيش إلى ليون.. لكنه ظل عابساً.. يتفكر صامتاً، فظن ابن الرسان أنه سيوبخه؛ بيد أنه –بعد برهة- ضرب بيده في الهواء فرحاً كأنه عثر على ضالته، وانفرجتْ أساريره وهو يصيح آمراً ابن الرسان: "أخبروا رائد الحملة أن المأمون.. "أمير المؤمنين" يأمر بالتوقف يوماً كاملاً للاحتفال فيه بالنصر، وأخبر صاحب المطبخ أن "أمير المؤمنين" يأمر بإعداد وليمة عظيمة لكافة الجيش، وقل للخدم أن "أمير المؤمنين" يأمر بإقامة سرادق كبير لاستقبال قادة الجند فيه على خوان "أمير المؤمنين"، ولتأمر الجواري والقيَّان بالاستعداد للسمر الليلة.. هيا أسرع!". "سيدنا هل أقول لهم: (أمير المؤمنين).. أم (ولي العهد)؟!" (تساءل ابن الرسان بحذر). "بل.. أمير المؤمنين! ألستَ تدعوني أمير المؤمنين؟! (صاح شنجول بصرامة). "بلى يا سيدنا.. لكن الناس.. هل يقبلون إعلان ذلك.. والمؤيد هشام لايزال حياً؟!". "هذا هو ما أريد اختباره يا ابن الرسان!" (قال وهو يشير بسبابته مزهواً بدهاء نفسه).

"تريد جلالتك اختبار تقبل الناس لتقلُّدك الخلافة!!". "أخيراً.. فهمتَ غايتي أيها الغبي!" (صاح وهو يضرب بيده على مقعده تفاخراً). "أخشى أن نتعجل هذا الأمر يا مولاي!" (قالها بتردد مكبوت). "بل هذا هو وقته يا أحمق.. جيش الأندلس يعود إلى قرطبة مزين بأكاليل النصر وعلى رأسه أمير المؤمنين. إذا تقبل الجيشُ أني أمير المؤمنين؛ فساعتئذ.. لن يجد هشام من ينصره! هيا.. افعل ما أمرتُك به، وأبلغني ردة فعل الناس في المعسكر".

توقف الجيش كما أمر شنجول لمدة يوم، وضُرب معسكره للاحتفال في أقرب مكان داخل حدود الأندلس، وطفق ابن الرسان ينادي في الناس: "المأمون.. أمير المؤمنين يأمركم بكذا وكذا"، ثم يرجع إلى سيده فيسأله: "هل أنكر أحدٌ شيئاً؟"، فيجيبه بأنه لم يُنكر عليه أحدٌ؛ فينشرح صدر شنجول، ويهنأ باله، وتحدثه نفسه: "ها أنا ذا أوشكتُ أن أكون الخليفة!"، ثم ينادي ابنَ الرسان أنْ أعد عليهم القول وكرره مرات عديدة: "المأمون أمير المؤمنين يأمركم.. وينهاكم!". أُقيم السرادق، ومُدتْ الموائد للجنود، وجُهزتْ مائدة خاصة "لأمير المؤمنين" وقادة الجيش ورجالات المعسكر، وجلس الجميع يُبارك النصر المبين (الذي لم يُسل فيه سيف، ولم يُطعن فيه برمح، ولم يُرمى فيه بسهم، ولم يُغنم منه شيء)! وانبرى الشاعر ابن دراج القسطلي –وكان ممن صحبوا الجيش- يُهنِّئُ شنجولَ بنصره بقصيدة طويلة نظمها ليمدحه فيها.. هذا مطلعها:

هو البدر في فلك المجد دارا   فما غسق الخطب إلا أنارا
تجلى لنا فأرتنا السعود   غيوب المنى في سناه جهارا

حضر القاضي ابن ذكوان وليمة الاحتفال عسى أن يحظى بدقائق يخلو فيها بالمأمون ليعاتبه على إهانته للقضاة والتدخل في شئونهم.. ويطلب منه أن يتراجع عن قراره بإجبارهم على خلع القلانس؛ غير أنه لم يستطع ذلك، ولم يمنحه

شنجول فرصة الاختلاء به. فعاد إلى خبائه مغاضباً بعد أن سئم شنجولَ وأفعاله، ورفض حضور الحفل السامر الذي دعاه له مع خاصة أهل المعسكر. في المساء عُزفت المعازف وغنتْ القيَّان ورقصتْ الراقصات في احتفال بهيج (افتقده ابن الرسان منذ خروج الجيش من قرطبة). استأذن المدعوون للانصراف، وشرعوا في مغادرة الحفل مبكرين؛ فالجيش سيرتحل باكراً في طريق العودة إلى طليطلة. أما شنجول فمكث يشرب ليلاً طويلاً.. ومعه ابن الرسان وبعض الجواري الخليعات؛ فلعبت الخمر برأسه.. وما انفك يردد: "أنا.. أمير المؤمنين"، وابن الرسان والجواري يرددنَّ: "سمعنا وأطعنا.. يا أمير المؤمنين"؛ حتى سمعوا مؤذن المعسكر يؤذن لصلاة الفجر صائحاً: "حيَّ على الصلاة!"؛ فهتف شنجول وهو سكران قائلاً: "لو قلتَ: حيَّ على الكأس لكان خيراً لك!"؛ فسمع قوله –عفواً- عكاشة بن ناصر البربري الذي كان على وشك الدخول عليه يريد أن يصحبه للصلاة ويحدثه في أمر القاضي ابن ذكوان؛ فساءه استخفافه بشعائر الله، وانزعج بشدة.. فغادر فوراً من أمام باب الخيمة، وأقسم على نفسه ألا يخاطب لسانه لسان شنجول بعد اليوم!

-المشهد العاشر بعد المائة-

في ضحى يوم الثلاثاء: ١٦ من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ، الموافق ٢١ فبراير ١٠٠٩م. وفي قصر قرطبة (حيث المقر الشتوي للخليفة) كان الأمير ابن عسكلاجة يجلس في بهوه ضجراً متململاً، قد سئم الحياة في الأيام الأخيرة، وانتابه إحساس كئيب بأن شنجول سيبطش به عند عودته، ومما يؤكد إحساسه هذا معاملةُ رجال شنجول له في الآونة الأخيرة! رغب أن ينفض عن قلبه تلك الغشاوة الكئيبة التي غلبتْ عليه؛ فأمر بجاريتين.. فجاءتا تعزفان وتُغنيان بين يديه، وأمر فتيانه ألا يدخل عليه إنسان. اتكأ في مجلسه.. يحتسي خمره ويستمع إلى الغناء. لكن.. لم يصفُ مزاجه، فلم يتلذذ بخمر، ولم يطرب بغناء ولا عزف! إنما.. رانتْ على قلبه

الكآبة، وأُلقي في روعه أنَّ النهاية قد أوشكتْ! فتساءل في نفسه متشائماً: "هل ينتهي بي الحال منبوذاً في هذا القصر كصاحبه؟! وأترك لشنجول مُلك الأندلس يهنأ به وحده! أم سأكون مسجوناً في سجن المطبق؟! أم سأُصلب على باب هذا القصر!"

أما على الضفة الأخرى للنهر.. فقد ظَهَرَ الأمير محمد بن هشام مرتدياً برنساً يُخفي تحته سلاحاً، يمشي في ثابت وهمة.. غير مكترث لأحد. اقترب من الجُرْف وجعل يُطالع قصر قرطبة –على الضفة المقابلة- كأنما يُناجيه: "أيها القصر المشيد.. ذا المجد التليد، يا قصر آبائي وأجدادي! كم استضفتَ من سفراء جاءوا خاضعين مذعنين يُقدمون فروض الولاء والطاعة! وكم صُلبتْ على بابك من جثث كانت طليقة متمردة! وكم قُطِّعتْ أمامك من رؤوس كانت آنفة مُستنكفة عن طاعة بني مروان!". طفق يجول على حافة النهر يتطلع تارة إلى القنطرة –التي يُوشك أن يعبرها إلى الجهة المقابلة-، ويتطلع تارة أُخرى إلى القصر وأسواره.. فيراه شامخاً أبياً؛ فتُحمحم نفسه بين جنبيه، وتناديه تُغريه وتُحمسه: "هلم إلى مجد آبائك! هيا إلى قصر أجدادك! هلم إلى المجلس الكامل فيُبايعك فيه الناس كما بايعوا جدك الناصر، هيا إلى المجلس الزاهر فتستقبل فيه السفراء والوجهاء بكبرياء وعظمة ملك الأندلس! هيا.. هيا إلى نعيم لا ينفد، ومُلك لا يزول!". من بعيد شاهد رجلين ملثمين يأتيان نحوه يرتدي كل منهما برنساً أندلسياً يُخفي تحته السلاح. توقف الأضخم منهما عند القنطرة، وتقدم الآخر إليه! كانت تلك اللحظة هي ميقات "المهمة" المُتفق عليها، وكان الرجلان هما: حمدون وطرسوس. اقترب منه حمدون وتهامسا برهة، ثم رجع حمدون إلى صاحبه الضخم، وانطلقا يعبران بدابتيهما القنطرة إلى الضفة الأُخرى حيث القصر. أمام باب السُدة التقتْ أعينهما بأعين بضعة رجال انبثوا حول الباب الذي يُشرف على رصيف الوادي[1]،

[1].. هو طريق مرصوف بالحجارة –موازي لنهر الوادي ويطل على ضفته اليمنى- يمر أمام الضلع الجنوبي لسور المدينة، ويتصل بالضفة الأخرى للنهر عن طريق قنطرة عظيمة.

وقد توشحوا ببرانس أخفوا تحتها السلاح، واندسوا بين الناس المتجولين حول الباب والرصيف كأنهم نُظَّارة يتفرجون على المكان. على مسافة قريبة منهم –حيث باب القنطرة[1]- توارى عن الأعين ثلاثون آخرون في نفس هيأتهم. كان الجميع يترقب ظهور الأمير محمد بن هشام!

لحظة الزوال "زوال ظل الشمس".. كان الأمير وحده على بغلته يعبر القنطرة إلى الضفة الأُخرى حيث ينتظره رجاله المستترون حول أسوار القصر. تلاقتْ الأعين، وتخاطبتْ الخواطر، واتخذ كلٌ موضعه؛ ثم انضم ثلاثة منهم (حمدون وطرسوس وفرتون) إلى الأمير. اتجه الأربعة نفر إلى داخل السور، وولجوا –في ثبات- بـــــــــــــــــــــــــــاب السُـــــــــــــــــــــــــــدة

حيث أخبروا حراسه الصقالبة أنهم يريدون لقاء الأمير ابن عسكلاجة، اصطحبهم أحد الحراس إلى مقر الأمير العامري؛ ساروا يسيراً وسط حدائق غنَّاء، ثم مالوا إلى مبنى على اليسار. صعدوا الدرج الحجري حيث ألفوا حارسين من الفتيان الصقالبة مدجين بالسلاح يقفان أمام الباب المغلق. تكلم حارس البوابة المرافق لهم مع الآخرين فقال: "هؤلاء القوم.. يلتمسون لقاء مولانا الأمير!". "الأمير لن يلقَ أحداً الآن.. هيا اذهبوا!" (أجاب أحد الحارسين بغلظة). "لقد أتينا من سفر بعيد؛ ونريد لقاء الأمير لأمر هام!" (قال حمدون يتصنع المسكنة والتوسل). لوَّح الحارس المدجج بيده في وجوههم ليصرفهم وهو يصيح بفظاظة: "اذهبوا من هنا.. وإلا أودعتكم السجن!". لم يحرك أحدٌ من الأربعة ساكناً، إنما نظر إليه محمد بن هشام شزراً؛ فثارتْ ثائرة الحراس الثلاثة وشرعوا يدفعوهم من أمام الباب. دمدم طرسوس وفرتون، وثبتا لهم كصخرتين،

---

[1].. أحد أبواب سور المدينة الجنوبي؛ وسمى باب القنطرة لأنه ينفتح على قنطرة نهر الوادي التي تصل بين

قرطبة على ضفة النهر اليمنى، وبين ربض شنقدة على الضفة الأخرى. وهو قُبالة باب القصر الرئيسي المسمى: باب السُدة.

وبينما الحارس يدفع طرسوس؛ راعه أنه يُخفي سلاحاً! فصاح: "إنهم يحملون سلاحاً!!".

-المشهد الحادي عشر بعد المائة-

بينما الأمير العامري شاردٌ في أفكاره المحبطة.. هائمٌ في كأسه؛ إذ سكتتْ الجاريتان عن الغناء والعزف؛ فانتبه إلى ما يُسمع وراء الباب من جلبة، احمرتْ عيناه غضباً وضرب برجله طاولة أمامه وهو يحدج حارسيه الواقفين إلى جواره بعينيه الغاضبتين صائحاً: "أسكتا هؤلاء الأغبياء بالخارج!". قبل أن يخطو أحدهما خطوة.. انفتح الباب عنوة وله صرير يُرهب الأسماع، وقُذف خلاله بجسد حارس، فوقع على الأرض متأوهاً متضرِّجاً بالدم. تسمَّر الحارسان مبهوتين، في حين وثب ابن عسكلاجة مفزوعاً! انتبه الحارسان لرجلٍ ضخم –هو طرسوس- يلج الباب في عنفوان مَن قذف الجثة؛ فاندفعا نحوه شاهرين سيفهما، فحمل طرسوس على أحدهما وعاجله بضربة بحد سيفه فوق هامته ففلق خوذته وشجَّ رأسه، ثم عاجله بضربة أخرى فشق رأسه.. ونَشِب السيفُ فيه، فأرسل السيف من يده، وصاح صيحة كالرعد، وبسرعة كالبرق حمل جسد خصمه -فبدا بين يديه كالدمية- وقذف به الحارسَ الآخرَ الذي كان يتناول الرمح ليطعنه به؛ فارتطمتْ الجثةُ به وهي ترتجف رجفة الاحتضار، فزاغ بصره وسقط أرضاً.. وسقط الرمح من يده من شدة الاصطدام. لم يمهله طرسوس؛ بل بادر إلى الرمح فوجأه به. لم يستغرق هذا المشهد الدامي إلا لحظات معدودة جثم فيها ابن عسكلاجة مشدوهاً.. مرتاعاً من هذا الشيطان الذي دهم مجلسه وقتل حراسه الأشداء في طرفة عين! نزع طرسوس سيفه من رأس الحارس الميت وهو يرمقه بحنق، ثم توجه نحو ابن عسكلاجة.

تقهقر الأخير بخطوات مبهوتة وهو يتلفت حوله يُفتش عن نصير؛ فلم يجد إلا جاريتين فزعتين مختبئتين.. قد أخرسهما المشهد. بيدٍ مرتعشةٍ أمسك مقبض سيفه (الذي لم يعد له نصير غيره) وسلَّه واهناً خائفاً، ابتسم له ذلك الشيطان القاتل ابتسامة باردة، ثم انقض عليه كنمرٍ ضارٍ، رفع الأمير العامري سيفه وخبط به في الهواء لعله يذبُّ عن نفسه؛ فسمع السيفَ وكفه الممسكة به يطنَّان ويرتطمان بالأرض بعد أن قطعها طرسوس بسيفه، صرخ متألماً وأمسك بيده السليمة يدَه الأُخرى التي بُترتْ كفها، ثم جثا على ركبتيه متوجعاً مستسلماً لمن جاء يفترسه. خارج الباب.. فوق الدرج الصخري كانت تدور معركة أُخرى بين حمدون وفرتون وبين الحارسين المدججين الآخرين. بعد مجالدة سريعة بالسيوف تركاهما مجندلين في جراحهما. ثم ولجا مع أميرهما ابن هشام –الذي مازال يتوشح برنسه ولم يستل سيفه- إلى مجلس ابن عسكلاجة؛ فوجدوه مبهوتاً.. جاثياً على ركبتيه بين يدي طرسوس. بخطى وئيدة تقدم ابن هشام -مزهواً بنفسه- إلى مقعد الأمير فجلس مُتكأً، نظر إلى جثث الجنود الثلاثة وقال لطرسوس: "أحسنتَ أيها الصنديد". ثم مكث صامتاً برهة يجول ببصره في المكان، ويُقلِّب كأس الخمر الفارغة بين يديه. وقع بصره على ابن عسكلاجة فألفاه منكس الرأس مُنكمشاً في ذِلة، قام من المجلس وتقدم نحوه حتى وقف أمامه. جذب طرسوسُ رأسه إلى أعلى بشراسة؛ فالتقتْ عيناه الشاخصتان بعيني ابن هشام.. لكنه كان ذاهلاً عن أن يُبصره. صاح ابن هشام قائلاً بتهكم: "كنتَ تبحث عني يا ابن عسكلاجة.. تريد لقائي! ها أنا ذا.. أمامك!". نظر إليه نظرة خبلاء لا تُوحي بأنه يعرفه.. ولم يُجبه، فصرخ فيه بغضب صارم: "أنا الأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة الناصر". ثم همس في أُذنه بتشفٍ ساخط: "ولقد جئتُ اليوم لأستأصل شأفتكم!". لم يُجبه ابن عسكلاجة.. بل أخذ يئن في وهن.. ويرتجف كأنه مخبول، تراجع عنه ابن هشام كأنما استيأس من أن يشف صدره بالتشفي من هذا الذي خُبل؛ ثم نظر إلى طرسوس

وأشار بيده؛ ففهم طرسوس الأمر وأسرع بذبح هذا الجسد المنكمش بين يديه. جعلتْ الجثة تنتفض ويشخب الدم من أوداجها حتى سكنتْ سكون الموت. بتأفف مسح ابن هشام بضعة قُطيرات من الدماء تناثرت على وجهه، ثم صاح في صرامة: "اقطعوا رأسه!". هرول فرتون إلى رأس ابن عسكلاجة فاجتزرها، فخرجتْ من فم إحدى الجاريتين صرخة مكبوتة؛ نبهّتْ الأميرَ لوجودهما! عاد ليتكئ في مجلسه، وأسرع طرسوس فأوقفهما بين يديه، سألهما الأمير بلامبالاة: "هل أنتما من جواري القصر؟". لم تتكلما.. بيد أن إحداهما أومأت برأسها أن نعم؛ فصاح فيهما بصرامة: "هيا.. انطلقا من أمامي فاستصرخا من في القصر، وأخبرا الخليفة هشام أن ابن أخيه جاء ليُخلصه من نير العامرية.. وأنبئاه أنني قطعتُ رأس ابن عسكلاجة!". ثم صرخ بصوت مروع قائلاً: "هيا.. انصرفا!". جرتْ الجاريتان هَلِعتين تصرخان وتولولان، وبينما تغادران بهو المجلس استفسر حمدون قائلاً للأمير: "إنهما ستُنذران مَن في القصر يا أبا الوليد!". "هذا ما أريده! وسينشغل فتيان القصر بخوفهم على أنفسهم عن مهاجمتنا حتى يلحق بنا إخواننا" (أجابه الأمير). ثم التفتَ إلى فرتون وأمره أن يُثبِّت الرأس في سن رمح ويصعد به إلى السطح ليراه رجاله المنتظرين خارج باب السور. شاهد الرأسَ الرجالُ خارج الأسوار.. وأيضاً رآه حارسا باب السور اللذان مازال لم يعلما بما حدث؛ فراعهما رأس ابن عسكلاجة معلقة بسن رمح يلوِّح به أحد الرجال الأربعة الذين ولجوا من أمامهما؛ فأسرعا يركضان نحو جناح الخليفة وهما يصيحان في ذعر. انتبه لهما حمدون؛ فأسرع يهبط الدرج ليلحق بهما في حين انتزع طرسوس رمحاً من الجثة التي قتلها به، ثم نزل الدرج بتؤدة؛ هزَّ الرمح في يده بقوة.. ثم سدده ورمى به أحدهما من مسافة بعيدة فاخترق ظهره إلى صدره.. فخرَّ صريعاً وهو يتأوه، فجثم الآخرُ مكانه مرعوباً وجثا على ركبتيه مستسلماً.

-المشهد الثاني عشر بعد المائة-

سأل الأميرُ ابن هشام الحارسَ المضطرب هلعاً بين يديه عن القصر الخلافي ومَن يقطن فيه، فعلم أن فيه الخليفة ونساءه.. وفتيان القصر الصقالبة الذين يأتمرون بأمر الفتى (فاتن أمين القصر والضابط لأبوابه) وبعضهم محاربون يُجيدون القتال. نظر الأميرُ إلى حمدون وطرسوس وقال بارتياح: "كما توقعتُ يا أصحاب! ابن مسلمة شحن كل الجنود المحاربين في الزاهرة خوفاً عليها، وترك لنا دار الخليفة بلا حماية حقيقية!". ابتهج طرسوس وهتف: "أحسب أننا أتينا إلى هنا في نزهة!". ربتْ حمدون على كتف صاحبه وهو يخاطب الأمير قائلاً: "أخشى يا أبا الوليد أن يصل الخبر إلى الزاهرة؛ فنجد جنودها فوق رؤوسنا!". "صدقتَ! لذا فاذهبا.. فأَدْخِل رجالك إلى هنا يا طرسوس، واكتنف أنت والنشَّابةُ السورَ يا حمدون تحسباً لأي قادم من الزاهرة". "ثم.. ماذا سنفعل يا سيدنا؟" (تساءل طرسوس وهو يمسح سيفه من دماء ضحاياه ثم يُغمده). نظر إليه الأميرُ نظرة تأمل ثم هتف في حماسة: "أرسل من رجالنا من يخبر صاعد وابني المغيرة بأننا بدأنا ثورتنا؛ فليجمعوا الأنصار.. وليُسرع الجميع بالقدوم إلينا". وبينما يعتلي حمدونُ والرماةُ أبراجَ السور ليراقبوا القادم من بعيد؛ أمر الأميرُ طرسوسَ ورجاله بتنظيف بهو المجلس من آثار المعركة؛ فأسرعوا.. وطرحوا جثث القتلى في الطريق.

وصل الخبر إلى عبد الجبار ومحمد ابني المغيرة؛ فهرعا إلى قومهما من بني مروان؛ يجمعاهم لنصرة ابن عمهم (محمد بن هشام) عند قصر قرطبة. أما صاعد فقد كان أسرع منهما في مناداة الأنصار من العامة؛ فانثال خلقٌ كثير إلى أسوار القصر. انبهر حمدون ورجاله بسيل المندفعين الذين أقبلوا إليهم بأعداد غفيرة يهتفون بنصرة الأمير المرواني الثائر؛ فكبَّر حمدون وكبَّر رجاله. دخلتْ الجموع الزاحفة إلى الفضاء الفسيح داخل الأسوار، شرعوا يطئون بأقدامهم أرضاً كانت محرمة.. حرمها العامريون عليهم ليمنعوهم عن الخليفة. وطئتْ أقدامهم الأرض كأنما تقول: "ها نحن أولاء دخلنا القصر يا بني عامر، ولن يحجبنا عن خليفتنا أحدٌ منكم بعد

اليوم"، ووطئتْ الأقدامُ أيضاً جثةً بلا رأس فمزقتها.. وكانتْ -من قبلُ- أميراً ترتاع لرؤيته القلوبُ! كذلك.. أقبل إلى الأسوار من جهة الأرباض الغربية ثوار آخرون يهتفون بنصرة المرواني الثائر، ووصلوا إلى باب الشكَّال[1] فوجدوه مُقفلاً على رسمه منذ عهد المنصور؛ فتزاعقوا وضجُّوا من هناك؛ فأمر الأميرُ طرسوسَ ورجاله أن يكسروا قفله ويُدخلوا الناسَ.. فكان ذلك رمزاً وإيذاناً بهدم الدولة العامرية. ثم انثالتْ عليه الناسُ من السوق والجهات الأُخرى فقويتْ بهم شوكته، وجدَّ في أمره.. فأمر فرتونَ أن يأخذ رأسَ ابن عسكلاجة ويطوِّف بها وسط المحتشدين ليتأكدوا أنه قُتل. ثم أشرف الأميرُ ابن هشام على أنصاره الثوار المجتمعين له في ساحات القصر، تطلَّع إليهم فألفاهم من عامة أهل قرطبة ودهمائهم.. وأغلبهم من الصناع والسوقة –طرازين وجزارين وعنَّازين وخرازين وسرَّاجين-. نظر إليهم بعيون يملأها الأمل الطوَّاق والطموح الجامح، بإشارة من يده أسكتهم؛ فهدأوا وخشعتْ أصواتهم، خطب فيهم خطبة حماسية ذكَّرهم فيها باستبداد العامريين وبطشهم، واستقدامهم البربر واستخدامهم في الجيش والدولة دون الأندلسيين، وذكَّرهم بعنفهم وقسوتهم، وبحجرهم على الخليفة.. وآخر بلاياهم منازعتهم الأمر أهله وإجبارهم الخليفة على نقل الخلافة إليهم دون عشيرته (بني مروان) الذين هم أولى بالخلافة وأحق بها. ألهبتْ كلماته حمية الثوار وأشعلتْ نار الحقد على العامريين في قلوبهم؛ فطفقوا جميعاً يهتفون بهلاك شنجول وهلاك بني عامر. أشار إليهم بيده أن اهدأوا.. ثم أشاح بوجهه نحو جناح الخليفة، وأشار إليه بيده وهو يصرخ: "هنالكم يجثم خليفةٌ مغلوبٌ على أمره منذ ثلاثين سنة، اذهبوا إليه واسألوه لماذا أسلم نفسه وأسلمنا إلى بني عامر!"

---

[1].. هو باب في الجهة الغربية من الأسوار، وكان الحاجب المنصور ابن أبي عامر قد أمر بإغلاقه تماماً حتى لا يدخل العامة إلى قصر الخليفة من خلاله؛ فظل مغلقاً منذ ذلك الزمن.

-المشهد الثالث عشر بعد المائة-

حينما هرعتْ الجاريتان إلى مبنى جناح الخليفة.. كانتا ترتجفان وتنتحبان وتصرخان في ذعر، ولم يفهم أحدٌ قولهما؛ فأُخذا إلى أمين القصر (الفتى الصقلبي فاتن) فخفض جناحه لهما، وانتظر ريثما تطمئنان؛ ثم أخبراه بما شاهدا وعلما؛ فأصابه الهلع مما سمع. صعد إلى السطح ليرقب ما يحدث عند مبنى مقر الحاجب، فرأى الأميرَ المرواني يخطب بحماس في جمع غفير من الناس اجتمعوا داخل ساحات القصر. طاف ببصره حول أسوار القصر؛ فرأى حشوداً تهرول نحوه من كل جهة وقد علا ضجيجهم وارتفع عَجاجهم؛ فأزعجه منظرهم وحدثته نفسه: إنَّ هذا نذير سوء! أسرع فأمر فتيانه بإغلاق أبواب مبنى القصر بإحكام، وأمر المحاربين منهم وغير المحاربين بالتجهز بالسلاح والاستعداد للدفاع عن القصر حتى الموت، ثم أمر الفتى جؤذر بإبلاغ الخليفة المؤيد هشام بما يحدث، وإعلامه أن ابن عسكلاجة قد قُتل. كان الوقت قبيل صلاة العصر، وقد تهيأ الخليفة المؤيد للصلاة، ومكث في محرابه ينتظر دخول الوقت حينما استأذن عليه جؤذر وأنبأه بالنبأ الفادح. هبَّ الخليفةُ دهِشاً مما يسمع.. بل لم يصدق أن أهل قرطبة اقتحموا أسوار قصر الخلافة وقتلوا حاجبه نهاراً جهاراً بلا خوف من السلطان.. وبلا رهبة من بطش العامرية. خرج لِتَوّهِ من المحراب مع فتاه؛ فلقيه فاتنُ وأعلمه أن الجاريتين شاهدتا مقتل ابن عسكلاجة، وأخبره أن الدهماء يحتشدون داخل ساحات القصر حول أمير مرواني. صعد الخليفة معهما ليرى المحتشدين بعينه؛ فراعه ما رأى، وأرهبه مشهد لأول مرة في حياته يراه، ولم يُسمع به من قبلُ في دولة بني مروان من لدن عبد الرحمن الداخل إلى أبيه الحكم المستنصر: (لماذا يحتشد أهل قرطبة في باحات قصر الخلافة بلا احترام لهيبته؟ ولماذا يقتلون حاجبه دون رهبة؟ ومن هذا الأمير

المرواني الذي يجتمعون حوله؟ أين هيبة الدولة؟! أين سلطان الخليفة؟!). الآن.. يسمع لأول مرة –من فاتن- بنبأ ثورة بني مروان، وبأنَّ الناس –في الأسواق والشوارع والمجالس العامة- يتحدثون عنها منذ أسابيع طوال! نزل الدرج محوقلاً، وقد بهته ما رأى.. وما سمع. خرَّ في مجلسه شارداً.. حائراً: ماذا يفعل! ولم يلتفت لقول فاتن وجؤذر وهما يُطمئنانه بأن الفتيان الصقالبة أحكموا إغلاق الأبواب، وأنَّهم قد تسلَّحوا، وأنَّهم على استعداد أن يُقتَّلوا فداءً لخليفتهم وقصره! ظل مطرقاً يتفكر، وما فتئ لسانه يلهج بالحوقلة.. حتى حسم أمره، وهبَّ منتصباً.. يقول بجدية: "سأخرج للناس!". اضطرب فاتنُ من هذا القرار.. وهتف: "مولاي أمير المؤمنين! إنهم غوغاء لا نأمن عليك غائلتهم.. بالله عليك لا تفعل!". "قد حزمتُ أمري.. وتوكلتُ على ربي! لابد أن أُكلمهم". "إنْ كان مولانا يُصر على مخاطبتهم؛ فالأفضل أن تُشرف عليهم من فوق السطح؛ فيُشاهدونك، ويصلهم صوتك من حيث لا يصلون إليك يا أمير المؤمنين" (قال جؤذر ليحقق رغبة سيده ويحفظ أمنه)، فوافق الخليفة على رأيه، وقال في جدية: "إذاً سأُشرف عليهم وحدي.. لا تأتيا معي!".

مرتدياً حُلَّته الخليفية الرسمية وقلنسوته المرصعة.. صعد الخليفةُ المؤيد إلى السطح حيث يُشرف على الثوار المتجمهرين من مكانٍ عالٍ، وقد أحاط به اثنان من الفتيان يحملان مصحفين كبيرين. وقف ينظر إليهم؛ فوجدهم ملتفتين إلى رجلٍ منهم يخطب فيهم، وقد عجَّتْ الباحات بصخبهم، ودهستْ دوابُهم عشبَها الأخضر، ودُهكتْ أرضُها النضرة بأقدامهم القذرة، ولُطختْ أشجارُها بأوحالهم، وقَطَّعت أيديهم أغصانَها الغضة.. ومزقتْ أزهارَها اليانعة، وقَضمت أسنانُهم ثمارَها الطيبة! امتعض من هذا المشهد الكريه. بيد أنه.. أمر أحد الفتيين –بعد برهة- أن يُلفت انتباههم إليه؛ فصاح الفتى بصوت عال: "أيها الناس.. انصتوا لأمير المؤمنين المؤيد بالله هشام!"، وأخذ يكررها.. ويعلو صوته بها حتى انتبه الناس؛ فالتفتوا نحوه؛ فشاهدوا: (رجلاً كهلاً، حسن الجسم، متوسط الطول، أبيض.. أشهل.. أعين،

لحيته إلى الحمرة). أخذوا ينظرون إليه، ويدققون النظر.. ويتساءلون فيما بينهم: "هل هذا هو الخليفة المؤيد؟ مَن منكم يعرفه فيُخبرنا؟!". لم يعرفه أحدٌ منهم، ولم يقدر أحدهم أن يُجزم أن هذا الرجل هو الخليفة! فصاح فيه جماعةٌ منهم: "من أنت؟!". اعتدل في وقوفه.. وقد شعر كأن قلبه طبلٌ يُقرع، وأحس بأنفاسه تتسارع: إنها أول مرة يقف موقف كهذا، لأول مرة في حياته يواجه شعبه.. ويخاطب رعيته! "ليتني ما كنتُ لكم خليفة، ليتني كنتُ رجلاً منكم، بل.. يا ليتني لم أكن شيئاً! ماذا أقول لكم؟ لا أدري ما ينبغي للخليفة أن يقوله في مثل هذا الموقف! رغم كل ما تعلمتُه من علم، ورغم كل ما كنزتُه من كتب؛ لا أعلم شيئاً أقوله! يا ويلتي! أين أنا من أبي وجدي؟": (كانت تحدثه نفسه). ارتعشتْ شفتاه.. وارتج صوته، وتخبطتْ الأفكار في رأسه؛ فلم يستطع أن يُبين. التقط أنفاسه، وحاول أن يستجمع شجاعته، ويجمع قوته في لسانه، ويرتب أفكاره في عقله. رأى الناسَ من تحته يترقبون قوله، وينظرون إليه؛ فشعر كأنما أعينهم تعبث في ملامحه وهيئته ليستوثقوا من أنه الخليفة! انطلق لسانه كأنه يصرف أنظارهم عنه.. وصرخ قائلاً: "كيف تقتحمون قصري.. وتقتلون حاجبي.. بغير إذني.. وأنا خليفتكم؟!"، لم يتمكن من أن يقول شيئاً إضافياً، بل.. لم يعلم شيئاً ليقوله؛ فإن عقله خاوٍ من كلام الخلفاء، وقلبه واجف من مواجهة الرعية! سكتْ؛ غير أنهم.. لم يسكتوا عنه؛ بل صاحوا فيه موبخين: "لستَ لنا بخليفة.. لا حاجة لنا بك.. وليس المُلك من شأنك.. وثائرنا أولى به منك!". تلاطمت أمواج الإحباط وخيبة الأمل في أحشائه، وكأن فؤاده سفينة تتأرجح بين تلك الأمواج في بحر لُجي من الخوف المظلم الذي لا شاطئ له.. ولا بر آمن! هزته الصدمة: "رعيته يستخفون به.. ويُحقِّرونه!". شعر بدوار في رأسه، كاد يُسقطه على الأرض؛ فاستند على خادميه ونكص ينزل الدرج.. وقدماه الواهنتان تنوءان بحمل قلبه المحزون!

في مجلسه –الذي كان منذ ساعة مجلس ابن عسكلاجة- اجتمع الأمير ابن هشام إلى أعوانه: صاعد وابني عمه عبد الجبار ومحمد. بدأ محمد بن المغيرة الحديث قائلاً: "خروج هشام للناس ومخاطبته لهم يدل على خوفه وجزعه!".

"ولقد رده الناس.. وأغلظوا له القول؛ فنكص على عقبيه" (صاح صاعد متفاخراً بفِعل أنصاره)، بيد أن.. عبد الجبار كان له رأي آخر فقال: "أخشى أن تكون مناورة لكسب الوقت حتى يأتي لنجدته ابنُ مسلمة وعساكره!". "هذا ما أخشاه أنا أيضاً!" (أجاب الأمير موافقاً لرأي عبد الجبار). "ينبغي أن نُعجِّل باقتحام القصر.. ليكون الخليفة بين أيدينا قبل أن يُداهمنا عساكر الزاهرة" (هتف محمد بن المغيرة بشيء من التوتر)، بعد لحظات من التفكر.. قال الأمير ابن هشام مخاطباً صاعد: "اخرج.. وحُثّ الناس على اقتحام القصر.. وأرسل لي طرسوس!". خرج صاعدُ للناس، وانبرى يصيح فيهم قائلاً: "ماذا يريد منا هذا الذي يدَّعي أنه خليفتنا؟! هل يحتجب عنا السنين الطوال –لا نعرفه فيها- ثم يُشرف علينا من عليائه.. فيعتب علينا في قصاصنا من هذا الجائر الظالم الذي أمسى خبره عبرة لأمثاله من الجائرين؟! لا.. والله! لن نسمع لأحدٍ -بعد اليوم- قبل أن يسمعنا، ولن نبسط له إلا بقدر ما يبسط لنا، ومن لا يعدل فينا؛ نجبره أن يعتدل!". صمت هنيهة يلتقط فيها أنفاسه بعد أن انتفختْ أوداجه وجحظتْ عيناه واحمر وجهه من جراء تلك الكلمات الهائجة، ثم التفتْ إلى حيث جناح الخليفة وأشار إلى الناس الصاخبين الزاعقين من حوله.. وصرخ قائلاً: "هلموا إليه أيها الأخوان.. هلموا إلى هذا الذي يدَّعي أنه خليفتكم! اقتحموا عليه مقامه العالي.. الذي عزل نفسه فيه عنكم.. ادخلوا عليه ليسمع منكم وليعلم مطالبكم!". كانت كلمته الأخيرة كشرارة البدء الذي اندلعتْ بها نيران توهجتْ في القلوب؛ فانقلب الثوار من الساحات إلى أبواب قصر الخليفة يطرقونها ويقرعونها.. وإلى جدرانه يريدون تسلقها.

أما طرسوس فقد بادره الأمير فور دخوله إليه قائلاً بصرامة: "خذ رجالك الأشداء وفريقاً قوياً من أنصار صاعد.. واذهب إلى السجن العام واقتحمه، واخرج من فيه من أهل قرطبة.. لا تدع فيه أحداً مهما كانت تهمته.. وأتني بهم!".

"وإذا اعترضني أحدُ الحراس يا سيدنا؟". "اقتله! وأسرع يا طرسوس.. أُريدكم هنا لندخل هذا القصر قبل الغروب، وقبل أن ينجدهم أهل الزاهرة.. هيا اذهب حالاً"

-المشهد الرابع عشر بعد المائة-

دخل الخليفة المؤيد إلى محرابه عابس الوجه.. واجف القلب، ينهبه الحزن نهباً. لحق به فتاه جؤذر يُهدِّأ من روعه ويطيب خاطره؛ فهمس برأفة: "لقد أخبرناك يا أمير المؤمنين! إنَّ هؤلاء الرعاع لا يصلح أن تخاطبهم عياناً؛ إنهم سوقة.. لا يحفظون للرجل ذي المكانة قدره!". "لقد كان أبي يخاطبهم.. ويتحدث إليهم فيبجلونه ويعظمونه!" (رد عليه بنبرة أوهنها الإحباط وخيبة الرجاء)، ثم هتف بنبرة حائرة زادها الخزي توتراً: "كيف يُحقِّرونني.. ويهزؤون بي هكذا؟! ألستُ مثل أبي؟؟ ألستُ خليفتهم؟!". سكت هنيهة.. ثم أجاب نفسه هامساً بحسرة ومرارة: "لا.. لستُ خليفتهم! لم أتعرف إليهم بالأمس كخليفتهم.. فكيف أُطالبهم اليوم بأن يكونوا لي رعية؟!". غشيه صمتٌ كئيب، واحتار فتاه بماذا يُجيبه.. وكيف يواسيه! فوقف بين يديه مطرقاً. أقبل إليهما فاتنُ ليطمئن على الخليفة؛ فألفاه ساكناً في وجوم، همس جؤذرُ في إذنه يحكي له ما لقيه الخليفةُ من جحود الناس؛ فاضطرب وزاد توتره.. ولم يلتفت لحالة الخليفة وهو يهتف: "إنهم يقرعون الأبواب، ويدقونها.. وشاهدنا بعضهم يتسلقون الجدران! إنهم يحاولون اقتحام القصر!". "أرسل خبراً لعساكر الزاهرة.. فليأتوا لنجدتنا!" (أجابه الخليفة بانكسار). "لقد أرسلتُ إليهم يا مولانا منذ مدة؛ ولم يأت مددٌ ولا جواب!".

أما طرسوس فقد جمع الأشداء من رجاله وعمد بهم إلى السجن ليطلق سراح السجناء كما أمره الأمير، وفي الطريق.. ذهب يهرول خلفه جماعاتٌ من أنصار صاعد يتسلحون بعصي وفؤوس وعِدد واهنة من عِدد الصُناع.. يهتفون بحياة المرواني الثائر وبهلاك شنجول والعامرية. أمام أبواب السجن وحول أسواره دارت معارك متفرقة بين حُراس قليلين وبين أعداد غفيرة من غوغاء الناس. وسطهم كان طرسوس وزمرته يصولون ويجولون بين الحراس الصقالبة بلا رحمة وبلا رأفة.. كزمرة أسود بين جماعة من الضباع الخائرة؛ وفي النهاية -التي عجلتْ بها شجاعة طرسوس وإقدامه- استسلم الحُراس، واقتحم الأهالي السجنَ.. وأخرجوا السجناء من زنازينهم إلى الفناء حيث اجتمعوا إلى طرسوس الذي جعل يطوف بينهم على جواده.. شاهراً سيفه الذي يقطر دماً.. وراح يصيح بحماس: "لقد قاتلنا من أجلكم، واقتحمنا هذا السجن لإطلاق سراحكم بأمر الثائر المرواني (الأمير محمد بن هشام)، ولا نريد منكم رداً للمعروف إلا أن تكونوا أنصاراً مخلصين لثائر بني مروان! فهل ستكونون كذلك؟". "يحيا الثائر المرواني.. نحن فداء له!" (شرع المسجونون يهتفون)، فصاح فيهم طرسوس قائلاً بحمية: "إذاً.. إنَّ الأمير في قصر قرطبة.. يريد الدخول إلى عمه الخليفة، والصقالبة الأوغاد يمنعونه.. فهل نتركهم يمنعونه؟؟". "لا.. لا! لن يمنعه عن عمه أحدٌ!". "إذاً.. هلموا بنا إلى ثائرنا ومُخلِّصنا.. هلموا إلى الأمير في قصر الخليفة!".

-المشهد الخامس عشر بعد المائة-

أما في زاهرة المنصور (مدينة العامريين الحصينة) فقد أقبل الوزير الأكبر ابن حزم مضطرباً مذعوراً إلى مجلس الأمير ابن مسلمة؛ رحب به الأخير وأشار إليه بالجلوس، لكنه رفض وانتفض صائحاً في هلع: "ألم يأتك نبأ ما يحدث في قصر قرطبة؟!". أجابه ببرود: "ماذا يحدث هناك؟". "لقد اقتحم الغوغاء باحات

القصر!". "دعكَ من هذا.. إنها إشاعة يروجها ابن عسكلاجة.. يريد...". قاطعه الوزير صارخاً بصرامة: "قُتل! ابن عسكلاجة قُتل! والنبأ الذي جاءك صحيح.. بل إنهم هاجموا السجن وأخرجوا من فيه من المجرمين واللصوص والذعَّار!". انهد ابن مسلمة في مقعده خائراً.. غير مصدق، أطرق حيناً ثم تساءل بصوت واهن: "ماذا سنفعل؟؟". رمقه الوزير بازدراء مستاءً من تخاذله وخنوعه، وصاح فيه: "أنتَ الذي ستفعل! أنت صاحب الشرطة ورئيس المدينة.. ويجب عليك حماية أمنها! أما أنا والوزراء فسنغلق علينا أبواب دورنا.. حتى تنقضي هذه الفتنة!". قبع صاحب الشرطة في مجلسه هامداً.. غير مصدق ما يحدث.. غير قادر على أي فعل! ولج عليه الفتيان الصقلبيان (نظيف الخادم ونصر المظفري) وقد علما بالنبأ الفاجع؛ فوجداه خامل العقل.. خائر العزم؛ فقالا له: "لولا فعلنا شيئاً أيها الأمير!". "لاريب أنه الثائر المرواني المزعوم.. محمد بن هشام!" (همس كأنما يحدث نفسه)، صاح فيه نظيف: "افعل شيئاً.. خير من القعود هكذا!". "لا أقدر أن أفعل شيئاً!" (صرخ منفعلاً.. وقد جحظتْ عيناه وكساه الغضب والخوف)، ثم أردف صائحاً: "لقد اقتحموا قصر قرطبة.. وأطلقوا سراح السجناء من المجرمين. إنَّ أعدادهم غفيرة.. أهل قرطبة كلهم يثورون علينا. ولا أملك من العساكر ما أدفعهم به!". "ألم تكن تعلم أن أمراً مثل هذا على وشك الحدوث؟!" (سأله نصر باستهجان). "للأسف.. علمتُ به! لكن لم أُعطِه قدره. حسبتُ أنهم سيثورون على المأمون في وجوده.. لا في غيابه!" (اعترف بإهماله متحسراً آسفاً)، فاندفع فيه نظيف الخادم صائحاً: "ما هذا بقول صاحب الشرطة! قُم يا رجل.. وافعل شيئاً.. إنَّ قرطبة تغلي، ودار الخلافة تسقط في أيدي الغوغاء والمجرمين!". "لا أملك ما أذب به عن الخليفة. لقد رتبتُ ما عندي من العساكر لحماية الزاهرة أثناء غياب الجيش مع المأمون". "لقد تهاونتَ كثيراً أيها الأمير.. وتأخرتَ عن حسن التصرف! لكن علينا أن نتدارك أمرنا!" (هتف نصر المظفري معاتباً)، ثم استطرد قائلاً: "فلنرسل على الفور خبراً إلى طليطلة وإلى

المأمون وجيشه.. ولنُحكِم حماية هذه المدينة (الزاهرة) فهي دار الحُكم ومقر دواوين الدولة.. وبها خزائن المال والسلاح. أما الخليفة.. فإنه ضعيف مغلوب على أمره؛ لن ينالوا منه مأربهم!". "لا جرم.. هذا هو القول الحق!" (هتف نظيف الخادم يؤكد رأي صاحبه)، رمقهما ابن مسلمة باستسلام وخزي.. ثم همس: "افعلا ما تبغيان!".

-المشهد السادس عشر بعد المائة-

انقطع الأملُ في أن تأتي النجدةُ من الزاهرة؛ فاتخذ فاتنُ (أمين القصر) قراره بالدفاع عن قصر الخليفة بمن معه من الفتيان الصقالبة. امتلأت رُدهات القصر وأسطحه ودهاليزه بحركات دؤوبة من هؤلاء الفتيان، واندفعوا فيها جيئة وذهاباً يُحصنونها تحت إشرافه؛ فتراهم قد تبدلوا إلى جنودٍ.. يحمل هذا سيفاً.. وهذا رمحاً.. وذاك متنكباً قوساً وكنانة، وآخرين يحملون قطع الأثاث الثقيلة يُترّسون بها خلف الأبواب، وآخرين اتخذوا مواضع خفية خلف الشبابيك والنوافذ يراقبون ما يحدث.. ويترقبون متسلقي الجدران ليدفعوهم ويمنعوهم فور وصولهم إليهم. ولم يفتْ فاتن أن يؤكد على إغلاق حجرات النساء بإحكام.. وكذلك لم ينس أن يُوصد خزائن السلاح القليل.. وأيضاً خزائن المال الشحيح. وبعدما أحكم تأمين القصر ومداخله بما لديه من إمكانيات ضعيفة.. توجه إلى حيث الخليفة المؤيد ليطمئن عليه ويُطمئنه؛ فوجد جؤذر منتصباً أمام المحراب ويشير إليه: "قف.. فإن أمير المؤمنين يُصلي.. ولا يرغب أن يدخل إليه أحدٌ!". أومأ فاتن برأسه.. وهمس بتؤدة: "إنما أردتُ الاطمئنان على جلالته!". "إنه حزينٌ.. أسيف!". "اسمع يا جؤذر! لقد أحكمتُ إغلاق الأبواب.. وهيأتُ الفتيان للدفاع؛ لكن.. إنْ جدَّ هؤلاء الغوغاء في الهجوم.. ولم يأتنا مددٌ من الزاهرة فإنهم سينجحون لا محالة!". "فماذا ترى؟!" (تساءل جؤذر بخوف وقلق)، رمقه فاتن بجدية.. وبرقتْ عيناه كعيني ذئب يدافع عن عرينه.. ثم قال في حمية: "إنْ لم يبق هذا القصر لنا؛ فلن يكون لهم!". حملق

فيه جؤذر بحيرة.. كأنما تستفهم عيناه عن مقصده، فأردف فاتن يقول: "لقد أمرتُ الرماة أن يعتلوا السطح.. وأن يهيئوا ناراً سنقذف بها أشجار وبساتين الباحات داخل السور من حول هؤلاء الرعاع.. سأحرق الساحات بمن فيها". "أخشى أن نُخرب حدائق القصر!". "إنْ لم نخربها بأيدينا فوق رؤوسهم؛ فسيدخلون علينا من كل باب.. ولستُ أدري ما سيفعلونه بنا.. هؤلاء الأوغاد!". "فاتن!" (ناداه الخليفة بصوتٍ عالٍ)، التفتا.. فوجدا الخليفة ينظر إليهما من المحراب.. وقد غشي وجهه الفزع، واتسعتْ حدقتاه هلعاً وهو يصرخ بتشنج: "بالله عليك يا فاتن.. لا تُخرِّب قصر آبائي! كُفوا أيديكم.. ذروهم يفعلوا ما يشاءون.. لكن.. لن يُخرَّب قصر قرطبة وأنا حيٌّ!". انكتمتْ الكلمات في حلقه وتحشرجتْ؛ فانهمرتْ دموع الخزي واليأس من عينيه.. ووقف فتياه حائرين.

-المشهد السابع عشر بعد المائة-

أقبل طرسوسُ.. وأقبل معه السجناء المُطلَقون على أبواب القصر يهاجمونها؛ فأضافوا بخبراتهم في السطو والنهب قوةً جديدةً للثوار المقتحمين.. فبات الاقتحام وشيكاً. وبينما الأمير في مجلسه يُثني على طرسوس خيراً.. ويشجعه قائلاً له: "أنت بطل هذه الثورة يا طرسوس وشجاعها!"؛ إذ أقبل عليه رجلٌ من رجال حمدون المرابطين في أبراج السور يقول باضطراب: "سيدي! إنَّ حمدون يلتمس منك الحضور إلى البرج، هناك شيءٌ مريبٌ!". اصطحب الأميرُ طرسوسَ وصعدا حيث يقف حمدون فوق البرج وسأله باهتمام: "ماذا هنالك؟!". "أرى حركاتٍ مريبة فوق سطح القصر.. أظنهم يرتبون لأمر خطير!". "ماذا تظنهم يفعلون؟؟" (تساءل الأمير وهو يشرئب ببصره نحو السطح)، أجابه حمدون حائراً: "لا أدري.. ولن نراهم من هنا جيداً!". "لابد أن نهاجم السطح.. قبل أن يُباغتونا!" (هتف الأمير بعد برهة تفكر)، ثم أردف قائلاً: "ابق كما أنت.. وأعلمنا بكل حدث جديد. وأنت يا طرسوس

تعال.. لنرتب لمداهمة السطح". عاد إلى مقره، وجعل يخطط لصعود رجاله بسرعة إلى السطح قبلما يحدث شيءٌ يخشاه، كان ساعده ونصيره في هذا الأمر هم الخطَّافين واللصوص الذين أخرجهم من السجن؛ فأمرهم أن يفعلوا؛ فانطلقوا -بحمية وحماس- ونهبوا سوق الخشابين، ثم عادوا ومعهم سلالم وحبال وأدوات عديدة.. مكنتهم بالفعل من تسلق الجدران، وصاروا قاب قوسين من تسور السطح؛ غير أن النشَّابين من الفتيان فوق السطح منعوهم.. وقاوموهم حتى أرغموهم على التقهقر. فأوعز الأميرُ إلى طرسوس بأن يصحبهم هو ومحاربوه ويعيدوا الكرة؛ فاستطاع أن يعتلي السطح، ولم يصمد الفتيان أمامه إلا يسيراً؛ ثم تقهقروا إلى الداخل وأغلقوا أبواب الدرج الهابط إلى القصر. فزع المسئولُ عن تأمين السطح إلى فاتن ليُعلمه باحتلال الثوار للسطح؛ فذعر وهرع إلى الخليفةِ يستأذنه في القتال. أطرق الخليفة مليَّاً ثم قال باستسلام: "أرسل إلى أميرهم.. وفاوضه!".

-المشهد الثامن عشر بعد المائة-

خرج فاتنُ بنفسه رافعاً يديه.. غير متسلحاً بسلاح! خاطب المكتنفين للباب قائلاً: "أنا رسول الخليفة إلى أميركم.. فخذوني إليه!".

سأله الأمير: "عرِّف نفسك.. من أنت؟؟"."أنا فاتن.. رئيس صقالبة القصر وأمينه". "ماذا عندك.. أيها الصقلبي؟!" (قال الأمير بازدراء.. ولامبالاة). "يعرض عليك أميرُ المؤمنين أن يُقصي بني عامر.. ويُشركك في الأمر.. فيُقلِّدكَ عهده بدلاً من عبد الرحمن بن أبي عامر.. شريطة أن يرجع أنصارك عن القصر وباحاته". نظر إليه الأمير شزراً.. وصاح موبخاً: "أترى هؤلاء الرجال! لن يتراجعوا خطوة واحدة قبل أن أكون داخل القصر! فارجع إلى الخليفة وقل له: لا تفاوض حتى تفتح لابن أخيك أبواب قصرك!".

في تلـك الأثنـاء اسـتطاع طرسـوس ورجالـه.. ومَـن معهـم مـن اللصـوص والخطَّافين أن يحطمـوا بعـض أبـواب السـطح، وأن يهبطـوا الـدرج. وبعـد مناوشـات طفيفـة مع شـرذمة من الفتيـان الصـقالبة اسـتطاعوا دخـول بعض غُـرف القصـر.. فوجدوا فيها خزائن للسلاح؛ فاحتازوهـا.. وتقـووا بها على الفتيـان الـذين انسحبوا أمـامهم اسـتجابة لأمـر الخليفـة بعـدم القتـال. امـتلأت ردهـات القصـر بـالثوار مـن الـدهماء واللصـوص، وعجَّـتْ بصـيحاتهم وضجيجهم، والتفـت عـددٌ منهم إلى متـاع بعض الغرف فانتهبوه!

بعـد أن أُصـيب عـددٌ منهم.. لـم يجـد فتيـان القصـر مفـراً مـن التراجـع إلى جنـاح النسـاء للتحصـن بـه ولحمايـة الخليفـة ونسـائه مـن اعتـداء المقتحمـين، أمـا فـاتنُ.. فبالكاد تمكن من الولـوج إلى الخليفة ليُبلغه رسالة الأمير الثائر. جعجعة المقتحمين تصم سمع الخليفة، وعويل نسائه ونحيبهنَّ يعصر قلبه. تفحَّص مَن يحيطون به من فتيانه؛ فألفاهم –رغم الخوف والذعر- متشبثين بأسلحتهم ومتاريسهم، وعاين على وجوههم الإصرار على الثبات والدفاع عن خليفتهم وحُرُمه؛ فأشفق عليهم وعلى نسائه.. وعلى الثوار! وأشفق على نفسه.. وعلى خصمه من إراقة مزيد من الدماء. فحدَّث نفسه: "لن أكون سبباً في إراقة هذه الدماء الزكية!".

أُخرج فـاتنُ إلى الأمير ليقـول لـه: "يسـألكَ الخليفـةُ أن تكـف أيـدي الـدهماء عـن القصـر، وسـنفتح لـك البـاب؛ فتـدخل أنـت والمروانيـون دون غيرهم، وتحدثـه فيمـا تريـد.. فمـا قولكَ؟؟". حدجه الأمير بغضب، وأمسكه من تلابيب ثيابه وهـو يصيح فيه مهدداً متوعداً: "اسمع أيها العلج الصقلبي! إنَّ رجالي داخل القصر الآن؛ وما هي إلا سـاعة أو بعضـها وأكـون داخلـه.. في مجلـس الخليفـة.. فـلا حاجـة لي بشـروطك". تردد فـاتنُ قليلاً.. وحاول إخفاء خوفه واضطرابه وهو يقول: "قد أمرني الخليفةُ -إنْ أبيتَ إلا دخـول القصـر بكـل أنصـارك- أن أفـتح لـك الأبـواب على أن تُـؤمِن نسـاءه

وخدمه.. فلا يتعرض أحدٌ لهم بسوء". أرسله الأمير من يده.. ثم قال بهدوء وارتياح: "لكم هذا! لكن سأدخل إلى الخليفة، وأُكلمه دون واسطة!".

فُتحت أبواب قصر الخلافة أمام الأمير محمد بن هشام، ودلف منها يتقدمه فاتن (أمين القصر) إلى جناح النساء حيث يعتصم الخليفة. أراد الدخول إليه؛ فأبى خشية أن يفتك به، وأرسل له جؤذر يخاطبه من وراء الباب قائلاً: "يقول لك أمير المؤمنين: إنْ كان يُرضيك أن ينخلع لك من الأمر؛ فعل.. لكن تُأمِّنه على نفسه.. فماذا تقول؟؟". نظر الأميرُ إلى فاتن، وإلى رجاله من حوله.. ثم ابتسم باعتزاز.. وقال في تؤدة: "سبحان الله! أتراني إنما قُمتُ في هذا الأمر لأقتل أهل بيتي؟!". صمت هنيهة.. ثم استرسل قائلاً بلهجة عطوفة: "إنما قمتُ غضباً له ولنفسي ولبني عمي، فإنْ خلع نفسه طائعاً قبلتُ ذلك، وليس له عندي إلا ما يحب!". غاب جؤذر قليلاً.. ومازال فاتنُ.. والأمير وبعض رجاله ينتظرون خلف الباب حتى هتف صوت جؤذر قائلاً: "سنفتح لك.. لكن تدخل وحدك أيها الأمير!". "لا تفعل أبا الوليد.. لا نأمن أن يغدر بك فتيانه بالداخل!" (صاح عبد الجبار بن المغيرة في حمية واستياء)، فالتفت فاتن يخاطب الأمير قائلاً: "بل ادخل إليه أيها الأمير، عسى الله يُصلح بينكما.. ولا تخشَ أحداً! فلسنا أغبياء.. ونعلم جيداً ما قد يفعله بنا رجالك إنْ تصرفنا بحماقة. ولكي يطمئن السيد (يشير إلى عبد الجبار)؛ أبقى أنا مع رجالك حتى ترجع إليهم بسلام؛ فأنا رئيس الصقالبة.. ولن يُضحُّوا بي". "لن أتخلى عن سيفي!" (هتف الأمير بعد أن أومأ برأسه موافقاً). "لك هذا يا سيدي".

-المشهد التاسع عشر بعد المائة-

دلف الأميرُ وبين يديه جؤذر إلى حجرة الخليفة حيث يجلس على سرير وُطِّأ فراشه بالحرير وزُينتْ أركانه بالجوهر. لقيه الخليفة في هدوء.. ولم تبدُ على وجهه أمارات جزع ولا خوف. سلم عليه، وأجلسه إلى جواره على سريره. تأمل مظهره المتواضع..

وسيفه الذي في خصره.. ثم سأله: "من أنت أيها الرجل؟؟". "لا يُغرينَّكَ زيّي الوضيع بازدرائي؛ فأنا الأمير المرواني: محمد بن هشام بن عبد الجبار بن خليفة الأندلس الأعظم عبد الرحمن الناصر!". "أنت حفيد عمي عبد الجبار إذاً؟!" (سأله الخليفة في مودة ذوي القربى). "لا ريب! وهذا قصر آبائي وأجدادي.. مثلك!" (هتف بحمية وأنفة). "وهل يليق بك أن تجعل قصر آبائك نهباً للدهماء واللصوص؟!" (سأله الخليفة سؤال توبيخ رغم ابتسامته الرقيقة التي لم تفارق وجهه)، أطرق الأمير وكأنما كلمات الخليفة أصابته على غرة.. ومكث يتفكر في أمره. كاد أن يغشاه شعور بالخطأ والذنب؛ غير أن حميته الشيطانية وطموحه الجامح طمسا ذاك الشعور؛ فانبرى هو يؤنب الخليفة بتشنج قائلاً: "أنت مِن قبلي جعلتَ قصر آبائي ومُلكهم نهباً للمنصور ابن أبي عامر!!". "لقد كان حاجبي والنائب على مُلكي، ولا يُنكر أحدٌ أنه سار في الرعية بالعدل، وفي الدولة بالحكمة، وأذل أعداء الله وأعداء الأندلس.. وأعز الله به مُلكي وملك آبائي". "واستقدم البربر واصطنعهم لنفسه من دون بني مروان وأهل الأندلس". "إنْ يفعل؛ فقد فعل مثل جدك الناصر من قبلُ!". "تتحدث وكأنه كان يفعل ذلك عن رأيك.. لا عن تدبير منه للاستبداد والانفراد بالسلطة، إنك تغفل أنه حجر عليك ومنعك عن مُلكك ورعيتك.. (أيها الخليفة!)": *(قالها باستهزاء)*. "كنتُ صبياً صغيراً.. وقد حفظ لي مُلك آبائي، وأعز الله به سُلطاني!". "أنت تُجادل يا هشام.. ولا وقت لدي لجدالك!". "انتبه أيها الرجل! أنت تخاطب الخليفة. إنْ كنتُ أذنتُ لك أن تدخل عندي بسلاحك؛ فلن أسمح لك أن تناديني باسمي مجرداً!". حدَّق فيه بعينين يتوهج فيهما الحنق.. ثم صاح بازدراء: "أيُ خليفة أنت؟! ألا تخجل من نفسك.. لقد حجر عليك المنصور وولده المظفر؛ فخنعتَ لهما حتى أنك لا تعرف شيئاً عن دولتك.. ولا يعرفك أحدٌ من رعيتك". لم يُجبه وكأن هذه الكلمات نكأتْ جراح قلبه، فاسترسل الأمير في حديثه موبخاً بنبرة منفعلة: "بعتَ نفسك لبني عامر.. وخذلتَ أهلك وعشيرتك، وأخيراً تبيع مُلك الداخل والناصر بثمن بخس

لفتى أرعن.. وتوليه عهدك من دوننا؟؟!". لم يجبه.. فأردف بنبرة أشد حدة: "تُفرِّط في مُلك الآباء والأجداد؛ ثم تعتب عليَّ أن دخل أهلُ قرطبة قصرَكَ. تالله.. لولا الرحم لقتلتُك بسيفي هذا الحين!". فصاح الخليفة متشنجاً: "اقتلني إذاً.. والله إني لا أخشى الموت.. لقد سئمتُ أن أكون ألعوبةً في الأيدي؛ تُملَك الدنيا باسمي.. ولا أملك أمر نفسي!". "إنْ كنتَ تملك الشجاعة.. فدونك السيف.. اقتل أنت نفسك!".

"ما يمنعني إلا خوفي من ربي.. لكن إنْ كان المُلك -الذي ورثتُه رغماً عني- هو سر شقائي؛ فإني أتخلى عنه، إنْ شئتَ تنازلتُ لك عن الخلافة!". حملق فيه كأنه يستوثق من جدية الحديث، فحدَّق فيه الخليفةُ بعيونٍ تملؤها الدموع والإصرار.. وهتف بجدية صارمة: "ابسط يدك أُبايعك بذلك على كتاب الله!". "وتُشهد على ذلك أهل الحل والعقد.. والقضاة والفقهاء؟!". "أجل! لكن.. اشترط حفظ نفسي وأهلي! وأسألك بالله والرحم أن تحفظ قصر الآباء أن يعيث فيه اللصوص والغوغاء". "لك ما تريد!".

-المشهد العشرون بعد المائة-

لم يتكلم الأميرُ محمد كثيراً مع رجاله، ولا الخليفةُ مع فتيانه.. بل انبعثتْ حركات دؤوبة تجوب القصر: كُفتْ أيدي الثوار عن أمتعة القصر وأغراضه، ونُحُّوا خارجاً إلى الساحات، ووَضَعَ الفتيانُ الصقالبة أسلحتهم، وانصرفوا إلى أعمالهم في القصر يصحبهم بعض الثقات المسلحين من رجال الأمير، وبقي جؤذر مع الخليفة في مخدعه؛ بينما فتح فاتنُ المجلسَ الكامل، ودخله الأمير محمد وبنو عمومته وخاصة رجاله. عبد الجبار -الذي كان متلهفاً لمعرفة ما اتفقا عليه - سأله فور استقرارهم في المجلس الكامل[1] عما دار بينهما؛ فأجابه بلامبالاة: "ستعلم كل شيء في حينه.. والآن أمامنا عمل طويل وشاق!". ثم التفت إلى طرسوس وصاح بهمة وحيوية: "اختر عدد كاف من رجالك ووزعهم داخل القصر لحمايته وحمايتنا، وأخبر حمدون أن يتولى

حماية القصر وأسواره من الخارج. أما أنت يا صاعد.. فأمر أنصارنا الثوار بكف أيديهم عن قصر الخلافة والتوجه إلى الزاهرة للاستيلاء على قصرها.. الليلة! هيا أسرعا!". انصرفا –طرسوس وصاعد- طائعين؛ وانصرف عنه الآخرون بينما بقيَّ الأخوان –عبد الجبار ومحمد- ينظران إليه بتوجس ويتساءلان:

[1]. مجلس عظيم الأبهة من مجالس قصر الخلافة، كان قد بُويع فيه الخليفة الناصر بالخلافة ٣١٦ هـ.

"نريد أن نفهم حقيقة الأمر يا ابن العم!!". "لم يستجب الخليفة لمطالبنا!" (قالها وهو يحملق فيهما بعيون ماكرة). تبادلا معاً نظراتٍ مرتبكة.. وأسكتتهما الحيرة برهة عن الكلام، غير أن عبد الجبار سرعان ما تساءل في استنكار: "كيف لم يستجب؟! وقد عرض على لسان فتاه أنه يتنازل عن الخلافة لو شئنا!!". فاستأنف الأمير حديثه قائلاً بمواربة: "هذا ما أردتُ قوله؛ لم يستجب لمطالبنا لأنه أراد شأناً آخر!". "وما هو هذا الشأن؟؟". "أراد أن يتنازل عن الخلافة لي أنا خاصة، وقال لي: أنت أحق بها مني؛ فكن أنت الخليفة.. واصنع ما تشاء!". سكتا يتفكران في الأمر.. غير مؤمنين له، فاستطرد يبرر موقفه: "فوجدتُ أن هذا الرأي قريب مما نريده؛ فوافقتُ عليه!". "كيف تقبل أن يتخلى خليفةٌ مرواني عن الخلافة؟!" (تساءل محمد بن المغيرة باستهجان)، فتبدلت ملامح الأمير وهتف في صرامة: "أن يتنازل عنها لواحد منا.. خير من أن تخرج من أيدينا إلى بني عامر!". فصاح عبد الجبار بحمية ساخطة: "اتفقنا أن نُجبره على عزل شنجول، وأن يتقلَّد سليمان[1] عهده، وتتولى أنت الحجابة؟!!". وثب الأمير محمد من مقامه غاضباً.. وصاح في ابني عمه يوبخهما: "فيما تجادلان؟ والأمر مازال لم يتم لنا". سكتَ هنيهة التقط فيها أنفاسه، ثم هتف بنبرة أعقل وأهدأ: "لقد عادتْ الخلافة في أيدينا.. بعد أن كادت تُسلب منا. وأن يكون منكم خليفة فَعَال خيرٌ لكم من خليفة ضعيف!". "فليكن سليمان هو الخليفة.. وتكون أنت ولي العهد!" (قال عبد الجبار). "وما الفارق يا أحمق؟! كلانا

مروانيان!!". "لكيلا يقول أبوه أننا نكثنا عهدنا معه!". "لم ننكث، لقد أراد أن يكون ابنه ولي عهد الخليفة؛ وسأُقلِّده ولاية عهدي. وستكون أنت حاجبي، ومحمد سيكون صاحب الشرطة.. فما قولكما؟؟". مكثا يتفكران في الأمر صامتين مندهشين؛ فبادرهما في تحفز وصرامة صائحاً: "فيم التفكر؟ مازال أمامنا مهام جِسام.. وعلينا التصرف

[1]. يقصد: سليمان بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، رقم ٨ في شجرة النسب ص٤.

سريعاً!!". وافقاه على رأيه.. واتفقوا معاً على الاجتهاد في توطيد الأمر لأنفسهم؛ فوزع المهام عليهما: تولى محمد –ومعه طرسوس- ضبط أبواب القصر وحمايته من الداخل، وبقيَّتْ حمايته وأسواره الخارجية مسئولية حمدون ورماته. أما عبد الجبار فقد كلفه –ومعه رجال أشداء من ثقاته- باستحضار وجهاء قرطبة وأكابر أهلها وقضاتها وفقهائها؛ فاجتهد عبد الجبار في ذلك أيما اجتهاد. فما هي إلا سويعات حتى مَثَل بين يديه مشايخ قرطبة وأكابرها طاعةً أو إكراهاً؛ فحدَّثهم بحديثه مع الخليفة المؤيد، وأخبرهم بخبره، وطلب منهم أن يختاروا من بينهم مَن يدخل إلى الخليفة فيسأله عن الأمر ويشهد عليه بما يقول؛ فولج إليه: هشام[1] بن سليمان.. شيخ المروانية، وأبو عمر[2] بن عبد الملك.. كبير أهل قرطبة، وآخرون. دلفوا عليه.. فألفوه ساكناً في وجوم. سلَّموا عليه بالخلافة؛ فقال في هدوء وانكسار: "لم أعد لكم خليفة.. فقد تنازلتُ عنها للأمير المرواني الثائر!". فاستشاط عليه هشام بن سليمان، وصاح فيه حانقاً: "كيف تجرؤ؟! كيف تخلع قميصاً ألبسكه الله؟! كيف تتخلى عن عز الدنيا والآخرة؟!". "إنما أفعلُ تقرباً إلى الله، وحقناً لدماء المسلمين". "هل أرغمك أحدٌ على ذلك يا أمير المؤمنين؟" (سأله أبو عمر). "قلتُ: لم أعد أمير المؤمنين، ولم يرغمني أحدٌ.. إنما أفعله مختاراً عن محض إرادتي.. واكتبوا عني ذلك وأشهدوا عليه". "إنْ كان لابد؛ فلتتنازل لمن يختاره المروانيون!" (هتف ابن سليمان محاولاً إخراج الأمر

عن غريمه)، فأجابه الخليفة المؤيد بجدية وعزم: "إنما أتخلى عنها لمن وعدتُه بها: محمد بن هشام بن عبد الجبار.. على أن أستوفي شرطي". "وما هو شرطك أيها المؤيد؟؟" (سأله أبو عمر ليُنهي بنبرته الصارمة جدال ابن سليمان)، فأجابه المؤيد بنبرة خفيضة يشوبها الانكسار قائلاً: "اشترطتُ حفظ نفسي، وتشهدوا على تعهده لي بذلك!". فصاح فيه هشام بن سليمان موبخاً:

[1].. رقم ٧ في شجرة النسب ص٤.

[2].. ورد ذكره في المشهد رقم ١٠.

"بئس السلطان أنت! إنما السلطان إما في القصر أو القبر! وأنت تبيع جاهك وسلطانك لحفظ روحك.. يا لك من متخاذل!". فنهره أبو عمر وأمره بالسكوت.. ثم توجه للمؤيد هشام قائلاً: "لا يفعل مثل فعلك إلا رجلٌ شجاع متواضع.. وأما اشتراطك حفظ نفسك فهو حقك.. وهو مجاب إن شاء الله". "قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء!" (تمتم المؤيد بصوت أسيف). خرج الشهود من عند المؤيد، وشهدوا أنه خلع نفسه وتخلى عن الخلافة بمحض إرادته للأمير محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي تعهد أمامهم بإنفاذ شرطه وحفظ حياته ودمه. ثم كُتب كتاب الخلع والبيعة.

أما صاعد فكان قد خرج يُنادي في الثوار حول القصر قائلاً: "أيها الناس.. أيها الثوار الشرفاء.. إنَّ أميركم قد دخل إلى عمه الخليفة؛ وهما الآن يتباحثان في مطالبنا العادلة، وقد وعد الخليفةُ بالاستجابة لها دون قيد أو شرط". ارتجتْ أرض الباحات بالتهليل والتكبير. التقط أنفاسه، ثم أشار إليهم بالإنصات واستأنف صائحاً: "لم ينتهِ الأمر بعد أيها الثوار الأحرار، إنكم قطعتم رأس ذئب (يشير إلى ابن عسكلاجة) لكن بقيَّ عرين الذئاب! بقيتْ الزاهرة.. صرح جبروتهم.. ومرتع فجارهم، فلا بقينا إنْ بقتْ! لا بقينا إنْ بقتْ!".

-المشهد الحادي والعشرون بعد المـائة-

غابتْ الشمسُ، وأظلم الليلُ!

"المجلس الكامل.. مجلس الخليفة الناصر مظلم؟! أين الثريا؟! أين القناديل؟! أين المشاعل؟!": تساءل الأمير محمد موبخاً (فاتن) أمين القصر الذي وقف بين يديه مطرقاً في خجل؛ بينما يذهب محمد بن المغيرة وبعض رجاله عبر باب السباط[1] إلى الجامع ليحضروا منه الشموع لإنارة المجلس ونواحي القصر. ثم صاح الأمير محمد وهو يُنقِّل بصره بين أمين القصر، وبين من حضر من كبراء قومه وأعيان قرطبة: " أليس في قصركم هذا طعام؟! إنَّا جوعى.. وقد حق لنا إقامة مأدبة احتفالاً بالبيعة.. أليس كذلك؟". ثم أمر فاتنَ بإنارة أنحاء القصر، وإعداد موائد الطعام للحاضرين ابتهاجاً ببيعته بالخلافة. في غضون ذلك خرج جؤذر خادم الخليفة السابق من مخدعه ومعه بعض فتيانه يحملون حُلل خليفية مطرزة ومذهبة ذات رونق وبهاء؛ يُهديها الخليفة السابق للخليفة الجديد وخاصته من بني مروان. قلَّبها الخليفة محمد بن هشام بين يديه، ولم يُخفِ انبهاره وإعجابه بها وهو يتفحصها، ثم اتكأ في مجلسه وهتف متصنع الأنفة والإباء: "ليس الخليفةُ بحُلته المطرزة ولا قلنسوته المرقَّشة! لكنها هدية مقبولة.. أبلغ امتناننا لعمنا هشام بن الحكم!". ووهب منها لعبد الجبار

ومحمد ابني المغيرة. بعد تناول الطعام على مائدة الخليفة الجديد أعلن أنَّ وليَّ عهده هو سليمان بن هشام، وأنَّ حاجبه هو عبد الجبار بن المغيرة، وصاحب شرطته هو محمد بن المغيرة. ثم قضى ليلته كاملة لم يغمض له جفن يبايعه بالخلافة أهل القصر ومن حضر من أعيان قرطبة وأكابر أهلها.

---

[1].. هو باب من أبواب القصر مواجه للمسجد الجامع كان يخرج منه الخليفة إلى الجامع لصلاة الجمعة، ويوصل بينه وبين الجامع سباطاً؛ فلذلك سمي باب السباط.

بددتْ الثورة ضباب ذاك اليوم عن سماء قرطبة؛ غير أن الضباب لم ينقشع عن دار فاطمة المروانية؛ بل كان يزداد كثافة مع ساعات النهار! ضباب خانق غشي البيت مذ غادره حمدون أمس مؤجلاً عرض جدته كاسراً قلب حبيبته؛ فأمستْ فاطمة ساهدة متحيرة، ثم أصبحت وغُبْشَة الليل لم تفارق عينيها. في الصباح عرفتْ الحزن والمرارة في عيني سلوان اللتين أذبلهما السهر والألم رغم أنها لم تشتكِ ولم تُبدل عاداتها اليومية؛ لكن لم يَخفَ حالها عنها. كانت تراقبها والتحرج والخجل يُحجمانها عن الكلام معها. أما سلوان فقد ألقتْ نفسها في جُب سحيق من الصمت عجزتْ فاطمة عن سبر أغواره. لبثا هكذا في نهار ضبابي صامت تمر ساعاته بطيئة خانقة حتى جاءتهما أم سعدون بعد العصر لتُنبئهما بالنبأ العظيم: "اقتحم الثائر المرواني قصر قرطبة وقتل ابنَ عسكلاجة، وامتلأت ساحات القصر بالثوار.. يريدون اقتحامه على الخليفة!". أضرم الخبر المباغت نيران القلق في أحشاء البيت وأهله؛ فاستحال ضبابه إلى دخان دمعت منه العيون واختنقت به الأنفاس. "الثائر المرواني هو محمد بن هشام.. لابد أن حمدون يصحبه! يا لهول الفاجعة إنْ كان متورطاً معه فيما يفعل!": حدَّثتْ فاطمة نفسها؛ فأكل القلق كبدها حين مرتْ هذه الخاطرة بخَلَدها، وقذف بها في ذات الجُب الذي تقبع فيه سلوان. راحت تذرع صحن الدار جيئةً وذهاباً في وجل وتوتر حتى همَّت الأرض التي تطؤها أن تحتضن

قدميها وتُقبّلهما رحمة بها ورأفة! أما سلوان فقد دهمها الخبر؛ فأنساها حزنها من حمدون.. واستبدل به قلقاً عليه. بل أُلقي في روعها أنه: إنما أجلَّ زواجه منها لعلمه بأنه مقدمٌ اليوم على خطر عظيم؛ فزادت شفقتها عليه ووجل قلبها! حلَّ المساء وما من خبر يُطمئن القلب أو يُهدئ الروع؛ بل قلق واضطراب يزدادان. انتشر الخبر في أرجاء قرطبة وأرباضها؛ فأُغلقت الدكاكين والأسواق، وخرج الرجال إلى القصر إما لمناصرة الثائر المرواني أو لاستطلاع أخباره، وأغلقتْ النساء دورهنَّ عليهنَّ. ثم علموا باقتحام السجن وإطلاق سراح السجناء منه؛ فرجع كثيرٌ من الرجال إلى بيوتهم وأسواقهم خوفاً عليها أن ينهبها اللصوص والمجرمون. عادوا يتحدثون بالأخبار: "اقتحم الثوار قصر الخليفة.. ودخل عليه الثائر المرواني يُكلمه في مطالب الثوار؛ فوعد الخليفةُ بالاستجابة!". وجاء بعدهم آخرون يؤكدون: "غادر أغلب الثوار القصر، وتوجهوا إلى الزاهرة يهاجمونها لاقتحامها، والثائر المرواني يجمع أعيان قرطبة في القصر عند الخليفة لأمر هام!". ويتأكد في الأنحاء نبأ هروب السجناء؛ فتسأل أم سعدون عن ولدها؛ ولا خبر يُثلج صدرها! تخرج مع أم هشام تسألان عن ابنيهما؛ تجوبان طرقات الربض وأزقته ودروبه؛ فتجدان الرجال قد ملؤا الدروب حرساً وشُهبا خشية اللصوص والمجرمين.. فتسألان: "أما من أحد رأى حمدون أو سعدون؟؟"، وما من خبر يُطمئن القلب! تعودان للدار بقوى خائرة.. أفئدتهما هواء. تتلقاهما سلوان وبريق عينيها الزائغتين يسأل في لهفة؛ فلا تُجيبان. رنت فاطمة إليها وقد انتبهت للهفتها على حمدون؛ فتأملت حالهما كأنما تقول (هل تخفيف مصابك يكون بفقداني لولدي يا سلوان؟!).

-المشهد الثاني والعشرون بعد المائة-

أبتْ الليلةُ إلا أن تكون مظلمةً.. رغم بدر السماء؛ فتدثرتْ بسواد قاتم كافحه رجالُ الربض الذين يحرسونه بمشاعل تتراقص ظلال نيرانها على جدران الدور كغيلان

الفلاة تتربص بهم؛ فازداد المشهد غموضاً ورعباً. على سطح الدار مكثتْ سلوان تتشبث بمشعل خافت وعصا ضعيفة لن تغني عنها من اللصوص شيئاً! لكنها تتشبث.. تتشبث بأمل حالم تدور من أجله في جنبات السطح تنظر عسى حمدون يُقبل من بعيد يختال على حصانه الجواد سالماً آمناً؛ فيطمئن قلبها وتقفز إليه تُصارحه بأنها تسامحه؛ وأنها علمت أن إحجامه عن زواجها كان حباً وتضحيةً من أجلها. "ليتك تأتي يا حمدون؛ فأخبرك!". غير أن حمدون لم يأتِ. ورغم البرودة والدجى لم تيأس، ولم تخش أشباح الظلام المتواثبة حولها؛ لكن أجهدها القلق والانتظار فقعدت باستسلام تراقب الدرب الملتوي وحراسه.. لعل الغائب يأتي!

ها هو ذا يُقبل من بعيد! آه.. يحمله الرجال حملاً.. تحفُّه المشاعل حقّاً؛ إنه جريح مصاب! إنه ليس حمدون! "إنه سعدون.. يا أم سعدون!": لم تقدر أن تكتم صرخةَ جزع انتابتها. هرولت تهوي إلى صحن الدار تستقبل الجريح مع أمه وسيدته. فُتح الباب وولج الرجال يحملونه؛ وقد شُجَّت رأسه فأسعفوه بإيقاف نزف الدم وتضميد الجرح، برفق أرقدوه على الأريكة القريبة. أقبلت عليه ثلاثتهنَّ في هلع وارتياع؛ فصاح فيهنَّ حسان الخشاب الذي كان ممن يحملونه قائلاً: "لا تجزعنَّ! إنه جرح بسيط.. لكن الفتى ارتاع لما رأى دمه ينزف". احتضنته أمه ثم وسدت رأسه فخذها وهو غائب عن الوعي كالسكران وراحت تبكي وتنوح: "واولداه.. واحبيباه!". ربتت أم هشام على كتفها تُهدئها، ثم أقبلتْ على الرجال تُثني عليهم وتشكرهم. أرادت أن تقدم لهم واجب الضيف؛ بيد أنهم أبوا واستأذنوا فانصرفوا إلا حسان استبقته لتسأله عما حدث! تناول شربة ماء وجلس إلى المجمرة يتدفأ بها ثم حكى لهم خبر الثائر المرواني الذي اقتحم القصر معه بضعة رجال من الشجعان فقتل ابن عسكلاجة وقطع رأسه، ونمى خبره إلى الناس في الأسواق فهبوا إليه ينصرونه ويؤازرونه.. وهبَّ هو أيضاً معهم. وحكى لهم كيف كان ممن اقتحموا السجن، وكيف فتَّش بنفسه عن سعدون حتى وجده وأخرجه من زنزانته، ثم كيف عاد مع

أنصار الثائر والسجناء المُطلَقين إلى قصر قرطبة فاقتحموه وأدخلوا الثائر وأكابر قومه المروانية إلى الخليفة ليتفاوضوا معه. ثم كيف غادر القصر مع الثوار ليحيطوا بأهل الزاهرة ليقتحموا قصرها هي أيضاً، وكيف كانت المواجهات بين الثوار وجنود الزاهرة صعبة وشديدة.. أُريقتْ فيها دماء.. وزهقتْ فيها أرواح؛ ولولا شجاعته هو لكانت روح سعدون من تلك اللاتي زهقت! ملَّت سلوان ثرثرته وحديثه المقيت عن شجاعته الثورية المزعومة؛ فهمَّت أن تقاطعه وتسأله عن حمدون، لكن فاطمة التي أحرق القلقُ كبدها سبقتها فصاحتْ فيه بتبرم ساخط: "ألم تقابل حمدون يا هذا؟؟ ألا تعلم من خبره شيئاً؟!". أدرك أنه تجاوز حده بالثرثرة والاسهاب في التباهي بدوره –الذي يظنه بطولي- في الثورة؛ فاعتدل في جلسته وبلع ريقه.. ثم أطرق رأسه وهو يهمس: "لا.. لم أقابله!". نفضت النساء الثلاثة منه أيديهن، وانفضت أنظارهنَّ من حوله. شعر أنه خيَّب رجاءهنَّ فيه.. فأراد اجتذابهن إليه ثانيةً؛ فهتف بحماس قائلاً: "لكن.. لا تقلقنَّ عليه! فالثوار يقولون إنه من خاصة رجال الثائر المرواني؛ وبالتأكيد هو معه عند الخليفة.. ولا ريب سيناله قسط عظيم من الغنيمة!". صرفته أم هشام صرفها لضيف ثقيل سمج، ثم قامت أم سعدون لترقد بجوار ابنها الجريح في فراش حمدون الخالي لتترك فاطمة وسلوان وحيدتين في صحن الدار.. تائهتين في شعاب القلق والترقب. لم ترغب إحداهما أن تغادر إلى مخدعها؛ بل رغبت أن تمكث مع الأخرى تواسيها؛ فبقيتا في الصحن تُطالع كلتاهما الأخرى وترنو إليها.. لكن تحول بينهما جبال شاهقة من الصمت أطبقت عليهما وعلى المكان! فاطمة.. أعياها التخبط جيئةً وذهاباً؛ فجلست على أريكتها يتأرجح قلبها بين اليأس والرجاء في عودة حفيدها سالماً وفي الاطمئنان عليه، ولم تجد ملجأ تتحصن به غير ذكر الله؛ فطفقتْ تذكر الله وتدعوه بأدعية كثيرة حتى استقر لسانها على قول "لا حول ولا قوة إلا بالله" فما فتئت تلهج بها بقية ليلتها. أما سلوان.. فلم

تختلف حالها عن حال معلمتها؛ لكنها جلست إلى جوار المجمرة التي انطفأت جذوتها تتلو قرآناً بصوت أسيف وعين دامعة وقلب واجف!

-المشهد الثالث والعشرون بعد المائة-

بلج فجر قرطبة بعد ليلة ساهدة طويلة.. لم تكن كسوابقها من الليالي! نادى مؤذن الجامع الأعظم للفجر؛ فخرج الخليفة محمد بن هشام للصلاة عبر باب السباط الذي طال اشتياقه لخروج خليفةٍ منه إلى الصلاة، وخرج معه مَن حضروا البيعة ليلاً من أكابر المروانية وأعيان قرطبة. أُعلن النبأ العظيم للمصليين وأمَّهم الخليفة الجديد في الصلاة ثم ارتجتْ جنبات المسجد بتكبيرات أنصاره، وسرعان ما انتشر النبأ العظيم في أرجاء قرطبة: "تنازل المؤيد هشام عن الخلافة لمحمد بن عبد الجبار!"؛ فتوافد الناس على الجامع يُبايعون الخليفة الجديد ويُقبلون يده ويدعون له.. مستبشرين بالخير.

أيقظتْ سلوانُ أم هشام من إغفاءة خفيفة أخذتها، وقامتا لصلاة الفجر وابتهلتا إلى الله أن يمنَّ عليهما بالفرج القريب ويُطمئنهما على حمدون. لم تكد أم هشام تنتهي من صلاتها حتى جاءها حسان الخشاب يشق غَلَسة الليل يُنادي: "أبشري يا أم هشام!". هرعت إليه تسأله: "ما الخبر؟!". فهتف قائلاً: "اطمئني على ولدكِ حمدون فإنه في أمان وسعادة.. لقد رأيتُه يقف بين يدي الخليفة الجديد والناس يُبايعونه!". استبهم كلامه على كلتيهما.. فسألته عن تفاصيل الخبر؛ فحدثهما قائلاً: "لقد تنازل الخليفة المؤيد بالله عن الخلافة ليلة أمس للثائر المرواني محمد بن عبد الجبار، وحضر أعيان قرطبة وأكابرها البارحة إلى القصر للشهادة على كتابي الخلع والبيعة، وعامة أهل قرطبة الآن في الجامع الأعظم يبايعون الخليفة الجديد.. ورأيتُ ولدكِ يقف بين يديه كرجل من ثقاته يصف الناس للمبايعة". "هل تحدثتَ معه؟ هل تأكدتَ أنه حمدون؟!". "الجامع مليء بالمبايعين، وقد باعد

تـزاحمهم بيني وبينـه.. لكني عرفتُـه؛ فـآثرتُ أن آتي أُبشـركِ قبـل أن أُبـايع! فـاطمئني عليه.. لقد صار من الأكابر!". "رده الله إلينا صالحاً!". "اسمحي لي.. سأعود إلى الجامع لأُبايع الخليفة.. السلام عليكم ورحمة الله".

بعد ليلة شاقة ملئ بالمهام المضنية هي وصباحها، وبعد أن رتب مناوبة الحراسة بين رجالـه أوّى حمـدون إلى ركـنٍ هـادئ في أحـد أبـراج السـور ليغفـو قـليلاً. لـم تكـد الشـمس ترتفـع في قبـة السـماء، وبينمـا آشـعتها المرتعشـة تـداعب جفونـه على استحياء؛ إذ جاءه أحد رجاله يخبره أن الخليفة يريده حالاً داخل القصر!

"أرسلتَ في طلبي يا أبا الوليد؟؟" (هتف حمدون وهو يفرك عينيه من آثار الوسن). "إنـه الخليفـة يـا حمـدون! قـل: يـا أمير المـؤمنين!" (صـاح صـاعد الحـرار بشيء مـن الحميـة). "عفـواً! هـل أرسـلتَ في طلبي يـا أمير المـؤمنين؟؟". فقـال الخليفـة الجديـد بوقـار وهيبـة: "اجلـس يـا حمـدون؛ فـإني أريـدكَ في أمـر هـام!"، ثـم اسـتطرد: "نريـد أن نعطي القـوس باريها.. وكلنا يعلم أنك أنت باريها!". "أنا طَوْع بنانك يا أمير المؤمنين!". "تعلـم أن هجمـة أصحابنا مـن الثـوار البارحـة على الزاهـرة قـد بـاءت بالفشـل رغـم الأعـداد الغفيرة التي أحاطـت بأسـوارها؛ لكـن اسـتبسـال جنودهـا في الـدفاع عنهـا وظلمـة الليـل حـالا بينهم وبينهـا.. ورغـم ذلـك فـإن أعـداداً كبيرة مـن أنصـارنا مـازالوا يبيتـون حـول الأسـوار، ويحيطـون بهـا إحاطـة السـوار بالمعصـم محاصـرين لهـا لكـيلا يخرج أحدٌ منهم لمهاجمتنا!". "أجل.. أعلم يا أمير المؤمنين، وأعلم أنـه لا منـاص مـن استسـلام أهلهـا أو اقتحامهـا علـيهم". "لـذا فـإني انتـدبتُ الحاجـب عبـد الجبـار بـن المغيرة ومَن معـه مـن رجالنـا الأشـداء لمؤازرة الثـوار في مهاجمـة الزاهـرة، وأريـدكَ أن تصحبهم برجالك.. وتكون تحت أمرة الحاجب!". "أمرك مطاع أيها الخليفة!". "لـدينا خطة للهجوم.. أنت ستكون عمادها الرئيس يا حمدون!"(صاح الحاجب عبد الجبار الـذي كان حاضر اللقـاء)، فـالتفت إليـه حمـدون متسـائلاً باهتمـام: "مـا هي خطتكم

أيها الحاجب؟؟". "سنهاجم قصر الحاجبية[1] ونحتل سطحه، ومن علياء ذلك السطح سترمي أنت ورماتك المهرة جنود الزاهرة داخل الأسوار؛ فنشغلهم بأنفسهم حتى يتمكن رجالنا ومعهم الثوار من تسلق الأسوار وفتح أبوابها". وصاح الخليفة مدعماً لخطة حاجبه: "ولا يخفى عليك يا حمدون أن اقتحامنا لقصر الحاجبية سيرهب أهل الزاهرة كلهم مما يُسهل علينا استسلامهم ورضوخهم لأمرنا".

[1].. هو قصر الحاجب المظفر الذي تقطن به أمه الذلفاء وأهل بيتها، وهذا القصر كان يقع على مشارف الزاهرة خارج أسوارها.

فهتف حمدون بشيء من التوجس والاستهجان: "لكن.. يا سيدنا! أم المظفر هي مَن ساعدتنا؟!". "لن يمسها منا سوء إنْ شاء الله! هيا اذهب فتجهَّز.. وجهز رجالك وأسلحتهم؛ نريد فتح الزاهرة قبل غروب الشمس". انصرف حمدون طائعاً رغم ما كان يحيك في صدره من قلق وريبة. أما عبد الجبار وصاعد فلم ينصرفا حتى أكد عليهما الخليفةُ ضرورة استسلام أهل الزاهرة قائلاً في حزم: "إنَّ الزاهرة هي ديوان المُلك والمقر الحقيقي للحكم، وهي مجمع الأموال والسلاح. إنْ لم نملكها؛ فما فعلنا شيئاً. فاملكها يا عبد الجبار وضع يدك على ذخائرها مهما تكلفنا من مشاق وتضحيات! أتفهمان؟"

-المشهد الرابع والعشرون بعد المائة-

لم تُصدق الذلفاء ما تراه عينُها: الثوار.. الذين دعَّمتهم بمالها وجاهها يقتحمون قصرها.. يعبثون به ويتطاولون على أهلها وخدمها!! هرعتْ إلى عبد الجبار في مجلس قصرها -الذي احتله برجاله- تعاتبه وتبكته؛ فانتفض واثباً من الغضب وصاح فيها: "الزمي حدكِ.. فإنكِ تخاطبين الحاجب المرواني؛ ولولا أنك امرأة لأدبتُكِ!". "تؤدبني أنا يا ابن المغيرة؟! أهذا جزائي بعد كل ما بذلته لكم؟!". "لم تبذلي من مالكِ ولا مال

أبيكِ؛ إنما هو مُلك أبائنا.. وقد رُدَّ إلينا!". أقبل حمدون يهرول إليهما لمَّا علم بحزن أم المظفر وغضبها. دلف المجلس؛ فوجد عيني عبد الجبار تبرقان في وجهها بغِلٍ حانق، وألفاها تقف مصدومة تحاول أن تتشبث بالجَلَد والوقار.. ويتشبث بخصرها حفيدها المذعور (الصبي محمد). أمسك بذراع عبد الجبار هامساً له بهدوء: "أيها الحاجب.. اهدأ! إنها السيدة أم المظفر؛ ولا يليق أن نخاطبها هكذا!". نظر إليه بصلف، وإليها بازدراء ثم صاح ضاغِناً عليها: "ليس لها عندي إلا ما كان من زوجها لأمي حين قتل أبي أمام عينها!". أيقن حمدون أنه لن يتراجع عن نفث عداوته وحقده الدفين في وجه الذلفاء! فقعد في تؤدة وكياسة ثم هتف يخاطبه بحسم: "فلنراجع أمير المؤمنين في أمرها!". فأجابه الحاجب باستياء ظاهر: "لا شأن لك بهذا.. اذهب إلى عملك!". "لن أفارق مجلسكَ هذا حتى يفصل الخليفة في أمرها بنفسه!" (قال حمدون بإصرارٍ وثبات). "هل تتحداني أيها الفتى؟؟!" (صرخ مغتاظاً ثائراً). "لستُ أتحداكَ.. لكني أفعل ما تحتمه عليَّ المروءة!". آيس عبد الجبار من إثنائه عن قراره، ولأنه يعلم أن حمدون هو أمهر وأدق رامي في رجالهم.. وأن قوسه لا يقوى على شدها مثله؛ فقد خضع لرغبته مضمراً له حقداً شريراً، وأرسل على وجه السرعة رسولاً يسأل الخليفة: "ماذا نفعل مع الذلفاء؟"، وأسر إلى الرسول أنْ يشكو للخليفة تجرؤ حمدون عليه وتهديده له. عاد الرسول سريعاً برد الخليفة: (يأمر حاجبه أن يطلق سراح الذلفاء إلى أي بيوت قرطبة تشاء.. ومعها حرائر نسائها وأطفالهنَّ، وأن يدعها تصطفي من خاصة مالها ما تحب، وأن يستبقي الجواري والعبيد، وأن يستولي على القصر وما به من متاع وأثاث. ويأمر حمدون بألا يخالف الحاجب ولا يُفارقه حتى يفتح الله عليهم الزاهرة). حزنتْ الذلفاء لقرار الخليفة الذي كانت تحسبه سيحفظ لها جميلها، ويُحسن إليها ويرعى حرمتها! لكنها تجده الآن بدلاً من ذلك يُصادر قصرها ومتاعه ويطردها منه.. حتى الجواري والخدم يمنعها إياهم. لا تملك إلا الاستسلام لهم؛ فشرعت تجمع حاجيتها الخاصة لترحل

آسفة على عز يزول وسؤدد يغرب. استأذن حمدون في الدخول عليها يعزيها في نفسها وقصرها ويتبرأ أمامها من جحود عبد الجبار لمعروفها، ويعرض عليها أن تنزل ضيفة في دار جدته التي ستسعد بالتأكيد لاستضافة صديقة عمرها؛ غير أنها تُثني عليه وعلى جدته خيراً وتعتذر عن قبول دعوته، وتطمئنه أنها ستعود لبيتها القديم في قرطبة.. فقد كانت تخشى غدر الزمان بعد موت ولدها لذلك حفظت البيت وحفظت به ما استطاعت أن تهرّبه من أموالها.

صعد حمدون ومعه الرماة إلى سطح قصر الحاجبية، فوزعهم على أنحائه بحنكة الصياد الماهر ليواجهوا عن كثب جنود الزاهرة المصتفين خلف أسوارها. أراد صاعد بن عبد الوهاب أن ينادي أهل الزاهرة ويخطب فيهم يحثهم على الاستسلام وتسليم المدينة؛ فأوقفه حمدون بمرتفع أعلى السطح ليُشرف عليهم، وقد تحرز أن يغدر به رام منهم أثناء خطابه؛ فتربص حمدون متنكباً قوسه وكنانته بالقرب منه ليحميه من أي سهم غادر. وقف صاعد متكئاً على رمح ثُبت في نصله رأس ابن عسكلاجة، وناداهم بصوت جهور قائلاً: "يا أهل الزاهرة! اسمعوا.. وعوا! إنَّ الخليفة المؤيد بالله هشام بن الحكم قد تنازل مختاراً عن الخلافة إلى ابن أخيه الأمير محمد بن عبد الجبار؛ وقد بايعه أعيان قرطبة وأكابرها البارحة في قصر الخلافة، وبايعه عامة أهلها فجراً في الجامع الأعظم.. فهو اليوم خليفتكم وولي أمركم. واعلموا أنما أنتم عمال الخليفة ولستم عمال شنجول. وإني رسول خليفتكم إليكم، وإنه يقول لكم: سلِّموا.. تسلموا! فإنْ أبيتم.. فاعلموا أنكم أنتم البغاة؛ وعلى البغاة تدور الدوائر! فاحذروا أن يكون مصيركم كمصير طاغيتكم هذا (ولوَّح برأس ابن عسكلاجة مهدداً) قد أعذرنا إلى ربنا؛ فلا تلوموا بعد ذلك إلا أنفسكم!". لم يكد ينهي كلماته حتى أتاه سهم غرب كاد أن يصيبه؛ فجرى يستتر! لم يمهل حمدونُ –الذي كان يراقب الموقف- الرامي الزاهري ليرمي السهم الثاني؛ إنما أسرع كالبرق وعاجله من بعيد بسهم خسق ذراعه فأذهله عن قوسه ونُشَّابه، ثم

نثر كنانته بين يديه وراح يرمي الزاهريين من بعيد فتمرق سهامه في أيديهم وأرجلهم بسرعة وبدقة أدهشتهم حتى ظنوا أنهم أُحيطوا بجيش من الرماة القناصين. أمر حمدون رماته أن يرموا مثله وألا يُصيبوا في مقتل؛ فتباعد جنود الزاهرة عن الأسوار وتحاشوا الاقتراب منها حيث أنها محل الرمي؛ فاستطاع جنود عبد الجبار والثوار تسلق بعض النقاط على الأسوار.. واعتلوها كما خطط لهم.. وأضحى اقتحام الزاهرة وشيكاً! قبيل العصر.. وبينما يحتدم القتال هنا وهناك حول الأسوار؛ نادى منادي الزاهرة صارخاً: "إننا نسلم بشرط أن يأتينا كتاب أمان لنا ولأهلينا بخط الخليفة الجديد، ولن نضع السلاح إلا بهذا!". تهادن الفريقان متمسكاً كلٌ منهما بأماكنه ونقاطه الحصينة حتى أتاهم كتاب الخليفة الذي يريدون؛ فوضعوا أسلحتهم وفتحوا أبواب المدينة للحاجب ورجاله، وسيق وجهاء المدينة -يتقدمهم الوزير ابن حزم وصاحب المدينة ابن مسلمة- إلى قصر قرطبة ليبايعوا الخليفة الجديد على السمع والطاعة.

فوق رعود التكبير والتهليل في ساحات الزاهرة وقف صاعد بن عبد الوهاب يشير بيده إلى قصرها المنيف ويصيح في الثوار بحماس: "يا دار فيكِ من كل دار؛ جعل الله منكِ في كل دار! تلك كانت دعوة مظلوم دعا بها على هذا القصر؛ والحين يستجيب لها ربُ العالمين؛ فاستبيحوا أيها المظلومين دار عدوكم وخذوا منها لدوركم!". أطلقت كلماتُه الضَغِنةُ تلك العنانَ للكائنات الجائعة المفترسة؛ فخرجت من مخابئها لتنهش فريستها الميتة؛ فهجمت أيديهم بأظفار كمخالب الجوارح.. وأفواههم بأضراس كأنياب السباع.. على المدينة الرائقة تنهب متاعها وتنهش فرشها.. لم يرحموا فيها أثاثاً ولا تحف، ولم يرؤفوا بنبتة ولا زهرة.. حتى الأبواب اقتلعوها! استدام نهب المدينة حتى حلَّ المساء وجنَّ الليل، والحاجب عبد الجبار ينظر إليهم.. فلا يردهم ولا يمنعهم إلا عن متاع أحب أن يختص به نفسه. مع انقضاض ظلمة الليل الحالكة وبرودته القارسة انكفأ النهَّابون إلى بيوتهم ولمَّا تشبع نفوسهم

الجشعة من السرقة والتخريب؛ أما الحاجب فقد ساق أمامه صاحب المدينة ابن مسلمة ليدله على ما خفي من ذخائر المتاع ونفائس الأموال في خزائن القصر السرية! في صباح اليوم التالي (الخميس ١٨ من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ) عاد اللصوص والنهَّابون ليستكملوا التهامهم للمدينة التي كانت قبل يومين مضرب الأمثال في العظمة والأبهة والجمال. لم يتورع أحدٌ -ممن كانوا بالأمس ثائرين على الظلم والاستبداد- عن السلب والنهب.. إلا ما كان من حمدون الذي انزعج من أفعالهم الشائنة لدرجة البكاء، ولم يُتق أن يقف بينهم مكتوف الأيدي؛ فخرج يركض إلى خليفته يشكو إليه سوء فعلهم.. وتقاعس الحاجب عن ردعهم. لم ينفعل الخليفة ولم يغضب من أفعال رجاله.. كأن الزاهرة (مدينة المنصور) صارت غنيمة حرب يحق لهم أن ينتهبوها؛ فمازال به حمدون يُجادله ويحاجُّه في المسألة حتى استصدر منه أمراً بمنع السلب والنهب في المدينة؛ فما ارتدعوا ولا توقفوا إلا بحلول المساء. أما الحاجب فقد لبث ومعه خاصة رجاله يجمعون ذخائر ونفائس الزاهرة وينقلونها إلى قصر الخلافة بقية الليلة -وما تلاها من أيام- بحجة أنها أموال الدولة التي استولى عليها بنو عامر؛ ويجب أن ترد إلى بيت مال الخليفة.

-المشهد الخامس والعشرون بعد المائة-

في أول جمعة له كخليفة حضر محمد بن عبد الجبار الصلاة في الجامع الأعظم، وأعلن أنه تلقب **بالخليفة المهدي**. دعا الخطيبُ للخليفة المهدي ولولي عهده سليمان بن هشام، وبعد الصلاة.. احتشد المصلون يسلمون على الخليفة وولي عهده ويجددون له البيعة ويدعون له بالبركة والصلاح. ثم عاد إلى القصر ليجتمع برجال دولته الجديدة ليتدارس معهم الموقف الحالي ويخطط لما سيفعله مع شنجول وجيشه! أما حمدون فقد استأذنه أن يذهب إلى بيته ليطمئن على أهله؛ فأذن له. قبل أن يصل إلى الربض (الحي).. سبقته أخبار بطولته الثورية. وراح

الرجال خلال اليومين السابقين يتحدثون عنه ويتناقلون حكاياته، فعرف جيرانه أنه واحد من أخص رجال الأمير الثائر الذي أصبح الخليفة، وأنه أحد الذين غامروا بحياتهم وهجموا على ابن عسكلاجة وقتلوه.. وحرروا الخليفة من حجر العامريين عليه. وأخذ شباب الربض العائدين من فتح الزاهرة يقصون عليهم شجاعته وقوته في الرمي التي أرعبت جنود المدينة وأجبرتهم على الاستسلام وفتح أبوابها، وتحدَّث شيوخُ الربض عن شهامته وتورعه عن قتل جنود المسلمين؛ فقد عمد إلى شلِّ حركتهم فقط أمام الثوار رغم قدرته على قتلهم بنباله. فغدا حمدون بطل الربض بلا منازع رغم سنه الذي لم يتجاوز العشرين ونيف عام، وراح صبيان الحارة -في ألعابهم- يحاكون قتاله لجنود الزاهرة وانتصاره عليهم. ما كاد يصل إلى مشارف الربض حتى رآه الصبيان فتنادوا وهللوا.. وأقبلوا عليه يصفقون له ويحيونه؛ ابتسم لهم غير متوقع احتفاءهم به، وزادتْ دهشته حين استقبله الرجال على أول الدرب، وجعلوا يحيطون بحصانه (ديجور) تكريماً له وتبجيلاً. أراد أن يترجل حياءً منهم؛ فأبوا إلا أن يمشوا بجواره وهو راكب، وكاد بعضهم أن يحملوه وحصانَه حملاً. دلف معهم إلى شوارع الربض وراحوا يطوفون به حولها احتفاءً به، والأطفال والصبيان يركضون خلف حصانه يزفونه ويهللون ويكبرون، والنساء على أبواب الدور يزغردنَّ، والفتيات من نوافذ الشرفات ينثرنَّ فوق رأسه الزهور والرياحين. بعد وقت ليس قصير قضاه معهم في سير طويل.. بالكاد تركوه يذهب إلى بيت جدته ليسلم على أهله.. على وعدٍ أن يلقاهم مساءً ليحتفلوا به. استقبلته أم سعدون وولدها بتهليل وحفاوة كسائر أهل الربض، أما استقبال جدته له فقد كان فاتراً مُحْبِطاً رغم قلقها الذي كان! وذلك لأنها –بعد أن اطمأنت على سلامته- علمت من جاراتها ما يحكيه رجالهنَّ عن قتاله لجنود الدولة؛ فساءها أن تلوث يده بالدم. رغم ذلك رمى نفسه في حضنها.. فأحسه بارداً، وألفى ذراعيها محجمين عن تطويقه، نظر في وجهها فوجده صارماً جامداً.. تساءل بارتباك:

"جدتي! هل بكِ بأس لا قدر الله؟!". أطالت النظر إليه بعيون تعيسة ثم صاحت توبخه وتلومه: "أخشى أن يمس جسدكَ جسدي؛ فتُصيبني لعنة الدماء والأرواح التي أزهقتها!". علم ساعتئذ أن ما حال بينهما هي تقواها.. وتورعها عن الدماء؛ فتراجع عنها خطوات، ثم رفع يمينه للقسم، ونظر في عينيها بعيون صادقة جريئة.. وهتف بجدية وصلابة: "أقسم بالله أني لم أقتل أحداً! ويعلم الله أني أتورع عن قتل النفس بغير حق، وإنما جرحتُ بعضَهم تحقيقاً للغاية التي أحسبها تُرضي الله!". كانت تحدِّق في عينيه بصرامة؛ فعلمت صدقهما. غير أن ورعها وخوفها من لعنة الدم الحرام جعلاها تقول: "لا أحب لك أن تقع في الشُبهات يا ولدي!". "والله يا جدتي.. ما أردتُ غير خير الأمة وصلاحها، وما فعلتُ الذي فعلتُ إلا إحقاقاً للحق وإبطالاً للباطل.. ويشهد الله أني قبضتُ يدي عن القتل والنهب!". تدخلت أم سعدون لتخفف من وطأة الجدة الصارمة على الشاب الأغر فقالت بتلطف: "ارفقي به وبنفسكِ يا أم هشام؛ لقد أقسم أنه لم يفعل ما يسوئكِ. وخيرٌ من اللوم والعتاب.. ينبغي لنا أنَّ نفرح بولدنا الذي يحتفي به الربض كله!". ثم ابتسمت ابتسامتها الساذجة وهي تستطرد ممازحة: "لقد أصبح حلم أمهات الربض أن يُزوجنَّه بناتهنَّ". أشاحت أم هشام بوجهها عنهما وهي تلوح بيدها في الهواء بامتعاض. جذبته أم سعدون من يده لتدخله غرفته قائلة له بفكاهة: "لو كان سعدون بنتاً لزوجتُها لك! هيا.. استرح في مخدعك حتى أُعد لك طعامك". سلوان.. لم تكن غائبة عن هذا المشهد؛ إنما كانت حاضرة تسمعهم خلسة وتنظر إليه خُفية.. فقد كانت منكمشة في إحدى الزوايا متحصنة بصمتها الملتهب. ولقد رآها – من بعيد- تنظر إليه من طرف خفيَّ؛ كم يود أن يهرع إليها يحدثها وتحدثه! كانت أحلام اليقظة تخامر خياله وهو قادم إليهما: (كان يحلم بجدته تأخذه في أحضانها مسرورة به وبنجاحه، ويحلم بابتسامة سلوان الحلوة ترحب به، كان يحلم بفرحتهما حين يقول لجدته بلهفة أنه يريد الزواج بسلوان الآن!). بيد أن جدته أيقظته من

أحلامه الهانئة حين استقبلته ببرود ووبخته بحرارة.. حتى أفسدتْ عليه فرحته! في المساء شغله احتفال الجيران به عن ملامة جدته له، وفي الصباح استدعاه الخليفة المهدي إلى قصر قرطبة على وجه السرعة!

-المشهد السادس والعشرون بعد المائة-

من بعد صلاة الجمعة والخليفة يدرس الموقف مع رجاله. لا جرم أن ثورته نجحت وحققت نتائج باهرة: فقد بايعه أهلُ الحلِّ والعقد في قرطبة بالخلافة، وانكسرت له شوكة العامريين واحتل زاهرتهم، وحاز كنوزها وأموالها؛ لكن مازال ذلك النجاح وتلك النتائج في خطر مادام لم يقضِ على شنجول وجيشه. باهتمام توجه بالسؤال إلى حاجبه عبد الجبار: "هل أحصيتَ ما حُزناه من كنوز الزاهرة؟؟". أجابه بزهو وتفاخر: "ألف ألف وخمسمائة ألف دينار ذهبي، وألفا ألف ومائة ألف درهم أندلسي، ومن إحدى المخابئ السرية استخرجنا صباح اليوم: مائتي ألف دينار.. غير فاخر المتاع والجواهر". "هذا مال كثير!!" (هتف الخليفة بسعادة وتباهي).. ثم أردف قائلاً: "لكن.. عملنا لا يزال على شفا جرف هارٍ.. إنْ لم نتخلص من شنجول وجيشه؛ فسينهار بنا في هوة سحيقة!!". "ماذا تأمرنا أن نفعل؟؟" (تساءل محمد بن المغيرة بترقب). فسأل الخليفة الحاضرين: "هل تدرون أعلم شنجول بأمرنا أم لا؟!". " أجل.. علم!" (أجابه عبد الجبار).. ثم استطرد: "أخبرني ابن مسلمة أنه أرسل له رسالتين بالبريد الزاجل، الأولى فيها نبأ مقتل ابن عسكلاجة، والثانية: دخولنا قصر الخليفة ويخبره أيضاً بحصارنا لهم في الزاهرة!". "هل جاءهم رده؟" (تساءل الخليفة)؛ فأجابه الحاجب بإقرار: "لا.. لم يردا!". مكث الخليفة صامتاً برهة يتفكر فيها، ثم سألهم بجدية واهتمام: "لو أنَّ أحدكم مكانه؛ ماذا كنتم فاعلين؟؟". "أولاً.. سأُخفي الخبر عن جيشي!" (أسرع صاعد بن عبد الوهاب مجيباً). "سأُسارع قافلاً إلى طليطلة وأُحكم سيطرتي عليها لأتحصن بها، وأضبط هناك أمر الجيش؛ ومن ثمَّ

أُرسل بأقصى سرعة الحملات تباعاً إلى قرطبة فإذا انهزم أهلها وسيطر جنودي عليها.. قدمتُ إليها لأُذيق كل من تمرد عليَّ ألوان العذاب.. وأنتقم منهم!" (هتف محمد بن المغيرة بحمية كأنه في مقام شنجول حقاً). هزَّ الخليفة المهدي رأسه موافقاً لرأيه.. ثم سألهم: "إذاً.. كيف نُفسد عليه تخطيطه؟!". سكتَ الجميع سكوت تفكر وتدبر. طال صمتهم حتى هتف صاعد قائلاً: "لا ريب.. إنَّ أمير المؤمنين عنده الرأي السديد!!". وتساءل محمد بن المغيرة بشغف: "هل لديك خطة تخبرنا بها أيها المهدي؟". "نعم! وهاكم خطتي: أولاً.. نجعل ابن مسلمة يراسل أميرَ طليطلة فيخبره بأنني صرتُ الخليفة، وأني أُقره على ما بيده إذا بايع لي أهل طليطلة، ونأمره بالقبض على شنجول وتسريح جيشه إلينا. ثانياً.. نتحايل في سرعة الاتصال بقادة جيش شنجول –دون علمه- ونعلمهم أنَّ المؤيد هشام تنازل لي عن الخلافة بمحض إرادته، وأنَّا عزلنا شنجول من كافة مناصبه.. فلم يعد له عليهم أمرٌ ولا نهي، ونأمرهم بالقفول إلى قرطبة آمنين لنأخذ منهم البيعة! ولا تنسوا أن نذكرهم بأن أهليهم وأموالهم بين أيدينا هنا في قرطبة!". "أنا أتولى الاتصال بهم عبر جواسيسي في الجيش!" (هتف صاعد بحماس). بينما تساءل ابنا المغيرة: "لكن.. إنْ أبوا طاعتنا.. وانضموا إلى شنجول؛ فماذا سنفعل؟!". "سنضطر إلى قتالهم بمن معنا من جنود!". "ليس معنا من المحاربين إلا قليلون لن يقووا على قتال جيش عظيم مجرب كذاك الجيش!". فهتف المهدي بشيء من الاستسلام: "لا مناص من المغامرة!". ثم أردف صائحاً بحمية: "لم تكن ثورتنا وحدنا.. بل ثورة قرطبة كلها؛ لذا فإن أهلها شركاؤنا في الدفاع عنها". فتساءلوا باندهاش وريبة: "ماذا تقصد أيها الخليفة المهدي؟". "أقصد أنَّ ديوان عطائي[1] سيكون هو ديوان عساكري، ولن أمنع أحداً من التطوع فيه!". "هل تقصد...!". "أقصد أن تُعلن يا محمد بن المغيرة في الناس أنَّا أنشأنا ديوان عطاء الخليفة المهدي، واشرع من الغد في إثبات اسم كل من جاءك في سجلاته.. لا ترد منهم أحدا، واستعن في ذلك بمن شئت من رجالنا، واستدعِ حمدون بن هشام

ورجاله ليُعاونوك.. وأعلموا الناس أننا سنُجزل العطاء لأهل هذا الديوان". (صاح الخليفة بحماس)؛ بينما هتف عبد الجبار بتردد: "أخشى أن تُباغتنا طليعة من جيش شنجول.. فيستعيدوا منا الزاهرة ويتحصنوا بها إلى أن يأتي بقيتهم. وأنتم تعلمون كم هي حصينة منيعة!". فصاح صاعد مضطرباً: "ساعتئذ لن نقدر عليهم.. ستكون مصيبة حقاً!"، ثم تساءل بتوتر: "كيف نتقي ذلك يا أمير المؤمنين؟!".

---

[1].. أي أنه يُنشأ ديوان يكتب فيه أسماء الناس المستحقين للعطاء، ليعطيهم أموال وأعطيات من بيت المال. وسُمي ديوان لأنه عبارة عن سجلات وأوراق تدوَّن فيها الأسماء. ويقصد المهدي بقوله هذا: إنَّ مستحقي عطاءه الذي سيعطيه هم أولاء الذين سيتطوعون كعساكر في جيشه.

فصاح الخليفة بصوت كصفير الريح: "نُخربها!"، ثم أردف موضحاً: "أشيعوا بين دهماء قرطبة وذعَّارها أنَّا أبحنا لهم صروح الزاهرة؛ فمن اقتلع منها باباً أو خلع عموداً أو نقض جداراً فهو له، حثوهم على هدمها.. واحتواء مرمرها وبلاطاتها وصواريها وأنقاض قصورها ودورها في أسرع وقت.. حتى إذا جاءها من يظن التحصن بها؛ وجدها قاعاً صفصفاً كأن لم تغن بالأمس".

-المشهد السابع والعشرون بعد المائة-

بعد عدة مراحل من الحدود مع مملكة ليون بمنطقة جليقية.. وفي طريق عودته إلى طليطلة تمهل الجيش الأندلسي ليستريح قريباً من قلعة رباح[1].

استأذن القومس في دخول خباء شنجول؛ فأذن له. انحنى تعظيماً وإجلالاً لملك الأندلس، أباح له أن يرفع رأسه ويجلس معه دون تكلف. تلفت حوله.. فألفى الخباء مليئاً بما يبهر العيون من المتاع والنفائس، ثم نظر إلى الملك المأمون فوجده بين جاريتين تدلكان كتفيه ورأسه، وعن يمينه وشماله أخرياتٌ بعضهن يصببنَّ الشراب ويُقطعنَّ الفاكهة.. وبعضهنَّ يعزفنَّ عزفاً رقيقاً ويهمسنَّ بغناء لطيف. غير

أن المأمون كان في شغلٍ عنهنَّ كلهنَّ.. شغله غوْل الخمر بصداع أليم في رأسه واحمرار قاتم في عينه وذبول شاحب في وجهه؛ فأشفق عليه القومس.. وهمس مجاملاً: "أرى مولانا الملك المأمون مجهداً.. عفاكم الرب!". وكأن شنجول لم ينتبه لوجوده إلا بعد هذه الكلمات؛ فاعتدل في جلسته وأومأ لمن حوله أن تنصرفنَّ. أشار إليه أن يدنو منه.. ثم همس في أسى: "أحمل في جوفي همّاً عظيم يا سانشو[2].. تملكتني منه حيرة

[1].. مدينة قريبة من الحدود الشمالية للأندلس تقع غرب طليطلة وهي من أعمالها، بها قلعة حصينة ولها عدة قرى ونواحي.

[2]. هو القومس شانجة بن غومس المذكور، ولفظ شانجة بلغة قومه هو "سانشو".. فناداه بلفظ قومه.

شديدة.. ولم أقدر أن أبوح به لأحد ممن حولي!". "إنْ شاء مولانا الملك.. شاركتُه همه؛ جعلني الرب فداءً لكم!". "نعم.. لابد أن يُشير عليَّ أحدٌ؛ وأنت لستَ ممن أخشى كيدهم!" (هتف شنجول وهو مقطب الجبين تألماً من الصداع)، ثم أخرج من طيات ثيابه ورقتين صغيرتين بحجم إبهام يده.. ودفعهما إليه ليقرأهما –فهو يجيد القراءة باللغة العربية-. الورقتان كانتا هما الرسالتين الواردتين من أهل الزاهرة بالحمام الزاجل. قرأهما ابن غومس؛ فتبدلتْ ملامحه إلى العبوس والاكفهرار.. ثم نظر إلى شنجول وتساءل بهلع: "ما معنى هذا؟؟ هل انقلبت عليك رعيتك؟!". "كما تقرأ! هاجم السوقة والدهماء قصر الخليفة وقتلوا ابن عمي، وهم يحاصرون الحين قصر مُلكي في الزاهرة!!". "متى جاءتك هذه الرسائل؟؟". "منذ يومين أو ثلاثة!" (قالها بصعوبة وهو زامٌّ شفتيه تحسراً، وقد أمسك رأسه الحاسر متألماً، ومتأوهً من شدة الوجع). حدَّق فيه القومس باستهجان وصاح مؤنباً: "منذ ثلاثة أيام.. ينتزع السوقةُ منك مُلكك وتقعد تتأوه كالنساء؟!!". نظر إليه شزراً مستقبحاً

تجرؤه عليه، ولم يجبه.. فاستطرد معتذراً: "معذرةً أيها الملك! لم أقصد الإساءة.. إنما انفعلتُ غضباً لك! بماذا أجبتهم؟؟". "لم أُجب! وإني لحائرٌ.. لا أدري ماذا أفعل!!". "أسرِع بجيشك عائداً إلى عاصمتك؛ فاسترد ملكك، وأدب من تمرد عليك!". "أخشى إنْ علم الجنود بالأمر أن يتفرقوا وينفرط عقد الجيش؛ ولا شك سيعلمون إنْ أمرتُ بالعودة إلى قرطبة الآن!!". "عجِّل إذاً بالقفول إلى طليطلة وتحصن بها، ثم أرسل منها فرقاً تثق بهم من عساكرك إلى قرطبة تقاتل عنها هؤلاء المتمردين!". "لا أثق بواضح الصقلبي (عامل طليطلة) فهو رجل ماكر مخادع، ولا آمن غائلته إنْ علم بالأمر". "ما هذا الخنوع؟!! هل ستبقى هكذا حتى يستفحل أمر عدوك.. ويُحكموا سيطرتهم على عاصمة ملكِكِ؟!". "أرجو أن يثبت لهم أهل الزاهرة وينتصروا عليهم ويكفونيهم!". "ما هذا برأي ذي الهمة!". فصرخ مولولاً في يأس وحيرة: "ماذا أفعل إذاً؟! لقد ضاقت نفسي، واحترت في أمري!"، ثم التفت إليه وخاطبه بلغته الإفرنجية متوسلاً: "عزيزي سانشو.. ليس حولي من أثق به الآن غيرك يا صديقي.. فلا تتخلَ عني!". "أنا فارس نبيل أيها الملك. والنبيل لا يجحد المعروف، وأنت قاتلتَ بجيشك من أجلي؛ فلن أتخلى عنك.. لا تقلق!". صمتا ليتفكر ابن غومس في الأمر بينما شنجول منكمشاً على نفسه في وَلَه، لا ينفك لسانه عن التوجع والتأوه.. ولا تنفك يده عن تحسس نقاط الألم في رأسه. بعد تفكير عميق هتف القومس بشيء من التفاؤل: "حتى لو انهزم جنود الزاهرة، وأحاط المتمردون بقرطبة كلها؛ لن يضرك ذلك بشيء. فإنَّ تحت امرتكَ جيش الأندلس.. أقوى جيوش الأرض، استوثق من ولاء قواده لك، واحكم سيطرتك على عساكره؛ فتهزم بهم عدوك.. وتستعيد ملكك.. وتنتقم ممن غدر بك!". كان يسمعه بعقل ذاهل.. فاستطرد القومس قائلاً: "وإذا كنتَ لا تأمن والي طليطلة؛ فاعمد بجيشك إلى قلعة رباح.. فهي قريبة. فاحكم فيها زمام الجند، وتدبر أمرك من هناك!". "الرأي ما رأيتَ.. سآمر بالارتحال إلى رباح بدلاً من طليطلة".

-المشهد الثامن والعشرون بعد المائة-

إلى قلعة رباح.. دخل شنجول وبجواره القومس الذي لم يعد يُفارقه، ودخل الجيش العرمرم ودخلتْ معه أفاعي صاعد بن عبد الوهاب تكشُّ كشيشاً؛ فراجت أخبار ثورة قرطبة بين العساكر.. وشاعت الأراجيف في صفوف الجيش. لم يكد يستقر في القلعة حتى استدعى القائد محمد بن يعلي الزناتي؛ فدخل عليه وفي حضرته القومس. حياه في عجالة ثم بادره قائلاً: "ثمة أمر خطير بشأن قرطبة يجب أن أشاورك فيه يا زناتي!". رمق القومسَ بطرف عينه مستنكراً حضوره، فهما نظرته.. فهتف شنجول مطمئناً: "لم أعد أُخفي سراً عن صديقي سانشو!". هزَّ كتفيه مستسلماً ثم جلس يُنصت. رغم توتره واضطرابه حاول شنجول أن يتكلم بهيبة فقال: "ثمة شرذمة من السفلة والذعَّار هاجموا قصر قرطبة.. ويهددون الخليفة؛ فينبغي أن نرسل على وجه السرعة إلى قرطبة فرقة من الجيش تؤدبهم وتحمي الخليفة!". "وأين ابن عسكلاجة وابن مسلمة.. وعساكر الزاهرة؟!" (تساءل بدهاء). فأجابه بنبرة آسفة مخزية: "لم يقدروا عليهم!". "إذاً.. هم ليسوا شرذمة قليلة؛ بل هم أهل قرطبة جميعهم أيها المأمون.. لقد علمنا الخبر، وعلمنا أنهم قتلوا عاملكَ ابن عسكلاجة!". تفاجأ شنجول بعلم قائد جيشه للخبر؛ فارتبك.. ثم حاول أن يتظاهر بالثبات فاستدرك قائلاً: "إذاً قد علمتَ أن خليفتنا المؤيد –حفظه الله- في خطر، وأخشى إنْ تأخرنا عن نجدته أن يؤذيه أولئك البغاة!". "ماذا تريدني أن أفعل؟؟". "أنت قائد الجيش.. وستحسن التصرف! وأقترح أن تخرج فرقةٌ قوية من فرساننا الأكفاء تفاجئ أولئك الخونة وتنقضُّ عليهم في قرطبة فتحمي الخليفة، وتستنقذ المدينة من أيديهم.. لا ريب أنهم روعوا الآمنين.. أيها القائد!". "وماذا سيفعل باقي الجيش حينئذ؟؟". "يمكثون معي هنا في قلعة رباح.. حتى نئد الفتنة هناك". "رباح مدينة صغيرة.. لن تستوعب هذا الجيش الكثيف غير يومين أو ثلاثة، وأحسب أن مدة الانتظار ستطول؛ فأرى أن نرحل إلى طليطلة.. ومن هناك تنطلق فرقة

الفرسان!". "لا.. لن نذهب إلى طليطلة.. سنمكث ها هنا!" (أسرع مجيباً بتشنج). "كما تشاء!". "يجب أن يخرج الفرسان إلى قرطبة في أسرع وقت". "سأحاول ذلك!".

انصرف القائد الزناتي، فالتفت شنجول إلى القومس.. وهتف متأففاً في تضجُّر: "هذا الرجل الجِلف لا يروقني.. لكنه قائد جيشي.. وهو قائد محنك. هل تظن أنه سينجح في هزيمة المتمردين؟". "أتمنى ذلك.. غير أني لستُ مرتاحاً للهجته في الكلام!". "لا تقلق.. وإنْ كنتَ تراه فظاً؛ إلا أني لا أشك في صدق ولائه".

مر يومان بعد لقائه بقائد الجيش ولم تخرج فرقة الفرسان المتفق عليها؛ وإنما جاءته شكاوى متكررة من عامل قلعة رباح وأهلها يشكون فيها تأذيهم وضيقهم من عساكر الجيش واختلاطهم بأهل البلد وقراها. لام عاملَ القلعة ووبخه على سوء ضيافته لجيش الخلافة، لكنه أيضاً تململ من الانتظار.. ورابه تأخر القائد الزناتي عليه؛ فأرسل في طلبه.. ثم سأله: "ماذا وراءك أيها القائد.. متى سيرحل الفرسان إلى قرطبة؟؟". "لن ترحل فرقة فرسان واحدة.. بل الجيش كله سيرحل!". "ماذا تقصد؟!!". "أقصد أن الأنباء التي جاءتنا من قرطبة تقول: إنَّ الخليفة المؤيد بالله تنازل عن الخلافة لرجل من آل بيته، وقد بايعه أهل قرطبة بالخلافة وتلقب بالخليفة المهدي!". "ماذا تقول؟؟ لا.. لا! هذا كذب!". "بل صدق، ولقد علمتَ به.. وأخفيتَه عليَّ!". "تالله ما علمتُ غير ما قلتُه لك!" (صرخ مذعوراً في يأس وهلع)، ثم وضع رأسه بين كفيه مطأطئ في الأرض وأطبق عليهم صمت سحيق. بعد برهة.. استأذن القومس في الكلام؛ فتنحنح ثم قال بلغة عربية واضحة: "أشهد أن الملك المأمون صادق فيما قال.. أيها القائد. أما الأنباء التي جاءتك فإنه لا يعلم عنها. لكن لو صحت؛ فهذا يعني أنَّ الخليفة المؤيد أُحيط به وأُجبر على التنازل. وهذا غير جائز في شريعتكم كما أعتقد. وأغلب الظن أنَّ هؤلاء المتمردين قد استغلوا غياب الجيش عن قرطبة. وهذا يستوجب أنَّ تهبَّوا جميعكم هبَّة رجل واحد لإنقاذ خليفتكم واستنقاذ ملككم!". "أحسنتَ القول يا سانشو! هل أنت معي يا زناتي

لننقذ خليفتنا ومدينتا أم لا؟؟". "ينبغي التروي.. لكي نستطلع حقيقة الأحداث. ثم يجب مشاورة أمراء الجند في الأمر!". "تشاورهم؟! فيما تشاورهم؟! إنَّ في رقبتكم بيعة لي وللخليفة المؤيد توجب عليكم القتال من أجلنا والحفاظ على مُلكنا!". "لن ننقض بيعتنا أيها المأمون! لكن هذا أمر خطير يجب أن نُطلع عليه قادة الجيش، وينبغي مشاورتهم فيه!". "إذاً.. أعلمهم أن الملك المأمون يريد الاجتماع بهم صباح الغد" (هتف القومس حاسماً) دون أن ينتظر رأي شنجول الذي أومأ إليهما خاضعاً لقرار القومس.

-المشهد التاسع والعشرون بعد المائة-

اجتمع شنجول –ويقف بجواره القومس- بقادة جيشه؛ فأحسهم حانقين ضجرين. حاول أن يستوضح حقيقة شعورهم: هل هم حانقون عليه أم على متمردي قرطبة؟! هل هم ضجرون بخروجهم من قرطبة –قبل شهر- لغير حاجة مُلِّحة.. أم ضجرون من عودتهم إليها بغير مكاسب يغنموها؟! أراد أن يتأكد من ولائهم فبدأهم بالحديث صائحاً: "إنَّ الخليفة المؤيد مظلوم.. أحاط به البغاة وخلعوه رغماً عنه؛ فوجب علينا نصره واستنقاذه من أيديهم للبيعة التي له في أعناقنا!". "إنما ظَلَمَ الخليفةَ –قبلُ- مَن أرغمه على نقل الخلافة من بني مروان إلى غيرهم!!" (صاح أحدهم بنبرة تهكم يُعرِّض به)، كظم شنجول تغيظه من هذه الوقاحة السافرة. سكت برهة وجعل يلتفت إلى كل واحد منهم، ثم تبادل نظرات لها معنى مع القومس، ثم هتف بنبرة مكبوتة: "إنِّي أشهدكم أني تنازلتُ عن ولاية العهد.. وأكتفي بالحجابة!". نظر بعضهم إلى بعض متفاجئين، ثم التفتوا إليه يحدِّقون فيه غير مؤمنين لتراجعه السريع، فأراد أن يؤكد قوله ليضمن ولاءهم فصاح: "بلى! هذا ما قررتُه دراً للفتنة.. واشهدوا عليَّ بذلك!". "هذه بداية سديدة لمواجهة الأزمة.. أصبت

الـرأي أيهـا المـأمون!" (قـال أحـدهم.. ووافقـه الآخـرون). "والآن.. انظـروا مـاذا أنـتم فـاعلون لإنقـاذ خليفـتكم المؤيـد هشـام!". "نبـادر بالـدخول إلى طليطلـة.. ومـن هنـاك نرسـل حملـة قويـة لمحاربـة هـؤلاء البغـاة" (قـال فـارس منهم)، فعـارضـه آخـر صـائحاً: "لقـد بلغني أنَّ عاملهـا واضـح يطلـب مـن أهلهـا المبايعـة للخليفـة الجديـد!!". ضـرب شـنجول بيـده في الهـواء محبطاً دون أن ينطق؛ فهتـف محمد بـن يعلي: "عليـك الاتفـاق مـع الأمـير واضـح أيهـا المأمون.. وأرى أن ترسـل لـه ولأهـل طليطلـة تُعلمهم بتنازلـك عـن ولايـة العهـد.. وتطالبهم بنصـرة الخليفـة المظلوم". فـأثنى عليـه زملاؤه وقـالـوا: "هـذا رأي حسـن!"؛ كأنهم أرادو أن يورطـوا شـنجول في التخلي عـن ولايـة العهـد فلا يرجـع فيـه. وكأن شـنجول فطن لمـا أرادوا؛ فأجـاب مسـتسلماً: "لكـم مـا أردتم.. أرسـلوا إليـه بـذلك". فاسـتأنف ابـن يعلي كلامـه صـائحاً: "نرسـل إليـه فـارسـاً رسـولاً ليعـود إلينـا بجوابـه سـريعاً؛ فـإنْ كـان معنـا دخلنـا عليـه مسـالمين وكـان أمرنـا واحـداً. أمـا إنْ كـان غـير ذلـك؛ فحينها.. نقاتلـه عنهـا ونطـرده منهـا حتى تكـون طليطلـة لنـا حصـناً وملاذاً آمنـاً.. إنْ دهمنـا مـا نكـره!". "أصـبتَ أيهـا القـائد.. فعجِّـل إذاً بإرسـال الرسـول، وليسـتعد الجـيش للرحيـل لحـين عـودة الرسـول. تفضـلوا.. انطلقـوا راشـدين!". "عفـواً أيهـا الحاجـب! ثمـة أمـر ينبغـي أن نحسـمه!" (قـال أحـدهم بصـلف وفظاظـة)، فـالتفت إليـه شـنجول مظهـراً الاهتمـام رغـم اسـتيائه مـن وقـاحتـه؛ فاسـتطرد الفـارس الفـظ بـذات النبرة متسـائلاً باسـتنكار: "هـل سـنتحدث أمـام هـذا الجليقـي (يقصـد القـومس)؟!". تحـرج القـومس قليلاً.. لكـن شـنجول أمسـك بذراعـه وهتـف في حميـة وأنفـة: "إنَّ سـانشـو.. صـديقي، وأنـا أعتبره واحـد منـا.. فـاطمئنوا". ألفـى القـومس نفسـه مضـطراً للـرد على الفـارس البربري الفـظ؛ فتحـدث قـائلاً: "إنمـا أنـا حليـف الأنـدلس -أيهـا السـادة- كمـا تعلمـون، وكونتيتي تـدفع الجزيـة بانتظـام، وبيني وبيـنكم معاهـدة جعلـتكم تحـاربون ملـك ليـون مـن أجلي.. ألا تـذكرون؟! لـذا فـإنَّ شـرفي العسـكري يحـتم عليَّ أن أقـاتـل إلى جـانبكم كمـا قـاتلتم إلى جـانبي!". نظـر إليـه شـنجول نظـرة تشـجيع وثنـاء، ثـم التفـت إلى الفـارس

الأخير وسأله: "ما الأمر الذي تبغي حسمه؟؟". "أرزاقنا المتأخرة، وهذه الحملة التي تكبدنا فيها المشاق المهلكة.. وما حصَّلنا منها غنيمة!! من سيدفع لنا أيها الحاجب المأمون؟!". ود شنجول لو طرده من مجلسه أو صرخ فيه موبخاً: (ستفسد عليَّ رجالي أيها الوغد الجشع!)؛ بيد أنه لم يفعل لعلمه بضعف موقفه، وآثر أن يلجأ لمبدأه القديم (الفرار للأمام)؛ فتصنع الكياسة قائلاً: "أنا سأدفع أيها الفارس، وسأُعوضكم خيراً مما أُخذ منكم!". "كيف ستدفع لنا.. بعد أن وضع البغاة أيديهم على قرطبة؟؟!". "ما زالت الزاهرة في أيدي أصحابي، وكما تعلمون فإنها تحوي أموال الدولة.. وهي منيعة حصينة كما تعرفون، وسنصل إليها قبل أن يقدروا على جنودها". "تكتب لنا صُكُوك بذلك!". فصاح مستقبحاً إكثارهم عليه في الجدال: "ألا تأمني يا هذا؟!".

"هذا شرطنا.. وقد اتفقنا كلنا عليه!". "لكم ما تريدون!!" (هتف مذعناً لجشعهم.. محبطاً من تجرؤهم عليه).

-المشهد الثلاثون بعد المائة-

على منبر الجامع الأعظم.. في الجمعة الثانية له في الخلافة.. قام المهدي فخطب في الناس، وأسقط عنهم رسوماً وضرائباً كان قد فرضها شنجولُ عليهم، وأعلمهم أنه تم تدوين خمسين ألف رجل في ديوان عطائه.. كلهم سيقبضون العطاء.. لن يُحرم أحد، ثم ذكَّرهم بمساوئ شنجول ومثالب دولته، وأمرهم بلعنه. بعد نزوله من على المنبر قُرأ عليهم كتابٌ فيه لعن شنجول والنفير لقتاله. ثم أمر أن ينزل المتطوعون للقتال -من أهل الأقاليم والنواحي- بفحص السرادق[1]، وأمر أن يُضرب له هناك سرادق يتجمع حوله المتطوعون ممن يظهرون عدة الحرب. اجتمع برجال دولته بعد صلاة الجمعة؛ فبدأ كلامه بالثناء على صاحب شرطته (محمد بن المغيرة) لمجهوده الكبير في تسجيل ديوان العطاء في مدة قصيرة. فتحدث ابن المغيرة مظهراً التواضع

وقال: "ليس مجهودي وحدي يا أمير المؤمنين.. فإنَّ لي أعوان بذلوا من الجهد والعناء مثلما بذلتُ أخص منهم: أمية بن إسحاق". وأشار بيده إلى حمدون الذي كان حاضراً واستكمل: "وحمدون بن هشام اللذين تحملا عبء تزاحم الناس

[1].. الفحص هو: كل موضع يمكن السكن فيه سواء سهل أو جبل بشرط أن يزرع، وهو أحد التقسيمات الإدارية المعروفة في دولة الأندلس. أما فحص السرادق: فإنه يقع في شرق قرطبة على نهر الوادي.. وأرضه واسعة خصبة، به متنزهات معروفة عند أهل قرطبة، وسُميَّ بالسرادق لأن الخليفة الناصر كان يُقيم فيه سرادق قبل خروجه للغزو ليجمع فيه جيشه. وأراد المهدي أن يتشبه بجده الخليفة الناصر في ذلك.

وتكالبهم علينا؛ فإنه لم يبق أحد إلا أثبت نفسه حتى أغنياء التجار، بل.. الزهاد والعباد وأئمة المساجد، وأيضاً.. أهل البوادي والأطراف". ابتسم المهدي بانشراح صدر وقال بتفاؤل: "إنها بشارة خير!"، ثم التفت إلى الحاجب عبد الجبار وسأله: "ماذا عن مدينة الزاهرة يا حاجبنا الهمام؟". فأجابه متفاخراً: "غدتْ أطلال دارسة.. وخرائب موحشة، لم يذر النهَّابون فيها حجراً على حجر!"، فابتسم المهدي ارتياحاً، ثم ألحق بابتسامته نظرةً عميقة وصاح بصوت أجوف قائلاً: "أحرقها! أضرموا فيها النيران.. لا أريد لها أثر يُذكِّر الناس بدولة بني عامر الغابرة! حتى إذا جاء إلينا شنجول بجيشه كما نتوقع؛ فلا يجد حصناً يتحصن به!". ثم توجه بالسؤال إلى صاعد بن عبد الوهاب: "ما آخر أخبار شنجول وجيشه؟؟". "لا يزال قابعاً في قلعة رباح، ولا ندري ما عزم عليه!". "اجعل رجالك يتصلون بالجنود والعساكر.. ويعلمونهم أن أهل قرطبة كلهم معنا، وخوِّفهم على أهليهم وأموالهم التي هنا في قرطبة أن تمتد إليها أيدينا بالسوء لو ظلوا على موالاتهم لشنجول. وأيضاً.. حاولوا الاتصال بالقاضي ابن ذكوان ليعلم أن خلع المؤيد وبيعتنا تمتا وفقاً للشرع.. وأن شنجول لم يعد له من الأمر شيء". فهتف عبد الجبار بشيء من القلق: "يجب أن يَنْفضُّوا من حوله؛ فإنَّا لا طاقة لنا بهم!". "كيف وأعداد المتطوعين في جيشنا فاقت الخمسين ألف رجل؟!" (صاح محمد أخوه). "ومعنا رماة قنَّاصون بارعون.. أمثال

حمدون!" (هتف صاعد معجباً بحمدون متذكراً إنقاذه له). وكأن عبد الجبار كان ينتظر ذكر دور حمدون في القتال ليقدح في ولائه؛ فصاح بسخرية: "إنَّ حمدون يتورع عن القتال معنا.. كأننا نحن البغاة!!". فهتف صاعد: "بل لولا رميه السديد الذي أدخل الرعب في قلوب جنود الزاهرة؛ لما استسلموا!". "كان يتعمد عدم قتلهم لاعتقاده أنَّ قتلهم حرام؛ فهل هم المسلمون.. ونحن الكفار؟!". كان حمدون صامتاً إعراضاً منه عن مشاحنات لا خير ورائها، ولإحساسه بما يُكنَّه له عبد الجبار من حقد دفين لا يعرف سبباً له. لكنه رأى أنه مضطرٌ للدفاع عن نفسه وإسكات حاسده فهتف بهدوء وكياسة:

"أيها الحاجب عبد الجبار.. إنَّ جدكم الأمير عبد الرحمن الداخل –رحمه الله- حين انتصر على أعدائه أتباع الفهري[1] ثم أراد أعوانه مطاردتهم وقتلهم؛ منعهم وقال حكمته الخالدة: (لا تستأصلوا شأفة أعداءٍ ترجون صداقتهم، واستبقوهم لمن هم أشدُّ عداوة منهم)، فإني إذ عملتُ بنصيحته –رحمه الله-: حرصتُ على الإبقاء على حياة هؤلاء الأجناد؛ عسى أن نستعين بهم في قتال شنجول.. فليس معنا جنود على الحقيقة غيرهم". "أحسنتَ التدبير يا حمدون، وأمير المؤمنين يشهد له بأنه اندفع للقتال دونه مع الشرارة الأولى للثورة.. ولم يُقصِّر!" (صاح صاعد مدافعاً باستماتة عن موقف حمدون). بينما قال الخليفة المهدي بإقرار: "أجل.. أشهد له بالشجاعة والكفاءة.. والإخلاص". "لكنه قد خالف أمري غير مرة –عندما كنا في الزاهرة- وتحداني! وكان يمنع الناس عن غنائمها. وأخيراً استنكف أن يدوِّن اسمه في ديوان العطاء رغم أنه أحد القائمين عليه..." (قال عبد الجبار معدداً لآثام حمدون في حق الثورة)؛ بيد أنَّ الخليفة قاطعه صائحاً في حزم: "كفى يا عبد الجبار! فإنَّ حمدون عندنا غير متهم، وسابقته مشكورة، وذلته مغفورة".

-المشهد الحادي والثلاثون بعد المائة-

تحت منبر جامع قلعة رباح.. جثم شنجول هامداً وَلْهَان! من شدة وَلَهِه ادعى عليه حاسدوه أنه يَعْمَه في سكرته.. وما هو بسكران؛ إنما أذهلته الحيرة والجزع عمن حوله: فلقد مرت أيام ولم يرجع الفارس الذي أُرسل إلى طليطلة؛ فلا يدري.. هل احتجزه أميرها (واضح الصقلبي) عنده أم لم يرسله ابن يعلي أصلاً؟! لم يعد يثق في

[1].. يوسف الفهري والي الأندلس في ذلك الزمان. وحدث هذا في موقعة المصارة سنة ١٣٨هـ.

أحد ممن حوله، وما برحت الأفكار المشؤمة تخوّفه من تحزبهم ضده، وانقلابهم عليه.. حتى غدا يخشى غائلتهم على نفسه. فاتخذ قراره بأن يأخذ عليهم جميعاً البيعة، ويجعلهم يُقسمون له بالأيمان المغلظة أن ينصروه.. ولا يخذلوه؛ وها هو ذا يقعد تحت منبر الجامع يوم الجمعة لذلك (ولقد اختار ذاك المكان وهذا الزمان لقداستهما زيادة في توكيد الأيمان). شرع مناديه ينادي أسماء الأمراء والفرسان والرجال ليأتوا فيبايعونه فرادى، أول مَن نُودي عليه كان القائد ابن يعلي الزناتي؛ فقيل له: "أتحلف للحاجب المأمون أنك تنصره ولا تخذله؟". فأجاب مندهشاً: "نحن تحت بيعةٍ تقدمت له في أعناقنا؛ فما بال تكريرها؟! فإنْ كانت لا تنفعه إلا بتجديد أيمان أُخر؛ فليست بالأيمان الأُخر تنفعه إلا بتجديد مثلها.. وهذا ما لا نهاية له!!". لكن شنجول أبى إلا أن يحلفوا وأصر عليه. فحلفوا له.. وأكثرهم كارهون! ورغم ذلك.. لم يطمئن كثيراً لتلك البيعة الجديدة: (إنَّ الخائن لا عهد له؛ ولو أرادوا خيانته.. فلن يمنعهم حلفهم).. وهو يعلم ذلك. لذا فقد نصحه القومس أن يبادر هو بالقرار، ولا ينتظر الزناتي وقادة الجيش.. فإنَّ تلكؤهم يثير الريبة، ونصحه أن يكون قراره بالذهاب إلى طليطلة، والاجتهاد في الاتفاق مع واليها (واضح الصقلبي)؛ فتكون طليطلة حصناً حصيناً له ولمن معه. بيد أن تردده وخنوعه دفعاه للانفراد بالقائد ابن يعلي. لم يخفِ جزعه واضطرابه وهو يسأله: "هل عاد رسولك بخبر من طليطلة أيها القائد؟؟". "لم يعد! وأحسب أن واضح يحبسه عنده حتى يرى

كفة مَن الراجحة فيميل معها". "فماذا ترى؟؟". "لا أُخفيكَ سراً.. إن أمراء الجند يرغبون في سرعة العودة إلى قرطبة، والعساكر لهم تبع!". "هلا انتظرنا بعض الوقت.. عسى الرسول يعود من طليطلة بما يسر؟؟". "لا أظنهم يصبرون!". "إنيّ قد قلَّدتُك خطة الوزارة يا زناتي.. وهذا كتابي بذلك؛ فلا تتخلَ عني!" (همس بتوسل خانع وهو يُخرج قرطاساً كَتَبَ له فيه تقليده بالوزارة)، لكن.. ابن يعلي ظل ساكتاً لم يجبه، ولم يلتقط منه الكتاب الممدودة يده به؛ فتقهقر.. وحملق فيه بعينين زائغتين وهتف بارتباك مكبوت: "إنك ترى ما نحن فيه؛ فاصدُقْني عن نفسك وقومك.. فلا رأي لمكذوب!".

"نعم! إياك أن تغتر؛ والله لا يقاتل عنك أحدٌ من زناتة[1] والناس لهم تبع". "ما الدليل على ذلك؟؟!" (تساءل بشفاه مرتعشة وجزع متشنج عجز عن إخفائه). "تأمر بتقديم مطبخك إلى طريق طليطلة.. وتُظهر الرحيل إليها؛ فتعلم مَن يتبعك ومَن يتخلف عنك!". "صدقتَ!!" (همس بها ثقيلة على لسانه، وأشار إليه بالانصراف)، ثم انهدَّ على كرسيه ودفن رأسه بين كفيه.. وأخذته نوبة بكاء ونشيج؛ فقد كان جزعه لا حد له.. كما كان طموحه لا حد له! كالملهوف استدعى القومس ابن غومس يستغيث به، فقص عليه ما دار بينه وبين القائد الزناتي؛ فقال له القومس في أسى: "لقد صدقكَ الرجل. وسأصدقك أنا أيضاً: إني أرى أحوالك منتقِضة، وأمورك مُدْبرة، وجندك مخالفين لك! فاصدقني أنت وأخبرني عن هذا الرجل الثائر في قرطبة.. أأنت أشرف نسباً أم هو؟؟". "بل.. هو!". "والناس.. أميل إليك أم إليه؟؟". "ما أراهم إلا إليه أميل!". "هذا دليل قولي!". "فما الرأي عندك؟!". "الرأي عندي أن ترحل.. وأرحل معك بأصحابي الليلة، فإنْ شئتَ قصدنا واضح في طليطلة، وإنْ شئتَ تركتَه وتوجهتَ معي إلى بلدي فيمن معنا؛ فأظن أن يلحقك من يرجوك ومن لك عليه حق.. وتُريك الأمور وجوهها!". "إني أرجو إنْ رجعتُ إلى قرطبة أنْ تختلف الكلمة على الخليفة الجديد، وأنْ يكون لي من أهلها أنصار يميلون إلى سلطاني..

ويحبون ظهوري!". "خذ باليقين.. ودعك من الظن، فأمرك مختل، وجندك عليك.. لا لك". "لابد من الإشراف على قرطبة!" (همس بإحباط ويأس شديدين)، ونظر إليه

---

[1].. قبيلة زناتة.. هي قبيلة بربرية عظيمة كانت تعيش في بلاد المغرب وتعاون معهم أمويو الأندلس في حربهم ضد الفاطميين، ثم دخل كثير منهم الأندلس في عهد الخليفة الحكم المستنصر ثم في عهد الحاجب المنصور أبي عامر.. وأصبحوا من خيرة جنود وعساكر دولة الأندلس.

بعيون وَلْهَى تتوسل ألا يتخلى عنه، وألا يتركه وحده؛ فأجابه القومس مستسلماً لرغبته.. ولواجبات شرفه العسكري كفارس نبيل قائلاً: "أنا معك على كراهةٍ لرأيك، وعلم بخطئك.. فإنْ عشْتَ عشْتُ معك، وإنْ متَّ متُّ معك!".

-المشهد الثاني والثلاثون بعد المائة-

دلفت أم سعدون –يتبعها ابنها- إلى بيت أم هشام عائدة من السوق.. متضايقة متبرمة، طرحت عنها ملحفتها[1] ونقابها وهي تصيح بتأفف: "ما لهذه المدينة.. أصبحت قذرة وأهلها قذرين!". "ماذا بك أيتها الثرثارة؟! لماذا تسبينَّ المدينة وأهلها؟!" (سألتها أم هشام بتوبيخ مَرِحٍ). "تلال من القمامة والقاذورات تملأ الشوارع والحارات.. صرتِ تمشي يزاحمكِ الذبابُ في الطرقات، وتزكم أنفكِ الروائحُ النتنة الكريهة، ولا ترين إلا ما يؤذي عينك! هذه ليست قرطبة التي نعرفها!". "أين الكنَّافون والكنَّاسون؟!". فصاح سعدون: "منذ أيام لم يخرج لعمله كنَّافٌ ولا كنَّاس ولا حجام، ولا ذو مهنية ذُلِّيةٍ!". "لماذا؟؟!" (تساءلت أم هشام باندهاش واستهجان). "لقد اغتنوا.. بما نهبوه من كنوز الزاهرة؛ فاستغنوا عن العمل!!" (أجابها بتهكم). "لا حول ولا قوة إلا بالله، لقد أصاب البلد شرٌّ عظيم منذ تلك الأحداث". "والأسواق كذلك لم يفتح فيها من التجار والصناع إلا القليل!" (قالت أم سعدون). "أين ذهب هؤلاء أيضاً؟؟!". فصاح سعدون هازئاً: "لقد دوَّنوا أسماءهم في ديوان الخليفة؛

فعمَّهم العطاء.. فأغلقوا حوانيتهم!". بينما استطردتْ أمه معتذرة: "عفواً يا سيدتي! لم أستطع شراء كل ما ترغبين". "كيف تشتري.. والحال كما تصفان!! إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. كنتُ أود أن أزور الذلفاء ومعي هدايا تليق بها!".

---

[1].. الملحفة: من أزياء عامة نساء الأندلس، وهي عبارة عن: خمار كبير تحتجب به المرأة حين تخرج من منزلها، عرضها تقريباً ثلاثة أذرع.. وطولها ثمانية أو تسعة أذرع، تلف المرأة جسمها به فوق القميص.

"قدر الله وما شاء فعل.. خذي المتاح.. كما يقولون: خيرُ شيء من لا شيء[1]!". "صدقتِ! الأهم أن أزورها ولا أتأخر عليها". "متي ستزورينها؟؟". "بعد العصر إنَّ شاء الله؛ وسأصطحب معي سلوان".

في دارها القديمة الكائنة بجوف قرطبة.. استقبلت الذلفاءُ صديقتها القديمة وبرفقتها سلوان. باشتياق ومحبة.. تعانقتا عناقاً حاراً.. ذرفت منه العيون، ورقت له القلوب. أجلستهما في مجلس بسيط –ليس كمجلسها الذي كان- لكنه أنيق! تلفتتْ أم هشام حولها فرأتْ داراً متواضعة مثل دور أوساط الناس من أهل قرطبة.. وليس قصر المُلك الذي كان، وألفت السيدة أم المظفر تخدم نفسها بنفسها.. ليس معها خدم ولا عبيد، وأم ولد الملك المظفر تقدم لهما –بنفسها- واجب الضيافة؛ فأشفقتْ على صديقة عمرها.. ورقَّ لها قلبها لِمَا تراه من ذُل بعد العز الذي كان! تنحنحت.. وهتفت بنبرة معتذرة: "أُعذريني يا أم المظفر.. تأخرتُ عليك في الزيارة". "لم تتأخري أيتها العجوز الطيبة؛ بل أنتِ أول زائر لنا في هذا البيت!". "ربما يستحيون منك يا أم المظفر!!" (أجابتها بتبرير مرتبك). "ناديني: (ذلفاء).. كأيامنا الخوالي؛ فإني لم أعد السيدة أم المظفر التي كانت!". "أقول.. قد يكون هذا ما يمنع الناس عنكِ؛ يخجلون أن يروكِ دونما تحبين!". "لا تتكلفي يا فاطمة.. إنكِ لم تخجلي مثلهم.. لأنك تقصدين الذلفاء لشخصها؛ أما هم فكانوا يقصدون أم المظفر

ذات الجاه والسلطان، واليوم.. لا جاه ولا سلطان!!". "في طرف لساني كلمة؛ لكن أخشى أن ينزغ الشيطان بيننا.. فتحسبيني شامتة!". "لا تتحرجي.. فإني أعلم أنَّ مثلكِ لا تشمت". "لقد قلتُه آنفاً يا ذلفاء.. هل تذكرين؟؟ قلتُ لكِ: إنَّ الحقد والرغبة في الثأر والانتقام كالنار المستعرة؛ تحرق كل شيء حولها.. حتى من أوقـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــدها!".

---

[1].. مثل عامي أندلسي معناه: شيءٌ قليل خير من لا شيء. لكن جرى نطقه بصورة مقلوبة فاستظرفها الناس وصارت مثلاً.

"لا ترتاعي.. فإني لم أخسر –بعد ولدي المظفر- ما يُبكى عليه!". "هل خمدت نارك إذاً؟؟!". "بقي أن أرى الذل في عيني شنجول.. وأُلوث يدي بدمه القذر!". "هل أنتِ راضية عما حدث للزاهرة.. مدينة زوجكِ المنصور، وولدكِ المظفر؟؟!!". سكتت في أسى وحسرة؛ فاستطردتْ فاطمة: "تالله ما علمتُ مدينة في تاريخ الأندلس أعظم بركة في الجهاد منها، ولا أكثر جيوشاً وحاشية، ولا أبهج غرة، ولا أسعد مُلكاً.. وها هي ذي نار الحقد قد طالتها؛ فخلَّفتها قاعاً صفصفا!!". مكثت الذلفاء صامتة، ولم تُخفِ أساها وتألمها، ولم تكبح العبرات في عيونها أسفاً على المدينة العظيمة؛ بيد أنها استدركت وأجابت صديقتها بصوت أسيف: "لقد درست الزاهرة لأنها لم يعد لها منصور ولا مظفر. ورغم أسفي عليها؛ فإنني لستُ نادمة. ولقد علم المنصور بخرابها منذ زمن!!". "كيف يا أختاه؟؟!!" (تساءلت أم هشام باندهاش.. وسلوان بعيونٍ مرتقبة وآذان منصتة). "ذات ليلة.. استيقظ من منامه فزعاً؛ فسألتُه.. فقال: رأيتُ شيئاً عظيماً، رأيتُ كأن الله -سبحانه وتعالى- اطلع على قصر الزاهرة! ولم يهدأ حتى سأل ابن الهمداني المُعبر عن هذا الحلم؛ فتلا عليه قول الله تعالى في سورة الأعراف: {فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا}، ثم أخبره بخرابها. فكان المنصور كلما تذكر هذه الرؤيا ضاقت نفسه أياماً حتى لا يستطيع الطعام!".

فهتفتْ فاطمة بخشوع: "سبحان الله.. كل شيء هالك إلا وجهه!". حفَّهنَّ الصمتُ برهة تأثراً واعتباراً برؤية المنصور وتأويلها، ثم أرادتْ الذلفاء أن تُدير دفة الحديث نحو كلام أطيب؛ فالتفتت إلى سلوان وصاحت بابتسامة رائقة: "ما خطبكِ يا سلوان لا تتكلمين؟ حدثينا عما وصلتِ إليه في دراسة العلم مع هذه العجوز!". فهتفت فاطمة بإعجاب بيّن: "ما شاء الله.. إنها تتقدم بسرعة مبهرة". "بارك الله فيكِ يا بنية.. وزادكِ علماً.. ونفع بكِ!".

-المشهد الثالث والثلاثون بعد المائة-

عساكر الجيش ودوابه يهرعون إلى قرطبة كالفارين من وباء! تعدو بهم خيلُهم كأنما سنابكها تطأ قلب شنجول فتُمزق نياطه. وكلما اقترب الركب من قرطبة؛ زاد توجسه، وازداد وجله من تخليهم عنه.. وخوفه أن يتفرقوا من حوله. فما انفك يذكِّرهم بأيمانهم التي حلفوها تحت منبر رباح، وفي كل مرحلة من الطريق يراجعهم في أمر الخليفة المظلوم ووجوب نصرته، ويحدثهم فيقول ويكرر: "لقد تخليتُ عن ولاية العهد.. وما أنا للخليفة المظلوم إلا كالقائم دونه لنصرته ولاسترجاع حقه المسلوب!". وكلما فعل.. استخف به الفرسان والجنود أكثر وأكثر، وغدا أمامهم كالذي يخلع ثيابه؛ فتبدو لهم سوءاتُ جزعه وخنوعه. في إحدى مراحل الطريق جاءهم خبر لا شك فيه: (لقد نُهبت أموال الزاهرة.. وتهدمتْ صروحها!). نمى إليه الخبر؛ فسُقط في يده، ولم يقدر أن يخفي هلعه عمن حوله.. حتى بكاءه لم يخفيه! ثم.. استدرك أمره خشية أن ينفضوا من حوله؛ فقال لهم: "إنَّ لأبي الملك المنصور كنزاً عظيماً.. ومالاً دفيناً لا يعلم عنه أحدٌ غيري؛ فإذا بلغنا قرطبة.. وانتصرنا على عدونا فرقتُه بينكم ولا أُبالي!". فغدا عامة الجنود وصغار الفرسان يأتون إليه أفراداً طامعين يسألونه أن يكتب لهم صكوكاً بما يرغبون؛ فيكتب لهم مستسلماً خاضعاً..

فأكثروا عليه حتى نفدت الصُحُف بين يدي كُتاب العسكر؛ فنادى مناديه: "مَن أراد صكاً بخط المأمون.. فليُحضر الرَّق!". فجاء بعضهم بأُدُم الأنعام بدلاً من الصُّحُف؛ فكَتَب لهم فيها الصكوك. فكان يوماً فاحشاً فُضح فيه شنجول بين جنوده، وتندر الناس بحاله في ذلك اليوم.. حتى أنهم سموه: (يوم الرَّباحيَّة). في ذلك اليوم المشؤم.. خلا القائدُ ابن يعلي ببعض ثقاته من أمراء الجند ليتشاوروا في موقفهم من شنجول! فقال بعضهم: "قد علمتم بتظافر جميع أهل قرطبة مع الخليفة الجديد ونصرتهم له وبذلهم نفوسهم دونه رغم قلة درايتهم بالحرب والقتال.. فهل نقاتل أهل قرطبة وبين أيديهم أهلونا وأموالنا؟!". "إنَّ لشنجول بيعة في رقبتنا.. وقد حلفنا تحت منبر رباح أن ننصره ولا نخذله.. فهل نحنث في أيماننا؟!". "وهل لمثل هذا الفاسق علينا يمين؛ ألم تُشاهدوه تحت المنبر سكران؟!". "لقد سمعتُه بأُذني يقول لمؤذن الصلاة: (هلا قلتَ حيَّ على الكأس). تالله إنَّه لفاسق! أُقسم بطلاق نسائي ألا أُقاتل معه!" (صاح عُكاشة بن ناصر حانقاً)، ثم نظر الجميع إلى قائدهم ابن يعلي ينتظرون رأيه؛ فقال بتعقل وأناة: "هذا أمرٌ ينبغي أن يُسأل فيه أهلُ العلم قبل أن نعزم على رأي. ذروني أسأل القاضي أبا العباس بن ذكوان أولاً!".

لم يُضيع القائد الزناتي وقته.. بل سارع في أقرب فرصة وانفرد بالقاضي ليسأله رأيه في الموقف. فعرَّض له بالقول في البداية كمن يستفتيه فيمَن يدعو لقتال أهل قرطبة؛ فأجابه القاضي حاسماً: "إنَّ أهل قرطبة هم جماعة المسلمين، وإنَّ فيهم الصالحين ومَن لا ذنب له من الذَّراري والعيال، وإنَّ قتالهم لعظيم.. ومَن يدعو إليه فاسق!". "فما رأيكم يا سيادة القاضي ف..!" (أراد أن يسأل سؤال آخر)؛ فقاطعه القاضي بحزم: "ما عندكَ أنت في هذا الأمر العظيم الذي دهانا؟؟". "لستُ والله أُقاتل عنه أنا ولا أحد من زناتة البتة!". ثم رمقه بجدية وهتف متسائلاً في حزم: "لم أكتمك ما عندي.. وباح الخفاء؛ فأخبرني برأيك أيها القاضي!!". "هذا هو الرأي ولا رأي سواه!" (هتف القاضي متهلل الوجه).. وقد ارتاحت نفسه لما سمع.

-المشهد الرابع والثلاثون بعد المائة-

جيشُ شنجول يقترب، وأخباره تصل غامضة.. تثير الريبة والقلق! الجيشُ عائدٌ كله.. بقده وقديده، وجنوده جددوا بيعتهم لشنجول.. وأقسموا له -في قلعة رباح- أن ينصروه ولا يخذلوه، وغدا يكتب لهم صكوكاً بأموال ومناصب مغرية!

"ما بال رجالك يا صاعد؟! ألم نتفق أنْ يُخذِّلوهم عنا؟!": صاح الخليفة المهدي مستاءً وجِلاً من تلك الأخبار. فأجابه صاعد مُطَمْئناً ومؤكداً أن جواسيسه يبذلون قصارى الجهد، والمعلومات التي تواترت عنده تؤكد أن عامة الجند قد سئموا شنجول وضاقوا به؛ لكن.. المهم هو موقف أُمرائهم وقادتهم. صاح الخليفة بتوتر: "العساكر تابعون لأمرائهم، لابد من الاستعداد للمواجهة!!". كُلِف الحاجب عبد الجبار بالاستعداد للمواجهة؛ فاختار جيشه من الأعداد القليلة التي استسلمت وبايعت من فرسان الزاهرة.. ومعهم قائدهم ابن مسلمة، وأيضاً من الفتيان المحاربين من صقالبة قصر الخلافة يقودهم ابن ذُرَي.. ثم ألحق بهم الآلاف من المتطوعين الذين سُجلتْ أسماؤهم في الديوان.. وأمَّر عليهم رجالاً منهم؛ فتجد جيشاً من الصُناع والزُراع والسوقة.. يقودهم إما طبيب أو حائك أو جزار أو سراج، راحوا يتجمعون في فحص السرادق -استعداداً لقتال الجيش العائد- بقلوب واجفة وأنفاس مكتومة. أما الخليفة المهدي فقد احتفظ بخاصة رجاله –من أصحاب الجبل- ليكونوا حرسه الخاص، ووزع مهامهم عليهم: فصار طرسوس وفرتون هما الحارسان الشخصيان للخليفة، أما حُرَم القصر فقد أوْكلها على فاتن الصقلبي وحمدون.

اختلس حمدون بعض الساعات من تلك الليلة ليزور بيت جدته.. يطمئن عليها، ويُؤنس قلبه برؤية سلوان. الدار كدأبها.. وأهلها كعادتهم؛ لكن.. يُخيم عليهم هدوء يُنذر بالكآبة، أما سلوان.. فكان هدوؤها ثقيلاً كذاك الذي يفصل بين البرق والرعد.

يعلم أنه هو سبب تلك الكآبة وذاك الوجوم. بات يفكر ويتدبر الأمر: "لا يزال الخطر الذي منعني من زواجها حاضراً. طالما شنجول حر.. وجيشه يهدد قرطبة؛ فإنَّ الخطر على الثورة لا يزال قائماً! لن أتخلى عن الخليفة –الذي عاهدته على الموت- حتى أطمئن أن هذا الخطر زال". قراره يتأرجح بين عقلٍ يطلب التأجيل وقلبٍ يُطالب بالتعجيل، بعد حيرة وتردد لم يجد مفراً من أن يجنح للصبر والهروب.. إلى أن يفتح الله بينهم وبين شنجول، وحينها لن يمنعه عن الزواج بحبيبته مانعٌ!

لَمْلَم الليلُ عباءته؛ فانكشف الستر عن أحزان البيت! فرأى رياحين الدار وزهورها –مع انبلاج الصبح- ذابلة كأنها خاصمت النور والهواء آسفةً لحزن سلوان. مرت أمامه في هنة المجروح قلبها، والتقت عيونه بعيونها الصامتة؛ فتخاذلت رجلاه أن تحملاه إشفاقاً ولهفةً عليها؛ فما تمالك نفسه.. وصرخ قلبه: "لماذا أُعذب نفسي وأُعذبها؟!! هل خشيتُ أن يذبحها موتي بشفرته الحادة؛ فأردتُ أن أذبحها أنا بسكيني الثَلِم؟! أشفقتُ عليها أن تتعذب ذات يوم؛ فصرتُ أُعذبها كل يوم!! تباً لعقلي.. كيف يفكر؟!". لم يستسلم ذاك العقل الخاوي من العواطف: "أن تُضحي لأجلها.. فتكتم هواك في قلبك وتذرها تعيش حياتها السعيدة مع زوج حي؛ خيرٌ من أن تذرها أرملة حزينة على زوج لم تهنأ به!". "هل تظن أن منطقك هذا هو منطق المحب العاقل.. المُضحي لأجل حبيبه؟!! بئس المنطق!! هل تنبَّأتَ بما تُخفيه الأقدار لحبكما؟؟ هل تثق أنَّ الزوج الحي –كما تدعي- يبقى حيّاً.. ولا يموت؟! ثم لماذا تحجر على رأيها؟ أليس من حقها أن تختار كيف تحيا؟! فلتخبرها بحالك.. وتترك لها الاختيار، فتُخفف عنها وعنك هذه الآلام!". انتصر القلب المحب على العقل الأجوف؛ فانقلب إلى جدته تتلألأ في عينيه شمس اليوم الجديد بأمل جديد. رجاها أن يتحدث أمامها مع سلوان عسى أن يصحح خطأه ويجبر ما كسره. استبشرت الجدة خيراً فجمعته بها. تملَّكته الحيرة: كيف يبدأ كلامه معها، وماذا يقول، وكيف يعتذر! بعد تردد مكبوت هتف: "يعلم الله يا سلوان أن أسعد لحظة في حياتي.. هي

تلك التي أخبرتني فيها جدتي برغبتها في زواجنا؛ وذاك لأن رغبتها وافقة رغبتي ومُنى قلبي.. فإنني لم أحلم بزوجة غيركِ. لكني.. ساعتها كنتُ أعلم أنني مُقدمٌ على عمل هو أقرب للجنون.. قد أُقتل أو أُسجن بسببه.. ألا وهو الثورة واقتحام القصر كما علمتما، فما منعني عن إظهار فرحتي إلا إشفاقي عليكِ أن يُتعسكِ مصيري إذا فشلتُ! فآثرتُ أن أكتم حبي.. وأصبر حتى أعود سالماً فأسعد بخطبتكِ دون أن يؤنبني ضمير أو يؤرقني عهدٌ قطعتُه! أما الحين.. وبعد أن صارحتُكِ بحقيقة شعوري؛ فإني أرجو الله تعالى أن تقبلي الزواج مني!". سكتَ كأنما جفَّ نبع الكلمات في أعماقه، وأطرق منتظراً ردها.. فلم يجبه إلا الصمت! أدركت الجدة أنه يجب عليها التدخل لتجمع شتات المتحابين؛ فابتسمت بأمومة.. ثم هتفت بانشراح صدر: "لقد أوجعتَ قلبي بتسويفك يا ولدي، وعذَّبتَ نفسك وعذَّبتنا. لكن.. عزاؤنا أنَّ مقصدك كان التضحية لأجل حبيبتك! وأقول لك: أرفق بنفسك.. فإنَّ المرأة الأصيلة كالفرس الأصيلة تخوض مع الرجل ولا تخذله! وسلوان.. هي عين الخيل العراب!". "يعلم الله ما يُكنُّه قلبي لها يا جدتي. وأُشهدكِ أنيِّ أُعاهدها أمام الله أن أكون لها الزوج المحب الوفي الذي ترضاه!". "ما قولكِ يا بُنيتي فيما سمعتِ؟؟" (سألتها الجدة تُأمِّل موافقتها). صراع عاصف كان -وما زال- يحتدم في صدرها.. بين حبها وكبريائها، تحاول كبته بين ضلوعها.. وستره بهدوئها لكيلا يعلمه أحد. يتحدث حبها فيقول: (بلى! لقد ساءني تسويفه؛ لكن.. عفوتُ لَمَّا علمتُ سببه. ألا ترينَّ –كما أخبرتْ أم سعدون- أنَّ كل أمهات الربض يرغبنَّه زوجاً لبناتهنَّ بعد أن علمنَّ خبره ومنصبه الجديد؛ ورغم ذلك ها هو ذا يُفضِّلكِ عليهنَّ ويختاركِ زوجةً من دونهنَّ! ما عليكِ غير أن تهمسي: "وافقتُ!"؛ فيجمع الله بينكما كزوجين سعيدين، وتهنئي بالحياة معه ومع جدته التي أحببتها كأمكِ). أما كبرياؤها فيصرخ فيرجَّها صدى صراخه رجَّا: (إنما كان تسويفه ثم تلكؤه أياماً.. لعِلمه بأنكِ لا ملجأ لكِ غيره، ولا ملاذ لكِ سوى جدته. يعرف أنكِ فتاة وحيدة بائسة.. لا أهل لكِ ولا سند! ربما رغب في زواجكِ

شفقة منه على حالكِ؛ وبعد أن تمر السنين على هذا الزواج -وبعد نجاحه وترقيه كرجل مقرب من الخليفة - يزهد فيكِ، ويرى أنه يستحق زوجة أعز منكِ!) (ليس بالحب وحده تحيا المرأة مع زوجها. يجب أن يعرف أنني كفء له.. أنَّ لي أهلاً أكارم! لا أريد أن أكون زوجة هضيمة الجناح.. يُحسن إليها زوجها شفقة عليها!). تطلعت إلى عيونهما المتربصة بها.. ورنتْ بامتنان إلى الجدة الحنون، ثم.. بحكمة وثبات امرأة في ضِعْف عمرها هتفت بلا خجل قائلة: "أقبلُ إنْ شاء الله!". تهللتْ الوجوه، وكاد حمدون يقفز فرحاً، وهمَّت الجدة أن تحتويها في أحضانها.. لكنها استدركت قائلة: "لكن.. لي شرط ينبغي أن أستوفيه!". قبضتْ الجدة يديها متوجسة بينما صاح حمدون بلا تردد: "شرطكِ مجاب بعون الله!". وهتفتْ الجدة بترقب: "ما هو شرطك يا سلوان؟؟". بهدوء قالت وعيناها ترمقان حمدون: "أشترط موافقة عمي ووليَّ: القاضي أبي الوليد بن عباد!!".

-المشهد الخامس والثلاثون بعد المائة-

عجباً لشتاءِ هذا العام.. إنه شتاءٌ قاس غليظ القلب! باغت قرطبة.. فافترس خريفها وحلَّ مكانه، ثم خرج فيه جيشها –على غير عادته- ليؤدب عدوها؛ فما أدبه ولا قاتله! إنما عاد أدراجه.. ليقاتل أهلها!! وها هو ذا يُخيّم ليلتقط أنفاسه اللاهثة في منزلة هانئ (المرحلة قبل الأخيرة له في الطريق إلى قرطبة). في تلك الليلة الظلماء (الثلاثاء الموافق نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٣٩٩هـ) التي رحل القمر عن سمائها كأنه مهاجر بلا عودة.. قبع شنجول منكمشاً على نفسه يُخفي تحت ثيابه الثمينة فؤادَه المرتجفَ وفرائصَه المرتعدةَ. أمسى بينه وبين قرطبة أقل من يومين؛ ماذا سيفعل؟ كيف سيدخلها؟ هل سيصمد هذا الجيش معه؟ هل صدَّقوا كذبة الكنز المدفون؟ هل سيُقاتلون أهل قرطبة؟! إذا انتصروا.. فسيُطالبونه بالوفاء بالصكوك! كيف سيعطيهم؟؟ إنَّ المصائب تدكُّ رأسه كصخور يحطُّها السيل من

قمة جبل. الحيرة قاتلة والمرارة خانقة.. ملَّت نفسه مجالسة الندماء، وعزفت عن الجواري والراقصات؛ فأوصد خباءه على نفسه وقعد يتجرع كأسه.. لعله ينسى همومه. في الصباح أيقظه ابن الرسان على مصيبة جديدة: الجنود البربر وأمراؤهم تسللوا لواذاً من المعسكر مخلِّفين عتاد الحرب ومعداتها.. متخففين من أثقالهم. رحلوا ولسان حال الباقين يقول: "من أراد النجاة فليصنع مثلهم!". انفرط عقد الجيش.. بل لم يبقَ ثمة جيش يحارب؛ إنما الباقون –بعد البربر المتسللين- هم بعض الأندلسيين.. وحرسه الخاص والخدم.. وابن غومس في نفر يسير من فرسان النصارى. وكل هؤلاء لا يمثلون إلا جزء ضئيل من الجيش مقارنةً بالبربر الذين كانوا عماده! عصفتْ ريح قرطبة بكل شيء، وتبدلت الأحلام الهانئة كوابيس مفزعة! "ضاع حلم الخلافة.. وضاعت معه الحجابة، تهدمت الزاهرة.. وذهبت أموالها وكنوزها، ضاع حلم المجد العظيم.. وغدوتُ طريد قرطبة بعد أن كنتُ ملكها! كيف النجاة؟؟ هل يُنجيني بكائي؟؟ لن يرقُّوا له.. ولن يُشفقوا عليَّ! هل أستمر إلى النهاية.. إلى الموت دفاعاً عن المُلك؟؟ هل ستصمد الشرذمة الباقية معي؟! هل سيبقى ابن غومس إلى جانبي كما وعد؟!": حدَّثته نفسه في يأس وجزع. بصوت تخنقه الحشرجة نادى ابنَ الرسان: "استدعِ لي القومس بسرعة!". لم يُجبه حاجبه؛ إنما دخل عليه القاضي ابن ذكوان.. قائلاً: "لقد رحل البربر في الليل، ولا أرى إلا أنهم سيُبايعون المهدي بالخلافة ثم يعودون للفتكِ بك، ولولا سابقة فضلٍ لأبيكَ عليَّ لرحلتُ عنك مثلهم دون وداع!". مكث مطرقاً صامتاً في خزي، ولم يجبه؛ فاستأنف القاضي: "إني عائدٌ الآن إلى قرطبة.. وسيرجع معي أندلسيو الجيش؛ فاحزم أمرك قبل فوات الأوان!". "بماذا تنصحني يا سيادة القاضي؟؟" (تساءل بانكسارٍ ويأس). "تُب إلى الله يا ولدي؛ فإنك أخطأتَ.. ولم تُحسن العمل فيما استرعاك الله!". "هلا تأذن لي برجاء أخير منك يا سيادة القاضي؟؟ أستحلفكَ بالله.. وبالمودة التي كانت بينك وبين أبي!".

"لأجل مودة أبيك رحمه الله!". "اشفع لي عند هذا الخليفة الجديد.. وخذ لي منه أماناً!".

غادر القاضي ابن ذكوان المخيم ومعه من تبقي من العساكر، ولم يبقَ مع شنجول إلا نفر يسير من حرسه وخدمه وابن الرسان والجواري، والقومس ابن غومس في زهاء خمسين فارس. دخل عليه القومس فوجده جاثماً على الأرض في كآبة.. لا يحرك ساكناً كجسدٍ ميتٍ لا حياة فيه. فصاح: "أيها الملك.. أظن أن البربر رحلوا عنا ليُبايعوا ذاك الخليفة الجديد، وأحسبه سيردهم إليكَ ليسوقوكَ إليه أسيرا؛ فهلم بنا نهرب من هنا في الليل قبل أن يداهمونا!". "ظننتُك سترحل عني مثلهم!!" (هتف بصوت ضعيف كأنه في غيابةِ جب). "لقد وعدتُك ألا أتركك!". "هم أيضاً حلفوا لي ألا يخذلوني؟!" (هتف بمرارة وندم). "ليس هناك وقت للبكاء ولا للندم، ارجع بنا من هنا قبل أن يدهمنا ما يمنعنا؛ ثم يلحق بنا أصحابنا!". "قد أرسلتُ القاضي يأخذ لي أماناً من الخليفة الجديد!". "لا أحسبه إلا خاذلك هو أيضاً" (صاح القومس بتوتر مستهجناً تواكله وخنوعه). تنامي إلى سمعهما بكاء الجواري وولولتهنَّ؛ فصاح القومس بحمية: "ألا تسمع؟! ما ذنب هؤلاء النسوة يمكثنَّ في العراء ينتظرنَّ الموت؟؟ هلم بنا من هنا!". بعد صمت حائر أجابه ببعض التعقل: "فلنرحل إذاً إلى أرملاط ليمكثنَّ في قصرها".

-المشهد السادس والثلاثون بعد المائة-

استيقظ أهلُ قرطبة فوجدوا أكثر جيش شنجول –ولا سيما البربر منهم- قد عادوا إلى بيوتهم مستسلمين، وقد خلَّفوا وراءهم –في منزلة هانئ- عتادهم وأثقالهم.. وشنجولَ ينعى نفسه! ثم تبعهم القاضي ابن ذكوان بمن تبقي من العساكر. أراد العائدون المسالمون أن يلتقوا بالخليفة المهدي ليُهنئوه ويُبايعوه؛ فتشاغل عنهم وأرجأ لقاءهم، ثم أمر أن يُنادَى فيهم: "مَن أراد السلامة لنفسه وأهله فليلزم بيته

حتى نفرغ مِن شنجول ومَن معه". ثم أمر حاجبه عبد الجبار أن يتحسس أخبار شنجول، وأن يأتيه به ذليلاً مهان. على الفور جمع الحاجب فرسانه ليقودهم بنفسه في مطاردة شنجول، واستدعى بعض العائدين من جيشه ليستجوبهم ويعرف منهم الوجهة التي ينوي اللجوء إليها. وفي الحال أرسل طليعة من أفضل فرسانه وأمدَّهم بأمهر مقتفي الأثر.. وأمَّر عليهم ابن ذُرَي ليتتبعوا آثاره.

وصل شنجولُ قصرَه بمنية أرملاط.. بعد أن سَرَى ركبُه بليلةٍ ليلاء يجثم على صدرها الرعبُ والفزع. يتلفتون حولهم-بين الفينة والفينة- في توجس. وبين الحين والحين يحاول فرسان القومس محو الآثار لتضليل مقتفي الأثر. وقف على باب القصر يراقب جواريه وهنَّ يدخلنَّ محزونات طريدات.. بلا حماية ولا حراسة. انصدع صدره -وهو يودعهنَّ- حزناً على نعيمٍ ولى في عشية وضحاها. جاءه القومس يستحثه للرحيل. لا يعرف وجهته.. فقد أسلم نفسه للقومس يرحل به أنى يشاء. وصل إلى دير أرملاط، تلفَّت حوله؛ فلم يجد إلا القومس وفرسانه. لقد تخلى عنه كل أنصاره.. حتى خدمه هربوا منه، حتى ابن الرسان تخلَّف عنه في قصر أرملاط مع الجواري. حزنه وجزعه على نفسه أنسياه أنَّ في ذات هذا المكان منذ شهور قليلة فاضتْ روح أخيه عبد الملك المظفر إلى بارئها بكيدٍ منه هو طمعاً وجشعا! نظر وراءه فرأى ميراث أبيه المنصور قد ضاع، ونظر أمامه.. فلم يجد غير الحَتْف المبين. ولج إلى الدير بقلبٍ يخفق كخفقان الطير المذبوح. استأذن القومسُ راهبَ الدير أن يبيتوا بقية ليلتهم عنده؛ تردد الراهبُ خوفاً من أهل قرطبة؛ فوعده القومس بأن يرحلوا عنه مع طباشير الصباح قبل أن يفطن إليهم أحد. شنجول لم يذق نوماً ولا طعاماً منذ يومين، ولم يُبلل جوفه غير جرعاتٍ خفيفة من الخمر؛ فبدا لمن ينظر إليه كأنه جثة مقبور عاد تواً للحياة.. ولمَّا ينفض عن نفسه تراب قبره. أقسم عليه القومسُ أنْ يأكل ليتقوَى.. فطريق الهروب طويل عسير، وسيطاردهم فيه مَن لا يرحمهم. أذعن له.. فقُدِّم إليه الطعام! لم يكن في الدير طعام ملوك.. إنما طعام

رهبان زهدوا الحياة ولذاتها؛ فلم يجدوا ما يليق بالملك الطريد غير خُبزة جافة ودجاجة مشوية. نهش نهشة ضعيفة.. ثم أسلم جفونه لنومٍ كأنه الموت.

في السَّحَر.. استيقظ أهل الدير مفزعين على أنوار مشاعل قد أحاطت بهم. إنه ابن ذُرَي وفرسانه.. قد علموا بمكان شنجول. أحاطوا بالمكان بينما يُنادي هو رهبانَ الدير: "أخرجوا لنا شنجول والذين معه.. وليس لنا عليكم سبيل!". سُقط في أيديهم.. ولم يشأ القومسُ النبيل أن يُعرِّض رهبانَ الدير للخطر بسببه؛ فأمر فرسانه أن يضعوا السلاح ويستسلموا! جردوهم من سلاحهم، ونزعوا عنهم دروعهم.

في حجرة صغيرة حقيرة أعلى الدير.. أفاق شنجول على ضجيجهم، جاهد أن يتماسك لكيلا يفقد كبرياءه كملك مهزوم؛ لكن جزعه كان أشد من تماسكه! ارتدى حُلته الفاخرة.. ولبس قلنسوته الثمينة، وتمنطق بحزام سيفه المرصع، أما سكينه الدقيق الحاد.. فأخفاه في خُفِّه؛ وبينما يُخفيه.. تذكر كيف قَتَلَ به ذاك الرجل الذي سمم له أخاه، وتذكر كيف كان يلوِّح به في وجوه عماله وخدَّامه! "هذا السكين الحاد المرعب كان أداتي إلى العظمة والمجد! والحين أُخفيه كأني سارقه، أضعه تحت قدمي.. حقيراً مستحقراً": (حدَّثته نفسُه بإحباط ومرارة). خرج إليهم.. فشاهد القومس وفرسانه راكعين مستسلمين بين يدي ابن ذُرَي؛ فانتفض قلبه وارتعدت فرائصه. هرعوا إليه.. أمسكوا به وساقوه إلى قائدهم. طرف القائدُ بعينه إلى رجاله فجردوه من سيفه ودرعه، ثم أوقفوه بين يديه ذليلاً. التفتَ ابن ذُرَي إلى القومس وفرسانه فوبخهم على نصرتهم لشخص شنجول في حين أنهم حلفاء لخليفة الأندلس.. لا لشنجول! ثم صاح بصرامة: "عفا الله عما سلف! هاكم خيولكم فسارعوا بالرحيل عن ديارنا؛ لكن مَن أُمسك به منكم –بعدها- في أرض الأندلس قتلناه.. ولا نبالي!". قاموا جميعاً مذعنين لأمره تتضرع قلوبهم شكراً للرب أنْ كتب لهم النجاة من ميتة في صراع لا درهم لهم فيه ولا متاع. انتظروا أن يتقدم

القومس أولاً تأدباً معه؛ غير أنه لم يتقدم.. إنما أومأ إليهم أن يُسرعوا ناجين بأنفسهم. رطنوا معه بلغتهم الإفرنجية وعزموا ألا يعودوا إلى بلادهم إلا وهو معهم، فأجابهم أنه لن يخلف وعده لشنجول وسيمكث معه حتى النهاية.. أما هم فليس لهم ذنب ليُقتلوا معه، وأخبرهم أنه يُحلُّهم من أي حق له عليهم، حاولوا أن يُثنوه عن عزمه؛ لكنه أصر على موقفه، وأمرهم بالرحيل.. فخضعوا لرغبته.

لحظات يائسة مرت على شنجول وهو يراقب خيول فرسان القومس تعدو بهم فراراً من مصيره المجهول. بغياب الخيول وفرسانها خلف ضباب الصباح الكثيف.. مات الأمل في النجاة؛ نظر إلى القومس فألفاه صامتاً ساكناً يتشبث بكبريائه المحتضر، التفت إلى ابن ذُرَي ورجاله؛ فوجد عيوناً تتربص به كعيون ضباعٍ جشعة تحوم حول فريسة جريحة؛ ارتجف جسده كالمحموم.. وصرخ بصوت خائر وشفاه مرتعشة: "ما لكم عليَّ من سبيل.. أنا في طاعة خليفتكم!". اقترب منه ابن ذُرَي.. وجعل يحدِّق فيه بعينين تتأججان مقتاً وحقدا؛ فتذكر تلك الليلة التي أهانه فيها بمزاحه الخليع. أطرق في الأرض خانعاً، ثم أجهش بالبكاء في خزي. امتطى ابن ذُرَي صهوة جواده وأشار إلى رجاله فحملوهما على غير دابتيهما.. وكانت دابة شنجول بغلة واهنة ذليلة كراكبها.

فَصَلَ الركبُ بأسيريه عن الدير، واحتجبت عنهما الشمس خلف الضباب الذي لم ينقشع. بعد ساعة من السير المتواصل أمر القائد رجاله بالنزول، وهتف قائلاً: "سنمكث هنا في انتظار الحاجب!". أخبروه أن الحاجب قادم من قصر أرملاط بعد أن أسر نساءه وجواريه، فمرَّ الوقتُ على شنجول عصيباً مرعباً.. وهو لا يدري مَن الحاجب المنتظر؟! وما الذي سيفعله به؟! قبيل العصر.. وبينما رجال ابن ذُرَي يجلسون في استرخاء.. يختلسون النظر بين الفينة والفينة إلى شنجول بشماتةٍ وتشفٍ؛ إذ أقبل عليهم الحاجب عبد الجبار يشق ستائر الضباب مختالاً على جواده. قام إليه ابن ذُرَي ورجاله في إجلال، وهمس أحدهم في أُذن شنجول: "ها هو

ذا الحاجب جاء يحكم في أمرك!!". جرُّوه بغلظة وهم يسوقه إلى الحاجب الذي ما زال راكباً، أومأ برأسه لهم في صرامة فنزعوا عنه قلنسوته ودفعوه ليركع أمامه ويُقبِّل الأرضَ بين يديه.. فقبَّلها مراراً في خنوع، ثم صاحوا فيه: "قَبِّل حافر دابة سمو الحاجب!".. فقبَلها، قَبِّل رجله.. فقبَلها، قَبِّل يده.. فقبَلها!! كان يفعل ما يأمروه به خانعاً خاضعاً في ذلة؛ بينما القومس ساكنٌ ساكتٌ لم يُظهر جزعاً ولا خوفاً.

نظر الحاجب إلى شنجول بازدراء وصاح فيه مستهزأً: "أنت من أراد انتزاع الخلافة من بني مروان؟! انظر كيف صار حالكَ أيها التعس!!"، ثم التفت لابن ذُرَي وصاح: "يريد أميرُ المؤمنين أن يدخل هذا الكلب قرطبة ذليلاً مهاناً.. فشدُّوا وثاقه وكتفوه!". صرخ في فزع: "ليس لكم عليَّ سبيل؛ أنا في أمان خليفتكم!"؛ فضحكوا متهكمين عليه ثم كتَّفوه كعبدٍ يُساق إلى سوق النخاسة. شتان بين يوم خروجه من قرطبة.. ثم عودته إليها الآن: حين خرج قبل أسابيع قليلة كان ملكاً عظيماً يقود أقوى جيوش الأرض.. ويودِّعه أهل أجمل مدينة على الأرض مُؤمِّلين عودته –كعادة أسلافه- مكللاً بالنصر والغنائم. لكنه.. يرجع إليها الآن حقيراً ذليلاً مكبلاً بالأغلال بعد أن انفض جمعه وزال عنه جاهه وملكه! "يا لغدر الأيام! لم أنعم بمُلكي، ولم أحفظ مُلك أبي!!". تذكر أباه وهيئته حينما كان يراه –وهو طفل صغير- عائداً من الغزو منتصراً ظافراً.. تستقبله قرطبة بالأفراح والأهازيج والاحتفالات، تذكر عظمة أبيه وأُبهة مُلكه، تذكر حين سأله –وهو غلام صغير-: "كيف يكون الرجل ملكاً عظيماً يا أبتِ؟؟"، فأجابه أبوه بقوة وأنفة: "لا تكن جباناً؛ تكن ملكاً عظيماً! كن فارساً شجاعاً؛ يطلبكَ المُلك قبل أن تطلبه! لا نامت أعين الجبناء يا ولدي!"، ثم أنشده أبيات لعنترة العبسي –لم يتفكر فيها يوماً ولا حتى تذكرها- الحين يجول بعضها بخاطره:

لا تسقني ماء الحياة بذلة　　　بل فاسقني بالعز كأس الحنظلِ

ماء الحياة بذلة كجهنم وجهنم بالعـــــز أطيب منزلِ

اجتهد أن يتذكر جميع الأبيات التي انشدها له أبوه ساعتها؛ غير أنه لم يستطع أن يتذكر غير هذين البيتين، ثم أخذ يردد –في خاطره- بمرارة: "ماء الحياة بذلة كجهنم، وجهنم بالعز أطيب منزل!".

كان الحاجب يسير بالركب وقت الأصِيل في تيه وخيلاء؛ ها هي ذي الخلافة ومُلكها قد خلصت لهم، وها هو ذا شنجول بن أبي عامر بين أيديهم ذليلاً مهاناً، آن الآن لطائر الثأر المحلق أن يهبط بسلام. مع غروب الشمس استأذنه رجاله أن يهبطوا ذاك الوادي على شاطئ النُهير ترويحاً وقضاءً للحاجة؛ فأذن لهم. أوثقوا شنجول في جذع شجرة، وعلى مسافة منه أوثقوا القومس في شجرة أخرى، ناداهم شنجول: "أيها الناس أطلقوا يدَيَّ؛ أسترح ساعة!"؛ فأذن ابن ذُرَي في فك وثاقه. بينما يفكُّه أحد حراسه؛ فإذا به يستل من خُفِّه سكينه الحاد يُريد قتل نفسه به.. لكن الحارس انتبه فأمسك يده ولفَّها لفاً شديداً.. فسقط منها السكين. هرع إليهما ابن ذُرَي وانحنى فالتقط السكينَ ولوَّح به في وجهه.. وصاح موبخاً: "ماذا أردتَ أن تصنع بهذا؟!"، فأجابه الحارس: "أراد قتل نفسه يا سيدي!". حدَّق فيه بسخط، وصاح مستنكراً: "هل تريد أن تموت منتحراً؟! ألا تخشى الله؟! ألا تخاف عذاب جهنم؟!". فصرخ بتشنج: "جهنمُ بالعز أطيب منزل!!". " أي عز في الانتحار يا أحمق؛ بل هو خزي الدنيا والآخرة، تالله إني لأربأ بالمنصور أبي عامر أن يموت ولده منتحراً!!". "اقتلني إذاً يا ابن ذُرَي.. لا أريد أن أدخل قرطبة مهاناً ذليلاً بعد أن كنتُ ملكها! ضيعتُ مُلك أبي في حياتي؛ فذرني أُكفر عن خطيئتي بموتي! استحلفكَ بالله.. أسألكَ بمعروف المنصور –إنْ كنتَ تحفظ له فضلاً- أن تقتلني، ولا تدع ابنه يدخل قرطبة ذليلاً.. فيشمت به الشامتون!! إنني ميتٌ في النهاية.. لكنهم يريدون إذلالي وإهانتي تشفياً فيَّ وفي المنصور؛ فلا تدع اللئام يرقصون على شرفه.. وجثتي، أستحلفكَ بالله.. اقتلني!!".

كان ابن ذُرَي ينصتُ إليه صامتاً جامد الملامح والقسمات، يرمق بطرف عينه شفق الشمس المستتر خلف الغيوم. لكن صراخ شنجول وتوسلاته كانت تهزه هزاً: "إنْ كان لابد من موته؛ فليمت ميتة كريمة تليق بكرامة أبيه الملك المنصور! كيف أسمح بإذلال ابن المنصور.. حتى ولو كان شنجول؟!!". انتفض ونزع سيفه الحاد من غمده بصرامة، وبسرعة مريحة.. ذبحه. ارتعش الجسد الطريد رعشة الموت، وسرعان ما فارقته روحه.. مثلما فارقه أنصاره! أسرع جنود الحاجب يلتفون حول الجثة، وراح أحدهم يتأكد من موتها. التفتوا إليه متسائلين: "لماذا قتلتَه أيها القائد؟؟"، لم يجب.. ولم يطرف له جفن؛ إنما ظل صامتاً شارداً يتأمل الجثة التي تنشخب دماً. هرعوا إلى الحاجب الذي كان يجلس منفرداً في استرخاء على مسافة منهم؛ فقام منتصباً من المفاجأة.. ثم سرعان ما سكَّن نفسه، تطلع ببصره إلى السماء.. ثم إلى الأفق من حوله؛ فألفى الظلام يُطبق من كل ناحية! فهتف بلامبالاة: "آتوني برأسه.. أذهب بها إلى الخليفة مبشراً، ثم الحقوا بي ومعكم الجسد!"، ولى الفارس وجهه منصرفاً؛ فناداه: "اقتلوا القومس أيضاً!".

-المشهد السابع والثلاثون بعد المائة-

في المساء أقبل الحاجب عبد الجبار يحمل رأس شنجول بين يديه؛ دخل إلى قصر قرطبة حيث يجلس الخليفة المهدي.. فبشَّره بالخبر. امتعض الخليفة وعبس وجهه حين سمع الخبر، ثم صاح حانقاً: "كيف يموت قبل أن أُعذبه بيدي؟! كيف يموت

قبل أن يرى بعينه عيون قرطبة وهي تشاهده ذليلاً مهاناً بين يدي؟!". أراد الحاجب أن يُخفف عنه فقال مواسياً: "معنا الرأس.. نسمِّرها على باب السدة ليكون عبرة للناس أجمعين!". "لا يكفي! أريد رأسه.. وجسده! شُقوا بطنه وانزعوا ما فيه واحشوه عقاقير تحفظه، ثم ركِّبوا الرأس على الجسد.. واكسوه، ثم اصلبوه على الباب.. ليشاهده الناس!".

-المشهد الثامن والثلاثون بعد المائة.. والأخير-

في ضحى اليوم التالي (السبت الموافق ٤ رجب سنة ٣٩٩هـ، ويوافق ٤ مارس سنة ١٠٠٩م): جُمع الناس أمام باب السُّدة ليُشاهدوا نفس الخشبة الطويلة التي أُعدت ذات يوم ليُصلب عليها فتى ممرور لأنه سب شنجول.

وقفت الجموع الغفيرة تنظر إلى ذات الخشبة وقد ثُبتت عليها جثة شنجول، ووقف أسفل منها رجل بدين متوسط القامة أشمط الشعر في ثياب رثة ممزقة.. يُضرب بالسياط؛ لم يتعرف عليه أحدٌ سوى من كان منهم مع ذاك الجيش فرآه واقفاً أمام خباء شنجول يصيح كالديك: "المأمون أمير المؤمنين يأمركم.. وينهاكم!". إنه ابن الرسان وقف ذليلاً يصرخ –مرغماً-:

– هذا شنجول المأبون لعنه الله.. ولعنةُ الله عليَّ!!

وسط المتفرجين المتزاحمين وقف الفتى الممرور (سعدون) يهمس في أُذن أمه ويقول:

– ألم أقل لكِ يا أمي: إنَّ المصلوب غيري؟!!

****

******
***
*

و.. للقصـة بقـيـة!!

في زمن الفتنة.. ليس ثمة ظالمٌ أو مظلوم؛ بل الكل ظالم.. والكل مظلوم!

مات شنجول ظالماً ومظلوماً.. وحسابه على ربه! لكن.. للقصة بقية:

- هل استطاع الخليفة المهدي استعادة مجد آبائه؟
- ما هو مصير الخليفة المخلوع المؤيد هشام؟؟
- هل عادت قرطبة لجمالها وبهائها السابق؟
- هل تزوج حمدون من سلوان؟
- هل عادت سلوان لأهل أبيها بإشبيلية.. وهل اعترفوا بها؟
- هل استكملت دروس العلم مع جدة حمدون؟

كل هذه الأسئلة نتعرف على إجاباتها في الرواية التالية –إن شاء الله- من:

"على ضفاف نهر قرطبة"

مــراجع الروايــة

المراجع التالية هي المراجع التي اعتمدتُ عليها في صياغة الأحداث التاريخية للرواية:

١- كتاب البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب (لابن عذاري).

٢- كتاب دولة الإسلام في الأندلس (للدكتور: محمد عبد الله عنان).

٣- كتاب نهاية الإرب في فنون الأدب (لشهاب الدين النويري).

٤- كتاب قصة العرب في أسبانيا (لستانلي لين بول: ترجمة علي الجارم).

٥- كتاب المجتمع الأندلسي في العصر الأموي (للدكتور: حسين دويدار).

٦- كتاب قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (للدكتور: السيد عبد العزيز سالم).

٧- كتاب قرطبة الإسلامية في القرن الخامس الهجري (للدكتور: محمد عبد الوهاب خلاف).